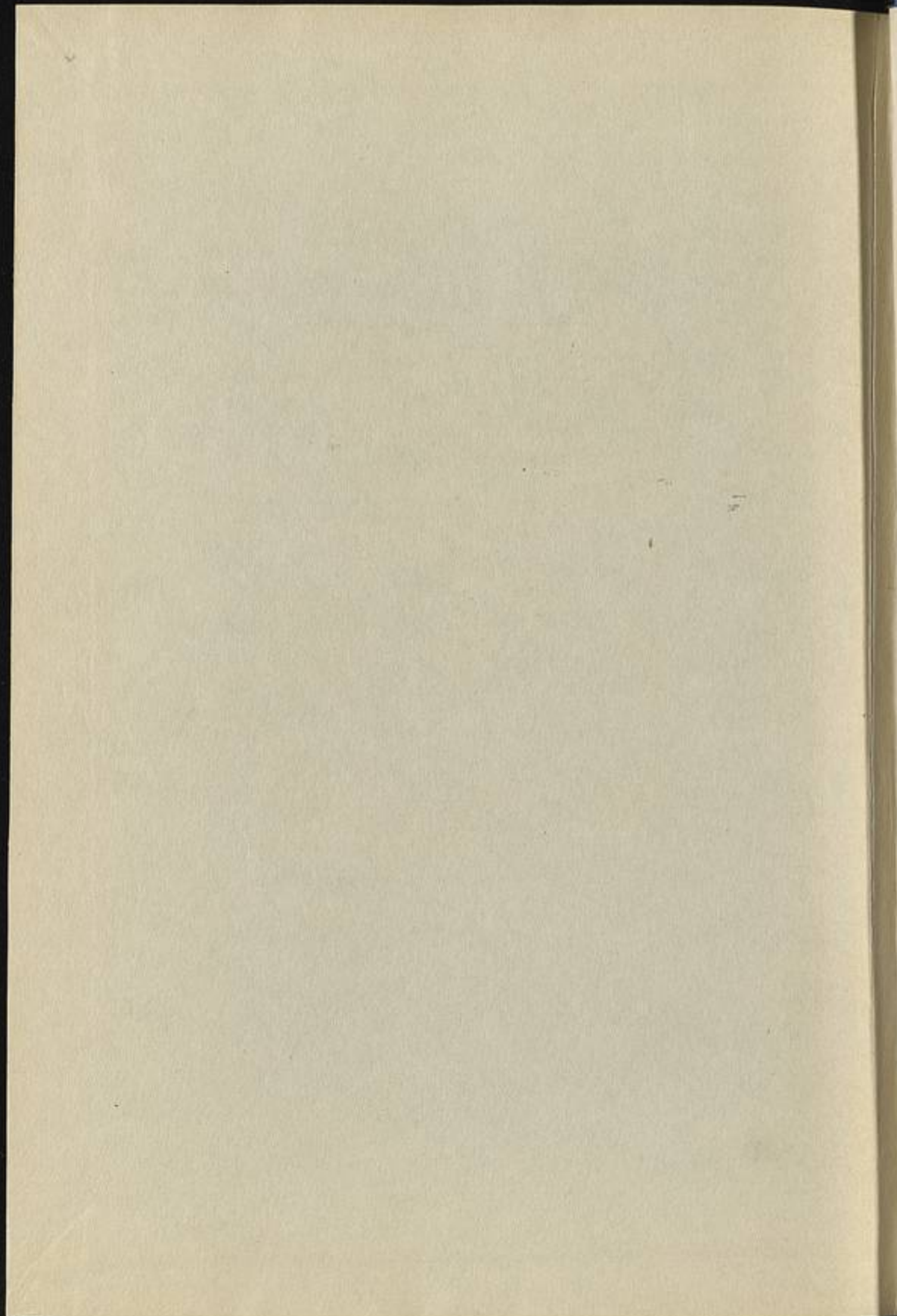
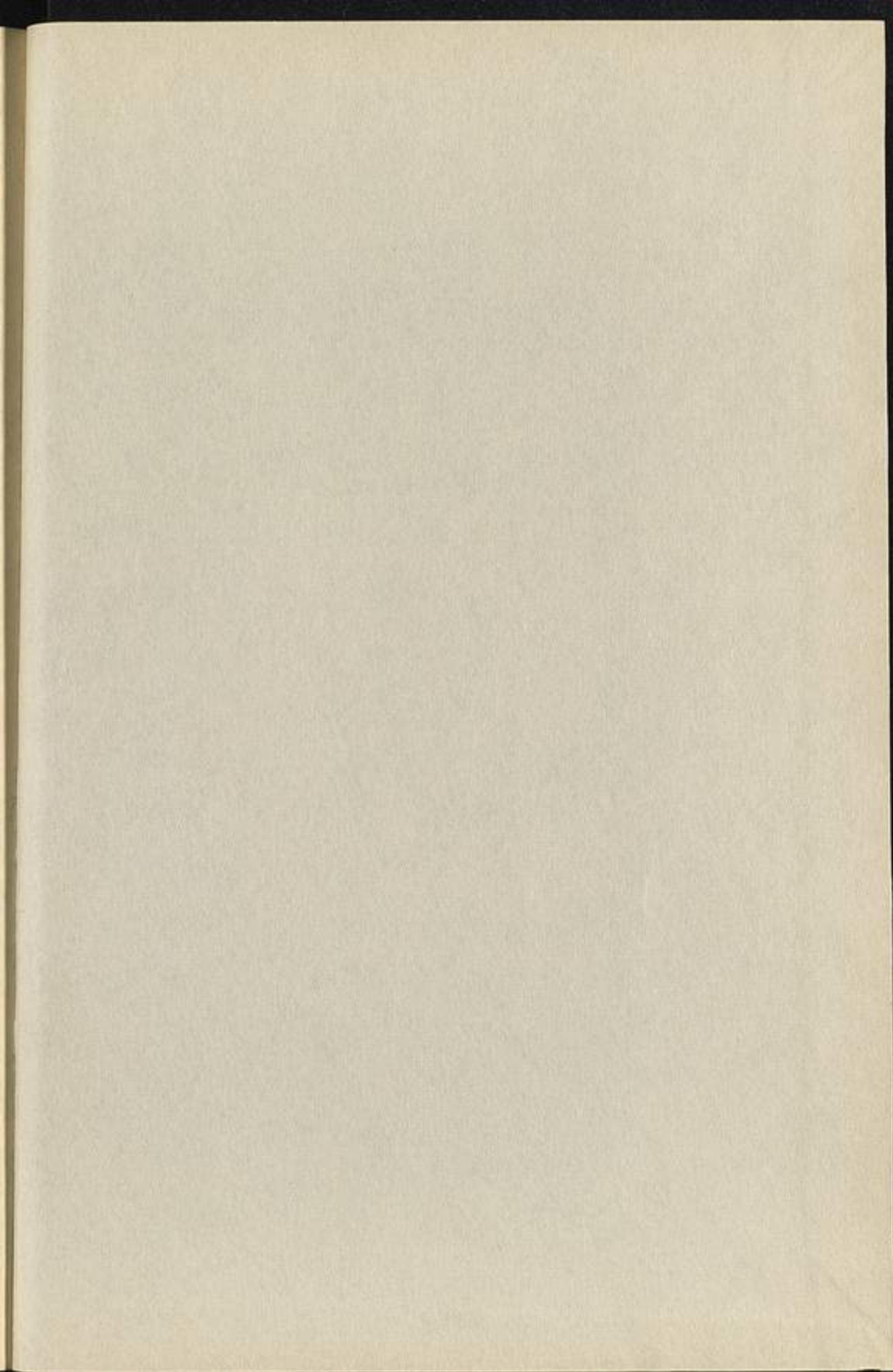


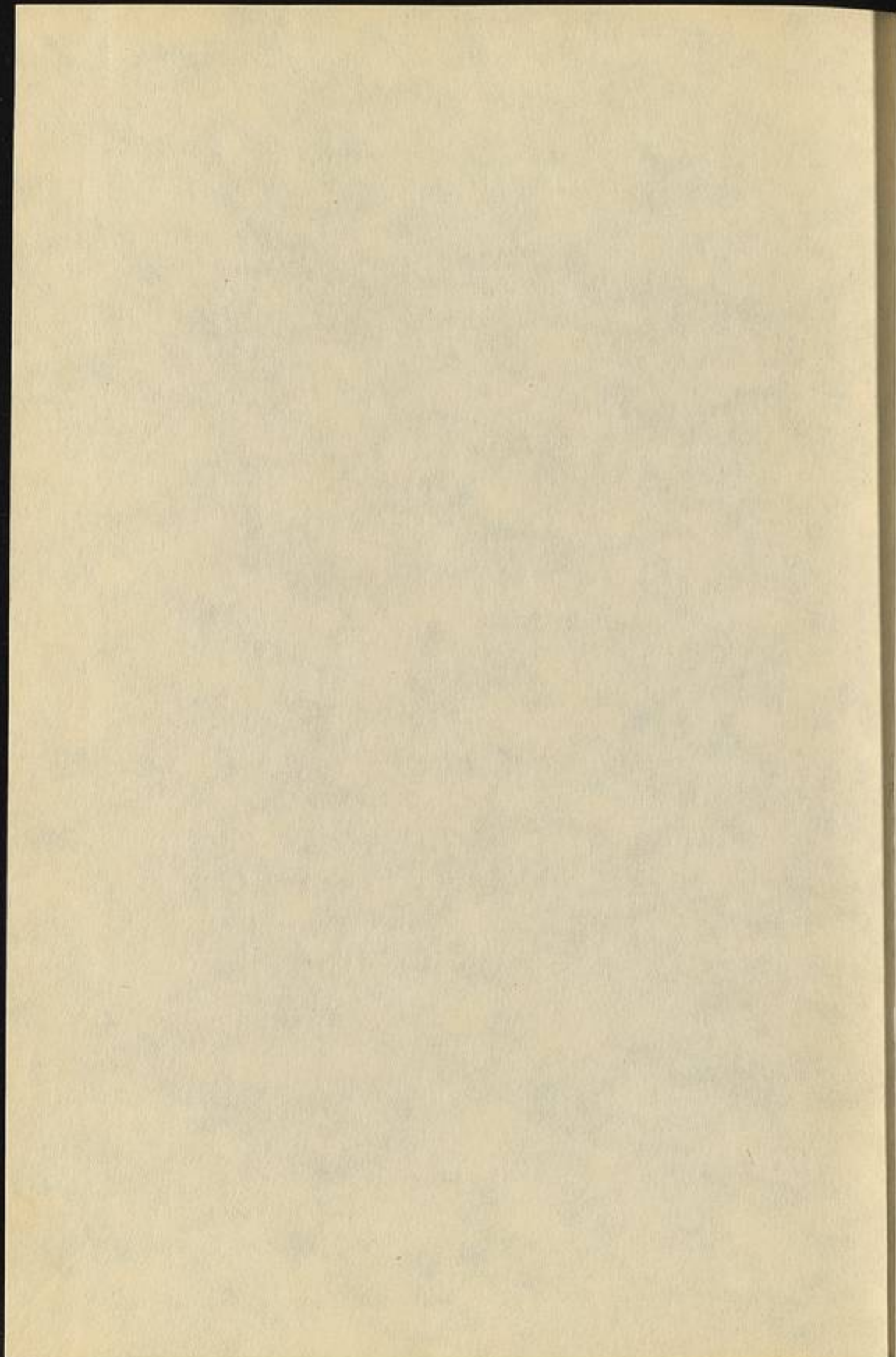
Columbia University  
in the City of New York

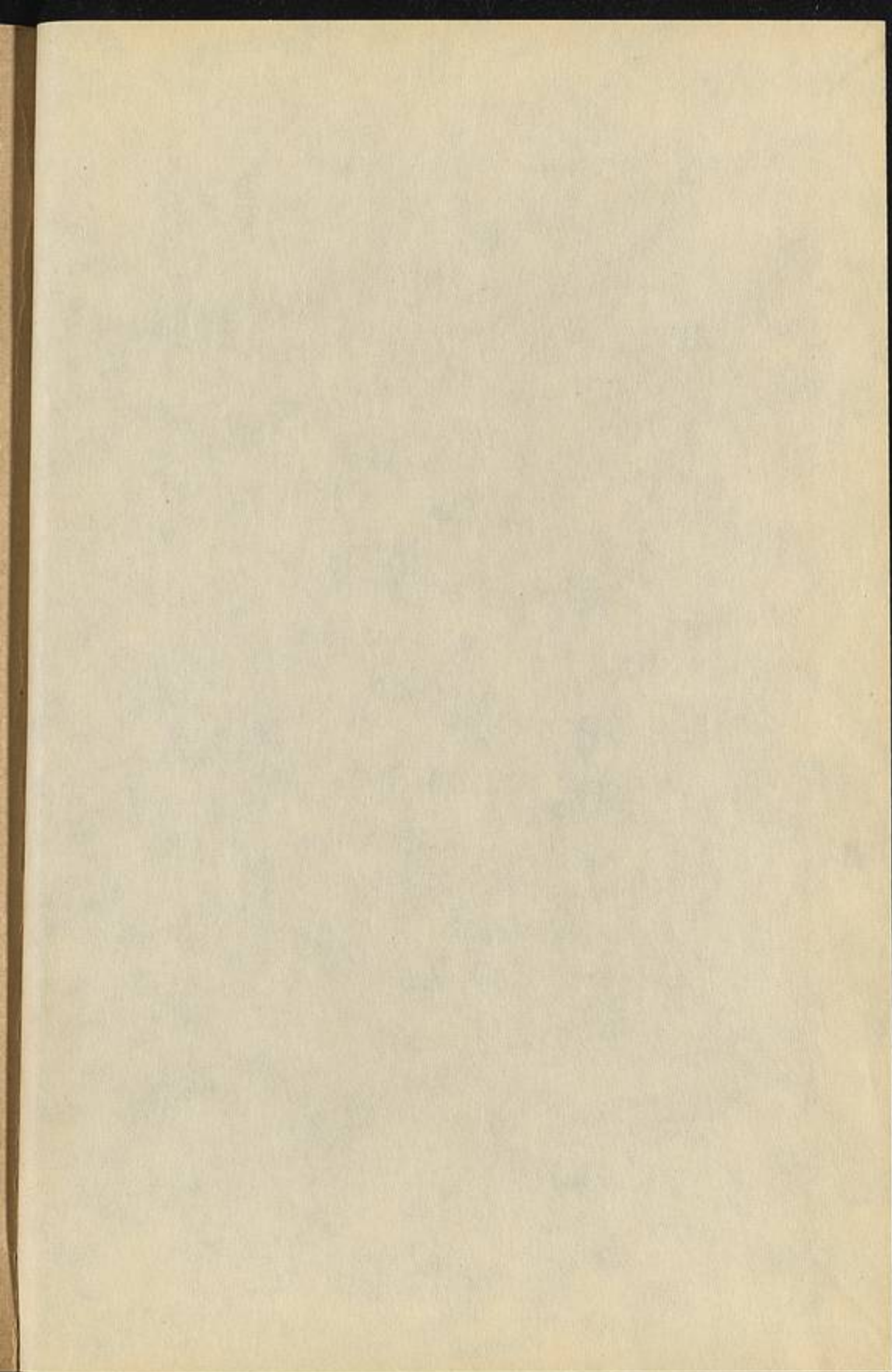
THE LIBRARIES











مُحَمَّدُ لَطْفِي جُمُعَةُ الْحَامِي وَعُضْوُ الْجَمْعِ الْعَالِي الْعَرَبِيِّ

# جِيَانُ الشُّرُفِ

دَوْلِهِ وَسُعُوبِهِ وَمَاضِيهِ وَمَاضِرُهُ

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد  
« جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا  
(قرآن شريف)

طبع مطبعة دار احياء الكتب العربية  
لاصفى عيسى الباني الجليلي وشركاه

39141



PT 20 - 20% Halabiy  
17/7/45

©  
338

مُحَمَّدُ لَطْفِي جُمُعَةُ الْحَامِي وَعُضْوُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَسْكَرِيِّ

# جِيَانُ الشُّرُفِ

دَوْلُهُ وَسُكُونُهُ وَمَاضِيهِ وَمَاضِرُهُ

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد

« جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا »

(قرآن شريف)

طبع مطبعة دار احياء الكتب العربية  
لاصحابها عيسى الباني الحلبي وشركاه

956  
595

مكتبة  
الملك  
الهدية  
الملك  
الهدية

مكتبة  
الملك  
الهدية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

﴿ سُورَةُ الْقَصَصِ ﴾

(٢)

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ

﴿ سُورَةُ الْأَعْرَافِ ﴾

(٣)

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ

﴿ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ﴾

شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

(٤)

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ

﴿ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ ﴾

(٥)

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُورُ بِي الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مَنْ

تَشَاءُ وَتَنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ﴾

(٦)

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ

﴿ سُورَةُ الْأَنْفَالِ ﴾

إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ

(٧)

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ  
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿سُورَةُ التَّوْبَةِ﴾

(٨)

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ  
اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا  
مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ  
نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ  
﴿سُورَةُ التَّوْبَةِ﴾

(٩)

هَذَا لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ  
الدُّعَاءِ فَوَدَّعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى  
مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أُنَّى  
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ  
قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا  
وَأَذْكَرٌ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ﴾

(١٠)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ  
عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرَأَتُي أُنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ﴾

(١١)

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ ﴿سورة الأنفال﴾

(١٢)

لَهُ مَعْقِبَتٌ مِنْ يَمِينِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يُحَفِّظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا  
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ  
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿سورة الرعد﴾

(١٣)

فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفَقَضْنَا مِنْ  
حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ  
عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿سورة آل عمران﴾

(١٤)

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿سورة الشورى﴾

« كَلَامُ سَيِّدِنَا عَمْرُو بْنِ الْعَاصِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ الَّذِي رَوَاهُ  
الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ تَقَوْمُ السَّاعَةِ  
وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو « أَبْصِرْ مَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ » قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ  
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لَنْ تَقُولَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لِحَصَالًا أَرْبَعًا لِأَنَّهُمْ لَأَخْلَمُ  
النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَمْرُهُمْ إِفَاقَةٌ بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ  
لِمُسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ ، وَأَبْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ »  
رواه مسلم جزء ثان ، صفحة ٥٠٠ ، في باب « تقوم الساعة والروم أكثر الناس »

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله

## مقدمة

لا ريب في أن العالم بجميع أقطاره، وشعوبه، وحكوماته، يجتاز الآن مرحلة من أشد مراحل التاريخ وعورة، وسواء في ذلك الشرق والغرب، فالعالم اليوم في مفترق الطرق، العالم القديم والعالم الجديد، مضطربان مرتبكان يبحثان عن وسائل النجاة، فكأن الدنيا تتمخض عن حوادث كبار، والانسانية بأسرها تنتظر بفارغ الصبر، مولد تلك الحوادث، ولكنها لا تعلم شيئاً عن حقيقتها، ولا تستطيع التكهن بمصيرها.

وقد أصبح قياس المستقبل على الماضي والحاضر، نوعاً من الخطأ في التقدير وصار استنتاج المجهول من المعلوم، خرقاً في الرأي ومجازفة في التعليل والتدليل. فالانسانية حيرى ولسان حالها يقول كيف السبيل؟ فانه لم يكد هذا القرن العشرون ينبثق نور شمسه حتى علفت الانسانية عليه أعظم الآمال، وأفصح الاماني، وذلك بعد أن تمكنت مبادئ الحرية من النفوس وتشتعت بها أفئدة الشعوب التي باتت ترقب ساعة الخلاص، ولم يكد ينصرم القرن ١٩ حتى أخذ أنصار العلم يبنون الانسانية بعصر الذهب بعد عصر الحديد، ويشيدون قصوراً من الآمال الجميلة على أسس التفكير الحديث. ويحاولون باخلاص اقناع البشرية، بأن عصور الجهاد والمكافحة في سبيل الرزق وأجيال مقاومة الطبيعة في سبيل التمتع بالسعادة بالحياة قد مضت وانتقضت، وان المدنية الحديثة قد قلبت صفحة حديدة في سجل الوجود الانساني. وكان رجال السياسة يبشرون العالم بعهد السكينة والسلام. ويؤكدون لرعاياهم

والأمم المختلفة أن قد استتب الا من في جميع أنحاء العالم، وان الطبيعة فتحت للانسان كنوزها فملك  
ناصية الكهرباء، والأثير، وصعد الى أجواز الفضاء، كما غاص في قاع المحيط وان الحياة الاقتصادية  
ستأخذ مجراها في أفضل الظروف وأسعدها بحيث تنفرج الازمات ويزول الضيق من العالم،  
وتصبح الحياة الاقتصادية مرآة تنجلي فيها صنوف اليسر والنعيم وصور الرخاء الدائم، فتتقلب  
الأمم في فراش من البحبوحة والهناء، وسوف يستطيع الرجل من أية طبقة كان، تعليم ولده،  
وعلاج مرضه، وضمان شيخوخته، وراحته في كبره، ولدي ضعفه وعجزه.

وأكد لنا المكتشفون والمخترعون أن الانسان الحديث قد أتته الطبيعة مختارة تجر  
أذيالها، فسلمته زمامها وباحت له بأسرارها، فتناول قيادها، ووقف على ماخفي من أمرها،  
وتمكن بذلك من السيادة المطلقة على قواها، كما ان الدنيا قد أخرجت له خفاياها وأظهرت  
له ما بطن من أمرها فاستخرج الاحجار الكريمة والمعادن النفيسة من جوف الارض  
واستنطق الجماد وسخر البخار، وجلس على بساط سليمان. وقبض بيده على مفتاح اوزريس،  
فصار بحق خليفة الله في الأرض لاصلاحها وعمرانها. وارقت العلوم والفنون بأنواعها، وانتشرت  
الكتب والصحف في جميع الأرجاء، وتخصص رجال لكل فن من الفنون. وكادت الدنيا  
تبلغ غاية الكمال في زينتها وجمال مبانيها وفخامة مؤسساتها. وكان كل شيء في الحق يدعو  
للتفاؤل وحسن الظن بالايام، وناهيك بحجبل بدأ بنشر مبادئ الحرية والاخاء والمساواة،  
يفضل الثورة الفرنسية الكبرى!

ولكن هذه السعادة لم تكن، وآسفاً، الا وهما، أوحماً لذيداً، أو برقاً لامعاً في  
دياجير الحياة. فان ذلك الحلم لم يلبث ان زال وأعقبته يقظة فاجعة، راحت الرؤيا الجميلة  
وجاءت بعدها إفاقة مروعة.

وبدأت في مستهل القرن سلسلة حروب في الشرق والغرب والشمال والجنوب. بين  
بريطانيا والبولير، وبين روسيا واليابان، وبين تركيا وايطاليا، ثم بين تركيا ودويلات البلقان.  
ولم يكد العقد الثاني من القرن العشرين يشارف على نهاية شطره الأول حتى شبت نار الحرب

الكبري التي اجتاحت العالمين وأندرت الدنيا بأسرها بالويل والعظام .  
فغيرت الحرب وجه العالم ، ولا يزال يعاني آثارها . وكان الناس يزعمون أثناء صلصلة  
السيوف وقصف المدافع ، في الفترات التي تعقب أزيز الطائرات المهاجمة وفي جو فعم بسموم  
الغازات الخائفة ، ان الذين يصبرون على ويلات هذه الحرب ويصمدون لها ، سوف يجتوبون  
بعد نهايتها ثمرات السعادة والغنى المتوافر والهناة التي ليس بعدها هناة . فاثبتت الايام  
ان هذه التكهينات ، لم تكن سوى تخريصات من نوع الدعاية القائمة على أساس سياسة (سوف  
تري مايسرك ) أو ما يطلق عليه بعض ساسة الانجليز WAIT AND SEE POLICY

وكان محتوماً في ألواح القضاء والقدر ، ان هذا الخلل الثاني ينهار أيضاً كسابقه . وترغم  
الانسانية على مواجهة الحياة بحقيقتها ، فاذا الحرب تنتهي وتجر وراءها ويلات أشد من ويلاتها  
إبان اشتعالها . ديوناً وغرامات تفرض ، وعروشاً تثل وطرقاً جديدة للاستعمار تشرع وعصبة  
أمم تتكشف عن منتهي العجز والخيبة ، ومعهدهات سرية ضد الأمم الضعيفة وشيوعية منجوسة  
مجرمة في روسيا تجارب الأديان وتحتقر حقوق الملك الخاص ، وتمزأ بر وابط الأسرة وتحاول  
المساواة بين البشر على أسس كاذبة باطلة ، وغايتها سيادة بضعة أفراد على شعوب كبيرة  
عظيمة ، ثم تقلس تلك العصبة الشيوعية في النهاية لعدم صلاحيتها ، فتحجل أن تعلمن افلاسها  
وتضطر للمساومة في مبادئها فتبدو للعالم كالتاجر الذي يفلس مدلساً ومزوراً . فيستحق  
السجن والفضيحة !

ونحن نكتب هذه الأسطر ، يقيم في القاهرة ثلاثة ضيوف كرام يمثلون مسلمي روسيا  
وهما السيد النبيل سعيد بك شامل حفيد البطل العظيم المغفور له الشيخ احمد شامل امام مجاهدي  
التوقاز الذي سلخ في مكافحة الروس أرباعاً وأربعين سنة ، معتمداً على الايمان بالله ومستنداً الى  
حب الوطن .

والثاني حضرة العالم الفاضل والخطيب البليغ والذكي الأريب عياض اسحاق بك  
ممثل مسلمي بلاد اورال وهي تلك البلاد التي أنبتت فيما مضى طائفة فاضلة من علماء الاسلام



وخوله، والسيد موسى جار الله، مثل مسلمي تركستان الشرقية  
وقد وفدوا على مصر بعد اختتام المؤتمر الاسلامي ببيت المقدس ايشرحوا لمسلمي مصر  
مبلغ ما يلاقيه موفدوهم من ظلم البلشفيك، فلا رزق ولا راحة ولا امان، عند هؤلاء المسلمين  
الذين اخضعتهم طوارئ الحدثنان لظلم طغاة بطرسبرج وموسكو.  
لقد جاء هؤلاء الزعماء الى مصر عقيب انقضاء المؤتمر لاعتقادهم، واعتقاد موفديهم  
من المسلمين المضطهدين ان مصر هي فؤاد الاسلام الخافق ورأسه المفكر. ومناره الذي يشع  
منه النور على كل ضال وتائه وحائر، ومصدر معونة لكل ملهوف ومستغيث ومستنجد. ويستنصر  
في بلاد المسلمين ومقر العلوم الاسلامية، ومنبت الثقافة الشرقية ومهد الحضارة.

وقد راعنا وراع كل شرقي ما يقاسيه اخواننا أهل القوقز والتركستان والاورال  
المسلمون من مظالم روسيا البلشفية الشاعية المتعصبة المقوتة بعد أن ألقى عياض بك الحق  
والأمير سعيد شامل في المؤتمر الاسلامي وفي مدينة القاهرة (يناير سنة ١٩٣٢) نقلاً من  
أنواع الاضطهاد والتعذيب التي يذوق هؤلاء الاخوان مرارتها، ولم ندهش فان روسيا البلشفية  
هي بنفسها روسيا القيصرية في التعصب الديني وبغض الشرق والاسلام (انظر ص ٦٨ -  
٧٥) من هذا الكتاب.

وانا ننتمز هذه الفرصة لتؤكد ونعلن على الملأ مضار البلشفية للاسلام والشرق،  
وعدم صلاحيتها بعضها أو كلها لشعوبنا فان الاسلام غني بمبادئ الاصلاح والمساواة والاسان  
والعدل والحرية بما لا يوجد عند البلشفيك أو غيرهم.

وكل مسلم أو شرقي يتشيع للشيوعية يكون عدو نفسه وعدو وطنه ودينه وهذا البرهان  
ماثل في بلادهم، ونحت كل مسلم على يد المعونة لتلك الشعوب الرازحة تحت مظالمهم.

\* \* \*

وقد تلا الحرب العظمى هجوم جديد من الغرب ضد الشرق فتحاول انجلترا إذ ذاك  
القضاء على تركيا في آسيا فتسلح يد ذلك المغامر الشيخ الرومي في شهر على تركيا حرباً دينية يجهز  
فيها بأنه يريد القضاء الأخير على دولة الاسلام، الوحيدة في أوربا واعادة كنيسة ايا صوفيا

الى ما كانت عليه قبل فتح محمد الثاني القسطنطينية في ١٤٥٣ ونصب هذا الشيخ الذي نشأ وترى بعثبات الأتراك وفي حى حكمهم ، وفي جزيرة كانت خاضعة لهم عندما كان هو وأجداده في عالم العدم ، نصب هذا الشيخ نفسه زعيماً للنصرانية ضد الاسلام ونصيراً للغرب على الشرق وتخيل نفسه شعباً حديثاً لثستوكليس الذى رد غائلة الفرس عن اليونان قبل العصر المسيحى ببضعة أجيال . ولكن حلم هذا الشيخ الجازف المغامر قد انهار وتحطم فسقط شرسقطة، وجر معه فى الهاوية، ذلك الوزير الانجليزى الكبير الذى كسب الحرب وخسر نفسه ، وكان المشجع الوحيد للوزير الرومى في حرب الاناضول فسقط الرجلان في يوم واحد ، وفر الرومى الى اور وبا وهوى الثانى عن كرسي الرئاسة فى دوننج ستريت . ويرجع الفضل فى تلك الهزيمة الشنعاء التى كانت أقل ما يستحقه ذاك السياسيان المغامران الى رجل تركيا الاوحد، وبطلها الأجد زعيم الحرب والسياسة ومصالح العصر الحديث مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية ومبيد عهد الاستبداد والرق .

وكان من المحتم أن تتطور الحياة فى العالم بعد شرور الحرب وأوزارها تطوراً ينبئ عن مستقبل الانسانية الذى لعبت به اور وبا المستهتره وجعلته من أدوات لهوها ومطامعها فكان فى روسيا ما كان، واستولى مغامر يدعى بيلاكون على السلطة فى المجر . وثار المانيا بتميادة امرأة فوضوية اسمها وزلوجز مبرج لم تلبث أن قتلت فى الشوارع

وهاج العمال فى ايطاليا واستولوا على المصانع والمعامل وحصلت فتن وثورات فى الشرق والغرب، بمضها على حق مثل نهضة مصر وكثير منها على باطل

وفى أوروبا تقدم رجال ظنوا فى أنفسهم قوة الحكم المطلق المفرد فبدأ عهد الديكتاتوريات الحديث فظهر بنجالوس فى اليونان وبريمو دى ريشيرا فى اسبانيا وموسوليني فى ايطاليا واشباههم فى بولونيا ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واستبد بعض القواد فى الصين وفى بلاد العرب وبالجملة تزعزت ثقة الأمم بالحياة الدستورية وظهر عجز حكم الجماعة المنتخبة ، وأعلن بعض المفكرين افلاس النظم النيابية ، إما لما آرب شخصية وإما لاعتقادهم

بنية حسنة . غير أن مما يجدر بالنظر ان هؤلاء « المستبدين من طراز ١٩٢٠ » لم يتخلوا عن المجالس النيابية ولم يلغوا الدساتير وهي حقوق الشعوب المكتسبة . انما أبقوا عليها وأبقوا على زمامها في أيديهم . فكان مثاهم كمثل مروض الوحوش الكاسرة والحيوانات المفترسة يقنصها و يغذيها وهي سجينه .

ونحن نكتب تلك الكلمة نكاد نسمع صدى أصوات الحرب في منشوريا بين الصين واليابان ، . وتوشك الحرب أن تعلن في أوروبا من جراء استفحال الازمه المالية التي ضيقت الخناق على العالم . والمعركة حامية بين المانيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا . ويصح أن يقال اليوم « ان الحرب على الابواب ! »

وأنصار السلم أنفسهم يزعمون أن الاستعداد للحرب يقضي على شبح الحرب ، ولورد لويد الذي كان سفير إنجلترا في مصر ، وعزلته حكومة العمال ان صدقا وان كذبا ، والله أعلم بالسرائر ، ينصح اليوم لأتمته بالتسلح ، ويندل قصارى جهده في اقناع بريطانيا بالاستعداد للحرب .

وأمرريكا أو جمهورية الولايات المتحدة واقفة موقفاً مريباً ، فهي تميل الى الغاء ديون الحرب التي تثن منها المانيا بعد أن ثبتت عجزها عن الدفع ، ولكنها لا تستطيع المجاهرة برأيها أو الظهور في الميدان الدولي بمظهر الحكم والسيطر ، لثلاث تليقي من الخيبة والسخرية ما بعد جواباً صريحاً ورداً بليغاً على سياسة ويلسون الخادعة المخدوعة

وتكاد الهند تلتهم عقيب عودة غاندى من إنجلترا بعد فشل مؤتمر المنضدة المستديرة

للمرة الثانية

ومن الأمور التي حدثت أثناء طبع هذا الكتاب فشل مؤتمر المنضدة المستديرة المذكور وعودة غاندى الى الهند واعتقاله بعد يومين من عودته ولما يسترخ من وعشاء السفر ولما يجف مداد مقالات الاعجاب التي دبجتها أقلام كتاب الانجليز . فكان لاعتقاله ضجة عظيمة واحتج العالم المتحضر ولا سيما ان الرجل لم يتحول عن اعلان نصحته لشعبه وكل الشعوب

المغلوبة بالسلطة وعدم العنف والمقاومة السلبية التي تقنع الخصم ولا تؤذيه، فوَقعت بسبب اغتقاله معارك ومواقع كان اتقاءها خيراً وأولى، فنحن نعرب عن اعجابنا بغاندى ونعجب بحبه السلام وعدم العنف ونرسل اليه تحييتنا وندعوه ولوطنه بالنجاح ! ويسؤنا أن يبقى المسلمون من الهنود بمعزل عن الجهاد السلمى الشريف في سبيل الحرية فان الهند ليست وطناً للهندو كيين وحدهم بل انها وطن للجميع ، وقد سرنا انتخاب أبى الكلام زعيماً .

الآن تكاد حركة العالم تتف ، بعد أن وقف فعلا دولاب الحياة الاقتصادية فى معظم أنحاء العالم ، وأصبح العاطلون من عمال العالم يعدون باللايين فى الشرق والغرب حتى شرعت الحكومة المصرية نفسها تحصى العاطلين وليس العطل فى عصرنا كالعطل فى ماضي .  
لأن معناه الآن الموت جوعاً وبردأ فى العراء !

فالقوت الضرورى غير موجود عند معظم العاطلين والثوب الذى يستر العورة نعمة كانت ثمزالت ، مما يجعل الحياة الانسانية أقسى منها فى أى عصر سابق .

والسبب الجوهرى فى هذه الحال التي يئن منها العالم ، انقسام الانسانية الى شطرين الشطر الاول هو أوروبا والشطر الثانى هو الشرق . وأوروبا تريد اغتيال الشرق واستغلاله والقضاء على مصادر الحياة فيه وتسخيره لاغراضها حتى فى محاربة أعدائها ، ولو كانوا من الاوربيين أنفسهم ، وفي قهر أهل الشرق من سكان المستعمرات كما صنعت انجلترا وفرنسا وايطاليا أثناء الحرب وبعدها .

وبيان ذلك ان الشرق بدأ منذ خمسين عاماً يتنبه من غفلته ويستيقظ بعد طول الرقاد . وأصبح الشرق يرى لنفسه الحق فى الحياة ، أصبح الشرق بأعمه وشعوبه وافراده وحكوماته يريد الحياة الحرة والسعادة المادية والمساواة بينه وبين أمم الغرب . وأصبح الشرقي بعد وقوفه على خفايا السياسة الاوروبية التي فضحت لها الحرب العظمى لا يرى لاحد من أهل أوروبا حقاً فى التسلط على بلاده مباشرة أو بالواسطة . وأصبحت العلوم والمبادئ والفلسفة ملكاً مشاعاً للجميع ، وليس فى خزائن الغرب أسرار خفية ولا منخبآت غامضة حتى ولا المعاهدات

السرية التي كانت غايتها التواطؤ بين ممالك أوروبا على اغتيال الشرق واللعب بمقدراته .

فقد نشرت كلها علي الملأ وأصبحت خبراً مذاعاً .

وكان الفضل الاول في نهضة الشرق لليابان ، فان تلك الدولة الفتية أو بلاد «الشمس المشرقة» قد فاجأت العالم بيقظتها وقوتها وقدرتها على هضم الحضارة الحديثة ، مع التمسك بوطنيتها وجنسياتها ومعتقداتها . وما أبلغ ما قاله الامير شكيب أرسلان في كتاب منشور في مجلة الكويت والعراق التي تصدر في بوتنزورخ من أعمال أندونيسيا (العدد الرابع الصادر في غرة شعبان سنة ١٣٥٠) قال الامير :

« راحة التفرنج تؤذني ، فالتفرنج لا يفيد شيئاً ، والتعلم غير التفرنج ، واليابانيون تعلموا بقوايابانيين بجميع عواطفهم وأطوارهم وأوضاعهم ، والاسلام قوة معنوية عظيمة لاحد لها . ليس انا الآن غيرها في وجه القوتين الهائلتين . . . . »

ولم تنشر المجلة بقية الجملة ولعل الامير يقصد بالقوتين الهائلتين أوروبا والاستعمار ، أو الاستعمار والمسيحية .

فخشيت المجلة عاقبة التصريح بكلمة المسيحية .

والحقيقة أن المسيحية الحقبة الصادقة ليست هي الملومة وليست مسؤولة عن شيء ولا يمكن أن تؤدي الى الاستعمار أو البغضاء أو اللطامع الاشعبية أو اذلال الامم . ولكن تعصب الامم الاوروبية التي تنسب الى المسيحية خطأ وكذبا هو الذنب الاعظم وهو الذي يظنه الناس ممثلاً للمسيحية مع ان هذا التعصب الذميمة ليس من الدين المسيحي المجيد في شيء لان دين عيسى دين حب وعطف وحنان ورحمة وسماحة

ويصح أن يقول الامير شكيب «والقوتين الهائلتين الاستعمار وتعصب شعوب أوروبا التي تنتسب كذبا الى الدين المسيحي المجيد»

وبهذه المناسبة نذكر ان أوروبا هاجت الشرق بالتبشير في مراكش وطرابلس كما هاجمه في مصر وجزائر الهند الشرقية ، وقد شهدنا أخيراً في مصر أن بعض أوساط التبشير

قد وصل بها الاستهتار بمبادئ حرية الأديان التي تنادي بها في أوطانها الى درجة ان استهوت شابا مسلما وحوالته عن عقيدته تارة بالتنويم المغناطيسى، وطورا بالاستهواء والترغيب حتى انقطع عن مدرسته وبيته، وشرعوا فعلا في اقصائه عن القطر المصري ونقله خفية الى بعض جهات العالم الجديد لولا تدخل الحكومة المصرية والصحف في أمره

أما في جزر الهند الشرقية فقد استعملت حكومة هولاندا كل الوسائل في تنصير المسلمين من أهل جاوا حتى بلغ عددهم في هذه السنة ستين ألفاً انتقلوا من الدين الاسلامي الى الدين المسيحي، وقد كان عدد المجاج الجاويين الذين يقصدون الى الاماكن المقدسة بالحجاز في كل عام ستين ألفاً فصاروا في سنة ١٣٥٠ بضع مئات. أما عدد الستين ألفاً فقد تحول بخلافه من قبة الكعبة الى عقيدة البروتستانت!

والذي يشهد تلك الحالة في أفريقيا وآسيا وجزر الهند يعتقد انها خطة مدبرة لجأت اليها اوربا أخيراً بعد أن فشلت جميع الوسائل في محاربة الاسلام.

نعود الى سر عظمة اليابان وتقدمها ذلك التقدم العجيب الذي بهر العالم منذ حربها مع الصين في سنة ١٨٩٥ الى اليوم. فقد كان سبب نهوضها ضرب بعض موانئها بمدافع الاسطول الامريكي. بقيادة أمير البحر بيرى في أواسط القرن التاسع عشر. فكانت أصوات تلك المدافع المباركة بمثابة دقات الناقوس المنبه لليقظة بعد طول الرقاد لتلك الدولة الفتية التي نهضت بنفسها منذ ستين سنة نهوضاً عجيباً حتى أصبحت صناعتها وتجارتها تنافسان صناعة أكبر الدول وتجارتها بغض النظر عن نموها الادبي وقوتها العسكرية، حتى أصبح لها بين الامم مركز ممتاز وكلمة يحسب لها حساب في أمور الشرق الادنى

ولسكى يقدر القاري تقدم اليابان نستسمحه في إيراد بعض الارقام فهي أبلغ دليل.

كانت الصادرات اليابانية في سنة ١٨٦٨ تبلغ قيمتها مليوناً و ٥٥٣ ألف « ين » فأصبحت في سنة ١٩٢٩ الفين و ١٤٨ مليون ين. وكانت وارداتها تبلغ نحو عشرة ملايين ين فأصبحت الفين و ٢١٦ مليون ين. وكان لها في سنة ١٨٨٣ ثلاثة وستون ميلا من السكك

الحديدية فأصبحت الآن ٨٥٠٩ أميال . وكان لها في سنة ١٨٧٠ خمسة وثلاثون باخرة حملتها  
خمس عشرة الف طن فأصبحت الآن ٦٦١ باخرة حملتها نحو أربعة ملايين طن . وكان عدد  
المصانع اليابانية ٦٦١ في سنة ١٨٨٥ فأصبح الآن ٥٥٠٥٧٧ . وأخيراً كان عدد العمال  
الذين يشتغلون بتلك المصانع ٣٨١٠٠٠ فأصبح الآن ٢٠٢٠٠٠٠ !

فما هو سر هذا التقدم العجيب ؟

ان العامل الأكبر الذى ساعد على هذا التقدم هو تحول اليابان من بلاد زراعية  
كالبلاد المصرية الآن ، الى بلاد صناعية بالرغم مما كان ينقصها في أول عهد نهضتها من رؤوس  
الاموال ووفرة المواد الاولية والتخصص في مناحي الانتاج والتجارة والخبرة الفنية ورجال  
العلم الحديث . زد على ذلك انه في ذلك الوقت أى حوالى سنة ١٨٧٠ كانت البلاد الاوروبية  
والامريكية أتمت تحولها الصناعى وفي استطاعتها خنق الصناعة اليابانية في مهدها ، كما ان  
الامتيازات الأجنبية كانت تحول دون تمتع اليابان بالحريّة التشريعية اللازمة للدفاع عن  
منتجاتها ، كما هي عليه الحال الآن في مصر المثقلة باعباء تلك الامتيازات . ومع ذلك كله تغلب  
اليابانيون على جميع هذه الصعاب ، ووصلوا ببلادهم الى ما هي عليه من رقي وفلاح . وقد جعل لهم  
النمو المطرد في عدد سكانهم لايتوانون في العمل ، ففي سنة ١٨٧٠ كان عددهم نحو ٣٥ مليوناً  
من الانفس فأصبح الآن نيفاً و ٩٠ مليوناً وهم يزدادون بنحو ٩١٢ الف نفس في السنة الواحدة  
وعلى الرغم من استغلال البلاد استغلالاً زراعياً لا نظير له فانها لم تعد تنتج ما يكفي لاطعام  
مثل هذا العدد العظيم من السكان فكان ذلك . ساعداً على السرعة في نمو الصناعة اليابانية  
لكنى تتمكن من التصدير وشراء ما يلزمها من الخارج ومثلها في هذا الشأن مثل انجلترا نفسها  
وكان للحكومة اليابانية الفضل الأكبر في تحول البلاد من بلاد زراعية الى صناعية  
فهي لم تقتصر على مساعدة المشروعات الوطنية مساعدة مالية واسعة النطاق ، بل انها أنشأت  
أعمالاً جديدة وأكثرت من المدارس الصناعية والتجارية ، وجعلت نفسها بواسطة التشريع في  
مقام الوصى والرقيب ، على هذا التطور المجد . آزرّت المشروعات الوطنية مالياً بتقرير اعانات

سخية وجواز عديدة للصادرات والمنتجات وكان ذلك أكبر مشجع لنمو الملاحه اليابانية فأصبحت اليابان من جهة عدد سفنها التجارية وجولتها في الدرجة الثالثة بين جميع الدول أي بعد بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، كما انها أنشأت مصانع الحرير ونسيج القطن والصوف والمواد الكيماوية ، وأكثرت من الارساليات اليابانية لاوروبا ومن استخدام الخبراء الغربيين لتدريب اليابانيين على الاعمال الميكانيكية ، وبذلت جهوداً جبارة في الازمات الاقتصادية لكي تخفف وطأها عن مالية البلاد وتجارتها وصناعتها ، وذلك بتأسيس الاتحادات الكبرى ومعاونة المصارف الوطنية معاونة قوية

وأما العامل الثاني الذي ساعد على تقدم اليابان العجيب فوطنيتهم الصادقة التي مكنتهم من اقتباس كافة وسائل المدنية الغربية وأسباب رقيها مع المحافظة التامة على تقاليدهم الدينية والاجتماعية وعلى مبادئهم وأخلاقهم الوطنية ، ومن بدع خصالهم أنهم متى علموا بتنفيذ مشروع وطني ، سواء أكان ذلك شركة ملاحه أم مصرفاً مالياً أم تأسيساً صناعياً أو تجارياً ، فجميع اليابانيين ، من الميكادو الى أصغر عامل ، يبذلون أقصى جهدهم في إنجازه مهما كلفهم ذلك من تضحية.

هذا سر تقدم اليابان تقدماً لا مثيل له في تاريخ الامم ففيه قدوة بالغة لمصر الناهضة اذا ما أرادت أن تبلغ شأوها وما وصلت اليه من قوة وتفوذ بين الدول .

ولست نهضة الشرق نهضة دينية ، مقصورة على يقظة الشعوب الاسلامية ، ولا جنسية قاصرة على نهوض الامم العربية أو الامم الوثنية مثل الهنالك ، بل هي نهضة انسانية عامة مثلها كمثله ديب الحياة الذي يسرى في الاجسام بعد طول سقمها فهو البرء يتمشى في البدن المريض ، وبداية النقاهة التي تبشر بالشفاء التام . بل هي تحقيق الحلم القديم الذي رآه بعض رجالنا الملهمين أمثال المغفور لهم جمال الدين الافغانى وعبد الرحمن الكواكبي ومصطفى كامل واسماعيل غصبر نسكى ومحمد عبده وعبدالله نديم ومحمد باش حيا التونسى

يبلغ عدد المسلمين والعرب في العالم أربعائة مليون ، يقطنون أوطاناً من أخصب



الأرض وأغناها، من الدار البيضاء وطنجة غرباً الى تين تسين بالصين شرقاً وكلمهم يقرأون العربية ويفهمونها بحكم عبادتهم وعقيدتهم وكتابهم المنزل. ومعظم هذه الملايين خاضع للدول الاجنبية المستعمرة. وهم بطبيعة الحال قوة عظمى لا يستهان بها ونحن ننادى بنهضتهم لايقاً وموا اوروبا بالسلح أو غيره بل ليعاونوا مع اوروبا في العمل على تقدم العالم. ان تقهرهم وتوهمهم خسارة على الانسانية، نريد سيادة المحبة بين جميع الامم وأن يشترك الشرقيون المسلمون منهم والوثنيون والنصاري واليهود في خدمة الحضارة مع اوروبا لانهم أرباب المدينيات القديمة في العالم ولأنهم علموا اوروبا العلوم والفنون التي انتجت المدنية الاوروبية الحديثة كما أثبتته درابر وجوستاف ليون وسدليو وادوار ديرون وعشرات غيرهم. لانريد حرباً ، ولارقاً، بل نريد سلاماً وحرية واخاء هذا هو المثل الأعلى الذي ينشده الشرق .

إننا ان طلبنا للشرق نصيبه في الحياة ، وألحجنا في ضرورة احلاله محله في ضوء الشمس فلا نطلب ذلك مبالغين ولا متعنتين ولكن نطالب به متمشين مع روح العصر ، فقد تغيرت الدنيا ومن عليها . وتطورت الافكار العامة والخاصة في جميع ناحياتها ، حتى علاقة انجلترا بمستعمراتها واملاكها وراء البحار وأمام البحار اقد تغيرت وتبدلت وقد شرحنا في صفحتي ١٨٢ و ١٨٣ من هذا الكتاب طريقة التطور الطبيعي التي طرأت على علاقة الحكومة الانجليزية بأجزاء الامبراطورية وأشرنا الى ما طرأ على نظام الدولة بالقانون الجديد .

فقد وافق البرلمان البريطاني قبل انصرافه بالاجازة (١٩٣١) على قانون جديد أطلق عليه اسم «دستور وستمنستر» والغريب أن الرأي العام لم يلتفت كثيراً الى هذا القانون الخطير الذي لانظير له في تاريخ التشريع البريطاني ، وهذا القانون يقتصر على تثبيت القرارات التي أصدرها المؤتمر الامبراطوري الذي انعقد سنة ١٩٢٦ ومن جعلها التصريح الآتي :

« ان بريطانيا العظمى والدومينيون طوائف مستقلة في داخل الامم اطورية البريطانية وجميعها في مستوي واحد غير خاضع بعضها لبعض في أية ناحية من نواحي أمورها الداخلية أو الخارجية ، على أنها مرتبطة بولاء مشترك نحو التاج ، وشريكة حرة في الجامعة البريطانية

وبعبارة أخرى ان دستور وستمنستر يعلن بصفة قاطعة أنه ليس ثمّة حكومة امبراطورية ولا برلمان امبراطوري وأن كلمة ( امبراطورية ) نفسها لم تعد قابلة للتطبيق على جماعة الأمم البريطانية التي يطلق عليها الآن بمقتضى هذا القانون ، والمرة الأولى في التاريخ ، اسم

The British Commonwealth of nations

ويقرر القانون الجديد في ديباجته ما يأتي :

« بما أن التاج هو رمز على اشتراك أعضاء جماعة الأمم البريطانية اشتراكاً حراً ، وبما أن الاعضاء المذكورين مرتبطون بولائمهم المشترك نحو التاج ، فما يتفق والمركز الدستوري المعترف به لكل عضو من أعضاء الجماعة من حيث علاقاتها بعضها ببعض أن يكون كل تغيير في القانون الخاص بوراثة العرش وبالألقاب الملكية موافقاً عليه من برلمانات جميع الدومينيون ومن برلمان المملكة المتحدة »

ومعني هذا القرار الخطير أن الجالس على عرش بريطانيا العظمى لم يعد ملك إنجلترا وكندا وأستراليا وأفريقيا الجنوبية الخ ، بل هو ملك في إنجلترا وفي كندا وفي استراليا الخ . فالفرق بين التعبيرين ذومغزى كبير لا يعزب عن فكر الملمين بالأظمة الدستورية .

ويقرر دستور وستمنستر بعد ذلك أنه لا يمكن رد أي قانون أقره برلمان احدى الدومينيون بحجة أنه ليس منطبقاً على قانون أصدره أو قد يصدره البرلمان الانجليزي . وهذا القرار قاض على البرلمان البريطاني باعتبار كونه سلطة تشريعية لجميع أجزاء الامبراطورية

وجاء في بند ثان من ذلك الدستور ان لبرلمان كل دومينيون الحق المطلق في اصدار قوانين يكون لها مفعول خارج حدود البلاد ، كالتوانين الخاصة بالملاحة التجارية مثلا . وفي بند ثالث اعتبر أنه لاصفة للبرلمان الانجليزي في أن يسن قوانين لاحدى الدومينيون الا بعد موافقتها وليس في كل هذا من جديد ، بل انه متفق مع الواقع ، غير أن الدومينيون أصرت على أنه من الواجب أن يصدر البرلمان الانجليزي قانوناً يقرر فيه رسمياً الحالة الراهنة التي يرجع أصلها الى سنة ١٩١٩ وعلى الأخص الى سنة ١٩٢٦ . وهذا ما يبين أهمية دستور وستمنستر لأنه يدل على ماهية جماعة الأمم البريطانية ، فهي ليست بأمحاد Union أو Fédération بل انها اتفاق

بين عدد معين من الدول المستقلة يربطها التاج البريطاني بعضها ببعض باعتبار كونه رمزاً لوحدة أصلها . وليس للغة الإنجليزية مثل هذه الدلالة، إذ أن في كندا لغتين رسميتين الإنجليزية والفرنسية، كما أن في أفريقيا الجنوبية لغتين رسميتين أيضاً الإنجليزية والألمانية أما أيرلندا فن المعروف أنها تعمل على احياء لغتها الوطنية .

هذا ما يقرره دستور وستمنستر وهو في الواقع يحل الروابط التي كانت الى الآن تربط أجزاء الامبراطورية البريطانية من غير أن ينص على تعريف دقيق للجماعة الأمم البريطانية في تكوينها الجديد .

والحق أن هذه الجماعة لا تمثل لها في التاريخ ولا يمكن تعريفها بدقة ، فليس بين الدومينيون أي شيء مشترك ، ولا أنها جميعاً تعترف بأن الجالس على عرش إنجلترا هو ملكها الخاص فليس لهذا الملك سلطة مشتركة على جميع الدومينيون ، بل لا يمكنه أن يباشر سلطته في دومينيون ما، الا بواسطة حكومة ذلك الدومينيون .

ولما عرض مشروع هذا الدستور على مجلس العموم انتهز بعض النواب المحافظين هذه الفرصة لطلب اعادة النظر في مسألة أيرلندا معربين عن القلق الذي يساورهم فيما لو حدث أن الانتخابات النيابية في أيرلندا أفضت عن أغلبية جمهورية . واتفاء لهذا الخطر اقترحوا اضافة المادة الآتية على المشروع :

« وليس في نص هذا الدستور ما يسمح للسلطة التشريعية في أيرلندا بأن تلغي أو تنقح أو تغير أية مادة من مواد اتفاق سنة ١٩٢٢ الخاص بالدولة الأيرلندية »  
بيد أن الوزارة الحاضرة رفضت هذا الاقتراح .

فالقارى يرى من هذا البيان الوجيز أهمية قانون وستمنستر من الوجهة التاريخية والسياسية فهو قد قضى على الامبراطورية القديمة وعلى الروابط التي كانت تربط أجزاءها بعضها ببعض ولم يبق منها الا الرابطة المعنوية ورابطة المنفعة المشتركة ، وهاتان الرابطان على أهميتهما ، لا تظهران دائماً بوضوح تام نظراً لتشعب المصالح، ومناقضة بعضها للآخر كما

حدث مرات في السنين الاخيرة. ومن أجل ذلك يندل رجال السياسة من الانجليز جهوداً عظيمة لانشاء روابط جديدة بين جماعة الأمم البريطانية ، من ضمنها المؤتمر المنوي عقده في كندا قريباً بقصد تنظيم شؤون تلك الأمم من الوجهة الاقتصادية .

فلا عجب ولا غرابة اذا أطلق على هذا القانون اسم يدل على زوال عهد الارتباط بين أجزاء الامبراطورية البريطانية وانما هذا التحلل أو التفكك حصل على الطريقة الانجليزية أي في حدود القانون ، وبتشریح أصدره البرلمان « بيدى ، لايدعروا » فهو نتيجة التطور لا الثورة .

ولاعجب ولا غرابة اذا طلبت أمم الشرق العربية الاسلامية وغير الاسلامية لنفسها ما طلبته استراليا وكندا وارلاندا وجنوب افريقيا من « الأم الروم » The Mother Country فلسنا أقرب الى انجلترا من تلك البلاد . ولئن اتفقت انجلترا مع الشرق وتضامنت معه في السراء والضراء كما يريد غاندى في الهند وغير غاندى في مصر والعراق وفلسطين وعدن وبعض بلاد الجزيرة العربية ، وتبعها كذلك فرنسا في شمال افريقيا والهند الصينية وهولاندا في اندونيسيا وايطاليا في طرابلس والصومال وبلجيكا في الكونجو واليابان في كوريا . لو حصل هذا وتضافرت أمم الغرب والشرق على مواجهة الحياة ومكافحة الحروب والأزمات والشروع الظاهرة والخفية ، فلعل الحلم الذي تمثل للعالم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يتحقق ويصير جزءاً من تاريخ العالم ، وفترة من أسعد فترات الحياة الانسانية . وبمناسبة ذكر المرحوم محمد باش حبا بين زعماء الشرق في صفحة ١٣ من هذه المقدمة نقول :

انه كان من أعظم عظماء تونس فكراً وتضحية وقد هاجر في سبيل وطنه فتوفي عقيب الحرب العظمي وهو في منفاه بتونس وهي ميتة شبيهة بوفاة المرحوم محمد فريد بك المصري . وقد دفن باش حبا في برلين في مقبرة المسامين بها ينهيد، وتهدم قبره وكان مكتوباً عليه بالعربية

لا إله إلا الله محمد رسول الله

محمد باش حبا

ولد بتونس سنة ١٨٨٣ وتوفي ببرلين سنة ١٩٢٠، كان خطيب تونس وزعيمها وقد قضى نحبه بعيدا عن وطنه ومنعت فرنسا نقل رفاتة الى أرض بلاده وهو مثال من زعماء الشرق الذين أسهبنا في درس أحوالهم في الفصل الاول، ونشكر الامير شكيب أرسلان لأنه لفت نظر الشرق لترميم قبر الزعيم الشاب وندعو كل شرقي وعربي للعمل على صيانة مدفنه الى أن تتاح لبني وطنه فرصة نقله الى مضجعه الاخير في تونس الخضراء. فلها أحق بقاع الارض بضم رفاتة وهو الذي أحبها وتقانى فيها حتى فنى، ولم يكن كغيره ممن يحبون أوطانهم حب خيال وهم بل كان حبه قائما على عقيدة وعلى حقيقة. وكان قليل الكلام بقدر ما كان كثير العمل. وقد روى لنا أحد أمراء الشرقيين أنه كان في برلين أخيراً فزار الدار التي قضى فيها المرحوم محمد باش حبا نحبه فلقى ربة الدار، فلما سمعت سؤاله عن ضيفها الراحل بكت وقالت «لاندى لطفه ورقة جانبه وحياءه وحلاوة شمائله ولاندى فصاحته وحبه وطنه. وكان ليلة وفاته يحدثنا عن بلاده ويصف جمالها ومحاسنها وخصوبة أرضها ووفرة خيراتها. ونهض من بيننا حوالى نصف الليل وهو يقول «تونس آه! تونس». وكان هذا آخر ما سمعناه من صوته العذب. فاننا عند الصباح ذهبنا لنقدم اليه قدحاً من القهوة فاذا هو جثة خامدة!»

ولا يفوتنا أن نصرح بأننا كلما ذكرنا الاسلام لا نقصد به مجرد العقيدة، أو النظم الدينية التي جاء بها القرآن والسنة وأعمال السلف الصالح وآثار الخلفاء الراشدين في صدر الاسلام بل نقصد المدنية والحضارة والفلسفة والعلوم والآداب ومجموعة الافكار التي جاء بها الاسلام وصارت ثروة مشاعة لجميع الامم التي اتخذت الاسلام ديناً أو استغللت به وقد التي النبي محمد ﷺ خطبة الوداع في حجة الاخير الذي انتقل بعده من دار الفناء الى دار البقاء وقد وصفها ج. ه. ولز المؤرخ الانجليزى في «تاريخ العالم» بأنها أجل وأعظم دستور انساني

رآه العالم ، ونقل الى اللغة الانجليزية معظم فقراتها واليك نص تلك الخطبة البليغة قال عليه  
الصلاة والسلام :

﴿ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ  
أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ  
لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ  
أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَحْسِنُكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَأَسْتَفْتِي بِالَّذِي هُوَ  
خَيْرٌ . أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ أَسْمِعُوا مِنِّي أُبَيِّنُ لَكُمْ فَإِنِّي لَا أَذْرِي لَعَلِّي لَا  
أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ  
عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي  
بَلَدِكُمْ هَذَا الْآهْلُ بَلَغَتْ أَلَهُمَّ أَشْهَدُ فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى  
الَّذِي اتَّيَمَّنَتْ عَلَيْهَا وَإِنَّ رَبَّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَإِنَّ أَوَّلَ رَبِّ أَيْدِيهِ بِرَبِّ عَمِّي  
الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِنَّ دِمَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَيْدِيهِ بِدَمِ  
عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ أَخْرَثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِنَّ مَا نَزَّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرَ  
السَّدَانَةِ وَالسَّقَايَةِ وَالْعَمْدُ قَوْدٌ وَشِبْهُ الْعَمْدِ مَا قَتَلَ بِالْعَصَا أَوْ الْحَجَرِ وَفِيهِ مِثَّةُ  
بَعِيرٍ فَمَنْ زَادَ فَمَوْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَأْسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي أَرْضِكُمْ هَذِهِ وَلَكِنَّهُ  
قَدْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحْتَرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ  
إِنَّمَا النَّسِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا  
لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ذُو  
 الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبُ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ . الْأَهْلُ بَلَغَتْ  
 اللَّهُمَّ أَشْهَدُ . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْنَ حَقٌّ لَكُمْ  
 عَلَيْنَ أَنْ لَا يُوَاطِنَنَّ فِرَاشَكُمْ غَيْرَكُمْ وَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدًا تَكَرُّهُنَّ يُؤْتِكُمْ إِلَّا  
 بِإِذْنِكُمْ وَلَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ  
 وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ فَإِنْ انْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ  
 فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكُسُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنَّمَا النِّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَارٍ لَا يَمْلِكُنَّ  
 لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي  
 النِّسَاءِ وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ حَيْرًا . الْأَهْلُ بَلَغَتْ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا  
 الْأُمِّيُّونَ إِخْوَةٌ فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي مَالُ أَخِيهِ إِلَّا عَنِ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ . الْأَهْلُ  
 بَلَغَتْ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ . فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ أَعْنَاقَ بَعْضٍ  
 فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ كِتَابَ اللَّهِ وَأَهْلَ بَيْتِي  
 الْأَهْلُ بَلَغَتْ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ  
 لِأَدَمَ وَآدَمٌ مِنْ تُرَابٍ أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَثَقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَيَّ عَجَمِيٍّ  
 فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى الْأَهْلُ بَلَغَتْ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ  
 الْغَائِبَ . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْبِرَاثِ وَلَا يَجُوزُ  
 لِوَارِثٍ وَصِيَّةٌ فِي أَكْثَرِ مِنَ الثَّلَاثِ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ وَمَنْ أَدْعَى  
 إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا  
 يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴿

فلاسلام حضارة ومدنية ونظم سياسية واجتماعية، كما هو دين وعقيدة والاسلام دولة وعدل وقانون وفلسفة في الحياة كما هو تعاليم سماوية ولا ريب في أن أمة تدين بالاسلام ليست في حاجة الى غيره من النظم الوضعية وقد خاب وأخطأ من ظن أو توهم أن الشيوعية أو المشاعية الروسية يمكن أن تظهر في الأمم الاسلامية أو تنمو أو تروج فان الاسلام غنى بعدله ورحمته وإحسانه وزكاته ومساواته عن كل فكرة تأتي من الخارج مهما كان ما انطوت عليه من الخير أو مكائفة الشر أو تقليل مصائب الانسانية ومتاعبها . وربما كانت روسيا أو أوروبا محتاجة الى تلك المبادئ ، فلم الخيار في اتخاذها أو الاعراض عنها . أما نحن ففي غنى عنها وعمما يشبهها . ويكفينا أن نفهم ديننا ونحبي مبادئه في نفوسنا ونخلص لأنفسنا ولاقوامنا حتى نستعيد مجدنا واذا تعصبنا فأما نتعصب للانسانية والرحمة ، للمدينة والحضارة ، للتسامح والغفران، وهذه هي المبادئ السامية التي جاء بها الاسلام ونشرها في جميع ناحيات العالم فقد كانت غايته الاولى عتق الافكار وتحريرها واطلاق أعناق البشر من ربة العبودية للارباب والاثان والظالمين ومن مبادئه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وانني أنتهز هذه الفرصة لأشكر جميع العلماء والفضلاء والمجاهدين والمفكرين الذين رجعت الى كتبهم وانفعت بمؤلفاتهم وآرائهم وأفدت بمحادثتهم ولا سيما الاستاذ الفاضل والمؤرخ الثقة والرحالة الشرقي الشهير السيد عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس والسيد ميرزا رفيع مشكي أديب فارس وسير محمد اقبال شاعر الهند الاسلامية وفيلسوفها . والسيد غلام رسول مهر صاحب جريدة « انقلاب » الهندية بلاهور . والشيخ كامل القصاب ودكتور عبد الرحمن شهبندر المجاهد السوري الاديب وعياض بك اسحاتي والامير سعيد شامل والامير سعيد الجزائر والسيد مرسي جار الله زعماء قفقاسيا والاورال وخيرالدين الزركلي وكل مؤلف أو كاتب لم يرد ذكره في صفحة مراجع الكتاب سهوا . والحمد لله على خير معونته وحسن توفيقه

محمد لطفي جمعه

مصر الجديدة في رمضان المعظم ١٣٥٠ ( يناير ١٩٣٢ )



- ١ -

١- ربما كانت مسألة الزعامة والزعماء في الشرق من أعضل المعضلات التي تعانينا تلك الشعوب من فجر التاريخ الى يومنا هذا .

يكون الزعيم مصلحاً دينياً أو مصلحاً اجتماعياً أو زعيماً سياسياً أو قائداً حروبياً . وقد يوصله الدين أو السياسة أو الحرب الى الملك .

وربما يكون نصيب المصلح الاجتماعي أقل الأنصبة في المجد والمنفعة الذاتية .

على أن الزعيم الصادق يكون دائماً سامي الغرض بعيد الغاية فلا يتطلب لنفسه شيئاً ، كما قد يكون طموحاً دامطامع فيسخر لنفسه ولذويه كل شيء . وبتدر ما يكون الأول نافعاً يكون الثاني مضرراً وذاً يخطر على الوسط الذي ينشأ فيه .

يجب علينا أولاً أن نتحصى شعوب الشرق من حيث الزعامة والمقارنة بينها وبين شعوب الغرب .

في الغرب يظهر أعظم الرجال بكثرة مهولة ، وينبغون بسهولة ، ويتقدمون في طريق الحياة بقوهم النجاح ويكلمهم الظفر بأكاليل الغار . لأسباب لا توجد في الشرق ، فإن الغرب ميال بطبيعة شعوبه لتشجيع النابغين والاقبال عليهم وتعظيمهم والانتفاع بهم . وربما كان الرجل العظيم في الغرب غالباً ذا ميل اجتماعي أي أنه يفضل الصالح العام على الصالح الخاص بل الأعجب من ذلك أن الطبقات الوسطى من الشعوب الغربية تفضل الصالح العام على الصالح الخاص . وترى أفرادها على ما هم به من خصاصة يتقدمون منفعه المجموع على منفعتهم الذاتية ، وقد سمعت حديثاً بين شرطي أجنبي وعامل مصري قال الأجنبي نحن في بلادنا ننظر أولاً الى المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة تأتي عرضاً . أما في بلادكم ، فالمنفعة الشخصية

عندكم مقدسة ، ولو أخذت في سبيلها المنفعة العامة وقضت عليها . لقد صدق هذا الشرطى وأصاب كبد الحقيقة أصاب ليس لأنه عبقرى أو قوى البصيرة أو عالم اجتماعى ، بل لأن الأمر ظاهر كالشمس . الشرقى بصفة عامة والمصرى بصفة خاصة يفضل نفسه وذويه ويقدمهم وقد يقدم قريبه أو صديقه مع عجزه وضعف خلقه على الغريب عنه ولو كان من أهل الكفاية وذوى الخلق القويم .

وهذا الأمر ظاهر في مناصب الحكومة ، وفي الأعمال الرسمية ، حيث يمكن الحصول على المنافع المادية على حساب الغير ، ولكن ربما يتردد الشرقى في مصلحته الخاصة في تفضيل قريبه أو صديقه المضر على الأجنبي النافع . وهذا أيضاً من الأنانية وحب النفس ، لأنه هنا يدافع عن مصلحته الشخصية ولا يريد أن يعبت بها القريب الفاسد ، إذا كان لديه أجنبي صالح يقوم بالعمل . إذن رابطة الدم أو رابطة المودة تنفع صاحبها ما دام الغرم واقعاً على الغير أى على المنفعة العامة أما إذا كان الغرم واقعاً على الشرقى صاحب العمل فهو يقضي قريبه أو صديقه ، وحينئذ يجد الحججة الدامغة يقابل بها من يعترض عليه . حينئذ يقول الحق ويراها واضحاً ويدافع به عن خطته . وهو نفسه يجد مثل هذه الحججة الدامغة إذا اعترضت عليه عند تفضيله القريب أو الصديق في العمل العام على الغريب ذي الكفاية ( أقصد بالغريب عنه لهماً ودماً أو عصبية وصدافة ) فهو يقول ان فلاناً ليس أقل كفاية من غيره ، انه على الأقل يطيعني ، ولا يخونني ، وهو صادق إذ يقول ذلك لأنه مادام لا يمتك مع قريبه أو صديقه في منفعة خاصة فيندر أن يحدث بينهما خلاف .

أرأيت كيف أن الشيء يمكن أن يكون حقاً وباطلاً في وقت واحد وكل ذلك لدي توضيح المنفعة العامة . ان هذا الأمر مع فظاعته وهوله صحيح ومشاهد وواقع في كل مكان تجده وتجد آثاره حيث تضع اصبعك .

ان مضار هذه الحالة الخلقية عظيمة جداً ، عظيمة لاتحمد ، وتناجبها الفاجعة لا تحصى . ليس هذا فقط ، بل اننا نحن الشرقيين وبصفة خاصة المسلمين قد لدغنا منها مرات في التاريخ

وقد قال النبي لا يبلغ المؤمن من جحمر مرتين لأن اللوعظة الأولى أو التجربة الأولى كافية لحمايته.  
لقد حدث هذا في فجر تاريخ الاسلام . في حادثتين من أهم الحوادث .  
الأولى في خلافة عثمان والشانية في خلافة علي .

أما في خلافة عثمان فان الخلاف الذي نشب بين المسلمين أولاً كان لأنهم انتخبوا عثمان دون علي ، وكان فريق من أقارب علي يفضلونه لا لأنه من أبطال الاسلام ولا لأنه بذل في سبيل الدعوة ما بذل ولا لفصاحته وشجاعته ، بل لأنه ابن عم النبي وابنه بالتبني وصهره بزواج السيدة فاطمة . قالوا انه من العترة النبوية وانه والد الحسن والحسين وكانا أحب الناس الى جددهما الرسول فلاجل هذا كان علي أحق بالخلافة من عثمان . وغضبت السيدة فاطمة وقالت ألفاظاً رواها المؤرخون ويفهم منها أنها دهشت لأن زوجها لم يكن الخليفة والأمر أمرهم وشأنهم . على نبي أعذر السيدة فاطمة عليها رضوان الله لأنها سيدة . وقد كانت بداية الفتنة هذا الخلاف العائلي .

بعد ذلك صار عثمان خليفة فوقع في عين الخطأ الذي قاومه أنصاره ، لقد قرب أقاربه وأصحابه وأحبابه وعينهم في المناصب واستعملهم وولاهم شئون المسلمين في أنحاء الدولة . واستعمل حقه في الخلافة استعمال ملك شبه مطلق ، لاحظ انني أحب عثمان واعجب به ولا أريد ان أمس شخصه الكريم ، لا لأنه ثالث الخلفاء الراشدين ولا لأنه صهر النبي ، بل لأنه مات شهيداً ، وذاق أهوال الاضطهاد وهو في الثمانين من عمره ، ورشق بالحجارة في شوارع مكة ثم ذبح في بيته وهو يقرأ القرآن ومن ذبحه ؟ احق الناس بالدفاع عنه . . محمد بن ابي بكر الذي يعد ولد العثمان ، فانظر الى هذا المصاب العظيم يصيب المسلمين في فجر تاريخهم وليت الأمر وقف عندهذا الحد ، وليت هذه الجناية كانت الأولى والاخيرة من حوادث القتل السياسي .

ان عثمان مات فكان دمه سبباً في فتنة عظيمة هي الفتنة التي عاني الاسلام نتائجها أجيالاً ولا تزال آثارها باقية حتي الآن في انقسام السنة والشيعة .



ولا أنكر أن بعض المستبدين الأقوياء قاموا في أمم الغرب وأسسوا دولاً بالقوة والخذاع، ولكنهم كانوا من الشواذ والاستثناء، والقاعدة العامة اختيار الأصلاح، أما في الشرق فقد كانت القاعدة هي الاستبداد ومجى الصالح وتوليته هي الشاذ فقد جاء عمر بن عبدالعزيز منفرداً في سلسلة من الخلفاء الضعفاء أو المتهاونين في شؤون أمتهم، فكان الخليفة الفاضل يأتي مصادفة لا قصداً .

إذن كان يجب علينا أن نتعظ من الحوادث الأولى ولا نسمح لها بأن تتكرر، ولكننا نتعظ، حتى ان الدول التي وضعت أنظمة لولاية الملك باختيار الأرشد فلا أرشد، مثل الدولة العثمانية اختل حبل النظام فيها، وأخذ القوي المبعد يسعى بكل الوسائل للاستيلاء على الملك ولم يتردد في هذا السبيل .

ينتج عن هذا أن التساهل في مسألة واحدة، وهي تفضيل الأقارب والأصهار جلب كل المصائب التي حلت بالاسلام، كانوا يقولون ان الخلفاء فسدوا أو ضعفوا أو مكثوا الأجانب أو خاربوا العلماء، أو اضطهدوا النابغين، وكل هذا صحيح لأن الرجل الذي كان علي رأس الخلافة لم يكن الرجل الواجب الوجود، ولو أنه سلك في وجوده عين الخطة التي رسمها النبي ما وقع الاسلام فيما وقع فيه، ان النبي لم يضع نظاماً للملك، ولم يضع للدولة دستوراً هذا صحيح ولكن لا ننسى أن النبي ترك أنظمة ودساتير لاتمد، في القرآن والسنة، ولو أنه أراد أن يحصر الملك أو السلطنة في شخص معين ما كان هذا ليعجزه ولكن احتراماً للحرية ورغبة منه في تربية الشعب تربية سياسية ترك لهم الخيار بعد أن أبان لهم الحق من الباطل في مئات الأحاديث بعد الآيات القرآنية وفي خطبة الوداع التي تعد من أمهات الدساتير الانسانية في الحكم والادارة، فإذا يصنع النبي لشعب فاسد، أو لامة خالية من المبادئ أو لرجال يفضلون المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ليس على أعمال النبي غبار حتى في نظر أعد خصومه. ولكن العيب كله راجع للذين جاءوا بعده وخلطوا وأفسدوا .

ماذا نرى في الشرق؟ الزعيم الديني أولاً .

٢ - قام في الشرق عشرات من الزعماء الدينيين درسناهم بإيجاز في مكان آخر من هذا الكتاب انما الذي يهمننا الآن الزعيم أو البطل الديني الذي جاء بعقيدة منزلة . وهم في الشرق السامي ثلاثة موسى وعيسى ومحمد وترك غيرهم من الانبياء المرسلين أمثال ابراهيم ونوح ويوسف لأنهم لم يؤسسوا دولا أو بعبارة أخرى لان أديانهم لم تؤد الى ايجاد أنظمة سياسية أو اجتماعية . أما هؤلاء الثلاثة فقد أسسوا دولا لازال باقية في الشرق حتى الساعة .

ماذا يهمننا من تاريخ موسى ؟ شريعة عظيمة وعادلة وشديدة وهي أولى الشرائع المنزلة في الشرق . ولكن الذي يهمننا هو ما لقيه هذا الرجل من شعبه فان أحد أفراد هذا الشعب الذي كان يدافع عنه موسى وشي به وأوقعه في تهمة جنائية القتل العمد . وعلى من اعتدي موسى ! علي رجل مصرى كاد يفتك بالاسرائيلي وشهد الاسرائيلي دفاع موسى عنه ، فكان هو المبلغ ضده والمهدد له . . . أرايت ؟ هذه حادثة فردية ولكنها لها كل دلالتها . بل هي رمز للتاريخ الشرقي كله . أن الرجل الذي تدافع عنه وتحميه وتذود عنه وتريدله الحياة لأنه من الشعب ولا أنه ضعيف هو الذي يحفظ لك هذه الحادثة لينتفع بها ضدك ويؤذك . .

هل تجدي في الغرب خيانة كهذه ؟ ربما ولكن نادراً . هل تجدي بين الوحوش وفي عالم الحيوان خيانة كهذه ؟ ربما ولكن من الذئب أو من الثعبان ولكن كل مخلوق آخر مهما كان فظيماً قاسى القلب لا يقع في هذه الجريمة ، أى انه لا يقابل الاحسان بالاساءة ، ولا يقابل الجميل بالنكران . ان موسى لم يحسن لليهودى فقط بل انه ضحي في سبيله ، لقد استهدف للخطر لأنه قتل مصرياً . لقد بلغ حبه لشعبه ممثلاً في أحد أفراده ، درجة الجريمة . ثم ماذا لقي موسى من شعبه بعد أن لجأ الى كل الحيل في اتقاذه واخراجه من مصر وهي بالنسبة لليهود كانت دار عذاب واساءة ؟ لقد عذبه في الصحراء ، وأذاقوه مرارة الحياة ألواناً .

فأخذوا يعصونه وهو يأتي لهم بأوامر الله ونواهيته . وأخذوا يعبدون العجل ويضايقونه ويمتحنونونه حتى كاد يجن من فعلهم .

واليك ما وقع للزعيم الديني الثاني وهو عيسى بن مريم عليه السلام .

لقد كان عيسى في نظر النصارى الها متجسداً ، وفي نظر المسلمين نبياً مرسلًا . وفي نظر اليهود ناثراً على قومه وعلى عقيدته . وعلى كل حال فهو في نظر التاريخ الاجتماعي مصلح قومي . أراد قبل كل شيء إصلاح حال اليهود واخراجهم من مظالم الرومان فأتى بمبادئ سامية في الحب والعدل والرحمة والتسامح والعفو والمغفرة . مبادئ هي من أجل مناطق به البشر ومن أفضل الاسس التي تبني عليها مكارم الاخلاق . وقد نحاشي على قدر طاقته التدخل في شؤون الدولة الحاكمة . لانه كان يريد أن يهدمها بالتدريج ومن جهة أخرى يعامل الاخاء والمساواة والمحبة . ولا ريب في أن عيسى عليه السلام من اسراييليا عبقرى ، وكان قائماً ضد الانظمة الفاسدة التي وصلت بينى اسراييل الى ما وصلت اليه في عهده . وكل هذا طبعاً بأمر من الله سبحانه وتعالى فماذا كانت النتيجة ؟

ان اليهود قد أوقعوا به ، بعد أن حاولوا مرات ان يفسدوا بينه وبين قيصر ( وهو رمز السلطة الرومانية ) وأوغروا عليه صدر الندوب السامى الرومانى ( بيلاطوس ) وخلقوا له التهم ونسبوا اليه أنه يقول أنا ملك بنى اسراييل . ليكون من ذلك جريمة سياسية ، ورغبة في انتزاع الملك ودعوة الى الثورة ضد الرومان .

لقد حدث للمسيح ما هو معلوم في التاريخ من قبض واتهام وتعذيب . وذهب في الرابعة والثلاثين ضحية الظلم ورفع الى السماء ليتم الوعد الربانى وهو تخليص شعبه . ثم بعده بستة قرون ظهر النبي محمد (ص) في جزيرة العرب . وتاريخ ما لقيه من قومه معلوم معروف فمن الاحتقار والسب الى الاضطهاد والاهانة حتى شرع أحدهم في خنقه وهو يصلبى وكانوا يلقون عليه الاحجار في الطريق . وحاولوا استغواه بكل الوسائل بالمال والملك والسيادة المطلقة ثم تأمروا على قتله . ولما هاجر الى المدينة ، في نفس اليوم الذي عينوه لاغتياله في فراشه اقتفوا أثره في حملات منظمة كأنه مجرم فار من وجه العدل .

ولما بعد عنهم وصار في مأمن شنوا عليه الغارات وحاربوه وبلغ الجيش الذى حشدوه للقضاء عليه في موقعة الخندق الشهيرة عشرة آلاف جندى . تصور أن أهل مكة يستطيعون

في القرن السابع للمسيح أن يجندوا جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي بين راجل وراكب وهجان ، وقدما حشدوا له جيشاً فيه القبيلة العظام . ولو لم يكن سلمان الفارسي مشيراً للجيش الحمدي ، وهو الذي ابتكر فكرة حفر الخنادق حول المدينة فلا يعلم النتيجة الا الله . جيش من عشرة آلاف جندي على رأسه جميع عطاء مكة وأبطالها وفرسانها وساستها ودهاتها ضد النبي وعصبة القليلة العدد .

ولماذا هذا العدا كلة ؟

لأن النبي كان يحب الخير لقومه وللانسانية ، فأخرجهم من دياجير الممجية والجاهلية والوثنية وجعل شعبهم أعظم شعب في العالم . وجلب لهم الغنى والمال والجاه والعزة . والاعجب من هذا أن معظم الزعماء الذين كانوا في هذا الجيش قد استفادوا من الاسلام بعد أن دخلوا فيه مرغمين أو راغبين وصاروا خلفاء وأئمة وأمراء وقواداً وزعماء وولاة وقضاة في جميع أنحاء العالم . وكانوا حملة المدينة العربية التي أضاعت سواد الدنيا القديمة .

لقد قصرت بحى في الزعامة الدينية على الزعماء الذين لا يوجد شك في زعامتهم لأنهم جاءوا برسالة ربانية . أي أنهم مؤيدون من الله بامور فوق الطبيعة فما بالك بالزعماء الدينيين الذين اتدبوا أنفسهم للإصلاح الديني بغير رسالة منزلة هؤلاء يدخلون في حظيرة التاريخ ويرد ذكرهم في كتابنا عرضاً ونسكتفي بمن ذكرنا

انظر الى الزعيم الاجتماعى وهو رجل الاصلاح .

ان عمله في الدرجة الثانية بالنسبة لأعمال النبوة .

وعمله يتناول حياة الأمة بحذا فيرها .

ليس في الشرق الاسلامي مصلحون اجتماعيون كثيرون . بل لعلمهم يعدون على الاصابع . لأن الاجتماع في الشرق يدخل عادة في الدين !

٣- وربما يكون الاصلاح الاجتماعى جزءاً من عمل الزعيم السياسى . فيندرج فيه .

ولا يوجد مصلح اجتماعى محض فيمن نذكر في الأزمنة الحديثة سوى قاسم أمين .



فهو مثال للمصلح الاجتماعي الصافي ، الخالص من كل الصفات الأخرى فقد كان هذا الرجل قاضياً . وكان تعليمه وحياته العملية يدفعانه نحو الإصلاح الاجتماعي المحض .

وقد عاش في زمن كنت مصر فيه احوج ما تكون الى مثله . لقد قالوا انه كردي الاصل . وهذا لا يهمني فانه ليس من الممكن في مصر ان تستخلص رجلاً منحدراً من اصل معصرى مؤكداً الا في اقصي الصعيد . وهو يكون في الغالب اشبه الناس بالمصريين القدماء ويعمل غالباً في خدمة الارض والزراعة . ولكن الطبقة المتعلمة والمثورة والتي تخرج بعض الرجال النافعين هي خلاصة شعوب مختلفة . ولذا فأنا لا اكترث لسكردية المرحوم قاسم امين . واعتبره مصرياً بكل معاني الكرامة لانه ولد هو وابوه وأمه في مصر وعاش وتربى وتغذى بلبان مصر وتعلم لأجل مصر وخدم مصر في حياته الخاصة والعامة واسس اسرة مصرية وهذا يكفي . راي هذا المصلح المصري قبيل وفاته بعشر سنين ما وصلنا اليه من التدهور والانحطاط بسبب تفكك الروابط العائلية وقد رد هذا الانحطاط الى جمل المرأة وتقييدها فاستجمع شجاعته ووضع كتاب تحرير المرأة الذي يعد بالنسبة لمصر من اعظم الكتب في التاريخ الحديث . فماذا كانت عاقبته .

لقد قامت عليه التيامة من كل ناحية . واضطهد واخذين وصوبت نحوه سهام النقد الشديد حتى من رجل يعدونه في مقدمة أهل مصر ذكاء وحرية تفكير وتعلماً . وصار اسمه مضغة في الافواه ونسب اليه الاشرار ما نسبوا وانطلقت السنة السوء تعيبه وتمند رأيه وألقوا أكثر من مائة كتاب وسودوا الوف المقالات في الرد عليه وتخطئته .

لا أدري ان كان قاسم قد اغتبط بهذه الحركة التي قامت ضده ، وقد رأى بنظر دائن ان هذه الضجة أدليل الحياة . وانها رد فعل يدل على وجود المصريين وشعورهم وأن الذي يناقش اليوم رأياً ليخطئه قد يتنعم غداً بصحته . وقد تشجع قاسم وكتب كتاب المرأة الجديدة . فاستقبل اوبلاً من القذف والسب والقذح في هذه المرة من جميع أنحاء العالم الاسلامي وانبرى للرد عليه كتاب من شمال افريقيا والشام والعراق والحجاز والهند واندونيسيا . وكان في مقدمة

هؤلاء كلهم علماء الرسوم الذين اغروا به العامة . وهؤلاء العلماء الجهلاء (ان صح الجمع بين الصفتين) كانوا يعلمون ما وراء حركة قاسم من الاصلاح ويعلمون انه لم يخرج في اقتراحه عن حدود الشرع الشريف . وانه استشهد في كتابيه بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأخبار السلف الصالح .

بل ان هؤلاء العلماء اتخذوا كتابي قاسم وسيلة للنيل من صديقه ورفيقه المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده وهو مصلح ديني من لقوا أشد صنوف التنكيل في سبيل مبادئهم . وادعوا أن قاسماً لم يكن وحده في اقرار هذه الجريمة بل ان الذي ساعده وعضده وأخذ بيده هو الشيخ محمد عبده فرموا طائرین بحجر . رموا قاسماً بالضعف الى درجة الاستعانة في آرائه بالمفتي ورموا المفتي بالنفاق والجبن الى درجة انه لم يستطع الظهور بشخصه في الدفاع عن آرائه . وكانت جريدة المؤيد في مقدمة الصحف التي أشعلت نار تلك الفتنة . مع ان صاحبها المرحوم كان على وشك احداث أعظم فضيحة زوجية في تاريخ مصر الحديث

كان قاسم أمين في هذا الوقت قد فرغ من الدفاع عن الأمة المصرية بل عن الشرق كله ضد النقاد الاجانب . فان الكونت دارنبورغ الفرنسي المستشرق كتب رسالة في الطعن على المصريين وعدم صلاحيتهم للعلم والسياسة . ونشرها في بلاده فانهري له قاسم ووضع باللغة الفرنسية كتاباً اسمه « المصري » دافع فيه أعظم دفاع وأمجده عن الامة المصرية بأسرها في تاريخها وفي اخلاقها وفي ذكائها وفي آدابها واستعدادها القومي للتمتع بالحقوق العامة ، ( والكتاب مطبوع ولم يعن أحد بترجمته الى العربية ) تلك الامة التي كان كتابها يتهشون في لحمه بسبب رغبته في الاصلاح . في سنة ١٩٠٣ ظهرت قضية الزوجية بين المرحومين السيد عبد الخالق السادات والسيد الحسيب النسيب الشيخ على يوسف شيخ السجادة الوفاية . ولعب فيها لفيف من كبراء رجال الدين والادب والقضاء أدواراً مهمة . والعجيب ان هذه الفضيحة كان سببها جهل المرأة وفساد العادات القديمة في الحياة والنزواج . فلوان المرأة المصرية كانت متعلمة ولوان الاباء كانوا يحترمون بناتهم ويحترمون حريتهن ، أى لو أنهم تبعوا خطة قاسم ، في التعليم

والترية الاثوية ما وقعت تلك الفضيحة التي كانت بمثابة قضية مدام كايوفى فرنسا شهرة .  
بعد ذلك بعام توفي الشيخ محمد عبده . وفي سنة ١٩٠٨ أي قبل أن تمضي عشر  
سنوات على ظهور كتاب تحرير المرأة توفي قاسم امين في ظروف محزنة .

فانه في أواخر شهر ابريل سنة ١٩٠٨ ، وبعد شهرين من تأريخ وفاة المرحوم مصطفى  
كامل زارت مصر طائفة من الطلاب والطالبات الرومانية وزاروا نادى المدارس العليا وألقى المرحوم  
قاسم امين محاضرة باللغة الفرنسية قال فيها انه يتمنى أن يهيش ليرى بعينه القى المصري  
والفتاة المصرية جنباً الى جنب في طلب العلم والسياحة وفي معاهد التربية والتهديب .  
وذهب الى داره حيث جالس على مقعد وثير في غرفة الجلوس وشرب قدحاً من الماء ولقافة  
من الطباقي ، ثم تأوه وسقط ميتاً .

٤ — ربما كان البحث في الزعامة السياسية أصعب بمبحث في هذا المجال .

لقد ظهر في الشرق زعماء سياسيون كثيرون . بل في كل ناحية من ناحيات الشرق  
العربي وفي مصر خاصة . ونحن نذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الافغاني واجدعراي  
ومصطفى كامل وسعد زغلول وبعض الزعماء في بلاد فارس وسوريا وتركيا وشمال افريقيا .  
أما جمال الدين الافغاني فكان في الحقيقة مصالِحاً عاماً للدين والسياسة والاجتماع .  
ولكن السياسة كانت الصبغة الغالبة على مبادئه . ولعله اتخذ الاصلاح الديني والاصلاح  
الاجتماعي ونشر الفلسفة وسيلة للاصلاح السياسي لانه كان يرى ان اصلاح السياسة يصلح كل  
شيء . وكان الاصلاح السياسي في نظره ينحصر في نقطتين الاولى تحرير الشعوب من الحكم  
الاستبدادي . أي من ظلم الحكام الشرقيين المطلقين الذين كانوا لعهده في فارس والافغان  
وتركيا ومصر ، وعندما ظهر لأول عهده لم تكن اور وبا قد هجمت على الشرق هذا الهجوم  
الفظيع بل كان الانجليز في الهند وحدها والفرنسيون في الجزائر وحدها . ونظر بعد ذلك في  
تخليص أمم الشرق الواقعة تحت الحكم الاجنبي وارتأى خلاص الشعوب الاسلامية مما  
كانت واقعة فيه لعهده تأليف الجامعة الاسلامية تحت رئاسة الخليفة . ولم يكن لعهده رجل

يصلح لتولى هذا المنصب سوي السلطان عبد الحميد .

لقد لجأ الافغانى أولا الى الملوك أنفسهم وحاول هدايتهم بالعلاقة الشخصية وقد نجح فعلا في اقناع شاه الفرس بضرورة اعطاء الدستور الى شعبه . وتمكن من قلاب الشاه وبذل له الاخلاص كله . وامتزج بالمصلحين من الشعب الفارسي بعد ان استمالهم اليه بعقله وعلوه وفصاحته وشخصيته الجذابة ولما اضطهد وآمروا ضد سافر الى بلاد الهند وشعر الانجليز بقوته ونفوذه فنقوه فذهب الى الافغان وكانت مملكته تتناهبها المظالم وهي واقعة تحت السلطة الانجليزية لانها خطر على بواب الهند . فلم يكن الدور الذى لعبه فيها عظيما ولكنه لتجها ، وترك فيها خيرة صالحة كما ترك خميرته فى فارس وكما ترك آثاره فى الهند . وانى أفسر كل ما حدث فى تلك البلاد من الثورات والنهضات القومية والنزعات الدستورية بفعل جمال الدين دون سواه . الذى كان نبي القومية الشرقية وأستاذ الحرية فى تلك البلاد . ثم جاء الى مصر وعلم فيها ونشر مبادئه . وكانت أسرع الامم للاستفادة بمبادئه فحصلت الثورة العربية بعد خروجه من مصر بقليل . وفي مصر لقي الافغانى اضطهادا من العلماء ثم من الحكومة ثم من الشعب ولم يذبه ولم يلتف حوله الا بضعة نفر من العطاء يكادون يعدون على الاصابع وأعظمهم بلاريب المرحوم محمد عبده الذى نفذ خطته بعد موته . وكان وارثه الوحيد وحامل الشعلة التي تلقاها عنه فى الاصلاح الديني والقومي .

وقصد جمال الدين الى تركيا حيث لقيه السلطان عبد الحميد بالخفاوة والترحيب والكرامة ولم يكن ذلك لدعخ عينيه ، ولكنه لانه رأى فيه عضد آفي ففكرة الجامعة الاسلامية أو على الاصح لان فكرة الجامعة الاسلامية التي بسطها له جمال الدين قد راقته وأراد الانتفاع بها لتوطيد ملكه . وكل رجل الاصلاح الذين قاموا فى تركيا تلقوا عن جمال الدين مبادئهم .

ومات جمال الدين فى القسطنطينية فى أواخر القرن التاسع عشر مصابا بالسرطان فى اسانه ، ولهجت الألسن بعد ذلك انه ذهب ضحية خصومه كما هي العادة فى الشرق . وهذه

شائعة لا أثبتها ولا أنفيها .

ولكن ماذا كانت حياة جمال الدين الذي كان من عظماء العالم ؟

انه كان كسقراط في حكمته وقدرته على تكوين الرجال .

وكان كابن خلدون في علمه واتساع دائرة معارفه

وكان كديموستين في فصاحته وخطبه وكچان چاك روسو في حريته وصراحته

لقد عاش مضطهداً مطارداً ، ولم يتمكن في واحدة من الممالك الاسلامية الشرقية التي عاش فيها وأحب خيرها وخدم شعبها من أن يعيش عيشة راضية أو يتمتع بحياة هادئة ولم يؤسس أسرة ، ولم يبن بيتاً ولم يدخر مالا . ولم يتول منصباً . بل عاش عيشة المفاليك المشردين . يبيت ليلته ولا يدري أين يكون صباحه ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي أيقظ المشرق من رقدته التي نامها سبعة قرون منذ اجتاحه الموغول من الشرق والاوربيون من الغرب ، هو الرجل الذي أنهض الشرق بعد أن يش كل من عداه من ايقاظه .

٥- ان الزعماء السياسيين في الشرق العربي الذين عرفناهم ورأينا أعمالهم يعدون على الاصابع ، وقد برز ذكر بعضهم عرضاً في غير هذا المكان من الكتاب ، وفي مقدمتهم بالنسبة لمصر المرحومون محمود سامي البارودي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وبالنسبة لسوريا المرحومان السيدان عبدالرحمن الكواكبي وفوزي الغزوي وبالنسبة لشمال افريقيا خير الدين باشا التونسي المتوفى سنة ١٨٩٠ والسيد عبدالعزيز الثعالبي وقد ظهر في تركيا عشرات من الزعماء أولهم المرحوم مدحت باشا ومحمد طلعت ولم يكونا من الزعماء الذين جمعوا بين صفتي المحاربة والسياسة أمثال أنور ونيازي وجمال ومصطفى كمال والمرحوم أحمد عرابي المصري . ولا نريد الافاضة في ذكر الاسماء انما ذكرنا هؤلاء من قبيل التمثيل والاستشهاد . ولو اننا أخذنا أحدهم نموذجاً لبقيتهم كان في سرد حوادث حياته ما يدل على حالة الزعيم السياسي في الشرق العربي الاسلامي بصفة عامة . فقد نشأ مصطفى كامل في مصر من والذين مصريين وتربى في المدارس الحكومية الى أن دخل مدرسة الحقوق وظهر نبوغه وميله الى الاشتغال

بالسياسة وكان الاحتلال الإنجليزي حديث العهد ، وكان ناظر المدرسة فرنسياً اسمه موسيو تستو وكان عالماً ومحباً للمصريين ولكن كان يريد الظهور بالاخلاص للإنجليز فتسبب في طرده من المدرسة والصق تهمة طرده بالمرحوم عمر لطفي بك الذي كان وكيل المدرسة ليخلص من عار اضطراد طالب يحب الحرية كما هي عادة الفرنسيين ، وقصد المرحوم مصطفى كامل الى فرنسا فدخل كلية الحقوق بتولوز واستعان ببعض رجال السياسة والأدب في اسمع صوته باللغة الفرنسية ثم عاد الى وطنه وخطب وكتب وأسس مدرسة وصحفاً وقد اتى من الاضطهاد والعداوة في أول أمره من رجال مصريين كان ينتظر أن يكونوا له عوناً فكانوا عليه حرباً ، كالمرحوم الشيخ علي يوسف الذي كان يريد أن يكون زعيماً سياسياً فاضلا عن اشتغاله بالصحافة وغير السيد علي كثير من نوع آخر كانوا دسائس ومتجسسين وحاسدين ، غايتهم الحاق الأذى بكل من يقوم بعمل نافع لمصر والمصريين - وكان بخلاف هؤلاء جيش من الشرقيين من أجناس مختلفة ومعتقدات شتى قد حلوا أرض مصر ونزلوا بها ضيوفاً فأكرمت مشواهم وفتحت لهم صدرها وأغنتهم بالمال والنوال واعتبرتهم اساتذة ومرشدين ، وكانوا هم أيضاً حرباً عليها وقد انتقموا بشرقيتهم وتمكنهم من اللغة العربية فأسسوا بعض الجرائد والمجلات ووقفوها على محاربة مصر وأذاها في شخص مصطفى كامل وكل من يسلك خطته من المصريين وكان هؤلاء الشرقيون متصلين برجال الحكم من الإنجليز ويتناولون المرتبات ويقبضون النقود ثمناً لأضرارهم بمصر التي آوتهم ويدعون أن مصر هذه غنيمة لهم ولغيرهم وليس لأهلها حق عليها . وكانت الوكالة البريطانية في عهد لرومر أهمهم الحنون وكعبتهم التي اليها يقصدون ، ويولون وجوههم شطرها صباح مساء ، ايشوا بمصر والمصريين كأن بينهم وبيننا ثارقديم أودم مهدور من سنة « ستين » فكان هؤلاء في مقدمة أعداء مصطفى كامل وأنصاره ولكن على الرغم من هؤلاء وأولئك نجح ذلك الشاب في نهضته وبلغت دعوته أركان الشرق العربي وغير العربي وكانت جرائده ومجلاته مقروءة في الصين والهند واندونيسيا وتركستان ويران والافغان والعراق وتركيا وسوريا وبلاد العرب والعراق . وصارت مصر في حياته القصيرة مورداً عذبا

لرجال السياسة والأدب والصحافة من إنجلترا وفرنسا والمانيا بفضل مساعيه التي كان يبذلها في كل عام ودعوته الواسعة الانتشار التي تمكن بها من جذب قلوب فئة كبيرة من المنورين ومحبي الإصلاح في أوروبا . ولكن أهل وطنه الذين كانوا ملتزمين حوله كانوا أقلية لا تذكر بالنظر الى عظم شأن الدعوة وقد تمكن خصومه في سنة ١٩٠٤ من التفرقة بينه وبين الخديوي السابق عباس حلمي الثاني بسبب قضية الزوجية الشهيرة وظن الانجليز أن ذلك سيكون سبباً في سقوط الزعيم الشاب فلم تحقق الأيام ظنهم ونجا من كيدهم بفضل ثباته وبعد نظره ، وفي سنة ١٩٠٦ تمكن من انقاذ فلاحى دنشواي الذين حكم عليهم بأحكام قاسية وهم أبرياء ، ولكنه لم يستطع احياء الموتى الذين اعدموا على المشانق وفي سنة ١٩٠٧ أنشأ جريدتين يوميتين باللغتين الفرنسية والانجليزية وكانت صحته قد انهكها الانهماك في العمل العصب المضني ، وقد صادفته عقبات كثيرة تمكن بعلمته من تذليلها وفي أوائل فبراير سنة ١٩٠٨ قضى نحبه بعد صراع شديد بين الحياة والموت وبعد مرض طويل إستنفد البقية الباقية من قواه ، وكان لدى وفاته في العام الرابع والثلاثين من عمره

ولم يتذوق هذا الشاب شيئاً من ملذات الحياة بل عاش ومات وهو لا يعرف لنفسه لذة الا خدمة وطنه والعمل على خلاصه من براثن أعدائه ، ولم يتزوج ولم يؤسس أسرة ، ولم يرزق ولداً ولم يتمتع بشئ مما تتمتع به أعداء مصر الذين خانوها وعاشوا على ضفاف نيلها عشرات السنين ولا يزال بعضهم على قيد الحياة كالاخطبوط يمتص الدماء ولا يشبع ، مات مصطفى كامل فقيراً ، يكاد يكون معدماً ، ولم يوجد بخزانته مال يكفي لتفقات دفنه وهذا أسطع برهان على نزاهته وشرفه واخلاصه .

فهذا شاب أعطي حياته لمصر ولم يطلب منها شيئاً ، ولم يعرف المصريين قدره حق المعرفة الا بعد وفاته فقد كان يوم موته أعظم أيام مصر حزناً وهو اليوم الذي وصفه قاسم امين بأنه يوم خفوق قلب مصر للمرة الثانية بعد حادث دنشواي .

وقد قال المرحوم مصطفى كامل في صيف سنة ١٩٠٥ في حفل من الباشوات والأعيان

لرجل قدم اليه نسخة من كتاب « تحرير مصر » . . « سأقرأ كتابك بعناية تامة ، وإني أشجعك على خدمة وطنك وان كانت خدمة الوطن في مصر تنقلب وبالا على صاحبها فها أنا أضحي بصحتي ووقتي ، وكأني الأتبع لي ولاسرتي أن أشتهل بالحمامة فاقنتي ثروة واحتفظ بصحتي ولكنني ضحيت بهذا كله ، ومع هذا فإني لأنجو من مخالب الشتامين والسبابين الذين يقابلون عملي بالذم والقدح في كل يوم ، مثل فلان الذي يصفني بأني هلفوت وجاعة كذا الذين يضربون الأمثال بأن الوطنية آخر ملجأ للهجاص ! »

هذا كان كلام المرحوم مصطفى كامل بنصه ، ولعل الأحياء من أصدقائه الذين حضروا هذا المجلس وغيره يعلمون مقدار تألمه من حملة صحف خصومه من المصريين وغيرهم ضده ، وبعد أن مضى أكثر من عشرين عاما على وفاة المرحوم مصطفى كامل يزداد فضله ظهورا وجلاء في كل يوم ويبين فضله على غيره ولا يمكن وصف أعمال خصومه ضده من أي جنس كانوا بغير الخيانة ، وعند ما ألقى خطبته الكبرى في شتاء سنة ١٩٠٨ في تياترو زيزينيا بالاسكندرية ، وكانت كلمته الأخيرة لوطنه ، وهي التي قال فيها

« بلادى لك قلبي وفؤادي أنت الحياة ولاحياة الابك يا مصر ! » نقلتها الجريدة لسان حال حزب الأمة ، الذي ألف ليناوي الحزب الوطني ، وجعلت عنوانها « ناقل الكفر ليس بكافر » ومن الواضح أن تلك الخطبة التي كانت تدعو الي تحرير البلاد واستقلالها والاعتراف بحقوقها المقدسة والعمل على إسعاد الشعب المصرى كانت تعد في نظر الجريدة والقائمين بها في ذلك الحين ( ١٩٠٨ ) ككفراً ، اما الصبر على الاحتلال والخضوع للحكم الاجنبى ومساعدة الغاصب على اغتيال حقوق البلاد واستثمارها فكان في نظرهم هو الايمان بعينه لأنه كان هو منهاج حزبهم كما كان منهاج حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية الذي كان يرمى الي خدمة الأريكة الخديوية .

هذه صفحة من تاريخ الزعامة السياسية بمصر قد آتينا بها لتكون مثالا لما سبقها ولحقها في الشرق العربي الاسلامى عامة ومصر خاصة .



لقد تطورت الزعامة السياسية في الشرق تطوراً عميقاً .

فقد كان الزعيم السياسي في أول الأمر يجمع بين السياسة والحرب ، وقد يسعى بالحرب إلى الوصول إلى السلطة العليا ثم يستعين بالسياسة في توطيد مركزه ، وكان من هذا القبيل المرحوم احمد عرابي الذي كان زعيماً سياسياً ، وكانت صفته الحربية ملحقة بزعامته السياسية لأنه لم يكن جندياً عظيماً ولا قائداً موقفاً ، وسمح لخصومه أن يهزموه وأخطأ في أمور حربية كثيرة ولم يعمل بنصيحة كثيرين من المخلصين له الذين كانوا أدرى منه بمواطن النصر والهزيمة ، قال لي بلنت في منزله سنة ١٩٠٩ بحضور صديق مصري « لم يكن عرابي جندياً ذا قيمة حربية فلا تحتقروه ولا تنصبوا له تماثلاً . ولكن الثورة العرابية ضمت زعماء آخرين يجمعون بين السياسة والحرب والأدب ومنهم المرحوم محمود سامي البارودي الذي قيل عنه انه كان روح الثورة ، وقد حارب خارج مصر في حروب الدولة العثمانية ضد روسيا أما الزعماء الحربيون الحقيقيون فلم يكن لمصر نصيب فيهم بل ظهر معظمهم في تركيا ومنهم من قوض تركيا القديمة في سبيل الحرية والاستقلال ومنهم من شاد بناءها الجديد ، أما الزعماء الحربيون الذين ظهروا في تركيا أمثال أنور ونيازي وجمال وشوكت فقد ماتوا جميعاً شهداء بأيدي أجنبية مأجورة وذهبت دماهم هدراً ما عدا أنور الذي مات شهيداً وهو يحارب ضد البولشفيك في بخاري ولكن الآخرين قد ذهبوا كلهم غيلة بأيدي الفوضيين ولعل الفوضيين كانوا مدفوعين أو مأجورين بدول أوربية كبرى للخلاص من هؤلاء الرجال الذين قاموا بنهضة تركيا الحديثة وأقلقوا بال المستعمرين .

أما الزعيم التركي المحارب الذي نظم دولته تنظيمًا جديدًا في السياسة والاجتماع وهو الغازي مصطفى كمال رئيس جمهورية انقره فلم يسلم من عداة الأتراك والمسلمين في أنحاء العالم ، ولم ينج من دسائس أوروبا ضده ولم يهدأ بال من حوله من المؤامرات التي تدبر في كل حين لاغتياله .

## ٦

وقد يكون الزعيم ملكاً، يجمع بين صفات السياسي والقائد الحربي والمصلح الاجتماعي، وقد اجتمعت هذه الصفات أخيراً للملك أمان الله خان الافغاني الذي زار مصر منذ ثلاث سنين فان هذا الملك الشجاع المصلح تمكن من استرداد استقلال بلاده بالحرب ثم جلس على أريكة الملك، وأخذ يصلح المملكة بنشر التعليم وتقوية الجيش فلما رأى جيرانه الأقوياء أنه ربما يصبح قوة ذات خطورة انتهزوا فرصة غيبته في سياحة عالمية وحرصوا القبائل على شق عصا الطاعة وأوهموا تلك القبائل أن الملك كفر وخرج على الدين وأباح السفور واستعملوا سفاكاً للدماء من قطاع الطرق اسمه باجي سقاء أو ابن السقاء فلما عاد الملك أمان الله الي وطنه حارب وانهزم وانسحب من عاصمة ملكه ثم هاجر الي اور وبا هو وأسرته وظهر في ميدان السياسة القائد نادر خان وكان من رجال امان الله وحارب باجي سقا وفي طرفه عين هزم باجي سقا وحوكم وأعدم، واستتب الأمر لنادر خان ونودي به ملكاً على الافغان وكان كثيرون يظنون أنه يطفى نار الفتنة ليمهد السبيل لأمان الله ولكن خابت ظنون هؤلاء وثبت لهم أن نادر خان لم يكن ليخوض غمار هذه الحرب وينتصر فيها ثم يسلم للملك سالماً لصاحب العرش الأصيل ولا سيما ونحن في الشرق.

وان في ثورة الافغان على امان الله أسراراً كشفت الأيام عن بعضها ولا يزال البعض في فؤاد الدهر كامناً.

فقد ذاع خبر الفتنة إذ كان امان الله في انجلترا، ثم كذبه، وكان امان الله صريحاً في جهات كثيرة من التي زارها، وظهر بمظهر الآمن مطمئن على ملكه وعلى قوته، وهو لا يحسب حساب القبائل نصف المتحضرة التي يحكمها، ولا يحسب حساب اليد الأجنبية الخفية، فقد ذاع أن الكولونيل لورنس الشهير كان في الافغان ينثر الذهب الانجليزي ويظهر أن نادر خان ويطلقون عليه لقب شاه يؤيد السياسة البريطانية، وقد روي الميرزا يعقوب خان خيلاً في (مارس سنة ١٩٣١) أن الشاه نادر يريد سياسة الاستقلال والسير

بالبلاد تدريجياً الي أرفع مستوى وقد بعث بالميرزا محمد عمر خان الى لندن لدرس القوانين التجارية وقد تألفت في كابل شركة مساهمة ( هندية افغانية ) للقيام ببعض المشروعات الاقتصادية العمرانية وعرضت على الحكومة قرضاً بمبلغ مليوني روبية .

ويستخلص من الحوادث أن إنجلترا لا تزال نحسب للافغان حساباً بسبب قربها من الهند واتصالها بايران المستقلة الناهضة وتركيا ، وقد أزعج الانجليز ظهور امان الله بمظهره المعلوم فكان جزاءه الحرب فالطرد لتعود الافغان الي أيد تؤمن على السير بالبلاد في سبيل الرقي بالتدريج .

ومن العجيب أن المصريين الذين رأوا امان الله أثناء زيارته مصر وفرحوا به وأعجبوا بشجاعته ووطنيته وسعة ادراكه عادوا فاقبلوا عليه لما عا كسه الدهر ، وانحوا عليه باللائمة وكرهوه وحقنوا عليه ظناً منهم أنه حقيقة خرج علي الدين أو كفر أو فسق ، ولم ينظروا الي جانب الاصلاح العظيم الذي قام به الرجل ، ولم يعجدوا عاطفة حب الوطن والعمل لرفعة الشرق والاسلام التي كانت تملأ قلبه ، بل جعلوا تقديرهم له رهن عاطفة دينية لم يثبت لهم أن الملك السابق قد جرحها أو خدشها ، ولم يسألوا أنفسهم كيف يفعل الرجل كل ما فعل ان لم يكن وطنياً ومسلماً ومخلصاً لوطنه ودينه ؟ كأن هؤلاء القوم لا يرضيهم الا النفاق والمداجاة والظهور بغير الحقيقة فلا حول ولا قوة الا بالله ! غير أننا لاننسى أن امان الله يمثل الزعيم ملكا يريد الاصلاح بالسياسة وبالهرب والاجتماع ولكنه قبل كل شئ شرقي يعمل في وسط شرقي وكل وسط شرقي لا يزال موبوءاً ويمكن اهاجته في أقوب فرصة للاتقلاب على المصلح أو الزعيم سواء أ كان من الرعية أو من صف الملوك والامراء .

## ٢

## ١

ان الدولة جسم حي ، قوامه روح الشعب ولا تعيش أمة بغير مثل أعلى يهديها سواء السبيل في دياجير الحياة فهو بمثابة النور الكشاف الذي يكشف امامها ظلام الطريق فتتقى بضياته شر العثار ولكن المثل العليا ليست شائعة وليست من مواهب الجماعة وقد لا تكون الا في قفوس أفراد يعدون على الاصابع . وقد ذهب زمن استئثار بضعة أفراد بتلك المثل العليا وأصبح فرضاً على كل منهم أن ينشره في طبقات الشعب لتمتلي به كل نفس لان العالم والشعوب تسير نحو الديمقراطية بأوسع معانيها . وقد ذهب عهد الارستوقراطية الناشئة عن الميلاد وشرف الارومة وأصبحت الارستوقراطية هي شرف الخلق وسمو المدارك وتمايز العقل . وكما أن في الاسلام لا تفضيل الا بالتقوى ولا كرامة الا للمكارم الاخلاق فكذلك ترى الزعماء في الامم العظمى لا يرون المستقبل الا في المساواة وتفضيل الفضلاء حقاً بعقلهم وعلمهم وأخلاقهم وقد تغير نظام العالم الحديث وليس للمال الآن تلك المكانة التي كانت له في أوائل القرن العشرين كما أن الانساب العظيمة فقدت اهميتها لأن أحفاد الاحفاد جاءوا بأفزع الأمثلة فلا يصح أن يكونوا قادة أو في القمة والانجليز أنفسهم وهم من أشد الغلاة في هذا السبيل عدلوا الآن عن حصر الكرامة في الاعيان والوردات ويحكمهم اليوم رئيس حكومة من العمال وهذا الروح سار في العالم كله .

ولو أننا ننظر الي المانيا التي كانت صاحبة أعظم قوة حرية في العالم رأينا أن تلك القوة العظيمة لم تكن مستمدة من قوة العسكرية وحدها أو من نظام الامبراطوريه المقيدة أو المطلقة اما كانت قوة المانيا مستمدة قبل كل شيء من قوة عقلية عظيمة تغذيها وتنفخ فيها ولا تزال المانيا أعظم أمم العالم في التربية والتعليم وانتشار العلوم الحققة كالطبيعيات والكيميا والرياضيات بين ظهرانيها ، فان حرب المانيا لاوروبا كانت حرباً علمية أكثر منها عسكرية

بل كان وراء مظاهر تلك القوة العسكرية سلسلة طويلة من كبار المفكرين والفلاسفة فلا نهضة لأمة الآن سواء أكانت في الشرق أو في الغرب إلا بنهوض أفرادها وترقية عقولهم وتطهير نفوسهم وتأديبها أحسن تأديب .

فهذا البناء الداخلي من التهذيب والثقافة يسبق البناء الخارجي الذي هو مظهر القوة والحرب وقد تربي في الأمم الضعيفة علام لا تخفى على الخبير ، منها عبادة القوة وإهمال الثقافة والتعلق بمثل أعلى يُتطلب التضحية في حين أن الشعب منغمس في الرذائل سواء في ذلك الأغنياء والفقراء ، ثم تربي الانقسامات السياسية تنخر في عظامه وهو لاه عن مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وإذا شعر الشعب بعاطفة ، ظنّها فكرة جديدة فهو لجهله لا يميز بين الأهواء والعواطف والأفكار فالنزاع السياسي هوي ، وحب الوطن عاطفة ، وتدبير الخلاص من الظلم فكرة ، فترانا في الشرق الاسلامي نخلط بين الثلاثة أشياء فننتعج أهواءنا ونمجد عواطفنا ونحتقر الأفكار النافعة .

## ٢

إن الهوى والعاطفة قوتان عظيمتان في حياة الشعوب ولكن يجب أن تسخر للعقل المفكر لأن تقودا الأمة إلى الخراب ، لا يمكن لعمل عظيم أن يقوم بغير عاطفة ولكن العاطفة وحدها لا تكفي بل يجب أن يرشدها العقل ويسيرها ، كما أن الهوى كالتقوى المحركة لا يطلق له العنان إلا بعد أن نستوثق من الطريق التي نسلكها وحياة الفرد مقسمة بين عقله وهواه ولكن العقل يجب أن يسبق الهوى ويحكمه ، لا يكفي أن تحب أن تسمو أو تتحرر أو تستقل بل يجب أن تريد ذلك ، ولا يكفي أن تريده بل يجب أن تفكر في طريق العمل وتعمل للخلاص والأثم التي تكون مثلها الأعلى وهي تحت حكم الهوى تندم في ساعة لا ينفع فيها الندم ولكن الأمم التي تفكر أولاً في هدوء ثم تندفع إلى العمل تفلح وتنجح .

والغرب الغاصب لا يعرف الهوى ولا يعرف العاطفة في محاربتنا واغتصاب بلادنا بل يعرف التفكير والتدبير واتهاز الفرص .

انظر كيف صنع ديزرائيلي في شراء أسهم قناة السويس ثم ماذا صنعت انجلترا في الاستيلاء على مصر بطريق القروض المتتالية ، وماذا صنعت فرنسا في شمال افريقيا ، هل هاجت أو تبعت عواطفها أو هواها ؟ كلا انها اتبعت فكرتها وتدبيرها .

لقد هاجت اوروبا في الحرب العظمي وتبعت هواها وعواطفها فعادت الحرب عليها بالدمار ولكن الاستعمار كاد ينتقدها لأن ما خسرت من المال والرجال عوضته بالمستعمرات الجديدة في الشرق .

لقد تحطمت المثل العليا في الشرق وذهبت مظالم الفراعنة بنهاهم ، وتبعهم سلطة الكهنة في الهياكل والمجاس فلهد ركن الاستبداد الملكي والديني وليس في ديننا خضوع للعلماء الذين هم حفظة كتب ونصوص وليسوا رقباء على ضامئنا وشيئاً فشيئاً تهدم نظم الارستوقراطية ويستحيل عليها أن تحكم الامم ولن تخضع الشعوب لارستوقراطية من المدعين العظمة بالميراث أو بالمال وربما خضعت لارستوقراطية العقل والذكاء والحكمة .

لقد كان لويس الرابع عشر يقول أنا الدولة . وكان البابا جريجوار السابع يقول : أنا بابا وامبراطور وكان شارل الأول يقول : أنا ملك بأمر الله ، كما قال الفاطمي التائه أنا الحاكم بأمر الله ! وكما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى . ولكن هذا الحق الذي كان يظن أنه مقدس قد حل محله حق الشعوب في حكم نفسها . وحلت سلطة الامم محل سلطة الملوك . وصارت الأمة مصدر السلطات كلها . وتأتى الديمقراطية أن تخضع لغير ذاتها في اوروبا .

لاتزال في العالم سلطة قاهرة للمال . وهي نوع من الاوليغاركية أو حكومة الأشرار التي بينها ارسطو في سياسته . ولكن هؤلاء الأشرار أو هؤلاء الحاكمين بأمر المال قد استبانوا أنهم لن يستطيعوا الحكم بغير إشراك الدهماء معهم وهم الذين يشيدون ملكهم الحقيقي بدمق جبينهم وقد قلت أسباب التفاوت بين ابن الامير وابن الصعلوك وأصبح الفقير اذا أراد أن يتعلم يكفيه أن يقرأ الكتب فتفتح أمامه أبواباً كانت فيما مضى مفاتيحها من ذهب وقد علم الكثيرون من أبناء الشعب أنفسهم فصاروا في مصاف العظماء وحكموا العالم ومنهم وأقربهم

مثلا رامزي مكدونلد رئيس حكومة انجلترا وأصله سحفي واستاذ مدرسة وادوار هريور رئيس حكومة فرنسا سابقاً وشتريسمان وهو ابن خمار كان يبيع الجمعة في احدى المانات وهردينج ومكنلى واديسون وبرين وسنودون ولويد جورج وقد رباه اسكاف وهو عمه وهذا من مفاخره وعشرات مثلهم قبضوا على زمام العالم في الحرب والسلم وسيروا الأمم في طرق النجاح ولم يكن يخطر ببال أحد منذ مائتي عام أن مثلهم ينبغون ويسودون الأمم بحض كفايتهم وأخلاقهم بدون انتساب الى الاصول العريقة أو جريان الدماء الزرقاء في شرايينهم . وهذا كله بفضل اباحة العلم للجميع وتيسير طلبه فصار ابن الملاح والعلاف في وسعه أن يبلغ في العلم شأواً افلاطون أو كانط وهذا الاسلام يأمر بالمساواة بين الناس ولا يفضل أحداً على أحد الا بالعلم والتقوي ولما كان معظم أهل الشرق من العامة والدهماء فهؤلاء لا يزالون كنزاً دفيناً يخرجون للعالم مئات الالوف من التوابغ النافعين في الحرب والسلم والعلم والاختراع ولا ينقصهم الا عدل النظام الاجتماعي الذي يكفل ظهورهم ونجاحهم والانتفاع بهم ، ولو أن رجال السياسة الذين فكروا طويلا في أنظمة الحكم صرفوا بعض وقتهم وقليلاً من همتهم في التفكير في انماض العوام والمتوسطين في الشرق كان لهم من نهضتهم خير نظام وخير ضميرة للمستقبل ، وقد آن للمصلح الشرقي أن يدرك حقيقة الحال وهي أن اشراك الطبقات الصغيرة في الحياة العامة أصبح أمراً واجباً .

## ٣

ان الأمم في الشرق والغرب أيضا لن تنهض على أكتاف الطبقة الغنية أو الطبقة التي تسعي عالية . بل على الطبقات الوضيعة والمتوسطة . والأمة التي تهمل الوضيع والوسط سوف تبني على الرمل وكل بناء على الرمل ينهار . لقد مضي الوقت الذي كانت الارستوقراطية تسقط الفقراء من حسابها . وأصبحنا في زمن هؤلاء الفقراء فيه مكان مهم . لأن الفقراء اذا احملوا كانوا شوكة في جنب الأمة . وربما هدموا البناء الذي يشيد بدون معوتهم ان الفقراء والأغنياء اخوة ومتساوون وهؤلاء الفقراء محتاجون الي النور والهواء

والغذاء والتعليم والى قسط من الهناء فى الحياة . ان قرية الفلاح ومصنع العامل لا تقل عند الله سبحانه وتعالى عناية عن قصر الغنى أو مكتب المدير المتمول لأن الله يحب الجميع .

واذا كان البائس لا يحصل على أجره الكافى لحياته هو ومن معه فانه يهلك وان هلك هلك معه الآخرون من أهله . وان هو فقد عمله وتعطل صار عبثا على المجتمع وعالة على غيره وهو فى الغالب ليس خاليا بل فى عنقه جاعة من الاطفال والنساء ذوى الحاجة الملحة الى الطعام والكساء والغذاء والمسكن ان الممالك الكبيرة والامبراطوريات الضخمة والجمهوريات القوية والدول الصغيرة مها كانت تلمها قوتها الجندية أو البحرية وثروتها المادية ذهباً كانت أو خصباً ومهما كانت مواهبها فى العلوم والمعارف غير عاجزة باذن الله عن ايجاد النظام الاجتماعى الذى يكفل سعادة الأفراد بغض الطرف عن المطامع وقد تحكمت فى اوربا أولاً وفى الشرق ثانياً تلك المطامع الشخصية ، وتلك الانانية القتالة ، وتلك الشهوات الفردية التى قضت على العالم القديم وتوشك أن تقضى على العالم الجديد . ولواننا عذرنا الأمم الاوروبية ، استغفر الله لواننا أدركنا حقيقتها وفهمنا أسباب حالتها ، فأى عذر لنا وأي تعليل لحالتنا التى نعانيها فى اتقسامنا وتحزبننا وانشغال كل من رجالنا بمصالحه الشخصية عن المنفعة العامة .

ليس لدينا قوتهم ولا مالم ولا علومهم ولا حريتهم . ولا فضائلهم ولكن لدينا نقائصهم ورذائلهم التى كان ينبغى لنا أن نتنزه عنها ونخلص منها .

انظر الى أي درك وصلت أمة عظيمة كدولة فرنسا الجمهورية بسبب المال .

انها بعد الحرب استردت ثروتها بغاية السرعة وصارت اليوم أغنى دولة فى العالم بمقدار الذهب الذى تملكه فى خزائنها .

أتدري ماذا حل بها ؟

ان كبار الرجال فيها جنوا بالذهب وظهرت فضائح المصارف والوزراء فمن اوستريك المالى الدجال الى راوول بيريه وزير العدل ومن شركة البريد الجوى الى فلانداى وزير المال . ونحن فى سنة ١٩٣١ نشهد فى فرنسا فضائح أضخم من فضيحة بناما فى أواخر القرن التاسع عشر .



وفي بلاد الشرق مثل هذا وأكثر، ولو أتيج كشف القناع عن بعض الحقائق في الشرق لرأينا من الرذائل والنضائح ما لا يقل عما يجري في فرنسا إنما الشرق خلون المجالس والصحافة الحرة . والكن الداء واحد والجراح مسممة بالقيح والقرح تنز سواء علمنا أم لم نعلم . وما منشأ تلك الادواء الا تسلط أفراد معدودين في بلاد الشرق الاسلامي وهؤلاء الافراد المعدودون خاضعون للطامع الاجنبي الذي يريد أن يفسد أخلاقهم ويشترى ذمهم ويخرب ضمائرهم ليكون تمكنه منهم أعظم لأنهم ان شرفوا لا يخضعون له ولا يرضون نفوذه ولا يتآمرون معه على أممهم .

## ٤

ان العامي البسيط في الشرق شقي الشقاء كله . وهو في الغالب متدين ومؤمن وتراه بعد أن خسر ديناه أو كاد ينتظر ثواب الآخرة لأن الأدين علمته أنه ان فاته نصيبه في الأولى سيلقاه في الآخرة وان سكن في هذه كوخا فسيسكن في الاخرى قصوراً حيث يلقي غلماناً وحوراً وخيراً كثيراً . وان حظه مخطوط ومرسوم وليس له الا ما هو مقسوم والمسكتوب على الجبين تراه العيون . وقد ساعد علماء الرسوم علي ترسيخ هذه الأفكار في ذهنه ، وساعدوا على تخديره حتى انه بدلا من سعيه وراء خيرات هذه الدنيا أو مناضلته عن بعض منافعه تراه قد زهد فيها مقدما وصارت آماله معقودة على ما سوف يناله بعد موته . فأصبح المثل الاعلى معكوسا . وذلك الذي يجب أن ينال في هذه الحياة ، تأجل الى أجل غير مسمى الى ما وراء القبر ، الى بعد الموت !!

ولكن هذا الحلم اللذيذ قد طال . والاجيال تتري ووراءها القرون ، وذلك المخلوق (الانسان) وهو افضل الكائنات على هذه الأرض لم يتذوق طعم السعادة، وقد ظير له ان الشيطان قد شاد الاشرار في هذه الدنيا قصوراً وملأها بالطيبات والانوار ومظاهر الرفاهية ، وانه وهو الرجل الطيب الصابر لا يزال هو وأولاده وأحفاده وامراته وبناته ينتظرون ولم يصل الى يده شئ على الحساب مما هو موعود به . بل ان هؤلاء الذين يصبرونه

«ويخدرونه من طائفة علماء الرسوم ؟ ومشايخ طريقة» بكرة تشوف «متنعمون في هذه الحياة الدنيا وقد جعلوا منها جنة مثل دار الخلد التي يصفون فدهشه الامر وأيقظه ، لماذا هم لا ينتظرون مثله ، وقد قبضوا كثيراً من حساب الآخرة ، واعلمهم استنفدوا كل حسابهم وإذا كانوا هم العالمون الواقفون لم يصبروا فاحر به وهو الجاهل الذي يتلقى عنهم أن لا يصبر وأن يلح ولوقليل لا في طاب دفعة من النعيم على الحساب . . بل اعله وهو ينتظر الجزاء ، يتنبه فجأة فإذا هو جائع وإذا داره خالية وديونه متراكمة وصاحب الدين يبيع أثاث غرفته ويشلح عنه ثوبه الممزق ، فتجوع امرأته وأولاده معه ولا يجد قوت يومه وإذا تجأ الى ذلك الذي كان يملمه الصبر ويقول له غذا تري ما ينتظرك ، اعرض عنه ولوي وجهه ، وان كان محتاجا فقد يتحكم فيه المالك ويطرده كما طرد أبوه آدم من الجنة فخرج منها بلا ثوب ولا درهم وان هو مات وخلف وراءه أولاداً وزوجة فلهم الشقاء من بعده فما أعظم الفرق بين تهذيب الروح وحقائق الحياة ، ما أعظم الفرق بين الرجاء في المستقبل والامر الواقع اليوم . . الساعة !

يعيش فقيراً ويموت فقيراً في العراء ، وان كانت أوروبا دبرت لفقرائها جيش الخلاص (ما أفضع اسمه ونظامه ! ) وملاجىء العمل Workhouse على ما فيها من شقاء وعار وهوان وبلاء فان الشرق لم يصل الى هذه الدرجة من الاحسان مع كل ما جاء في كتبه المنزلة وآدابه من الحث على الزكاة والاحسان والصدقة ومع هذا فلماذا تمنع الصدقة والاحسان والزكاة ما دام الله أمر بها ؟ ولكل انسان نصيب في الحياة يجب أن يناله . ان الفقر مرض اجتماعي وحالة يجب شفاء المجتمع من أعراضها .

عليك بالعلم والاجتهاد ، والاستنارة وطلب المزيد من فهم الأشياء على حقيقتها واكتساب التجربة والاختبار وتحقيق الأشياء بنفسك . تلك أسباب النجاة امامك فاتبعها !

## ٥

لقد ألف المؤلفون كتباً كثيرة ليفسروا أسباب تمايز بعض الأمم بذلكها . جربا وراء تحليل ينطبق على الحقيقة التاريخية وكان آخر من ألف فيها هوستون شمبران في كتاب « أسس القرن التاسع عشر » وحيز والمؤرخ الفرنسي وميشليه وتين والدكتور أميل رايش وغيرهم ولكن هذه النظرية قد ماتت الآن . والذكاء موهبة مشاعة بين جميع الأجناس والامم ولم تختص به أمة دون أمة ولا شعب دون شعب وقد هجر هذه النظرية كبار المؤرخين في كتبهم أمثال « ولز » في تاريخ العالم وقد اهرقت دماء المحاربين في سبيل تأييدها وضده . والآن قد زالت من عقول المفكرين والعلماء وكتبهم . ولكنها لم تنزل من افكار العوام فترى الانجليزي يعتقد أنه أذكى العالم وشعبه أرقى الشعوب وكذلك الفرنسي والالمانى وغيرهما وكل هذا راجع الى رذيلة الغرور والاعجاب بالنفس

فإن الشعب الرومانى كان أقوى الشعوب وأذكها في زمنه وقد كانت قوته الحربية والسياسية مضرب الامثال . ومع ذلك قد قضى عليه بضعة رجال من اليهود الثائرين الذين تشبثوا بعد عهد استاذهم ومعلمهم عيسى المسيح ، فتمكن بولص وبطرس وبعض الحواريين بخطبهم وكتبهم من ذلك أعظم أباطورية حرية في العالم . وهكذا تمكن المسلمون اخارجون من الصحراء من القضاء على دولة الفرس ودول العراق ومصر والهند وشمال أفريقيا بل هاجوا الاوربيين في اوطانهم واستولوا على ممالكهم ولم يكن قدمضى على ظهور الاسلام سبعون أو ثمانون عاماً

وياحبذنا لو استفاد الشرق من مصائبه . فإن الهزيمة لا تكون دائماً سبباً في السقوط أو الموت فان بعض الأمم مدينة في نهضتها الى هزيمتها . فان المانيا التي كانت أشرفت على الاضمحلال صدمت صدمة كبري في موقعة اينوا ( ١٨٠٦ ) وقد انزلها تلك الموقعة الى حضيض الخيبة والذل ولكن هذه الهزيمة أيقظت شعور الالمان ونبهتهم الى ما هم فيه من الانحطاط ومن ذلك اليوم صحت عزيمتهم على النهوض وفي يوم هزيمة المانيا بدأت نهضة المانيا . وربما كانت هزيمة

الفرنسيين في سيدان ( ١٨٧٠ ) هي التي أيقظت همة الفرنسيين وما زالت تلك الهمة متيقظة في قلوب بعض الرجال أمثال بوانكاريه وديلكاسيه وكنصو حتى كانت هُرب الانتقام في سنة ١٩١٤ وفيها استردت فرنسا الازاس واللورين وقهرت المانيا في معاهدة فرساي بعد أن البت عليها دول العالمين القديم والجديد فلا يجوز لنا أن نستهمين بالهزيمة والانكسار. فرب هزيمة أورثت نصراً. وقديماً قال أحد المتصوفين المسلمين « رب معصية أورثت ندماً واستغفاراً خيراً من طاعة أورثت عجباً واستكباراً » أو ما هذا معناه . أما الهزيمة الذميمة فهي التي تيمت القلب وتضعف الهمة فلا تقوم للمهزوم بمدهاقائمة وهي مثل الانتصار الذي يملأ المنتصر اعجاباً وغوراً فيكون ذلك بداية هلاكه .

وكل هذا يدخل في اعتبارات تكوين الأمم الخلقى والنفساني فان الانجليز اشتهروا بقوة الارادة وأذاعوا عن أنفسهم أنهم يعتقدون بأنهم مخلوقون لحكم العالم ، والحقيقة أنهم جعلوا الاستعمار في القرن الماضي لسرقة وسلبه منهم . فان الله أعدل من أن يخلق شعباً ليحكم العالم ، والحقيقة أن كل أمة مخلوقة لتحكم نفسها ولكن الأمة الذكية القوية الارادة العنيدة المتشبثة قد تسود أمداً قصيراً أو طويلاً غيرها من الأمم المستضعفة المستسلمة ، وقد اكتسب الانجليز نصيباً من الصلابة والعناد التي تشبه صلابة الكاب الانجليزي القوي المشهور بولدوج ، واسم الشعب كله جون بول مزيج من اسم شخص واسم حيوان وهو تشبيه صادق ، وهذا « البولودوج » تراه متين العضلات يسير في الارض مستعرضاً وناظراً الى العالم بغباوة وشراسة ، وهو مكشّر عن أنيابه الذميمة فلا تدرى أضاحك أهو أم عابس ، أعدو هو أم صديق وهو يبتقي سائراً أو مقعياً في حالة صمت عميق لا يبدي حركة ولا صوتاً ولا يلهث كغيره من الكلاب سواء أجملت عليه أم لم تحمل ، ولكنه اذا دنا من شخص وعضه وأطبق فكبه الخبيثتين على قطعة من لحمه فلا لا يفرقهما الا عن أشلاء ممزقة لأن أنيابه مصنوعة بحيث لا تنفرج اذا هي انطبقت وهو نفسه لا يعرف كيف يفرجها ، وتراه أحياناً يعض مولاه فهو لا يفرق بين العدو والحبيب وربما يستأذن عليه سيده ومربيه في جوف الليل أو في غرفة مغلقة فيها جبه البولودوج

ويعمل فيه أنيابه كما يفعل في أجنبي يهاجم مولاه .

وكثيراً ما شبه علماء الاجتماع الخلق الإنجليزي بأخلاق البولودوج .

فترى الإنجليزي صابراً على الشدائد مستعداً لمقاومة ما يقع به من النوائب مقيماً على الكفاح حتى يبلغ مقصوده من قهر عدو أو فتح قطر أو دفع بلاء .

وأنت إذا شهدت الطفل الإنجليزي كما شاهدناه في وطنه تری أن أمه تعود منه منذ نعومة أظفاره على التخلص من ضعف الطفولة وخنوئتها فلا يبكي ولا يفعل ولا يظهر عواطفه على الاسلوب الذميم الذي تراه في أطفال الشرق وصبيانهم وفي الرابعة عشرة حيث يكون الطفل الشرقي لا يزال مدلاً منعماً تری الفتى الإنجليزي شاعراً بعبء المسؤولية وتراه حائراً في البحث عن خطة يسلكها في الحياة وهو يريد أن يشق لنفسه طريقاً أسوأ في الجامعات أو في المستعمرات أو في سبل العمل المجدي

وقد يكون الصبي الشرقي أو الأوروبي غير الإنجليزي شديد الذكاء واسع الاطلاع ولكنه لا يبلغ شأو الصبي الإنجليزي في الاعتماد على النفس والاستعداد للكفاح في الحياة ، وقد يكون الشرقي أو الأوروبي مهملاً للغد أو متواكلاً ولكن الإنجليزي لا يعرف الاتدبير الغد والاستعداد له وحسبان حساباً وهو يشعر بالمسئولية الملقية على كاهل الرجل ، ولا شيء في العالم ينضج الرجال مثل الشعور بالمسئولية .

## ٦

طالما نسب بعض الناقدين تأخر الاسلام وانحطاط دوله الى المتصوفين والدرائش . وفي الحق كان لهذه الفرق مضار كثيرة في بلاد تركيا القديمة والحديثة حيث كانت التسكيا باحشدة بأشخاص قادرين على الكسب والعيش في بجموحة من ثمرة أعمالهم ولكنهم أعاكفون على الأكل والنوم وتقوية أعضائهم بحجة العبادة . وما العبادة الا تابعة للعمل في الحياة . وليست الحياة تبعاً للعبادة . وبالرغم من ان الرهبانية محرمة في الاسلام فكنت تری هذه الأوف

من الرجال يعيشون عيشة الرهبان في مقصوراتهم مع أن ظواهرهم لا تدل على رهبنتهم . وفي الحق لا تری من هؤلاء العماليق خيراً لا لأنفسهم ولا للجماعة وأفضل ما نراه من أعمال هذه الفرق في عصرنا هذا هو الذكر على أنغام الموسيقى وقد أطلق السائحون على طائفة المولوية اسم « الدراويش الرقاصة » .

ولكن قد ظهر في أوروبا بعض الفرق المتصوفة مثل فرقة اليسوعيين فكان لهم نصيب عظيم من الاعمال العامة في الدين والسياسة والتعليم . واليسوعي يعطي عهداً بالفقر والعفة والطاعة وقد انتشرت تلك الطريقة اليسوعية في أنحاء أوروبا وانتشار النار في الهشيم . فكانوا في القرن السابع عشر نحو ثلاثين الفاً وقبل ان يقاومهم البابا كليمنتس الرابع عشر في ١٧٥٩ بلغوا ثلاثة وعشرين الفاً وهم الآن حوالي عشرين الفاً من الجيزويت .

ويرجع الفضل في نجاح تلك الفرقة الى شخصية ليولا مؤسسها في أواسط القرن السادس عشر وقد قضى سبع سنين في التقشف والاستعداد لتأسيس فرقته منقطعاً في صومعة في مونغارتر بباريس ( ١٥٢٨ - ١٥٣٥ ) . ومذهب ليولا يلخص في كلمتين هما « الجمع بين الذكاء والارادة » في خدمة مبدأه وان لا يكون الجمع بين تينك الفضيلتين قاصراً على الافراد بل شائعاً بين الجماعة وقد رأى ليولا أنه اذا توافرت هاتان الخلتان للفيف من البشر فلن يقوي عليه انسان ، كما أن سائر الانظمة السياسية والدينية تتلاشي أمام تلك القوة . وقد جاءت الحوادث مصدقة لما كان يراه ليولا فتحكم هو وفرقته في تسعة أعشار الحوادث التي حدثت في أوروبا ولا يزال سرها غامضاً .

وقد كان التهذيب الخلقى الذي تحلى به اليسوعي منطويًا على خلاص عضو الجمعية من الاهواء والاتعمالات التي تعصف بأخلاق الرجال وتعبث بحياتهم . فيتغلب الرجل على الحب والبغض والطمع والطموح والشهوة والتمتع وبالجملة يقطع كل أوتار الآمال من صدره ويبقى اداة لتنفيذ ارادة شيخه .

وفي الوقت الذي كان فيه شيخ الجبل يؤلف فرقة من الحشاشين والعمديين والفوضيين

يطيعون أو امره ويبدلون حياتهم في سبيل طاعته (ولكنهم مسخرون لخدمة الفرد وبغير دافع ديني أو معنوي بحيث كان أحدهم يلقي بنفسه من شاهق طاعة لأمر زعيمهم الذي مناهم بالجنة وعودهم تدخين القنب الهندي ليسبحوا في عالم الاحلام والخيالات وجعل مثلهم الأعلى صورة من شهوات البدن) رأيت هؤلاء اليسوعيين يؤسسون فرقهم أو طريقتهم على أساس اخلاص من حكم البدن ولا فرق بين اليسوعيين والمتصوفين فإن كلا منهما فرقة دينية ولكن الاولى اتبعت مثلاً صحيحاً في الزهد والتشف والتخلي عن الاهواء واثنائية اتبعت طريقة استدراج الانصار جزاء تمتع الجسد في حياة مستقبلة فقد روى مؤرخو الافرنج والغرب أن حسن بن الصباح وكان يسمى شيخ الجبل قد بني قصوراً وزرع بساتين وحدائق وجعلها في مجموعها تشمل نعيماً كالنعيم الذي جاء في وصف الجنة وكان يذيق مواليه المخدرين لذة اليقظة في وسط هذا النعيم وينبههم بمنه اذا هم أطاعوه في أوامره ونفذوا ارادته في الحرب والقتل والاعتقال.

بيد أن الشرق والغرب يلتقيان ويفترقان في صفات كثيرة. فإن الكنيسة في الغرب سواء أكانت كاثوليكية أو بروتستانتية أو كالفينية تراها قابضة على زمام الدولة، وقد تجلب هذا في اسبانيا وفرنسا وانجلترا واطاليا والمانيا. فإن الكنيسة حكمت اسبانيا حتى خربتها ومن أعمالها هناك محكمة التفتيش وعندما حل مذهب كالفن في انجلترا أحدثت الحروب الالهية وادخلت تعديلات خطيرة في الدستور الانجليزي ولما دخل مذهب كالفن في فرنسا سبب حرباً أهلية دامت من ١٥٥٩ الى ١٥٩٣ ولا يزال أثر هذا المذهب في مقاطعة جنيف التي حكمها كالفن بنفسه وكان فيها ملكاً وقسيساً ولا يزال تاريخ تلك المقاطعة وقانونها وأخلاق أهلها متأثرة بطابع هذا الرجل الديني الرهيب. أما في فرنسا فلم تتمكن الحكومة من الفصل بين الكنيسة والحكومة الا في سنة ١٩٠٤

وفي المانيا حاول بسمارك في ١٨٧٤ بعد ان انتصر على فرنسا ان يخلص من كابوس الكنيسة فأصدر قانون مايو الشهير متمرداً به على البابا ولكن بعد انقضاء ثمانية قرون على

عهد جريجورى السابع وعلى اذلال هنري الرابع بباب خليفة القديس بطرس فى كانوسا فان البابوية مازالت قوية واضطر المستشار الحديدى ( بسمارك ) لسحب قانونه والخضوع لرومه والانحناء أمام سلطة الحزب الكاثولىكى فى الريشستاج وفى العهد الاخير تأخت الفاشيزتية مع البابوية واصطاح البابا مع الزعيم ، وصار للبابا حق الخروج من قصر القاتيكان فى سياره من « فضة » والكلام فى التليفون مع انحاء العالم بتليفون له مقبضه من ذهب .

ومعلوم أن البابا فى نظر الكاثوليك معصوم من الخطأ ك الانبياء عند المسلمين (١٨٧٠ — ١٨٦٩) كما أن البابا أصدر فى ١٨٦٤ منشوراً يصرح فيه بأن «الانسان عاجز بفطرته عن الخلق والاختراع ولا يمكنه ايجاد الحقيقة ولكنه يستطيع الفهم والادراك للحقائق التى تتجلى له بفضل الله من زمن بعيد وما العلم الحديث الا مجموعه الفاظ متناقضة »

فى حين أن الاسلام لا يتدخل فى الحكومات ولا شأن لرجاله فى تدبير الدولة ولم يعرف أن عالماً أو شيخاً دينياً تدخل فى شئون المملكة أو الدولة أو فسر الدين بما يؤخر تقدم الامم أو يؤخر العلم ترى بعض المؤرخين النصارى يدعون بأن تقدم التعليم وانتشار العلوم الرياضيه والطبيعية سيدنى ساعة الكنيسة الكاثوليكية لما بينهما من التناقض وترى أن الاسلام يأمر بطالب العلم ويحث عليه ويكافئ العالم ويميزه ويضعه فى موضع الشرف فى أما كن شتى من كتابه المنزل وتعاليمه .

بيد أن هذا التضييق من رجال الكنيسة على أهل الفكر والعلم قد انقلب الى ضده فأخذ رجال من الفلاسفة الذين يحفظون تاريخ الكنيسة جيداً يهاجمونها فى أصلها ويطعنون فى جوهرها وينكرون عليها حق الوجود ولم يكن هذا الا من قبيل رد الفعل المنتظر حدوثه فى كل الحركات العقلية والدينية وقد وضعوا لمجموعة مباحثها اسم « النقد العالى » وقد ظهر هذا النوع من النقد فى المانيا ثم فى فرنسا فأخذوا يدعون أن التعاليم المسيحية مشتقة من عقائد وثنية قديمة وأن عيد نويل ورمز الصليب يرجع عهدهما الى أجيال بعيدة قبل رومه وأشهر من كتب فى هذا فرنسوا ديوي مؤلف كتاب « تاريخ الاديان » وتلاه جودفري هيجنز ألف كتاب « انا كاپس » وقد ردوا كثيراً من المعتقدات والطقوس الي البوذية والبراهمانية .



ثم جاءت فرقة علماء توبنجن فبحثت فى أعمال الرسل وألف زعيمها ستراوس حياة السيد المسيح وألف فردينان باور الالماني كتاب « بولس رسول المسيح » ولا تزال معاول النقد العالى تعمل فى بناء تاريخ الكنيسة المسيحية ولا شك فى أن الكنيسة تقبل هذا كله بسرور لأنها تدين بالتسامح والتساهل اللذين ورد ذكرهما فى العهد الجديد للمرة بعد المرة والفينة بعد الفينة .

أما الاسلام فلم يتقدم أحد لنقده نقداً عالياً ولا نقداً واطياً لأن تاريخه بسيط وهو خال من الغموض والتعقيد وليس فيه ما يحير الفكر أو يربك العقل . وكل الفرق التى ظهرت فى العراق وفارس إنما هي فرق باحثين فى التأويل والتفسير وليس فى التاريخ والنشأة التى أجمع المؤرخون على صحتها كما قال برتلميه سانتهيلير فى مقدمة كتابه فى حياة النبي محمد ( طبع باريس )

## ٧

ان تاريخ العالم مقسم الى فترات ، قد تدمر الفترة الواحدة منها حوالى سبعة قرون لا تزيد ولا تنقص ، وهذه حقيقة اعتدى اليها بعض المؤرخين بالاستقراء فان مدينة رومه تأسست قبل المسيح بسبعة قرون ، ودامت ساطرة رومه ونفوذها فى العالم سبعمائة سنة وفى نهاية تلك المدة ظهر المسيح بدين جديد ينطوي على حياة أمة جديدة وحضارة جديدة وكان ظهوره مؤذنا بزوال تلك الدولة الرومانية التى حكمت العالم بالعصا والسكين بعد أن فتحت بالقوة والحيلة وفى نهاية القرن السابع المسيحى وبعد مضي سبعمائة سنة على الدول المسيحية الاوربية ظهر الاسلام . ودامت عظمة الدول الاسلامية سبعة قرون ، وفى نهايتها هاجمها المغول من الشرق والصليبيون من الغرب فكسروها وقد مضي الآن سبعة قرون من تاريخ انحطاط الشرق العربى الاسلامى وبدأت نهضة جديدة فى الشرق العربى وجاءت تلك النهضة فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، ومن العجيب أن هذا القرن الرابع عشر الهجرى قد وافق الحرب العظمى أى فى ختام سبعمائة عام على العظمة الاوربية بعد نهضتها الحديثة فى القرن الثالث عشر المسيحى وهو العهد الذى يسمى عهد الأسياء ونهضة القوميات والعلوم فى أوربا وانتهى

بداية القرن العشرين المسيحي لأن الحضارة الاوربية بلغت شأوها في أول هذا القرن فمن المؤكد أن دور الشرق في النهضة قد آن وكل الظواهر تدل على صحة هذه النظرية السبعية .

(١) روم دامت سبعة قرون آخرها ظهور المسيح

(٢) المسيحية دامت في دورها الأول سبعة قرون آخرها ظهور محمد

(٣) نهضة الاسلام الأولى دامت سبعة قرون آخرها ظهور المونغول والصلبيين

(٤) هبوط المسيحية واوروبا دام سبعة قرون آخرها عهد الاحياء الاوروبي للعلوم والفنون

(٥) نهضة اوربوالحديثه دامت سبعة قرون آخرها الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)

(٦) نهضة الشرق الحديثه تبدأ في أول القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرون للمسيح)

ومن العجيب أن تطابق هذه النظرية صحيح في حياة الامم اذا أخذت على انفراد

فان ايرلاندا بقيت تحت حكم الانجليز سبعائة عام ثم تحررت ومضي على حكم الملوك في بريطانيا سبعة

قرون . ودولة الفرس دامت سبعة قرون وعظمة اليونان الحربية والبحرية وعهد الفلسفة فيها

داما سبعائة سنة وقد وصل الشرق العربي الى نهاية ضعفه في القرنين الثامن عشر والتاسع

عشر وهما القرنان المكملان لعهد الهبوط .

٣

١

كانت أعظم ظواهر الانحطاط في الشرق انتشار الجهل وسيادة الاستبداد وموت الأخلاق الفاضلة من النفوس . وصارت الحكومات الاسلامية مطايا للفضى والاستبداد والاستغلال وحل محل الخلفاء والامراء العلماء العادلين ، فلول الموغول وملوك الاتراك الظالمين . وحتى العقيدة الدينية تضععت في النفوس فلأت انخرافات عقول الناس وقلوبهم وأصبح الشرق في دينه أسيراً لقشور الطرق الصوفية وفي أخلاقه أسيراً للمخدرات كالخمر والأفيون والحشيش . ولاشك أن المصلحين ومحبي الخير للاسلام قد ظنوا في تلك الفترة ان الاسلام قد اعتراه خمود يشبه الموت لاسيما وان كثيرين من النقاد الأجانب كانوا يقولون ان الاسلام بطبيعته غير قابل للاصلاح وغير مستمد للتمشى مع روح العصر وهؤلاء ينقسمون بطبيعتهم الى مبشرين مأجورين على محاربة الاسلام والى ملحدين أوروبيين يجارون الاسلام كما يجارون غيره من الأديان ضار بين صفحاً عن آثاره في المدنية ومن رجل استعمار يحاولون اضعاف الامم التي تدين بالاسلام ليتمكنوا منها ويحكموها فكل من قال بان الاسلام دين تأخر أو غير قابل للحضارة من الأفرنج هو مغرض بلا ريب ولا يمكن الأخذ برأيه ولا يجوز التعويل عليه .

غير أن الأجنبي عن الاسلام لو أخذ بظواهر الامور لا يظن للاعتراف بأنه حدث فعلا فترة سكون وجمود تشبه الموت فقد ساد النقل وضعف العقل وصار القول الذي عليه العول هو النصوص الجامدة . وفي الوقت نفسه انتشر العداء للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ولكن هذه الحالات كلها قد ظهر ما يماثلها أو يفوقها في أمم أوروبا ولم يهدمها ولم يكن عائقاً لها عند النهوض وكان النقاد جميعاً سواء أ كانوا مخلصين أو غير مخلصين قد فاتهم تلك المسألة فانه اذا آن أوان النهضة الصحيحة في أمة لم يكن الدين حجر عثرة في طريقها

ولم يكن علة فشلها . لأن الدين في الواقع كما أثبتنا مرات عدة لا يؤثر في نهضة الامة وقد قال اسماعيل حامد المصلح الغربي من الجزائر « ان مدنية الامم لا تقاس بما في كتبها الدينية ، بل معيارها الصحيح هو ما تنهض به تلك الامم من الاعمال » .

وعلى الرغم من ضيق الأحوال في الشرق واشتداد السواد والظلام في أيامه فإنه لم يخل تاريخه من المصلحين الاحرار الذين انتشروا في انحاء ممالكه . ويظهر ان مسلمي الهند هم أول من بدأوا بالنهضة فبدأوا بحركة التعليم على يد سيد أحمد خان مولوي وما زالت تلك الحركة نامية الى عهد الشقيقين المعروفين المرحوم مولانا محمد علي واخيه شوكت علي <sup>(١)</sup> وقد توفي محمد علي في لندن في سنة ١٩٣١ أثناء المؤتمر الهندي ودفن بالمسجد الأقصى في رمضان سنة ١٣٤٩ وطاق أخوه بعده الأقطار بعض الاسلامية قبل عودته الى الهند . أما السيد أحمد خان فقد أنشأ كلية عليكره الشهيرة وكان المصريون يكتبون لها في أوائل هذا القرن وتنشر أسماء المكتتبين في جريدة المؤيد في عهد الشيخ علي يوسف وقد روى عنه المرحوم بلنت في كتابه « الهند في عهد ريبون » طبع لندن ١٩٠٩ ص ١١٨ وما بعدها ان سيد أحمد خان أراد أن يكون التعليم في مدرسته بالاوردي ثم عدل عن ذلك الى الانجليزية وليس في المدرسة أو الكلية تعليم ديني وقد بدأ أحمد خان حياته سنياً ثم صار وهابياً ثم عاد ربانياً وقد زار بلنت كلية عليكره وأعجب بها كثيراً وكان السيد أحمد خان انتخب لها مديراً انجليزيا اسمه مستريبك ونجح بيك في أعماله نجاحاً عظيماً وتوفي في أوائل القرن العشرين بعد أن عمل نحو ربع قرن في خدمة الكلية وكان أحمد خان في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر حوالي ١٨٦٥ أول من حث المسلمين على قراءة كتب اورو باوالانتفاع بما فيها من العلوم الحديثة اقتداء بالعرب في صدر الاسلام فانهم لم يأنفوا ان ينقلوا عن اليونان علومهم وهم وثنيون وتعاليمهم تخالف الكتب المنزلة . ولم يكن مسلمو الهند مقصرين في هذا السبيل فقد ظهر منهم نوابغ أمثال

(١) لقد ظهر هذا الرجل بمظاهر غريبة بعد أن توفي أخوه فذكره هنا هو لمجرد التاريخ لا تقديراً

السيد أمير على مؤلف كتاب روح الاسلام والمرأة المسلمة وهما من أنفع الكتب وأفضلها وقد عين في آخر عمره عضواً في مجلس الملك الخاص بلندن بعد أن تقلد القضاء الأعلى في بلاده أعواماً ومنهم شيراخ على وكان كاتباً قديراً بالانجليزية ويعتد زعيم حزب المجددين في الهند وكان يرى ان روح الاسلام بعيد عن الجود وتقييد العقل وان القرآن كتاب هداية للمسلمين وليس عنرة في تقدمهم .

## ٢

وقام في شمال أفريقيا خير الدين باشا أكبر وزراء تونس وألف كتاباً مهماً في مستقبل الاسلام وقام في تركيا رشيد باشا ومدحت باشا وظهر السيد جمال الدين الافغاني وخدم الافغان والفرس والهند ومصر وتركيا ومن تلاميذه الشيخ محمد عبده

وفي كل قطر من أقطار الاسلام ترى الاحرار والمصلحين يزدادون عدداً ويشدون ساعداً وعضداً ويضمون تحت رايتهم رجالاً من سائر الاحرار الخبراء الراسخين في علم نهضات الامة الواقفين على أسرار تقدمها . وقد دبت روح الاصلاح في الاسلام وتغاغت وأخذت تحرك جثمانه المهول فحركته وصار يفعل انفعالا عظيماً .

وقد يكون الصلح الاسلامي معتزلاً أو حر الفكر ولكنه لا يزال يعمل على خدمة الاسلام وانهاضه مظهرراً لعامة الشعب ايمانه وصلاحه وتقواه ومخفياً أفكاره التي قاده اليها درسه أو امعانه وهو لا يبطن للاسلام شراً .

والفرق بين المسلم المفكر والاوروبي المفكر أن الاوروبي اذا صار حر الفكر أو ملحداً فهو يجاهر بذلك وينشره كاصنع برادلو ( ١٨٣٣ - ١٨٩٩ ) فإن هذا الرجل انتخب للبرلمان ثلاث مرات متوالية ، وأبي قسم اليمين لأن القسم يخالف مبادئه ولكنه أقسمه في النهاية سنة ١٨٨٦ وأسس فرقة لحرية الفكر وأشر تلاميذه المستر روبرتسون الذي ألف « تاريخ حرية الفكر في العالم » في مجلدين وخدم المسألة المصرية في سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ وكان صديقاً حميماً لمصطفى كامل وزار وادي النيل في تلك السنة الاخيرة . أما بعض المسلمين

أحرار الفكر فتراهم للأسف يخفون ذلك وقد يتخذون الدين سلاحاً لمنفعتهم ووصف كاتب هندي أحدهم فقال ( ان هذا السيد المسلم يعرف من أين تؤكل الكتف فهو يبالغ في الظهور أمام قومه بمظهر المسلم المتشدد بشعائر الاسلام غير أنه منطو على آراء لم تخطر على قلب ثولتر نفسه ) .

وروى لنا السيد عبد العزيز الثعالبي عن المرحوم محمد على الذي تلقى العلم في جامعة اكسفورد انه عاد الى وطنه متشعباً بالروح الانجليزي ، ولا يعرف عن الاسلام الا اسمه ، فلما اعتقل في الحرب العظمي وقضى في السجن خمس سنوات درس خلالها الدين وحفظ القرآن فخرج مسلماً صحيحاً وخظيباً بليغاً وبدأ ظهوره بالعودة من ذلك الحين ( ١٩٢٠ ) وروي أخوه شوكت على في محاضرة القاها في القاهرة ( رمضان ١٣٤٩ ) انه عاد الى وطنه مقلداً للانجليز يعيش عيشتهم ويأكل أكلهم ويلعب ألعابهم ولما الملح احتقار الانجليز للمسلمين والهندوك الذين يقدونهم خلع ثيابهم وأرخص لحيته ووضع على رأسه عمامة وتكشف في حياته فصار مهيب الجانب وشعر الانجليز بأنه ذو شخصية وان للاسلام رجاله الذين يذودون عن حياضه وقد رأيناه يلبس الملابس الوطنية المنسوجة في بلاد الهند . ويضع على رأسه شعاراً معدنياً للخلافة وفي صدره وسام عليه رسم الكعبة المشرفة بنقوش بالمناتير .

كان أول من فطن الى اهمية الحج في الاسلام في العهد الحديث المرحوم عبدالرحمن الكواكبي ( والمسلمون الآن يبحثون عن قبره في القاهرة ليموا عليه أثراً وهم لا يهتمون اليه وكان هذا دأبهم مع جميع عظائهم المؤمنين ) فقد ألف كتاب أم القري وتخييل فيه اجتماع مؤتمر اسلامي لاصلاح الاسلام وانهاضه وجاء بعده بفكرة المؤتمر المرحوم اسماعيل غصبرنسكي من بعجه سراى بالقرم وأقام في القاهرة حيناً ولم يفلح ، وبعد الحج في الحقبة مؤتمراً اسلامياً سنوياً ولكن المسلمين لم يلتفتوا الى هذه الحقيقة لأن عطاء الاسلام في الغالب لا يحجون ولا يحشد بمكة الا العوام من سائر الأقطار بدافع ديني محض :

وقد مرت بالخلافة أدوار وأطوار وتولاها العربي الصميم فالذخيل فالاجنبي حتى ان

السلطان سليم اشترى المبايعة من خربنى العباس في القاهرة وكان رجلا خاملا. وانتهى الأمر بضياع الخلافة بتاتا وعزل آخر سلاطين آل عثمان ، وكان عبد الحميد الثاني آخر الخلفاء ولا عبرة بالخليفة السوري الذي يعيش الآن في احدى مدن اوروبا . وعقد بالقاهرة مؤتمر لانتخاب خليفة في ١٩٢٦ ف فشل وعقدت مؤتمرات في جزيرة العرب نفسها ولم تفلح لأن عرب الجزيرة يتنازعون بين الامام يحيى وابن السعود وكانت محاولة الملك حسين ان يكون خليفة مما يستدعي الابطسام . فزمن الخلافة ولى وفكرتها اندثرت ويجب على المسلمين ان يعرضوا عنها لأنها لا تصاح لهذا الزمان ولأن الخليفة بمعناه الأصلي الصحيح يجب ان ينتخب انتخابا حراً مباشراً وهذا غير ميسور وهو بمثابة رئيس جمهورية اسلامية ، فان صار أحد الملوك خليفة فهو يكون حاكماً مستبداً وهذا غير مرغوب فيه لأن العالم يسير نحو الديمقراطية والحرية ولم يبحث المسلمون حتى الآن في كيانهم القومي حتى يتخطوه الى البحث فيمن يتولى الحكم وهذا آخر ما يجب التفكير فيه فوجب على المسلمين ان يتجهوا الى روح الاسلام ويستمدوا منها قوتهم .

## ٣

ان هجوم اوروبا الفظيع على الشرق يرجع الى القرن التاسع عشر حيث بدأ الفرنسيون بالاستيلاء على الجزائر واستوات روسيا على القوقاز وبسطت انجلترا نفوذها على الهند ومصر .

فتنبه المسلمون لحالهم وقام في كل قطر من أقطارهم رجال يدافعون عن أوطانهم بالسيف أو بالقلم كعبدالقادر في الجزائر وشامل في القوقاس وعراقي في مصر والمهدي في السودان ويعقوب بك في تركستان الشرقية .

غير ان هذه الجهود كانت مبعثرة وغير موحدة. في حين أن اوروبا كانت كلها بدأ واحدة وذات قوة منظمة. وحتى امبراطور المانيا الذي كان حليف تركيا كان يجبرها على طاعة اوروبا والتسليم لها اذا حدث بين اوروبا وتركيا خلاف جدى ولم يكن يبقى عليها الا التسخير جيشها لحرابه التي انتهت بدمارها وأتت على البقية الباقية من أملاكها . فلم يتدخل ذلك

الامبراطور في أية حرب نشبت بين تركيا واروبا حتى حروب سنة ١٩١٢ التي فقدت فيها كل أملاكها الاوربية بقيت المازيا مع الدول الأخرى تشهد مصرعها ودول البلقان الحقيرة المتوحشة تنهشها وتفترق فظائع القتل والاجهاز على الجرحى وهتك الأعراس وذبح الاسرى حتى ضج ضجيج فريق من كتاب أوروبا أمثال بيلوتى وكلود فارير . ولم يحرك كاتب انجليزي ساكنا .

ولما رأى المسلمون في انحاء العالم ان اوروبا أصبحت تعدي على الشرق في قسوة ووحشية بتصد الامتلاك والاستعباد فكروا في ان الاستقلال السياسي يجب ان يسبقه التجدد الروحي والعقلي والعلمي والتربية النفسية . وان هذا الاصلاح المعنوي هو العلاج لذلك الشقاء العظيم الذي يعانيه المسلمون من الذل والهوان في سائر أقطارهم . فكروا في الرجوع الى الطرق الصوفية ولكن هذه الطرق كالنقشبندية والپكاشية وغيرها قد قالت كلمتها الأخيرة وخرجت تتسلل من مسرح الحياة العامة . ولن يكون لها دور تمثله في حياة الاسلام بعد ذلك . كما اننى ضعيف الأمل في الوهابية والسوسية .

وكلتاها طريقتان للاصلاح الديني ناشتان في الصحراء الأولى في جزيرة العرب أى في آسيا والثانية في أفريقيا والطريقة السوسية تقوى وتنمو وتعظم وتنتشر ولكنها لم تترك يوماً مراً كماً خشناً ولم تسلك مسلكاً وعراً . ومدار هذه الطريقة على تعليم افرادها الطاعة المطلقة للمقدم والوكيل في الزوايا فهي ترجع إلى تسويد الفرد وتحكمه واطلاق يده بل يعيدش افرادها تحت سلطة ثنائية . المقدم والوكيل . والسوسية بقوتها رابضة ولم تحرك ساكناً ولم تشترك في حرب ظاهرة ولم تجاهر بعدائها لأحد . فعلمها عند ربى ومستقبلها مجهول (١) .

أما الوهابية فعلى العكس ظهرت بانها قوة محاربة وقد فتح رجالها بلاد الجزيرة وبملاك أحدهم آلان معظم بلاد العرب ولا يزاوجه فيها الا الامام يحيى ، ولكن هذا الملك

(١) بعد كتابة ماتقدم قضى الطليان على السوسية (ربيع ١٩٣١) وخربوا زواياها



العربي العظيم تبقي سلطته محدودة مادام محوطاً من جميع الجهات بالقوة الانجليزية في الشمال والجنوب والشرق والغرب وهو في الوقت الذي يضم أثنائه الى بلاده إمارة العسير الادريسية بمخالفة ولاء اشبه شيء . بمخالفات الحماية الأوروبية تراه يعقد محاماة حسن الجوار مع ملك العراق الخاضع للانتداب الانجليزي وتراه يهتم ثوار الدرروز على حدود ملكه «احتمالاً دولياً» فالوهابية حركة دينية حربية وهي بطبيعة الحال مقضى عليها بان لا تخرج عن جزيرة العرب ويغلب على فكري أن كلا من مؤسسى الوهابية والسنوسية ظنا ان الاسلام ظهر ولا في الصحراء وخرج بقوته افتتح العالم . فأرادا تقليد صاحب الشريعة الاسلامية في كيفية التكوين البدائي .

ولكن محمداً وصحابته أموا العمل كله في بضع سنين وهؤلاء الوهابيون والسنوسيون مضت عليهم عشرات السنين وهم في صحرائهم رابضون وربما كان يكون للسنوسية مستقبل في أفريقيا حيث ارشاد الزوج الوثنيين فتكون حركتهم سائرة نحو الجنوب والغرب وحينئذ يكون عملهم جزءاً من المنهاج الذي نتمناه لأفريقيا وهو انتشار الاسلام فيها وتنظيم حياتها الاقتصادية لتخليصها شيئاً فشيئاً من النفوذ الغربي الظالم . ونحن اذا عرفنا أن هذا هو منهاج السنوسية نرحب بها ونشجعها ونتمني لها النجاح ولكن ينبغي لما أن تتضافر مع الأمم الشرقية الأخرى لتوحيد القوى وتبادل المعونة المعنوية . وتروى عن السنوسى عبارتان الأولى قوله ( الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضر بهم ضربة واحدة ) . وهذه الرواية لم تثبت صحتها ولم نر لها أثراً في الحقيقة .

واثناية أنه لما قام المهدي في السودان واستنصر السنوسى طرد السنوسى رسوله وأجاب هازئاً « من يكون هذا الصعلوك الذي لاوى ؟ ألا يمكنني أن اكون أنا المهدي اذا أردت ذلك ؟ » ويؤيد صحة هذه الرواية أمران الأول ما جاء في تاريخ السودان عن هذه الحادثة والثاني أن السنوسى أعان تكذيب المهدي وعدم تصديقه . فهذه فرصة كانت سانحة للسنوسية لمحاربة أوربا تركتها تقوت وربما كانت السنوسية ضعيفة في أول أمرها فلم يرغب

السنوسي في معونة رجل من قارته وجنسه ودينه كما أنه لم يرغب في الظهور بظهر المعادي لأوربا. ذكرت في حاشية ما كان من شأن السنوسية مع الفاشستية ، فإن الطالبان الذين عجزوا عن اخضاع طرابلس في عشرين عاماً لقوا أثمانها الخيبة والهزيمة ، اظهروا قسوتهم التي لا حد لها فخرىوا زوايا السنوسية وصادروا أملاكها وداسوا حرمة مساجدها وأعلنوا الحرب على كل من ينتمى اليها وقد حدث ذلك كله في ربيع سنة ١٩٣١ وكانت خاتمة تلك الفواجع مقتل المرحوم السيد عمر المختار الذي أسروه وشنقوه وهو بطل جريح في المائين من عمره .

## ٤

زار القاهرة في مارس سنة ١٩٣١ شاب تركستاني من تركستان الشرقية اسمه السيد منصور خان يطوف بأحاء الشرق للامام بشؤون الأمم العربية والاسلامية والسعي لانشاء علاقات بينها وبين وطنه تركستان الشرقية حيث يعيش ملايين من المسلمين منقطعين عن بقية العالم لا يدرون من حوادث الأمم الاسلامية وشؤونها شيئاً . وقد كتب هذا الشاب يشكو حال بلاده وظلم حكومة الصين المستبدة التي تستغل بلاده وتحكمها على الطريقة الرومانية وقد قامت في ١٨٧٠ ثورة في تركستان الشرقية فأظهر أهلها المسلمون من الاستبسال والمغامرة في القتال ما لم يسمع بمثله من قبل وقام بينهم الزعيم يعقوب بك فهزم الصين وضم تركستان ويونان واستقل بهما عدة سنين وصار يعقوب يلقب بلقب أمير المؤمنين في الصين بعد ان صارت له دولة. ولكن الصين حشدت جيوشها وهزمتها واستولت على البلاد من جديد وسكنها لا يقنون عن عشرة ملايين أى عدد سكان القطر المصرى قبل الحرب العظمى وهم على صفات جلييلة من الشمم وابعاء الضيم والشجاعة وعلو الهمة وقد دخلوا في الاسلام أفواجاً وهؤلاء المسلمون جميعاً يحكمهم أهل الصين البوذيون بالسلطة المطلقة ولا يزال تقسيم الأمة التركستانية الاجتماعى تقسماً عتيقاً ففهم الزراعة والصناع والتجار والعلماء وعلماءهم يعرفون العربية والفارسية وتعليمهم كتعليم الأزهر القديم وبعضهم يعلمون بالتركية

وأعظم مدارسهم في كاشغر واسمها خانلق مدرسة وعدد طلاب المدارس يبلغ أربعين أو خمسين ألفاً .

فهذه أمة مسلمة شرقية لا تحكها أوروبا ولكن يحكمها الصينيون الشرقيون الوثنيون وهم في بلادهم مثال الضعف والفوضى والمظالم فغلبتهم اليابان في ١٨٩٥ وقام نضال بين الامبراطورية والجمهورية التي أسسها سنزات سن لا يزال حتى هذه الساعة .

\*\*\*

نشبت مؤخراً حرب بين الصين واليابان بعد خمس وثلاثين سنة على الحرب الأولى بينهما . واليابان تريد منشوريا والصين ممزقة بين الحروب الأهلية وفتنة الشيوعية . وتتميز هذه الحرب بكونها واقعة رغم أنوف جمعية الأمم ، لأن الدولتين المحاربتين من أعضائها فقدت العصبة هيبتها في الحقيقة وربما جرت هذه الحرب وراءها ويالات في الشرق والغرب بسبب دسائس روسيا وغيرها ، ولعل تركستان الشرقية تنهز هذه الفرصة لتحرير وطنها .

٤

في مستهل هذا القرن العشرين بعد أن تنبه الشرق الاسلامى العربى وبعد انتصار اليابان على روسيا قامت حركة الفرس الدستورية وشبت نار ثورة عظيمة فناهضتها روسيا التى كانت دولة استعمارية وخنقت تلك الثورة مستعينة بالشاه محمد على الذى لقي حتفه مؤخراً، وقد ضرب مجلس النواب الفارسى بالقنابل وسجن أعضائه وقتل من زعمائه من قتل

وفي سنة ١٩٠٨ ظهر الدستور العثمانى وبدأت الحركة الوطنية العثمانية في الظهور بقوتها فخشيت أوروبا عاقبة ذلك فوعزت الى ايطاليا بالهجوم على طرابلس في ١٩١١ فهاجمتها واستولت على السواحل وحدثت فيها حرب تشيب لهولها الولدان وجيوش الطالبان ولا تزال تلك الحرب قائمة بين ايطاليا وبعض المحاربين من رجال القبائل .

وفي سنة ١٩١٢ تألبت دول البلقان الصغرى على تركيا وحاربنها ونشرن بلاغاً يشبه كلام الملوك الصليبيين في القرون الوسطى ولم ينكر هذا الأمر أحد من ملوك أوروبا حتى ولا امبراطور ألمانيا حليف تركيا الوحيد . ومن الناظر التى كانت تفتت القلب في القاهرة في أثناء تلك الحرب والتى كانت تدل على جود أهل مصر وجهلهم واستغراقهم في الغفلة أن الصبيان من باعة الجرائد كانوا ينتشرون في عاصمة مصر انتشار الجراد في كل ساعة من ساعات النهار منادين باسم جريدة يونانية اسمها « فوس » أى النور وهي تحمل أنباء انكسار الترك ساعة فساعة وتخريب مدنهم وانهمزام جيوشهم واحتراق مدنهم وجماعة الأروام والبلغار والصرب ممن يعيشون في مصر يقبلون عليها ويشترونها ويقرأونها شامتين وهم يسكرون في شوارع القاهرة ويربحون ويدفعون ثمن الجرائد من أموالنا . والمصريون لا يدركون هول هذا الأمر ولا يشعرون بفضاعته ولو أنك تخيلت الألمان في شوارع

ليثربول يقرؤون في صحف المائنة أخبار انكسار الانجليز في غاصتهم وصبير الانجليز على ذلك لادركت هول هذه المسألة . ولكن وداعة أخلاقنا وإكرامنا للضيف وظناً بأن هذا الأمر لا يعنيننا جلب علينا هذا وأفزع منه...

وقد تمكنت دول البلقان من التغلب على تركيا وطردتها من اوروبا ولم يبقين لها الا الاستانة ولكن أجزاء أخرى من العالم الاسلامي أدركت هول المصاب فشعر له المسلمون في الهند وما كان أبشع منظر العالم الاسلامي في تلك الفترة المشؤومة ( ١٩١٢ ) حيث كانت تركيا تنتهب وتدمر في اوروبا ، وطرابلس تغلب على أمرها في شمال افريقيا . ومصر تخضع خضوعاً قاسياً لحكم لورد كيتشنر فاتح الترنسقال والخرطوم فجزع بعض ساسة اوروبا من عواقب ذلك الامر وخافوا على اوروبا من يقظة الاسلام ومن شدة الغيظ والقهر فكتب هانوتو يوم ايطاليا « ان ايطاليا لاتحارب تركيا وحدها بل تحارب العالم الاسلامي كله . فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جنابة لايعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها »

## ٢

وكان هانوتو هذا نبي ان فرنسا وطنه لم تفعل اقل مما فعلت ايطاليا فاستولت على الجزائر وتونس وكانت تحاول الاستيلاء على مراکش وما حادثة « اغدير » في سنة ١٩١٢ ببعيدة وهي التي أوشكت أن تشعل نار الحرب في صيف ١٩١١ بسبب احتكاك المانيا وفرنسا على شواطئ المغرب الأقصى .

على ان هانوتو لم يكن ليكشر أنيابه لايطاليا حياً في سواد عيون طرابلس ولا نصيحة لايطاليا ولكن خوفاً على مستعمرات فرنسا العريضة !

وهانوتو هذا هو الذي كان منذ خمسة وثلاثين عاما من أكبر أعداء الاسلام في السياسة والاستعمار .

وقد كتب مقالا مشهوراً في جريدة جورنال سنة ١٩٠٢ جاء فيه :

« في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته

وجاء القديس لويس الذي ينتمي الى اسبانيا بوالدته ( رمز الى الأخذ بالثار من العرب والاسلام) ليضرم نيران القتال في مصر وتونس وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هذا الخاطر نابليون الأول فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التي كانت لاتفي في متابعة الغارات على القارة الاوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاما وكذلك الفطر التونسي منذ عشرين عاماً.

« قد وصلت طلائع قوانا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهي اليها كتيبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصوصنا ( يقصد الأمم الاسلامية ) وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الفيافي وبطون الخبوت وظنهم انهم صاروا في أمنع موئل شعروا بانفسهم وقد حلق عليهم الاربابون من جميع الجهات .

« اذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت اراضيه واخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاوين وهي تدير اليوم شؤونه وتجيي ضرائبه وتمشيد شبانه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال» .

وبعد ان وصف شعائر الحج واتجاه المسلمين شطر مكان واحد وهو الكعبة قال

« يؤخذ مما تقدم ان جرائم الخطر لانزال موجودة في نذبات الفتوح الاوربية وطي أفكار المقهورين الذين اتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط همهم»  
ثم أشار الى رأى فريق من الاوربيين في الاسلام ومنهم كيمون في كتابه « باتولوجيا الاسلام » وفيه قوله المرذول :

« ان الديانة المحمدية جذام فشابين الناس وأخذ يفتك بهم فتسكا ذريعاً بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهم ما

الايسفك الدماء ويدمن على معاورة الخور ويجمع في التبايح وما قبر محمد في مكة الاعمود  
كهر بأى يمث الجنون في رؤوس المسالمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهيستريا العامة  
والذهول العقلى وتكرار الله الى الملائمة (يشير الى حلقات الذكر) والتعود على عادات  
تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا  
والماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات !»

وكم يباهي هانوتوبان شعبه الفرنسى الجمهورى المبادىء البالغ أربعين مابوناً ولا  
مرشد له الا نفسه لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ولا رؤساء يتناولون الريسة بطريق  
الوراثة هو الذى تقلد زمام شعب آخر (هو الشعب الاسلامى بافريقيا) لا يلبث أن ينمو حتى  
يساويه في العدد . .

هذا هو جبريل هانوتوزير خارجية فرنسا سابقا وقد ظهر منذ ثلاثين عاما بمظهر  
المتعصب المستبد الشامت . وهو الذى يلوم ايطاليا في سنة ١٩١١ على هجومها على طرابلس  
لأنه كان يطعم في أن تغتالها فرنسا الجمهورية لتكمل لها السيادة على الشعب الاسلامى  
الافريقي . وهو الذى يشتغل الآن بوضع تاريخ رسمى للدولة المصرية. فترى أية الخلط يسلك؟  
أخطئه الأولى خطة العدا والتعصب والبغضاء أم خطة الخوف من يقظة الاسلام البادية في  
ملامه لايطاليا أم خطة ثالثة رسمتها له حوادث الحياة وتجارها بعد أن جاوز حدود السبعين  
وتربع في دست الاكاديمية وطاق السياسة في وطنه واقطنع للأدب والتاريخ .

ليس في ظني ان عتاة الغرب يتركون موقفهم حيال الاسلام فان ملك اليونان لما  
حارب تركيا أوقد نار حرب صليبية جديدة واستنصر وزراء بريطانيا وحرك تعصب المسيحية  
على الاسلام وكانت قيصريه روسيا تريد أن تجعل من جامع اجيا صوفيا كنيسة وأراد فنز يلوس  
ذلك ونشره في الصحف وغيرهم يريد أن يكون مسجد عمر بن الخطاب معبداً أو هيكلًا  
لملة أخرى . ووصف لويد جورج دخول جنرال النبي لبيت المقدس بأخر حرب صليبيه  
غير ان هذه الافكار لم تتغير في خلال السنين القليلة من القرن العشرين التى تلت

حروب أوروبا ضد تركيا فإنه لما نشبت الحرب العظمى وانضمت تركيا إلى ألمانيا مضطرة مقهورة قام سياسة أوروبا الغربية والحلفاء بصرحون رسمياً بأن الغاية الكبرى من الحرب هي إنشاء نظام عالمي حديث أساسه مكارم الاخلاق والانصاف ورعاية حقوق الأمم المستضعفة وإطلاق الحرية للأمم الصغيرة ونظرية تقرير المصير ولكن جاء مؤتمر فرساي كاشفاً عن مقاصد أوروبا فما خسرت في الميادين الأوروبية كسبته في الممالك الشرقية وخرجت كل دولة منها بغنيمة فدفع الاسلام حساب تلك الحرب في العراق وجزيرة العرب وسوريا وشمال أفريقيا لأن فرنسا وإسبانيا اقتسمتا مراكش وظهر أن أوروبا لا تريد بالشرق والاسلام خيراً وأن منهاج ويلسون وتصريحات سياسة الحلفاء لم تكن الاحباطل نصبت حتى استعانت أوروبا بجيوش شرقية واشتريت سكوت الأمم المغلوبة أثناء الحرب بانحس الأثمان وهو الكلام والوعود التي صدقها أو تظاهر بتصديقها ( وهو الأصح) الملك حسين ومن كانوا معه وقد شعر بعض علماء الشرقيات والمشتغلين بالمسائل الاسلامية بتقوية هذه الصدمة

فقال ليون كيتاني مؤلف كتاب Les annales de l'Islam ( وقد زار مصر في سنة

١٩٠٨ ) في سنة ١٩١٩ مانصه :

« ان الحرب العظمى قد هزت البناء الشرقي من أساسه وبعثت في شجرة حياته روحاً جديداً فالشرق باجمعه من أقصى الصين إلى المحيط يضطرب في مصر وبلاد العرب وجميع الاقطار المحمدية حركات وطنية ونهضات قومية كبرى جميعها متماثلة الصفة العامة وموحدة الغاية ترمي إلى البعث من جديد ومقاومة الهجوم الأوروبي »



## ٥

## ١

يقول علماء الاجتماع ان الدين ظاهرة اجتماعية ، كغيرها من الظواهر التي لازمت الانسان بحكم خلقته وتفكيره ومحيطه . غير أن الناظر في أمم الشرق والغرب يدهش لكثرة العقائد التي ظهرت في الشرق وانتشرت في ناحياته منذ الخليقة حتى الآن ، وقلة الأديان التي ظهرت في الغرب ولا يزال أهلها متمسكين بها . وإذا عرضنا عن اختلاف الآراء العلمية والدينية من حيث خلق البشر وأصل تكوينهم وما كانوا عليه تفاديا من الدخول في مباحث ، وان كانت نافعة الا انها بعيدة عن الغاية من هذا الكتاب وجدنا الأصل فيه السذاجة التامة والتجرد عن التفكير وهو الوجود البدائي أو الفطري ، وان المعرفة والعلم والحضارة كلها طارئة عليه ، سواء أكانت من السماء بطريق الوحي أم من الاختبار من الحياة والاحتكاك بسائر المخلوقات الى ان يصل الى درجة تقرب في نظره القاصر من الكمال وقد يشترك في ابلاغه هذه الدرجة الهبة والكسب معاً فقد ترقى الانسان درجات بعضها فوق بعض فسار من الممجية أو الوحشية وهمه في هذه المرتبة سد الرمق وقضاء شهوته فهو في هذا الطور حاطب وصائد ، وان كان بعض علماء اوربا كشفوا أنه كان في هذا الطور متفنناً ومصوراً فعثروا في بعض الأحافير على صور حيوانات انقرضت وكشف بعض الباحثين في فرنسا على مقربة من قرية جلوزيل آثاراً تدل على أنه كان يعرف الكتابة ، في عهود سابقة لعهد التاريخ ، وان كان انبرى بعض العلماء أمثال بيل افرنسي رئيس عمل التحقيق الكيميائي في باريس ، المتوفى في سنة ١٩٢٩<sup>(١)</sup> انفي هذه النظرية وتمنيدها والادعاء باصطناع تلك الآثار ، ولم يفصل في تلك المسألة الى حين كتابة هذه الأسطر .

(١) قتله رجل صاحب قضية تعين فيها بيل خميرا وقدم تقريره ضد الرجل لصالح المدعى وهو من الاغنياء . وهو فيليبونيه .

ومن تلك المرتبة انتقل الانسان الى المرتبة الثانية وهي مرتبة الألفة والمعيشة المتحددة والنظر الى عجائب الخليقة والتأمل في الكون بعين الانبهار والدهشة وقد بدأت العاطفة المدنية تظهر في هذا الطور وبدأ الانسان يفكر في خالق للكون ومنظم له . وبدأ أيضاً يميز بين الخير والشر والضار والنافع . وقد يكون شرع في الكتابة والتدوين على الاحجار والعادن جهد الاستطاعة ، لأن فطرته تدفعه أبدأ الى تدوين الآثار وتركها التي تدل عليه بعده ، ولم تكن عقول البشر وصلت الى البناء والعمارة ولكنها ترقى الى الزراعة وتأليف الانعام للانتفاع بها وقد دامت هذه الفترة بضع مئات من أوف السنين .

ومنها انتقل الانسان الموفق في الاقليم الحسن والمحيط الملائم للدرجة الأولى من سلم المدنية كما نفهمها فنشأت الحضارات القديمة كالحضارة البابلية والاشورية والحيرية والمصرية القديمة والفينيقية وغيرها . وفي تلك الفترة ظهر الأقوياء الذين تسلطوا على القبائل والعشائر وانتحلوا لأنفسهم صفات الرياسة والملك بالقوة القاهرة والحرب ثم ظهرت المدن والصناعات والتجارة وكلما ترقى الانسان فيها ترقى من الوجهة المعنوية فوضعت القوانين وسنت الشرائع وجاءت بعض الأديان بالتدريج على أيدي الحكماء ثم الأنبياء .

## ٢

وأول ما ظهرت المعتقدات والشرائع في الشرق ، وأقدم ما اطلعنا عليه في العهد الحديث قوانين هامورابي التي وجدت مدونة في الحجر ونشرت في اوربا في سنة ١٩٠٠ وما كانت تلك المدونات ذكرت الطوفان وقصصاً تشبه ماورد في الكتب المنزلة من خلق آدم وحواء وطردهما من الجنة وقصة الام التي تلد من غير علاقة جنسية مباشرة مما يشبه ما جاء في بعض الأديان المنزلة فقد دهش العلماء في اوربا ، واضطر امبراطور الالمان وليم الثاني الموهنزولرني ان يجاهر برأيه في تمسكه بالدين المسيحي وان ظهور هذه المدونات لم يزغزع عقيدته في ملته ، وكان علماء آخرون من الالمان قد أظهروا تشابهاً كثيراً بين المسيحية السمحاء وبعض أديان الهند كعقيدة البراهمة وغيرها .

بيد ان المجوسية هي أولى الديانات المعروفة لنا وقد ظهرت في بلاد الفرس وهم يعتقدون بوجود الهين أحدهما نور ومبدأ الخير ويسمونه اور مزاد أو يزدان والثاني ظلام ومبدأ الشر ويسمونه اهرامان أو اهرمن وهما في نظر فقهاء المجوسية تماثلان في الأُزلية والقوة ولكن بينهما عداً ومعاندة فإذا كثرت الشرور في العالم كان الغالب اهرامان وإذا ظهر الخير وانتشر كان الغالب اور مزاد .

وقد انقسم المجوس عدة فرق منهم الكيوميورتيه أصحاب كيومرت الذي يقال انه آدم والرزانية والزرداشتية أصحاب زرداشت بن بيورشت والثنوية وهم الذين نأبروا على الاعتقاد بلهى الخير والشر ، والمناوية والمزركية والبيصانية والفرقونية وأصحاب مذهب التناسخ ، ومنهم من أنكر الشرائع والنبوات وحكموا العقل وزعموا أن النفوس العالوية تقيض عليهم الفضائل وأهم هذه الفرق فرقة زرداشت لأنه كان موحداً وأنكر إلهى النور والظلام وان الشرور توجد في العالم صادرة عن طبيعة الخلوقات اللازمة كالفل الذي يصدر عن الاجسام ضرورة وانها لا تزال حتى نهاية العالم فيقوم الاموات ويحاسب كل الى عمله لأن الله خلق ملكا للنور وآخر للظلام وان يوم نهاية العالم وهو يوم الحساب يذهب ملك الظلمة وأتباعه الى مكان فيه ظلام وعذاب وان ملك النور وأتباعه يمضون الى مكان فيه نور وهناء دائماً فلا يرون الشر الى الأبد .

وقد توفي زرداشت هذا في القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال هؤلاء المجوس في العالم الى الآن وهم عبدة النار المقدسة وقد اضطهدوا في وطنهم الأصلي فرحلوا منذ الف سنة الى الهند وهم طائفة البارسي الموجودون في بومباى وقد قام منهم أفذاذ مجاهدون خدموا المسألة الهندية في الهند وفي أوروبا ومنهم مدام كاما<sup>(١)</sup> الشهيرة التي جاهدت في سبيل بلادها في أمريكا وأوروبا وأسسست جريدة « باندي ماترام » وأثقت ثروتها في قضية الهند وعاشت عيشة الزهد والتقشف في لندن وباريس وسويسرا وتوفيت منذ بضع سنين في

(١) علمنا من المعاصرين انها عاشت بضع سنين في باريس ويرجع اليها الفضل في تعليم بضع فتيات وثقيفهن على نفقتها

السبعين من عمرها . وهم الذين يلقون بموتاهم في « برج الصمت » حتي تأكلهم الطير وتسقط عظامهم في بئر هناك . وقد حدثنا أحد أدباء الفرس أن للمجوس بقية في بعض جبال ايران ولا يزالون على عبادتهم الأولى خفية .

وبعد المجوس ظهر الصابئة أو الكلدان وهم أول من عبد الأصنام وسجد لها . بعد عبادة الاجرام السماوية . وهؤلاء يعتقدون أن لنفوس العطاء من الموتى كرامة عند الله كالوسطاء بينه وبين خلقه وانتقلوا من هذه العقيدة الى عبادة الملوك والابطال والاسلاف كما تصنع اليابان في هذا الزمان واحد ملوكهم نيقوس الذي شيد مدينة نينوي التي كانت احدي حواضر بابل وآشور وقد علا نجم هذه الطائفة في أوائل القرن الحادي عشر قبل المسيح (٢٠٥٠) وكان ابراهيم الخليل من هذه الطائفة ولكنه ثار عليها وخرج على أبيه الذي كان من صناع الأوثان وعبادها ومن طوائفهم الخنفاء القائلون بان الروحانيات منها ما وجودها بالقوة ومنها ما وجودها بالفعل فما هو بالقوة يحتاج الى ما يوجد به بالفعل وعلى قول ابن خلدون يقر هؤلاء الخنفاء بنبوته ابراهيم وانه منهم .

والذي يهمننا من أمر الصابئة انهم أول من قل بالنبوة فقال أحد أئمتهم بيد ان بأن من يدرك عالم الأرواح فهو نبي وان النبوة من أسرار الالهية وكلا المجوس والصابئة لم يعبدوا الشمس أو الأصنام الا لاعتقادهم بأنه سبحانه يسكن الأولى ويحل في الأخيرة . ثم ظهرت تقاليد وسنن كلدانية وفريجية ويونانية وفارسية وصينية وهندية وامريكية ( الهنود الحمر ) ومكسيكية وكلها مجمعة على أن الانسان قد انذر بالطوفان وان الطوفان كان عقاباً للانسانية على مآثر منها من الشر ولم تنج من الفرق الا أسرة واحدة وانها نجت على فلك مشحون فيه صنوف من الحيوان والطير والدواجن وبلغ جبلا عالياً واستدل على ذهاب الطوفان بالحمامة وان الجنس البشرى تجدد من نسل واحد وهو بلا ريب عين الخبر الوارد في التوراة .

## ٣

وبعد ان حبطت زوبعة الطوفان ظهر الفينيقيون القدماء فأخذوا بأطراف من عقائد الصابئة فعبدوا الاجرام السموية والأصنام. وعبد العرب في الجاهلية على طريقة المجوس ثم عبدوا الأصنام والتوتيم. وظهر المصريون القدماء بمدنيتهم العظيمة وعلومهم الباهرة واكنهم أخذوا عبادتهم عن الصابئة والعرب الأقدمين وتاريخهم الديني معلوم لنا بقراءة تاريخ بلادنا ومشاهدة آثارها .

ولما أخذ اليونان بالعقائد قسموا أربابهم الى درجتين الأولى والثانية وانصاف الآلهة من الثانية وهم عظماء الرجال مثل هيرقل واپولون أما آلهة الدرجة الأولى فهم زحل وتيتان وستاوسر يسه .

وقد نسجوا بخيالهم الشعري أساطير وقصصاً من أغرب ما تصورده العتل وهذه الأساطير هي أساس الميتولوجيا اليونانية وقد نظمها هوميروس في قصيدة الاياذة الخالدة وهناك تقرأ أسماء چوبيتر وڤينوس ونبتون وغيرها .

ولم تنقرض الوثنية من العالم الشرقي ، على الرغم من ظهور اليهودية والمسيحية والاسلام فان الهنود الوثنيين لايزالون براهمة وبوذيين والبراهمة أنكروا نبوة البشر ومنهم الزهاد الذين يهجرون اللذات الطبيعية وأحباب الرياضة المطلقة وأحباب التناسخ وأحباب الرياضة الفاعلة . والدين البرهمي يعلم بوجود إله واحد فان لهم آلهة أخرى يسجدون لتماثيلها وقد انشق عن برهم ثلاثة آلهة أخرى وهم برهمة وفشنو وسيثا . ويعتقدون أن آدم وحواء لما تجاوزا نعيمهما الحد حكم عليهما ان لا يعيشا الا من عملهما وكسبهما . وان الأرواح بعد الموت تتناسخ فتمر من جسد الى جسد . واذا تأملت الى ذلك الثالوث البرهمي وجدت ان برهمة يرمز به الى الخلق وفشنو الى الخير وبسيثا الى الشر وقد يقولون برهمة هو الوجود وفشنو هو الحافظ وسيثا هو المهلك (١) .

(١) هذه هي عقيدة جاندهي (غاندى) ولكنه تحرر من قيودها ومال الى التوحيد كما علمت منه شخصياً

ويعتقدون بأن هؤلاء الآلهة لا يبد لكل واحد منها ان يتجسد بهيئة من الهيات فهم دائماً يترقبون ظهور آلهة متجسدة كالاله الذي يسمونه دييور ويزعمون أنه عاش منذ خمس مئة سنة وينسبون اليه العجائب .

وروى رومان رولان المؤلف الفرنسى الشهير المقيم الآن ببلدة فيلنيف على شاطئ بحيرة جنيف ان راما كريشنا المتصوف الهندى الشهير ولد من علاقة أمه بآله ظهر لها وبشرها وأولدها هذا الولي العظيم (الكتاب في ثلاثة مجلدات وظهر سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ على التوالي) ولهذا العقيدة معابد عظيمة في كل بلاد الهند ومنها معبد الآلهة كالي الذي بلغ من الضخامة والفضامة والغنى وجمال الزينة ما لم يبلغ هيكل آخر وفي أحضان هذه الآلهة نشأ وتربى الولي راما كريشنا الذي تتلمذ له فيفيكندا الذي كان أعظم من ظهر في الهند من رجال الإصلاح وكان له شأن عظيم في مؤتمر الأديان الذي عقد بمدينة واشنطن سنة ١٨٩٣ وهو خليفة راما كريشنا السالف الذكر .

## ٤

أما البوذيون فهم أتباع جوتاما بوذا الذي له أخبار طويلة وقصص ووقف كثير من علماء اوربا وقتهم وعلمهم على درس تاريخه وأعماله ومن أهم ما كتب عنه كتاب البوذا وحياته وتعليمه وأصحابه تأليف اولدنبرج استاذ بجامعة كيمبال ونقله الى الفرنسية فوسيه بياريس طبع الكتاب سنة ١٩٢١ وقد حقق فيه مولد بوذا في حديقة لومبيني (ص ٩٥) حيث يوجد عمود كتب عليه « هنا ولد سعيد السعداء ! » وتكلم علي عهد بناريس تلك المدينة المقدسة عند المنود وكانت غاية بوذا اصلاح الدين البرهمي فحاء الى اورثيلا حيث يقطن ألف من البراهمة ويشعلون النار المقدسة تبعاً لأمير القيدا ويتوضأون في نهر نيرانجارا (ص ١٣١) فلما بوذا من المكان الذي يقطنه ملك الثعابين وسحقه بقوته فأعجب به البراهمة ودعوه ان يقضى الشتاء معهم فلبى دعوتهم وأخذ يظهر الكرامات والمعجزات فآمن به رئيسهم كسابا ولكنه لم يستطع ترك أديان أجداده فأظهر له بوذا المعجزة الكبرى وهي

ان حدثه بما يجول في خاطره فسجد أمامه كسايا واخوته وآمنوا به وسواء صح ان جوتاما بوذا كان ملكا - ابن ملك ترك العرش والزوجة والولد وهو في مقتبل العمر ليحارب الموت والألم والفقر ، أم كان زاهداً مصححاً خلا بنفسه للعبادة والتجرد حتى قويت نفسه على السكفاح الذي استعد له ، فانه لانزاع في أن البوذية التي سبقت المسيحية بستة أو سبعة قرون كان لها شأن عظيم في الشرق الأوسط والشرق الأقصى . فقضت تقريباً على تعاليم البراهمة ونقلت ملايين الناس من البرهمية المستبدة المظلمة الى عقيدة أفضل وأرقى ومن العجيب ان جوتاما بوذا ظهر في سنة ٦٢٣ قبل المسيح كما ان النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ولد في سنة ٦٢٥ بعد المسيح أي ان بين كل من هؤلاء الانبياء الثلاثة سبعة قرون . وليس لفظ بوذا اسماً انما صفة ومعناها المنور أو المطلع أو المدرك .

وقد عارض بوذا دين البراهمة القاسى بدين مؤسس على الخنان والرحمة نحو المرأة ونحو الضعفاء والبائيسين والمرضى وصدق في مبدئه الأول وهو مكافئة الألم والثمر في العالم وقد قسمت حياته الى اثني عشر قسماً أهمها القسم العاشر وفيه خبر ابتدائه في تعليم الدين واجتماع الرجال والنساء والأغنياء والفقراء والمرضى حوله وإيمان كثيرين من الامراء والحكام به وقد أسس مدينة سرافاسى على شاطئ الجنج حيث شاد معبداً . ولا ريب في أن جوتاما انقطع للعبادة والتشف ست سنين وقد بدأ خلوته وهو في الثلاثين من عمره وانه هزم خصمه ماريا الذي جمع جيوشاً جرارة لهلاكه

وخلاصة مذهبه القول بانثواب والعقاب بعد الموت ويسمون دار الخلود جو كورا كف أي السعادة الأبدية وسعادة كل انسان تكون بحسب استحقاقه ولا تنال تلك السعادة الا بالقوى والمحافظة على نواميس بوذا وهي خمسة (١) لا تقتل (٢) لا تسرق (٣) لا تزني (٤) لا تكذب (٥) لا تسكر سكرأ شديداً .

والذين يخالفون تلك النواميس ترسل أرواحهم الى دار الشقاء واسمها دىيجوكف ليعذبوا فيها الى حين . غير أن العالم اولدنبرج السالف ذكره أثبت في ص ٣٣ من ترجمة

بوذا وشرح تعاليمه أن هذا المبدأ مبدأ الخلود والعذاب والثواب لم يكن معروفاً عند البراهمة بل منكوراً بتناً فقد جاء على لسان ياجنا فالسكيا أنه قال لامرأته « لا تطمعي في الخلود سوف تصيرين كالأغنياء ولكن الغنى لا يضمن الخلد ، لا يوجد إدراك ولا حياة بعد الموت » فكانت البوذية تتقدم تقدماً عظيماً على البرهمية لأنها وضعت حداً للحياة وجعلت جزاء للخير وعقاباً على الشر .

وقال بوذا « كل مركب مآله الى الفناء » وغاية الانسان هي الخلاص من الأوجاع والهموم وعندهم أربع حقائق متعلقة بالألم ومصدره وتلاشيه والوسائل الموصلة الى تلاشيه . ولهم طرائق الحقائيق في ملاشاة الألم .

ومات بوذا في الثمانين من عمره وقاومت جثته النار فلم تحرق بها . وبعد موته انقسم أتباعه الى فرق قامت بينها بسبب تشعب الآراء حروب دامية .

وبعد موت بوذا بزمن قصير ظهر الحكيم كونفوشيوس الصيني ومعناه باللاتيني المعلم المحترم وقد نشر تعليمه في حياته وخدم الحكومة ، ولم يقل انه نبي ولا رسول واكتفى بصفة الحكمة ولكن أهل الصين عبدوه وينوا الهياكل لتمجيدته بعد موته وهم يقدمون الذبائح من الخنازير والارانب امام هيكله ويركعون امام صورته وله كتب خمسة في الكون والطبيعة والحكومة والسياسة والاخلاق والمرأة ورجال ملته يحفظون كتبه وشرائعه ويؤدون فيها فحماً يومياً . وقد تحاشى هذا الحكيم الذي علانجمه على نجم سقراط وان كان قد عاش قبله ، ان يتكلم في العقائد الدينية بل بذل كل جهده في تنظيم طقوس مفصلة وأقام تعاليمه من الحكمة الادبية على أساس مكارم الاخلاق والاستقامة والعدل والامانة والذمة . واما ما كتاب صغير في حكمة كونفوشيوس باللغة الانجليزية طبع جاي وبيروسنة ١٩٠٤ في مائتي صفحة وقد تناول فيه الكلام على الحكومة والآداب والفضيلة والتعليم والزواج وعلاقة الأسرة وواجب الابناء والنساء والملك والاغنياء والصدقة والرجل المتميز العبقري وواجب الحكام ، وتقدم الحضارة والشعر الصيني وبالجملة قد بحث كونفوشيوس في كل شئ ولم يذكر العلاقة العظمى بين الانسان والله . وهذا عجيب من حكيم شرقي في بلاد شرقية كادت تؤلهه .



ولكن كونفوشيوس كما قلنا لم يحاول مطلقاً ان تكون له علاقة بالسماء أو بما وراء الطبيعة أو بما يبعد عن فهم الانسان العادي . بل انه في كثير من أقواله ينكر العناية الربانية ولا يؤمن بالبعث والخلود ولا يعترف بالنبوة ، ولو اعترف بها لادعاها لأنه كان أحق أهل زمانه وأحق بني وطنه بها .

أما الفضائل الخمس التي ذكرها فهي المحبة والبر والاحتشام والمعرفة والايان ( أى عقيدة الرجل بنفسه ) وقيل انها السخاء والعدل واللطف والحكمة والبساطة وقد ذكر الارباب حيناً فقال « احترم جميع الارباب ولكن أبعدهم عنك ما استطعت » ولعن الذين صنعوا الأصنام . ولما حضرته الوفاة عاده صديق له وقال له الاتصلي قبل موتك؟ فأجاب كونفوشيوس أيليق بي أن أصلى !

قال صاحبه : نعم صلوا لأرباب السماء والهة الأرض

فقال كونفوشيوس : لقد صليت من زمن طويل .

وقد ذكرنا كونفوشيوس في هذا المقام لأنه كان من معاصري بوذا ، ولأن البوذية انتشرت انتشاراً عظيماً في الصين . وقلنا انه بعد موت بوذا نشق اتباعه فرقا فكانت منها فرقة اللاما بالتبت وهم يؤمنون باله واحد وبالثلوث وبالجنة والنار والتناسخ ويزعمون ان اللاما اذا أشرف على الهلاك اختار صبياً صغيراً موعوداً فتحل في الصبي روح اللاما ويصبح الصبي زعيماً الى أن يكبر فهو لاما منذ مات سلفه . وما اللاما الا تجسيد لالاهم « لا » وهو يقيم على وضع التبريع في مكان خفي بقصر باتولى ويعبده أهل التبت ولأتباع لاما فرقة في بورمانيا وأخرى في جداما

ومن فروع البوذية السينتوية ومصدرها بلاد اليابان وهذه السينتوية قائمة على عبادة الاوثان وكان اليابانيون يعبدون الشمس ثم عبدوا الحصان لأنه من أعوان الشمس والفرس صور معلنة في هياكلهم واليابان لا يتعرضون للمذاهب الدينية مادامت لاتمس سلامة الدولة ولا تقلق راحتها ولذا سهل نشر الأديان المنزلة في اليابان

والسينتيون يعتقدون بالله واحد خالق كل شيء وله كل صفات الكمال ولكنه منزّه عن الشؤون الدنيوية وقد تنازل عنها وسلمها لأرباب غيره فادارة العالم في أيدي أرواح كثيرة وقاعدتهم التمتع بالسعادة في هذا العالم ولا يعرفون الا الشيطان الثعلب لأنه أفنك الحيوان بزرعهم وعندهم خمسة أمور يعولون عليها في دينهم (١) نار طاهرة (٢) التطهير الروحي وهو الخضوع التام للعقل والجسد وهو الاحتراس من كل نجس كالدّم وبعض اللحوم ومعاشرة السفهاء واستماع فحش القول (٣) حفظ الاعياد الكثيرة (٤) الحج الى الاماكن المقدسة (٥) عبادة الالهة في الهياكل والبيوت .

ومن علومهم الخفية التي يكتُمونها عن العامة القانون الاخير المتعلق ببداة كل مخلوقات ولا يباح به الكهنة للطلاب الا اذا عهد الطالب بالكتابة انه لا ينجس ذلك الشيء المقدس باظهاره للعامة والجهال وهذا القانون في كتابهم المسمى اوداكي وترجمته « في بداية فتح كل الاشياء كان الخلود والنحو سابحين كما تسبح الاسماك في البحر لتنزله فخرج منهما شيء متحرك وقابل للتغير فصار ذلك الشيء نفساً أو روحاً واسمه كونيتو كودا تسنوميكوتو »

## ٥

عباد الفتيش يبلغون مائتي مائوناً من البشر الذين لا يزالون على حال من المعجبة وهم من أهل أفريقيا والجنس الاسود بصفة خاصة. ويراد بالفتيش الشيء الذي له روح أو خال من الروح كالشجر والصخر والبيض والشوك وعروق الحشائش والحبوب وغيرها . وقد شرح عبادتهم سير چون لوبوك ( لورد افيري ) في كتابه أصول المدنية ، وهربرت سنيسر في كتاب علم الاجتماع وهو الجزء الثالث والرابع من فلسفته . وبعض هؤلاء المتوحشين يعبدون الاصنام ويصورونها على هيئة إنسان أو حيوان مخيف أو عنفريت من الجن ومنهم من يدين بعبادة فتيش خاص يعتقد تعظيمه كاثعبان والنمر والتمساح والايجاتور والغوانا ومعظم عبدة الفتيش من سكان أواسط أفريقيا وغربها وشاطيء الذهب ونيجريا . وسنجامبيا وهؤلاء الناس اذا اعترض عليهم البشرون وعيروهم بعبادة هذه الفتيش من الجماد والحيوان ردوا عليهم بأن عقيدتكم توافقكم ونحن نتمتها ونهزأ بها ، كذلك عقيدتنا توافقنا ولا يهمنا

معتقكم ايها وسخر يتكم منها ومن يدينون بهذه الفتيش سكان الجزائر بالمحيط الهادي وهم من أهل الجمال وبلادهم غنية بأنواع الفواكه والثمار الشهية وشواطئهم ملاءة بالآلى وهم اباحيون لاسيما سكان « جزيرة الجمعية » الذين أفوها بينهم لانتهاز فرصة الحياة والتمتع بكل ملاذها ، ومقاومة امتداد النسل . ومن هؤلاء الناس من يضحون بالبشر لمعبوداتهم الصخرية والخشبية

وهم يبدون الجمال بحيث اذا ولد لهم مولود مشوه أو دميم قتلوه ، ويعتقدون بالسحر والأرواح الشريرة ولكل قبيلة منهم رئيس سحرة اسمه كاجور ، يعالجهم ويعنيهم ويستنزل لهم المطر ويتوسط بينهم وبين الفتيش واذا تداled عليهم في اجابة طلب من مطالبهم قيدوه وضربوه حتى يستجيب لهم . وهم لا يعرفون الحلال والحرام بحسب معتقدات أصحاب الأديان المنزلة ويكرهون أهل الجنس الأبيض ولكنهم يكرمون الضيف ولا يطلعون على أسرارهم ولهم في الحرب شجاعة فائقة ، ولهم ألعاب ومراقص وحفلات مدهشة ، ويشوهون وجوههم وأبدانهم في سبيل مايعتقدونه زينة كخزيم الأنف والشفة العليا وتكبيرها ومظها والوشم على كامل البدن وغرس الدبابيس في الرأس والشعر وطلى الجسم بالوان زاهية .

## ٦

لقد قطعت الانسانية هذا الطريق الطويل كله ، ولا تزال شعوب تعد بعشرات ومئات الملايين تسير فيه ، قبل أن تصل الى الديانات المنزلة التي هي اليهودية والمسيحية والاسلام . وقد كانت هذه الديانات قدما عظيما على ما سبقها وما لا يزال معاصراً لها من المعتقدات الوثنية . فان أسيا كلها لا تزال وثنية ماعدا مائة أو مائتي مليون من المسلمين في الصين وأندونيسيا والهند وباكستان وبلاد فارس . أما اليابان كلها والصين والهند فلا تزال بوذية وكونفوشيوسية وسيتونية . ولا تزال أفريقيا بأسرها فيثية ماعدا خمسين أو ستين مليوناً في شمالها وشرقها وغربها .

ولكن اليهودية كانت فتحاً عظيماً بالنسبة لتلك المعتقدات الوثنية فقد جاءت شريعة منظمة بعقائد ثابتة وطقوس شريفة بعيدة عن ذنبايا الوثنية والفتيش ولسنا في حاجة للكلام على

واحدة من تلك الديانات الثلاث المنزلة لانها معلومة للجميع وكتبها المقدسة بين أيدينا واحبارها وقساوستها ومشايخها بين ظهرانينا ومعابدها وكنائسها ومساجدها قائمة في وسطنا ومحيطنا .

ولكن أردنا ذكرها لندال على أمرين الأول انها كغيرها من الأديان السالفة الذكر قد ظهرت جميعها في الشرق ولم تظهر واحدة منها في أوروبا أو أمريكا أو أفريقيا لأن عبادة الفتيش التي ذكرناها في أفريقيا لا تعد ديناً بل هي مجموعة أساطير وأوهام أدخل في فن الفولكلور وعلوم الشعوب منها في الأديان والعقائد .

ولكن العجيب في أمر الأديان المنزلة في الشرق انها هي أيضاً قد انشقت فرقا وشيعاً فكان من اليهود الفرقة الصاديكية والسامرة والصدوقيون والفرقة الخاسيدية والفريسيون والكتبة والاسينيون والهيروديون والليبرتيون . وكذلك في المسيحية ظهرت فرقة الأجنوستيك أو العارفون والدوسيتيين والسكرثيين وفرقة الايونيين والمناوية ( نسبة الى ماني الفارسي الذي اتحل النصرانية في القرن الرابع المسيحي ) والنيقولاويون وظهرت فرق للبحث في طبيعة المسيح وفرق في المجادلة وهم البيلاجيون ثم أخذت الجماع تلتئم فكان الجمع النيقاوي فالقسطنطيني فالافسسي فجمع اللصوص ( ص ١٤٩ من تاريخ الأديان لنوفل ) فالجمع الخايسكدوني ثم ثلاثة أو أربعة مجامع في القسطنطينية ثم في نيقيا وفي رومه والجمع اللاتيراني والايوني والفيرنزي ( نسبة الى فيرنزه بإيطاليا ) والباسيلي والروماني والترنتواني . ولا تزال الجماع تعقد في رومه وتصدر التعاليم الأخيرة وآخرها الجمع الاوكنيك ١٨٦٩ — ١٨٧٠ الذي عقد في رومه

ولهذه الديانة كنائس تقليدية أشهرها الكاثوليكية والارثوذكسية والانجيلية أو البرونستانتية . ومن أهل الفرق اليعقوبيون والسريرين والافيقيون والأرمن والنساطرة أو الكلدان وقامت في روسيا قبل الثورة شيعتيزيد عن مائتي شيعة ولا يقل اتباعها عن خمسة عشر مليوناً ومنهم رافضو عماد الأطفال وأصحاب التبتل ومنهم من ارتد عند ماشاع أمر عصمة البابا

وكانت أعظم الشيع المسيحية اتباع لوثيروس وكالفن وزنجويل وكلهم محتجون وانتشرت مذاهبهم في ألمانيا وهولاندا وانجلترا وسويسرا والسويد والنرويج .

وكان في انجلترا الموحدون والمطرون وكلما صعدت الى الشمال وجدت فرقاً تخالف البروتستانت وتعلو عليهم . ومن السكسون فرقة الكويكرس واتباع سويد نبرج وكل فرقة تخالف الأخرى وتقاومها وتنكر معتقداتها . كما أن جميع اليهوديخالفون النصراني وينكرون ديانتهم .

### V

وإن هذا الدين الحنيف لم يخلص من البدع التي ظهرت فيه وأوجبت وضع علوم الكلام فقد ظهر فيه المعتزلة والمشبهة والتدرية والجبرية أو المجبرة والمرجئة والحرورية والنجارية والجهمية والرفضية والخوارج . وكل فرقة من هذه الفرق انقسمت الى فرق صفري وشيع

وقد استعرضنا الأديان التي ظهرت في الشرق لنقف القاري على حقيقة مهمة وهي أن معظم الأفكار الدينية والروحانية التي ظهرت في العالم إنما كان مصدرها آسيا ، حتى الدين المسيحي الذي ساد في أوروبا وأمريكا ، وأن أمم الشرق لم تقنع كغيرها بعتيدة واحدة ولم تصلح بمرشد واحد أو مرشدين بل احتاجت في حياتها النفسانية الى عشرات الأديان وكل دين ينطوي على مئات من الشيع والفرق والأحزاب . في حين أن ممالك أوروبا وأمريكا وهم ذوو مدن عظمى وقوة مادية أعظم قد دانوا بدين واحد وهو النصرانية ، وإن كانوا من بل وثنيين إلا أن تلك الوثنية قد زالت واتخذوا الدين المسيحي في كل بقعة وأرض وشعب من سواحل سيبيريا شرقاً الى شواطئ المحيط غرباً .

وحق وثنتهم كانت ترجع الى عبادة الكواكب والاباطال ( في اليونان ورومه ) ولم تنزل الى عبادة الاحجار والأشجار ، وإن الأمم الاسيوية والأفريقية التي أقبلت على الأديان المنزلة وهي اليهودية والمسيحية والاسلام ، قليلة جداً بالنسبة للكثرة الوثنية ، وبعد

انتحال واحد منها في آسيا أو أفريقيا استثناءً فان للبرهمية والبوذية وعبادة الأفيال والكوفة وشيوسية والسنتينونة القدح المعلى في شعوب آسيا ، والاسلام في كل من الصين والهند وجزر المحيط استثناء ، ما عدا أهل أندونيسيا وبضع عشرات الملايين في بقية آسيا . وأهل قارة أفريقيا وحدها السائرة نحو الاسلام بدم ثابتة ولكن لا بد من مضي بضعة اجيال علي انتشار الاسلام فيها .

فماذا استفاد الشرق من هذه الروحانية المبالغ فيها؟ في حين أن أهل أوروبا وأمريكا وأستراليا بسوا الشرائع ونظموا المجالس وأحدثوا حضارة قوية التهمت الشرق بأجمعه . إن الشعوب الشرقية استغرقت كل قواها في المباحث التي وراء الطبيعة وبعد الموت وفي أعلى السموات ولم تصرف كثيراً من جهودها فيما هو مائل امامها على سطح الأرض ، إن في الهند براهمية واصليين يمكنهم نقل الجبال بيامتهم ، ويأتون في كل يوم بالمعجائب التي نقرأ عنها ونراها ويقربها كتاب فضلاء أمثال رومان رولان في كتابه عن راماناكر بشنا وفيه كيندانا ، ولكن هؤلاء القديسين والواصلين الذين يتحملون أشق الآلام في تعذيب أبدانهم وأمانة نفوسهم ، وبلغوا الذروة من العلوم الروحانية ، وعبدوا الالهة والارباب المتعددة الايدي والرؤس والأرجل وزينوا الهياكل بالأحجار الكريمة والذهب والفضة ، لم يقدروا على ابطال فعل مدفع واحد في حروب الاستعمار التي أعلنتها عليهم أوروبا . وإن شئنا التأدب في مقامهم قلنا أن أهل الباطن لم يرغبوا في التدخل في أمور أهل الظاهر ، فهل من وراء هذا كله فائدة للشرق ، وهل الاستمرار على هذه العبادات الوثنية السخيفة يعود على الشرق بخير ، بعد أن تددت قوي هذه الأمم (١) ؟

حقاً اننا رأينا أمة وثنية اسيوية تكافح وتتحضر وتتغاب على دولة اوروبية ، وهي اليابان ولكنها وحيدة ومنفردة والبحث في معتقداتها أدى بنا الى العلم بأنهم لا يكثرثون كثيراً

(١) لانسكران غاندى مستمد طريقته الروحية من تلاميذ راماناكر يشنا وهو يستعين بالزعيم الديني الأكبر ، وقد يعطى التصوف الهندي ثمرته اذا أنتجت جهودها خيراً للوطن .

لأربابهم ويتخذونهم وسائل للوصول الى أغراضهم الدنيوية . وهل لا بد للشرق من الافراط في الأديان بعد الذي رأينا ؟ ان أوروبا تعير البيزنطيين بما وقعوا فيه من الافراط في الاشتغال بالدين بمناقشات بيزنطية ، أدت الى اقتحام الترك عاصمتهم وهم يبحثون في هل الملائكة ذكور ام إناث ، وهل للمرأة وح مثل الرجل أم لا ، فهل تريد بنية أم الشرق أن تنع في مثل ما وقع فيه أهل بيزنطة من الخيبة والخسران !

وقد حدث في العهد الاخير حادثان جليلان في تاريخ العالم ، أولها ان الروس وعددهم ٤٠٠ مليون وكانوا زعماء الكنيسة الارثوذكسية ، وكانوا من المتعصبين للدين ومن أهل التشدد في المذاهب قد طلعوا الدين المسيحي بتاتا ، ونشروا الاحاد وأقاموا له هيكلًا كان أصله مجعًا للقساوسة والياپوت الارثوذكس ، وهم لم يصابوا ببلاء ولا تزال دولتهم قائمة . وفي تركيا ادخل مصطفى كمال آراءً جديدة وغير من مظاهر المسلمين في أحوالهم ، وصرف النظر عن الاشكال ، ووجه قوته الى تنمية الدولة واعظام شأنها . وتقل الكتابة من الحروف العربية الى الحروف اللاتينية ، قامت عليه قيامة فريق من الناس يقصدون الدين دون سواه ، وقام مدافعون عن مصطفى كمال يبررون فعله بما جرى لدولته وقومه على ايدي أوروبا لأنها كانت دولة الاسلام الكبرى . فكانت أوروبا تضطهدها وتجربها وترمي الى هلاكها واغتصاب املاكها حتى قضت عليها . . والأعجب والأدهى ان المسلمين أنفسهم الذين كانوا تحت أحكام تركيا انقلبوا عليها وحاربوها ولم يساءلوا في ظرف من ظروف الضيق التي وقعت فيها .

فلم يساعدها عندما اعتدى عليها الموغول منذ سبعمائة سنة ، وجرى محمد علي وبرايم جيوشهما لمهاجتها في عهد السلطان محمود في سوريا والاناضول ، وهما من رعاياها وولايتها ، وفي حرب روسيا لم يتقدم الى مساعدتها الا أفراد متطوعون ولم تسير دولة اسلامية جيشًا من جيوشها للمحاربة في صفوف الاتراك الالماء . وفي اليهود الاخيرة خلق لها العرب أنواع القلاقل في جزيرة العرب وسوريا والعراق حتى قضوا عليها . ووجد الخلفاء وزراء من

الترك وشيوخاً من مشيخة الاسلام يفتون بكفر مصطفی كمال ومن معه وبعرقهم من الدين  
ليسيئوا الى سمعتهم في العالم الاسلامي ، أما هم وسادتهم الذين كانوا منغمسين في المعاصي  
والفجور الى أذقنهم وكانوا يمدون أيديهم لرشوة الأجانب فلم يكونوا خائنين ولا مارقين ،  
ولاملحين بل طهرة أبرارا ! ولما ذهب ملك تركيا بفعل اوروبا من جانب و بفعل المسلمين  
من جانب آخر ، وسقطت تلك الخلافة البالية البائدة التي لم يكن لها معنى ولا طعم ولا ذوق  
ولا قيمة ، قام المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، ومعظمهم مأجورون ووسطاء ، ينعون  
على مصطفی كمال سلوكه ، ويطعنون في شرفه وذمته واخلاصه واخلاقه ، ويهددون بأنه فقد  
الجنة ! ! كأنهم هم ضمنوها لأنفسهم وأخذوا بها صكاً على رضوان !

ولم يقف الامر عند ذلك بل ان أحد المسلمين واسمه مصطفی الصغير وهو مسلم  
هندي ، دخل الى تركيا باسم جمعية الخلافة المؤسسة في الهند وتجسس على الرجل وأخذ يرسل  
التقارير الى سادته الذين ربوه في عليجيره وفي اكسفورد واطلقوه كألفي السامة ينفث  
سمومه في دولة الاسلام الباقية (١)

ولكن مصطفی كمال ورجاله تمكنوا من القبض عليه والحصول على اعترافه ودقوا  
عنقه بعد ذلك ، وقد أعلن هذا الاعين اخلاصه ورقيبته في جبل المشنقة ، لأحد ملوك اوروبا  
وقال « انه يترك أسرته امانة لدى جلالتة » . .

## ٨

وقد أظهر مؤلف « تاريخ الخدمة السرية الانجليزية » أسراراً وخفايا تمكاد تكون  
من الاحلام أو نوعاً من أنواع الكابوس الذي يعترى النائم . . على ان مصطفی كمال هذا لم  
يوشك أن يجر بلادده وشعبه ويلم شعته ويعلم الجمهورية وينصل الحكومة عن الدولة ويتخذ  
القوانين الاوروبية الحديثة المدنية والجنائية والستورية حتى قامت اوروبا تناوته ، وقد

(١) و بأسم جمعية الخلافة وأذناها يعيث شوكت على في الأرض ، وان كنا نرأه بأبه عن الحظ  
الذي صادف مصطفی الصغير ! ! !



استعملت في هذا مشايخ الطرق المناحيس من الاكراد وغيرهم فقامت في بداية الامر فتنة في اصطامبول اعدم بسببها رجال كانوا فيما مضى نابهين أمثال جاويد باشا الذي باع حياته رخيصة في سبيل مؤامرة منحطة ، وكان يمكنه الاستفادة من مواهبه الاقتصادية وانتفاع البلاد به ، ثم تلتها ثورة الاكراد الأولى وكان محركها شيخا مفتونا وتغلب عليها مصطفى كمال بعد جهود عظيمة ثم تلتها ثورة الاكراد الاخيرة ( ١٩٣٠ ) وكان زعماءها من المشايخ المتصوفين الذين يرون في أعمال مصطفى كمال كفراً وخروجاً على الدين ، فعذرناهم لجهلهم وتعصبهم وربما رثينا للشيخ الذي مات فرقا قبل الوصول الى جبل المشنقة ، ولكن بعد أيام انكشف الامر عن القبض على سبعة ضباط من الانجليز كانوا يدبرون تلك الفتنة وقد اعدموا رمياً بالرصاص ولم ينطقوا بحرف واحد . وإذن كانت اوروبا وراء هذه الثورة أيضاً وغايتها خلق المشاكل لمصطفى كمال حتى تسقط دولته . فلو كان مصطفى كمال ملحداً وخرج على الاسلام لينال حظوة اوروبا لم تكن اوروبا لتسلط عليه جنودها وضباطها وتنفق الاموال في خراب بلاده . فالأفضل للمسلمين في الشرق أن يتركوا نعمة الانتقاد والتبريع ضد مصطفى كمال وغيره وان « يتركوه كما تركهم <sup>(١)</sup> » وان ينظروا الى شؤونهم الخاصة ببلادهم وأوطانهم وأن ينظروا الى الجذع الذي في أعينهم بدلا من أن ينظروا الى القشة التي في عين جارهم .

ان الدين لله ويجب ان يبقى بين الانسان وربه ، وأن لا ندخله في كل شيء ونجعله مسؤولا عن كل شيء ، لقد انشغلت أفكارنا بالدين وشؤونه حتى انسدل على بصيرتنا وأبصارنا حجاب كثيف لا يكشف ما وراءه فعيننا عن حقائق الامور الملهوسة ان الدين لا دخل له في أعمال البشر ، ولا سيما في السياسة ، فما انشغلنا نحن المسلمين بالحلال والحرام والجائز والمباح والمحظور في السياسة والخلافة والامامة هو الذي ينقذنا أو يميتنا على حق ولكنه يورثنا الخيال والحيرة ، وقد أمرنا الدين بامور واضحة ونهانا عن مثلها بجلاء ، وفي أنفسنا قوازين سامية تدلنا بالفطرة على أن الحلال بين والحرام بين فلا فائدة من اندفاعنا في التفصيلات

(١) في الحديث الصحيح « اتركوا الترك ماتركوكم »

اندفاعاً أعمى بعد ان تركنا الكليات . لقد تركنا العمل وتعلقنا بالأقوال ، وودعنا الشجاعة والوفاء والاخلاص والايان بالله والثقة بالنفس واستقبلنا الصغائر والتمسك بالحروف ولا ننسى ان الأديان قد أورت في كل بقاع الارض حروباً فأهل الدين الواحد يحاربون بعضهم بعضاً وأهل الأديان المختلفة يتحاربون كل يريد انتصار طائفته ، فاهرقت دماء كثيرة في سهول العالم وجباله ومدنه ووديانه .

فالنصارى اضطهدوا اليهود وطردوهم من بلادهم وطاردوهم فأوامم الأتراك والاسلام والشيعية حاربت أهل السنة<sup>(١)</sup> ، والنصارى حاربوا المسلمين وأجلوهم عن الأندلس ، والكانوا ليك قتلوا البرهستانت في موقعة سانت بارثلميه الغادرة ، وأوروبا أعلنت علي الاسلام الحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب قد انتهت الآن وأصبحت أوروبا تتهاجم الشرق لكونه شرقاً سواء أكلن أهله مسلمين أو نصارى أو وثنيين . والكلمة ليست اليوم للإيمان ولكنها للغلبة والقوة في سبيل السيطرة السياسية والفتوح الاقتصادية .

فيجب على الشعوب الشرقية ان تنظر الى ذلك بعين البصيرة وان توجه همتها الى الدفاع عن كيانها لا باسم الدين ولا بسببه ولكن باسم القومية وباسم الحضارة وباسم الانسانية . وان نجعل الدين رائدها في الامور النفسية والخلقية

ان المعتقدات ثروة روحانية ، وليست مزاراً للاحتقاد ، وان الانجليز قد اتخذوا من الفروق الدينية في الهند سلاحاً من أفضع الاسلحة ، فكان الشقاق بين الهندوس والمسلمين سبباً دائماً لسيادتهم ، وطالما قامت في مدن الهند المقدسة كبنارس وكلكتا وأحمد آباد قتل عظيمة بين الهندوس والمسلمين أريقت فيها الدماء وضحكت بسببها بريطانيا لأنها علمت أنها الوسيلة الوحيدة التي تضمن سيادتها ونفوذها . ولم تحس انجلترا جانب الهند الا بعد ان ظهر شبه ائتلاف بين الهندوس والمسلمين ، وقد أذاع الانجليز حجة جديدة

(١) اغتبط العالم الاسلامي بصلاة زعيم الشيعة اماما لاهل السنة في المؤتمر الاسلامي بالقدس

ضد الاسلام لمصاحبة الهندوس فقالوا في صحفهم « اننا هنا نحى البراهمة والبوذيين من اعتداء الاسلام الذي لا يزال قوة فليحة في الهند ، ولكنها الآن كاملة نائمة وانما نومها الي حين فاذا تركناكم ان تلبث ان نتيقظ وتعيد الكرة على بلادكم لاذلالكم وقهركم وتأسيس دولة اسلامية تماثل دولة الموغول »

ولم تكن الهند وحدها التي سلكت فيها انجلترا هذا المسلك بل انها لعبت بهذه النار في مصر أيضاً ففي سنة ١٩٠٧ عند ما تولى غورست مكان كرومر خلقوا مسألة الاقلية والأكثرية ، وادعى بعض الأقباط أنهم مظلومون وخائفون ، وكتب بعضهم « الانسانية تتعذب » وسافر قرياقص ميخائيل الى انجلترا حيث وضع على رأسه قبعة طويلة وحمل على المسلمين جملة منكرة في الصحف والمجلات ، وادعوا أن حركة مصطفى كامل اسلامية متعصبة لأنه كان في أول عهده ينتمي الي السلطان عبد الحميد ، وحاولوا انكار ذنوبه الوطنية . ولم تمت هذه الفتنة الا في حركة سنة ١٩١٩ حيث تعاهد الاقباط والمسلمون على الاتحاد في المسألة الوطنية وتعانق قسس الاقباط مع مشايخ المسلمين وخطب الشيوخ في الكنائس والقسس في المساجد . وارعى قرياقص عن غيه وطويت صحيفة الوطن التي كانت مصدر هذه الحركة الخطيرة . ولم يكن ذلك الاتحاد الا ثمرة الآلام التي ذاقها العنصران وأدركها عقلاءهم ، وتبينوا أن الأمر كله دسياسة انجليزية يقصد به الي تفريق الكلمة وتشيت الشمل . ثم ان هؤلاء المشايخ الذين ينتمون للاسلام قد رأينا سوء فعالمهم في مجرى التاريخ من عهد جنكيزخان الي عصرنا هذا مارين بأدوارهم في الدول العباسية والأُموية والفاطمية والعمانية كفانا الله شرهم وحفظنا من كيدهم .

٦

١

في سنة ١٩٢٩ نعى كاتب انجليزى في مجلة دولية (مجلة جنيف اغسطس) على الام الاوروية المستعمرة أنها تركت الشعوب الشرقية تتمتع بحرية الاعتقاد ، ولم تحاول تنصيرها . وقال : ان اختلاف الدين بين الحاكم والمحكوم يخلق للحاكم مصاعب شتى ولا يجعله يطمئن للمحكوم . فضلا عن أن الدين الاسلامى يمتزج مع السياسة فيجعل لاتباعه قوة المطالبة بحقوق قد يغضون عنها لو كانوا نصارى ، فالشرقى المسلم قد يلبي نداء الجامعة الاسلامية أو الجامعة العربية مهما شت المزار بينه وبين الداعي . ولكن الشرقي المسيحى يلبي نداء الكنيسة البروتستيه أو الارثوذكسية ، ولا يندب حظه كلما ذكرت حرية الوطن لانه يعلم أن سادته الاوريديين أشفق عليه من غيرهم .

وخطأ هذا القول ظاهر فان أصحاب العقائد المختلفة في البلاد الشرقية متساوون في حب الحرية وفي المطالبة بحقوقهم المهضومة .

أما أسف الكاتب على أن اوربا لا تحاول تنصير الشعوب المغلوبة لها في افريقيا وآسيا فأسف في غير محله . فان المبشرين يعملون باجتهاد عظيم في افريقيا وآسيا منذ أكثر من خمسين عاما ولهم زعماء مثل زويمر ولهم مؤلفات ومجلات وجرائد ومؤتمرات ولهم رؤوس أموال طائلة يستخدمونها في هذا السبيل ولكنهم لم ينجحوا في الممالك الاسلامية حتى الآن في تحويل أحد عن عقيدته حتى قال بعضهم « لقد ردى أحد الاعراب المسلمين رداً عجيباً حيث قال ياسيدى المبشر ان من تعود النوم على السرير لا يقبل غيره مرقداً ، فلم أفهم قصده وتركته وانصرفت » . ولكن الذى نسمعه ونتراه من محاولة الفرنسيين تنصير البربر لا بد أن يثلج صدر هذا الكاتب في المجلة الدولية . لأن الفرنسيين استصدروا من سلطان المغرب الأقصى ظهيراً يبيح لهم تنصير الأمة بأسرها . وهم تارة يقولون ان البربر أصلهم

رومان فهم شعب لا تبني طراً عليه الاسلام ولكنه عريق في المسيحية فيجب علينا رده الي حظيرة المسيح ، وطوراً يقولون ان هذا الشعب قد اختار الردة بحرية مطلقة وليس لنا يد في دعوته الي الصليب . ثم تراهم حيناً يدعون العدول عن تطبيق هذا الظهير جهراً ليتقوا الفضيحة أمام العالم .

ولا نظن أن هذه الحالة طارئة على أذهان المستعمرين الاوربيين ، بل انها قديمة وعريقة وقد لجأت اليها روسيا القيصرية في استعمارتركستان الغربية فقد روي و.ق. أحد زعماء تركستان الغربية في سنة ١٩٠٤ ما يأتي تقلا عن « العالم الاسلامي » لمصطفى كامل :

## ٢

بعث الينا أحد أفاضل المسلمين بالتركستان هذه المقالة فنشرها بجر وفها :  
« بقدر ما بين المسلمين من بعد الديار وتناهي المزار فاننا نحس كأن مصابنا تتشعب منه خيوط تصل الي أفئدة اخواننا المسلمين في أقصى المعمورة ليتألموا مما ينصب علينا من المظالم التي تنهال علي رؤوسنا من دولة الروس في كل وقت وأن .

لمجت الجرائد على اختلاف نزعاتها بما يتوقع من الخطرين الأصفر والأبيض ودافعت كل منها بما يوافق مصلحة دولتها فان جرائد اليابان صورت الخطر الأبيض بشكل يقشعر له العالم المغولي من ذلك الدب الذي تشعبت له ثمان أيد كل منها تحيط بما طمحت اليه المطامع الأشعبية الروسية كما ان الجرائد السلافية ملأت أنحاء اوربا بتلك النعرة التي استفزت بعض دول الغرب من رائدها الطيش لأي شيء حادث تعودت ان تخرج فيه عن الحد المعتدل .

ولكننا معاشر مسلمي الروسيا لا يهمننا من هذا وذاك الا حقوقنا المساوية وحريةتنا المهضومة والعمل على ما يرقى مداركنا ومعارفنا بما يوافق مصلحةتنا المادية والا دنية سواء لدينا انتصرت الروسيا على اليابان أو بالعكس فان السكيل طفح من التعصب الروسى ضد ديننا الحنيف واراقتنا الشخصية ومصالحتنا العامة مع اننا أول الراعي المسلمين طوعاً لارادة

القيصرية في دفع الاعانات الحربية والذود عن حى الاوطان والاخلاص للعرش القيصري وفي مقدمة من يتسابقون الى كل عمل يعود على دولة القيصر بالشرف والمجد والفخار .

أما الأساس الوحيد الذى تدور عليه رحى الحرب الحاضرة فهم المسلمون الروسيون البواسل فان المحتشدن منهم في ساحة الوعى ينفون عن الثمانين الفاً عدماً وما زالت الحكومة الروسية تسوقنا اليها سوقاً ومع كل هذا هل يروق لها ان تتمتع بديننا كما نشاء أو تطلق لنا عنان المشروعات الخطيرة المحرمة لباقي الأجناس الذين ضمهم أكناف المملكة القيصرية ؟ كلامهم كلاً !

كيف نكون أحراراً في ديننا والحكومة جارية على مبدأ مخالف له على خط مستقيم من زمن مديد ؟ ذلك أنه تقرر في سنة ١٧٨٧ تنصير الرعايا المسلمين واستعمال الوسائل القهرية لتنصيرهم رغم ارادتهم على زعم أن مصلحة روسيا في ذلك فانهقدت الجلسات تلو الجلسات حتى أنجحت عن استعمال الوسائل السلمية للوصول الى هذه الغاية ومن ذلك الحين انتشر المبعوثون فيما بيننا انتشاراً مريعاً وأسسوا المدارس الروحانية الدينية وجبرت الحكومة المسلمين على دخول أبنائهم فيها ليتلقوا مبادئ الدين المسيحى وعبارات الشتم والطعن على ديننا الكريم ونسبة التبديل والتحريف للقرآن المجيد وغير ذلك مما يبرأ منه ديننا الحنيف فساءت العاقبة وعم البلاء وأصبحنا نندب سوء حظنا من هذه المعاملات التى أشف عن بغض ذميم لدين الاسلام وأهله .

ربما توهم القاريء لهذه المقالة أنه يمكننا أن ننشئ المدارس طبق رغائبنا أو نتعلم فيما بيننا ولكن ذلك من رابع المستحيلات فانها منعنا من تأسيس المدارس كما حرمت على أبناء وطننا أن يتعلموا خارج بلادهم تعليماً صحيحاً ولو فرض وتعلم واحد منهم في البلاد الاجنبية شددت عليه المراقبة ولاحظته في حركاته وسكناته كأنه ارتكب أعظم الجرائم أو أتى شيئاً اداً !

ومما يكتب على صفحات التاريخ بمداد الأسف أن سكان نواحي « آصلاي »

كانوا كلهم مسلمين من مدة غير بعيدة فلما حل الروس بساحتهم وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم نزعو منهم خيراتهم وضيقوا عليهم في جميع معاملاتهم وترقبوهم في حركاتهم وسكناتهم ومنعواهم من المخالطة بمسلمي القزان الذين هم أعرف بسياسة روسيا وأعلم بالشرع الشريف الذي حرمت عليهم الحكومة أن يتعلموه حتى صاروا ولا علماء بينهم ولا مرشد يقوم معوجهم فاستمروا على هذه الحالة التعسة حتى انتزعت منهم صبغة الاسلام وأصبحوا يتخبطون في جهالتهم وصاروا كالأنعامل وأضل سبيلا

فليتها اقتصرت على ذلك بل ألغت معظم المحاكم الشرعية وهدمت بنيان قواعدها المؤسسة على تقوي من الله ورضوانه فصرنا حيارى من هذا الفعل الشنيع حيث استبدل الشرع الحنيف بالقانون الروسي وما أدراك ما هو القانون الروسي ! قانون قاصر على مصلحة الروسيين غير المسلمين . أما هؤلاء فحقوقهم أمامه لاغية لا يعبأ بها في شيء وبذلك فقد نادينا وضاعت حقوقنا في نظر الشرائع الروسية التي تخالف كل شرع سماوي وقانون وضعي وتباين كل ناموس جعلته الأمم عوناً لها في هذه المدلهمات ونصيراً في جميع اللغات ..

فبأي شرع وبأي قانون تعلن بيع أراضى مسلمي قزان التي يمتلكونها من زمن مديد وانتزاعها من أيديهم وخصوصاً في ولاية « صردريا » التي أصبح أهلها ينتظرون من حين لآخر احداق القربى وهبوط المجاعة بوادهم ولا راح لهم ولا نصير !

وقد رفعوا العرائض تلو العرائض الى جلالة القيصر لينصفهم فلم يكن نصيبهم منها الا تركها في زوايا الالهال والاعراض عن النظر في مظالمهم بل صارت نسياً منسياً .

أما تعصب الروس نحو الدولة العلية فحدث عنه ولا حرج فانها منعت المسلمين من ان يستعملوا أى شيء من شعارها أو يقوموا بمساعدة نحوها فقد حرمت عليهم لبس الطربوش العثماني وأصدرت أمرها رسمياً بمنع لبسه وخصوصاً فيما يلي الولايات العثمانية بأسيا كما منعتهم من القيام بأي اعانة لمشروعائها الحربية أو الدينية ولذلك لما تكاثف المسلمون على تعضيدها في التأسيسات الحربية وتبرع حضرة المثري « طرس بك حاجي » من أعيان ولاية

( صريخ ) سامته من العذاب ألوانا وأفضى الامر ان زج في أعماق السجون

كل هذا يجري بين أرجاء العالم الاسلامي الروسي وأصواتنا خافتة مضغوط عليها  
يد من حديد كما أن الجرائد السلافية عموماً والاسلامية خصوصاً محرم ءايها أن تذكر شيئاً  
من هذه المظالم لاتصريحاً ولا تلهيماً

هذه هي حالتنا بعثنا بها اليكم ليطلع عليها قراء لواءكم الأغر ويعرفوا مقدار ما تصبه  
دولة الروس علينا من المظالم الجائرة والتعسفات الهائلة»

١٣ نوفمبر سنة ١٩٠٤

الامضاء و. ق

وقد يتوهم بعض الناس أنه عند ما زال الحكم القيصري وتبلشفت روسيا وزالت  
من قلبها شهوة الاستعمار وانطقت من نفوس زعمائها جنوة الهند على الشرق والاسلام ،  
أصبحوا يعطفون على الأمم التي كانت خاضعة للحكم القيصري فتركوها تنفس الصعداء .  
ولكن الحقيقة غير ذلك فان هؤلاء البلشفيك الظالمين قد أرهقوا جميع الشعوب  
الاسيوية الاسلامية والحقوا الاذى بسمرقند وبخارى وخيوه وجميع مدن تركستان الغربية  
وهم يهددون أهلها بالخراب والقتل ان لم يتركوا دين الاسلام ويصبحوا ملحدين بغير دين  
وقد جند المرحوم أنور باشا جيشاً عظيماً لمحاربتهم في سنة ١٩٢٢ فخاربهه وكانت الحرب  
بينه وبينهم سجالاً يوماً لهم ويوماً له حتى هزم واستشهد رحمه الله . فهؤلاء القوم هم أعداء  
الاسلام وأعداء المدنية الاسلامية ، ولا يمكن أن تتفق معهم الشعوب الشرقية المسلمة مطلقاً  
بدون تعريض دينها ومدنيتها وحريتها للزوال . لأن الروس البلشفيك لا دين لهم ولا  
حكومة والمسلمون لهم دين وحكومة . أما المباديء الانسانية المنسوبة للاشتراكية الروسية  
فلدينا في ديننا أضعاف أضعافها اذا طبقتنا مبادئنا على حقيقتها . وربما كانت البلاشفية  
نافعة لأمة همجية أو أمة بغير مدنية ولا حضارة ولا تاريخ . أما نحن فلنا حضارتنا وتاريخنا .  
وان الأمل الاخير الذي كان يطمع به المسلمون في أواسط آسيا وهو تحريرهم بعد



ذهاب العهد القيصري قدخاب وظهر أن البلشفيك وعمال نيقولا الثاني سواء في ظلم المسلمين وارهاقهم . وكان عمال نيقولا الثاني يريدون تنصير التركستان ، أي يرغبون المسلمين على استبدال دين منزل بدين منزل . أما هؤلاء البلاشفة فيريدون محو دين سماوي ، ثم انهم لا يحلون محله شيئاً سوى تمجيد ريكوف وستالين وانيكين وغيرهم من المغامرين والحيارى وهذا ما لا نرضاه . . وقد استصرخ مندوب الروس المسلمين في المؤتمر الاسلامي لنصرتهم

في ديسمبر ١٩٣١

## ٣

كتب أوجين يوبنج وكيل المقيم العام الفرنسي في تونسكين رسالة باسم العرب والاسلام امام الحروب الصليبية الجديدة نشرها في باريس في يونيو سنة ١٩٣١ ، وقد نعى فيها على الاوربيين حملتهم المنكرة على الاسلام والعرب في أنحاء العالم وجاء فيها أن قوة اليهود الصهيونية وقوة القاتيكان الكاثوليكية قد اتحدتا على خراب الاسلام وعلى القضاء على البقية الباقية من مجد أربعمائة مليون مسلم في أنحاء العالم . ويقول الكاتب ان الحروب الصليبية من يوم اعلانها على الاسلام لم تخمد نارها ولم تغمد أسلحتها وقد خطب المدعو فالوفا سوري بيروفي العضو في مجلس الشيوخ الايطالي في ٣٠ مايو سنة ١٩٣٠ خطبة في المجلس جاء فيها أنه يجب توحيد صفوف فرنسا وايطاليا وانجلترا واسبانيا ضد العرب والاسلام . ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التصريح بدون موافقة موسوليني لأن حرية الكلام والتفكير في ايطاليا مقيدة بارادة ذلك العاهل المختلف الألوان بين الديموقراطية والارستوقراطية وبين التدين ومصالحة القاتيكان وحرية الفكر ومخاصمة البابا وتهديده بالحرب والعصيان .

وقد ظهرت غرائز موسوليني في محاربة العرب والاسلام فأمر الجنرال جرازباني فأغلق جميع الزوايا السنوسية وصادر أموالهم لجانب الخزانة الايطالية . وطرد ثمانين ألف ٨٠٠٠٠ رجل وامرأة بأطفالهم وأغنامهم من الجبل الأخضر المشهور بنخصبه وحصرهم في بقعة من الأرض غير ذات زرع فماتت أغنامهم وشارفواهم أنفسهم على الهلاك وقد هلك معظمهم وبلأ ١٠٠٠٠٠ عربي ومعهم ٤٠٠ خيمة الي أرض تونس . وهم أغني أهل طرابلس وقد باعوا

كل ما كانوا يملكون في سبيل فرارهم من الخطر الذي يتهددهم بعد ما رأوا ما حل ببقية  
أبناء وطنهم .

وقد نسي الطليان ان عدد المسلمين الذين يعيشون على شواطئ البحر الأبيض لا يقل  
عن سبعين ما يونا فهم يعدلون تقريباً عدد سكان المسلمين الهنود

يدعون أن فرنسا وغيرها من دول أوروبا قد صارت دولاً دينية ، تكره التعصب  
للاديان ، وترفع لواء الفكر الحر ، وتنادى بالمساواة بين الشعوب ولا يدعى هذه الدعوي  
الا كل جهول بأسرار تلك الأمم العريقة في المسيحية ، والعريقة في الاستعمار فقد هلك  
منذ الف وخمسةائة عام أسقف اسمه هيون في سنة ٤٣٠ وكان هذا الاسقف بربرياً أي من  
بلاد البربر التي في مرا كس فارادت الكنيسة الكاثوليكية أن تحتفل بمرور ١٥ قرناً على  
هلاك هذا الاسقف في نفس بلاد أفريقيا ، غير مراعية للسكان المسلمين حرمة ولا كرامة  
فأمرت فرنسا أن يكون اجتماع المؤتمر الايوخرستي في قرطاجنة ( مايو ٩٣٠ ) وأمرت أن  
ترفع حكومة الباي مليوني فرنك لتشارك في هذا المؤتمر . ولما ظهرت حقيقة المؤتمر احتج  
٧٠٠ شخص للباي ورجعوا اليه في عدم التصريح للمؤتمر بالاستمرار ولكن الاحتجاج  
ذهب أدراج الرياح وسار أعضاء المؤتمر في الطرق بملابس الصليبيين وجرزت الاسرة لنوم  
القساوسة في المسجد الصادق أي أن هؤلاء النصارى المتعصبين اتخذوا مساجد الله منامة  
وأصدرت الحكومة أمرها بالنقض على كل من يحتج على المؤتمر من الشبان المسلمين

وفي ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ امضى سلطان مرا كس ذلك الظهير المشؤوم الذي  
يرضى بتنصير أهل البربر وقد أرادت فرنسا بذلك الظهير ارغام البربر الذين يدينون  
بالاسلام منذ ١٣٠٠ سنة على ترك دينهم وانتحال المسيحية بالقوة وقد بلغ عددهم في مرا كس  
وحدها ٨ ملايين وكان من نتائج صدور هذا الظهير اغلاق المكاتب الاسلامية وارسال  
المبشرين ينشرون المسيحية ويدينون الكنائس والمدارس اينصروا الشعب بالقوة وقد انتقد  
هذا الظهير الموسيو كاريت بوفيه مدير جريدة « الصرخة المرآكشية » ولام فرنسا على رغبتهما

في نقل أمة بأسرها من دين تدين به وتمجده وتطيعه الى دين آخر لا تميل اليه ولا تحبه وان كان سانت أو جستان أو غيره من القسس الذين أصلهم برايرة قد عاشوا في البلاد أو نصرروا بعض أهلها منذ ١٦ قرناً أو ١٥ قرناً فليس معنى هذا أن النصرانية بقيت ذات شأن في تلك البلاد فقد جاء الاسلام ونسخها ومحآ آيتها وانتشر في شمال افريقيا انتشاراً عظيماً وكان من البربر المسلمين أنفسهم من فتحوا بلاد اوروبا المسيحية في اسبانيا وفرنسا واطاليا وبعض جزر البحر الأبيض . وقد كتب أحد الفرنسيين المنصفين يقول :

«وعلى الرغم من احتجاج أمة البربر في البر والبحر ، في الحواضر والبادي ، فان الحكومة الفرنسية المتعصبة الجائرة أغلقت المحاكم الشرعية وعزلت القضاة الذين تولوا القضاء بين الناس منذ مئات السنين وطردت الاساتذة الذين كانوا يعلمون اللغة العربية ومنعت قراءة القرآن وحظرت الصلاة والتكلم باللغة العربية وسأقت الاطفال سوقاً الى الكنائس وقد ظهر ثلاثة من الموظفين بالغيرة الشديدة في تنفيذ هذا الظهير الجائر وهم اوربان بلانك ممثل وزارة الخارجية والموسيو بريان ، ثم الجنرال فيدالون ثم القمندان مارني وهؤلاء الثلاثة يطيعون أمر البابا طاعة عمياء ويعملون لتنفيذ رغبة الكنيسة أولاً ثم خدمة الوطن ثانياً .

## ٧

## ١

تقصد بالشرق العربي البلاد الشرقية في آسيا وأفريقيا ، التي تتكلم بالعربية وتكتبها ، سواء أكانت تلك البلاد تدين بالاسلام أم بالنصرانية ، وقد يكون في أحد تلك البلاد لغة أخرى بجانب العربية ولكن العربية هي المعول عليها في مخاطبتهم ومكاتبتهم سواء أكانت تلك البلاد مستقلة أو واقعة تحت سلطة أجنبية . فتكون بلاد الشرق العربي هي :

أولاً - جميع بلاد افريقيا التي تتكلم العربية وهي مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وما يليها من بلاد السودان والواحات الى غرب افريقيا .

ثانياً - سوريا وفلسطين ولبنان وشرق الأردن .

ثالثاً - العراق والموصل وديار بكر وعاصمتها بغداد

رابعاً - مملكة عمان وشمر والقصيم

خامساً - جزيرة العرب وفيها نجد والحجاز واليمن وحضرموت وعسير ومهامه

سادساً - كل امارات الخليج الفارسي كالكويت والاحساء والمحمرة والبحرين .

وهذا الشرق العربي كما ترى بلاد كبيرة واسعة الاكثاف وربما كانت ماعدا الحجاز (الذي وصف بأنه واد غير ذي زرع) من أخصب بلاد العالم مع اعتدال في هوائها وطبائع أهلها ، فضلا عن انها كلها في وسط المعمر وعلى طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب . وكانت كلها قديماً بلاد الحضارة والأديان المنزلة والعمارة والزراعة والصناعة والتجارة ومراكزا للعلم والأدب والفنون ، وليس ما يمنع أن تعود الى ما كانت عليه من العظمة والغنى

اما عدد سكانها فيبلغ على سبيل التقريب من خمسة وستين مليوناً الى سبعين مليوناً

ومعظم هذا العدد من الحضرة سكان المدن والبلدان والقرى وفيهم الاعراب سكان الخيام الذين يعيشون عيشة البداوة ويسرحون بأنعامهم وهؤلاء يقولون شيئاً فشيئاً ولا يتجاوزون ثلاثة ملايين ونصف أو أربعة ملايين

وقد شوهد ان أهل الشرق العربي من سكان البلاد المتاخمة للفرس والأرمن والاكراذ والأتراك ، وان كانت عليهم بعض الصبغة من هذه الامم الا انهم ينزعون دائماً في ميولهم ومشاربهم وأغراضهم وتقاليدهم الى العرب لأن استقراء علماء الاجتماع دل على ان الذين يتكلمون لغة من اللغات تكون نزعاتهم في ميولهم ومشاربهم وتقاليدهم وأغراضهم السياسية والاجتماعية الى جانب أهل لغتهم وان بعدوا عنهم في المعتقد والجوارأ أكثر مما هي الى جانب أهل لغة أخرى وان هم قربوا منهم في الجوار والمعتقد حتى وفي الجنسية البعيدة (بحث للاستاذ جبر دومط مقتطف اغسطس سنة ١٩١٠) . ولذا ترى كل الامم التي تعيش في ظل بلاد اسلامية تتحلل وسائل معاشها ومدنيتها وحضارتها وان خالفها في المعتقد وقد يسمى أحدهم نفسه اسلامي الحضارة ذلك ان الاسلام تميز باللغة العربية التي كانت اداته في نشر لوائه فتوى المسلم الغريب اللسان يسعى جهده للأخذ بطرف من اللغة العربية التي هي مفتاح ذلك الدين ومدنيته الوارفة الظلال وكل ما يتعلق بهما . ومما يصادق نظرية تأثير اللغة في الشعوب التي تتكلم بها وتتخاطب ، ان الدول الاوروبية المستعمرة اذا احتلت بلداً شرقياً سارعت الى محاربة لغته ونشرت لغتها وآدابها ، حتى تقطع العلاقة بين الشعب ولغته الاصيلية وهي جماع معتقداته وميوله ومشاربه وتقاليده في حياته الاجتماعية والسياسية ثم تدفعه الى لغتها الغربية فينجذب نحو آدابها ومدنيتها مقلداً لا معتقداً ، ومحال عليه أن يضارع القوم في اخلاقهم ومبادئهم فيفقد القدم ويفوته الجديد ويبقى أبداً مضيقاً . وقد كان النضال شديداً بين اللغة العربية واللغات اللاتينية والانجليزية فخرجت الأولى ظافرة وخاب المستعمرون في هذا وحده

## ٢

من أمهات الديار العربية قبل الاسلام وبعده . أما قبل الاسلام فلأن الحلة كانت داراً للملوك العرب من أيام جذيمة الابرش الى آخر من ملك من المناذرة وأما في الاسلام فقد اختطت البصرة والكوفة في أيام عمر بن الخطاب ومازالتا مدينتي العرب اجيالاً . ولما قام المنصور العباسي اختط بغداد وبقيت داراً للخلافة الاسلامية العربية الي أن قدم هلاكها اليها في سنة ٦٥٦ هـ . وقتل الخليفة المستعصم بالله واستباح المدينة أربعين يوماً قيل فبأغ القتل أكثر من مليون نفس ولم يسلم الا من اختفي في بئر أو قنطرة .

أما عدد سكان العراق فيبلغ نحواً من ثلاثة ملايين وهو عدد كادت تباع ثلثيه بغداد وحدها في ابان عزها ، والبلاذ لا ينقصها خصب واعلمها من أخصب بلدان الدنيا ولا سيما بقعة مدينة بغداد وما حو اليها فلنفا تصلح للزرع والضرع وقد تغل في رأي الخبراء أربعمائة ضعف وربما كانت ثروتها المعدنية الكامنة في بطن الأرض أعظم مرات كثيرة من ثروتها الزراعية وليس التمر وحده هو مصدر الغني الزراعي ، بل ان البلاد فوق ذلك بلاد حبوب وقطن وصوف وقطن وصمغ ورب السوس .

وقد غيرا اكتشاف آبار البترول وجه العراق واذا اهتم أهل البلاد باحياء موات الأرض ولم يكتفوا « بينات عماتهم » النخل كان لهم موارد ثروة لا تنضب فان معدل أثمان صادرات الصوف من بغداد والبصرة يبلغ نحو مليون ونصف مليون جنيه . وقد قامت أخيراً في العراق نهضة صناعية باهرة منذ تأسست فيها مصانع للثياب الوطنية من أقمشة تصنع في البلاد وقد بدأ رأس مال تلك المصانع بمائتي الف روبية وبلغ الآن أكثر من أربعة أو خمسة ملايين روبية . وصار أهل البلاد كلهم يلبسون من المنسوجات الوطنية .

وقد استغنوا عن العمام والطرايش بغطاء رأس مستطيل الشكل اسود اللون يصنع في العراق أيضاً واسمه السدارة ، وعلمت من سائح شرقي جليل ثقة انهم أسسوا مصنعاً لدبغ الجلود وصناعة الاحذية منها فلا يمتاجون بعد اليوم الي ثياب أو أحذية أو قبعات أوروبية

أو طرايش نمسوية . وعامت منه أن ياسين باشا الهاشمي قد حتم منذ بضع سنين على الحكومة أن تتعاقد مع مصانع الثياب لابتياح كسوة الجيش والجند وعمال الدواوين وأبناء المدارس وهذا عمل جليل ليس بعده غاية لمخلص . ولا غرابة إذا نهضت العراق هذه النهضة المباركة فتد كانت مدن العراق من أكبر المراكز الصناعية والتجارية في العالم في أيام زهو العباسيين . فبغداد أنصب بقعة في العراق ودجلة والفرات طريقان مائيان عظيمان ينصبان إليها من الشمال الأول رأسا والثاني بما يوصل من الترع بينه وبين دجلة . ودجلة يوصلها بالبصرة اتصالا لا ينقطع ثم البصرة يوصلها بخليج فارس فخليج عمان فباقي البحار الكبيرة . فأى مركز اذن يفضل مركزها وفي سنة ١٩٢٧ خرج من ميناء البصرة تسعمائة وخمسون باخرة محمولها ١٤١٨٤٦٠ طناً من المواد الاولية والثمار معظمها لبلاد الانجليز

وكانت المتاجر تصدر عن بغداد الى انجلترا قبل الحرب العظيمي بمشرين عاماً والانجليز يرمقون العراق من عشرات السنين ويرمون الى تكبير أهميتهم التجارية والسياسية على أيدي قناصلهم ووكلائهم في الخليج الفارسي ومقدمهم في هذه المناصب سيربرسي كوكس الذي صار يعد عشرين عاماً من الخدمة السياسية في البحرين ، مندوبا سامياً لعهد الملك فيصل

وفي سنة ١٩١٠ حدثت أزمة في الوزارة العثمانية أحدثتها شركة لنش الانجليزية في العراق . وكان المرحوم سليمان البستاني معرب الالياذه يعيش في تلك الجهات ويخدم الدولة قبل أن يعين عضواً في مجلس الأعيان العثماني . وقد كتب ما يستفاد منه تحذير الدولة من الخطر الاستعماري البريطاني

وسوف نتكلم عن الخليج الفارسي والبحرين بما فيه الكفاية غير أن للكويت والاحساء صفة خاصة فقد شغلت الكويت قراء الصحف العربية في نهاية القرن التاسع عشر لأن الانجليز كانوا يلقون عليها جباثلهم ليجعلوا منها مستودعاً لذخائرهم وموطئ قدم لدى فتوح العراق . وكانت الكويت والاحساء تابعتين لولاية البصرة . وكان

مدحت باشا والياً على البصرة ولا يزال تذكر أنه خطب ود الشيخ عيسى أمير البحرين فلم  
يجب زدائه بل على العكس سلم خطابه الى حلفائه الانجليز

ومذ كان مدحت باشا والياً على البصرة حدث خلاف بين عبد الله بن سعود  
وأخيه سعود فلجأ عبد الله الى مدحت يستنصره على أخيه . فألحق مدحت الكويت  
والاحساء بولاية البصرة وشكل منهما متصرفية سميت بمتصرفية نجد . أما الكويت فعلى  
أن يكون عبد الله بن سعود قائماً عليها كل أيامه تحت حماية العثمانيين فدخلت الكويت  
والاحساء تحت حماية العثمانيين حوالى ١٨٧٠ ولم يناعز منازع في ذلك وتشكلت متصرفية  
الاحساء وكان يعين لها المتصرفون العثمانيون ومعهم من الجند ما تقتضيه الحاجة السياسية  
والمدنية . كل ذلك والأمير ابن السعود الذى صار فيما بعد ملك نجد والحجاز مازال فتي  
وقد نشأ وترعرع في كنف الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت الذي استولى عليها بعد عهد  
المتصرفية العثمانية وكان يجب على مدحت ان يلفت نظر دولته الى اهمية الكويت وجزيرة  
البحرين ولسنا ندرى أين كانت أعين الترك وآذانهم الطويلة طول القرن التاسع عشر وهم  
أصحاب العراق وجزيرة العرب . وكان ينبغي أن تكون « البحرين » تابعة للمتصرفية .  
ولكن الاهمال بل الغفلة من جهة وبعد الشقة من جهة أخرى ( كأن انجلترا والهند كانتا أقرب  
الى الخليج الفارسي وجزيرة العرب من تركيا ) والجهل باهمية موقع الكويت وموقع الجزيرة معاً  
كل ذلك جعل المتصرفين يفضون النظر عن الكويت والجزيرة ويتركون لرؤساء القبائل  
فيهما أن يتصرفوا بالبلاد والعباد كما يشاءون كأنهم مستقلون فى المكانين المذكورين وقد  
انتهى هذا التصرف السيء بقتل البلاد جميعاً

٣

أما الكويت فمدينة نظيفة ويبلغ عددها ثلاثين ألفاً ومينائها واسع أمين من أحسن  
مرافئ شرقى جزيرة العرب بل أحسنها ، وكان الالمان يؤملون ان تنتهي فيها السكة  
الحديدية البغدادية . ولكن الدهر لم يساعدهم . غير أن هذا لم يقلل من أهميتها التجارية  
والحربية فقد لعبت في الحرب دوراً مهماً فكانت مستودعاً للدخائر والأسلحة التي استعملها



الانجليز في حروب العراق ضد الدولة العثمانية وبعد ذلك ضد أهل العراق أنفسهم قبل تنصيب فيصل ملكا عليهم . ويبلغ عدد سكان الكويت ثلاثين ألفاً الآن .

والكويت في فلاة قاحلة ليس لها ما تعتمد عليه الا التجارة وتجارها متسعة مع شمر ونجد والحجاز ومنها ترسل الخيول الى البنادر الهندية وفي جنوبها واحة القطيف وهي من أخصب الواحات في بلاد العرب حتى تمتد الى قطر

روي لنا سيد عظيم من رجال الشرق العاملين على خدمته ، أنه زار الكويت في غرض له فوقف من أخبار المبشرين على العجائب فقد علم أنهم قسموا البلاد الى مناطق نفوذ في الخليج الفارسي فالبشرون الكاثوليك لا يتعدون منطقتهم والمبشرون البروتستان كذلك . ولهؤلاء الاخيرين قصة فكهة تدل على صبرهم وثباتهم وحسن ايمانهم .

فانه جاء منهم أربعة من صميم بلاد الانجليز الذين لا يطيقون فيها حرّاً ولا شمساً ( وهم لا يرون قرص الشمس مرة في كل عام ) فرضوا أن يعيشوا في وسط بلاد يضرب المثل بشدة قيظها ، وتعد مصر في أشد أيامها حرّاً بمثابة سويسرا بالنسبة لها . وتلك البلاد وهي الكويت خالية من كل وسائل الراحة البدنية فلا طرق ولا شوارع ولا ماء صالح للشرب ولا أدوات صحية .. تصور هؤلاء الانجليز الأربعة الذين جاءوا بزواجهم كيف يعيشون في هذا الوسط الغريب عنهم مستهدين لأخطار الطبيعة وأخطار الحياة !

وقد بدأوا أولاً ببناء مستشفى وتأسيس مكتبة . وقد بقي المستشفى والمكتبة خاويين على عروشهما لا يؤمهما أحد من أهل البلاد مدة أربع سنين ، فلم يئأس المبشرون الثمانية ولم يضجروا ولم يتسرب اليأس الى قلوبهم . بل لجئوا للدرجة الثانية من العمل وهي أن نساءهم الأربعة تحجبن واتخذن أسماء انثوية اسلامية فاطمة وعائشة وزينب وزبيدة ، وأخذن يغشين منازل أهل الكويت ليعالجن المرضى ويواسينهم ويخففن آلامهم في سكوت وهدوء ولا تنطق واحدة منهم بكلمة في الدين . وهن ينتظرن سنوح الفرصة ليتمن بعد قليل بواجبهن الأصيل وهو التبشير . وكفاهن الآن أنهن تملكن قلوب الذين خدمتهم بالعلاج ولدواء .

وهكذا يعملون ويعملن في صبر وثبات دون ان يشعر أحد بخطورتهم .

والبتة بين رأس قطر والقطيف مغاص من أحسن مغاوص اللؤلؤ في العالم كانت ولا تزال الى اليوم، وسكان قطر والبحارنة ( أهل البحرين ) كلهم يشتغلون بالغوص نصف العام تقريباً . ومن مدن تلك الجهة هجر القديمة المهجورة المشهورة بتمرها حتى ضربت به الأمثال فقيل ناقل تمر الي هجر ، كما يقال ناقل قطن الي مصر .

وقد أسس الترك هذه المتصرفية التي حكينا عنها آنفاً منذ ستين عاماً وكان ينبغي لهم ان يعنوا بها منذ ذلك التأسيس واعلمهم لم يدركوا أن تلك البلاد هي مفتاح البلاد العربية غرباً ومفتاح الهند شرقاً ومفتاح العراق شمالاً وبها طرق التجارة المهمة للشرق والغرب والحسأو الحفوف وهي هجر القديمة هي المحطة الأولى على طريق القافلة من خليج فارس الى مكة وجدة والمدينة .

ان البحرين وهي جزيرة اللؤلؤ الآن تحت حماية الدولة البريطانية وقد تدخلت في نصب حاكم لها منذ سنة ١٨٦٧ فانها في تلك السنة نصبت عيسى بن علي حاكماً وأسلطت على الجزيرة بعد أن عزلت اياه عن كرسي الحكم .

وبعد ذلك ببضع سنين أصبحت تدعي أن لها حق الحماية أو الوصاية على الكويت ولها فوق ذلك من النفوذ في كل خليج فارس ما لم يسع أحداً من سياسة العثمانيين أن يجبهل فنها هي المسيطرة معنوياً على كل الحركات التي تجري على شواطئ هذا الخليج الغربية والشرقية في بلاد فارس وفي بلاد العرب وفي يدها إن شاءت أن تثير الخواطر أو تسكنها فان عاملها هناك أهل ادراك وبقظة (أمثال كوكس) لا تفوتهم حركة ولا سكنة تنتفع بها أمتهم أو يزداد بها نفوذ دولتهم . أما معنى الحماية البريطانية فنوع معاوذة تجارتهم ومنع بيع الرقيق علناً وليس لهم معتمد خصوصي ، ثم ترك الحكم الوطنيين وشأنهم والقضاة وشأنهم يظلمون أو يعدلون ويرتشون أو يعفون فاذا تجاوزوا ذلك الى مخابرة سياسية أو أظهروا شيئاً من الاستقلال في تصرفاتهم مع دولة أخرى فينبذت ظهر الحماية البريطانية ويظهر أثرها بالمنع وفي

ماعدا ذلك لا أثر لها الا أن يكون ذلك مرتباً سنويا تدفعه الدولة البريطانية للشيخ أو الأمير عن حماية التجارة أو منع بيع الرقيق أو تالفاً له .

## شمر والقصيم

شمر بلاد أو واحة واقعة بين اجا وسلمى جبلى طيء وعاصمتها حائل وهي مدينة ابن الرشيد وكرسي امارته والى جنوبها القصيم العليا والقصيم السفلى وفيها عنيزة وبريدة مدينتا نجد ( نجد الحجاز ) ويقول السائحون انها بلاد طيبة الهواء جيدة التربة ولا أثر فيها للبعوض والذباب ولا للقمل والبراغيث . ولا رائحة للجزرة بها واللحم لا يخزن هناك وسماؤها غاية في الصفاء ونسبات أسحارها لأهل ولا أنعش منها . وكانت حائل تابعة لرياض . تعترف بسيادتها .

وقد ضعف شأن رياض عند مالجأ عبد الله الى مدحت باشا ضد أخيه سعود وهما ابنا فيصل الوهابي فانهزت حائل هذه الفرصة واستقلت واستمرت المدينتان تتنازعا السلطة والسيادة وكان ضلع الولاة العثمانيين مع حائل فكان والى بغداد والبصرة يجعل أمراء بيت الرشيد حماة لطريق الحج من قبل الدولة العثمانية فكان آل الرشيد يعترفون بسيادة الدولة وأقل مالعثمانيين من الحقوق على حائل ورياض أيضاً الحماية التي هي أشبه بالحماية الانجليزية على كثير من أجزاء الجزيرة العربية في جهات اليمن والشحر أو في جهات الخليج الفارسي . وترجع تلك الحماية الى دخول الولايات السعودية الوهابية وهي نجد واليمامة والعارض ووشم والسدير والقصيم وشمر وعسير اليمانية في حوزة العثمانيين على أيدي محمد على و ابراهيم عند استفحال أمر الوهابية .

وأكد تلك الحماية سنة ١٨٧٠ التجاء عبد الله بن فيصل الى مدحت و اعتراف امراء حائل لهم بالسيادة العامة وثلهم امراء رياض من بيت سعود أثناء المنازعات التي وقعت بين امراء هذين البيتين من حوالى أربعين سنة الى الآن .

## ٤

ان في شرق الجزيرة العربية وعند الخليج الفارسي امارات وسلطنات ودويلات صغيرة شأنها شأن الجزيرة العربية ، من حيث كونها اسلامية شرقية ولكن انجلترا بسطت عليها نفوذها من زمن طويل لا لأنها أغنى بلاد العالم بمجوهراتها ولا لأنها ودراريها ، ولكن لقربها من الهند وخطورة مركزها السياسي . وهي تفوق من تلك الناحية جنوب الجزيرة العربي حيث توجد عدن وغيرها من الامارات والسلطنات الصغيرة الواقعة هي أيضاً تحت النفوذ البريطاني ومن تلك الولايات العربية امارة عمان فان لها تاريخاً يهم كل عربي لأنها رفعت علم الناطقين بالضاد الى أوج السماء في القرن العاشر الهجري فقال بعض المؤرخين انه لم تقم لهم قائمة منذ خرجوا من الأندلس بغير عمان التي دامت نهضتها من سنة ١٠٠٠ الى ١٢٥٠ هجرية فنشأ بها فطاحل عظام كونوا دولة عربية قائمة على أساس العدل واستولت على بعض شعور البحر الأحمر ثم على المحيط الهندي والخليج الفارسي فأفريقيا الشرقية الى رأس الرجاء الصالح ، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة على هذه البحار الثلاثة العظمى وصار لهم أسطول ضخم هاجم الاسطول البرتغالي ومزقه إرباً وشتت شمل البرتغاليين وأجلاهم عن جميع الشعور الهندية والفارسية والافريقية وكان الاسطول العماني مؤلفاً من ثلثمائة قطعة بين بارجة وفرقاطة ونسافة وحراقة وقد وصفه سرهنتك باشا في كتابه دول البحار . وذكره كثيرون من مؤرخي الشرق وذكروا أسماء السفن الكبرى التي كانت تشبه المدرعات والدردنوط والطرادات الاوربية وهو الاسطول الاسلامي الرابع أو الخامس الذي ظهر في البحار بعد أسطول صلاح الدين الأيوبي وقبل أساطيل الدولة العثمانية والاسطول المصري الذي تألفت عليه الدول وقضت عليه في موقعة نافرينو ومن أسماء تلك السفائن الحربية العمانية « الفلك » و « الملك » و « الناصري » و « كعب رأس » والرحاني والامامي واليعربي وعمان ونزوي والفتح والنصر ويعرب وقحطان . كما يسمى الانجليز مراكبهم « الملكة الزابت » و « فيكتوريا » و « نلسون » وغيرها .

ومن البديهي أن الانجليز لم يصبروا على هذه الدولة البحرية الشرقية التي كانت

تهدهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا ، وقد يستقر نفوذها في الهند واندونيسيا والهند الصينية شرقا وإلى شرق أفريقيا والسودان وجنوب أفريقيا غربا . بعد ان امتد ذلك النفوذ الى تلك الناحيات فعلا . فعملت في مدى ثمانين عاما على اضعاف تلك الدولة والقضاء على أسطولها ثم الاستيلاء على بلادها وقهرها شيئا فشيئا . وما زالت بريطانيا تعمل على انحلال تلك الدولة العمانية البحرية الى وقتنا هذا وهذه السلطنة يحكمها الآن السلطان تيمور والشائع أنه وبلاده تحت الحماية البريطانية ويقال أيضاً أنه مستقل في بلاده ولكنه مرتبط مع دولة إنجلترا بمعاهدات تقضى بأن لا يمنح أية دولة اوربية امتيازاً في بلاده لجاراتها للهند . وقد حدثت في عمان ثورة عظيمة كان تيارها جارفاً تمكن الثوار في أثنائها من طرد ولاية السلطان تيمور من جميع البلاد الداخلية حتى أن والى السلطان بنزوى ، وهو السيد سيف بن حمد اتجر من شدة الحصار ، وحوصر السيد نادر أخو السلطان بمائل شهرآ ، فاضطر لتسليم البلاد لزعماء الثورة وحوصر ابن عم السلطان السيد احمد بن ابراهيم خمسة أشهر بمحصن الرستاق ثم سلم البلاد . واستفحل أمر الثوار في الداخلية واستتب لهم الفتح فيها فاتقلبوا الى الثغور والبحرية فوقف الاسطول الانجليزي في وجوههم وضرب بعض المدن بالقنابل مثل بركا وقريات .

وعند ذلك أراد الانجليز تحوير المعاهدة التي بينهم وبين السلطان تيمور واتهمزت إنجلترا هذه الفرصة فزادت بعض البنود المؤيدة لسلطتهم فاضطر السلطان تيمور لقبولها وحدث اثر ذلك ان قابل ملك الانجليز عظمة السلطان تيمور فقويت شائعة الحماية التي بسطها الانجليز على عمان ومسقط .



ربما كان الكثيرون من الشرقيين لا يعرفون شيئاً عن تلك الدولة الاسلامية البحرية العظمى التي قامت منذ قرنين في شرق جزيرة العرب وقضت على دولة البورتغال وهددت الهند والانجليز والفرس ولولا الاستثار وحب الذات والتفانى في السلطة والجهل ، وقبول الدسائس الأجنبية لكانت اليوم من أعظم دول البحار في العالم، هذه هي دولة عمان. وتجد الأفرنج أنفسهم يوجزون في كتبهم عند ذكر عمان ويكتبون بتذكيرنا بوقوع مسقط عاصمتها في أيدي البورتغال في أوائل القرن السادس عشر وانها مازالت تحت حكمهم الى نصف القرن السابع عشر وانها بعد ذلك كانت نهياً بين نادر شاه الفارسي واجد بن سعود واليعاربة وأنها فقدت قطر والبحرين بمافيهما من مصائد اللؤلؤ والثروة الطائلة وان تويني أحد سلاطينها قتله ابنه . وكانت البلاد مسرحاً للفتن والفلاقل واراقة الدماء .

وترى الساحل الشرقي الحديث القادم من شمال افريقيا أو من بلاد العراق أو عائداً من بمباى الى الخليج الفارسي يحدثك بلوعة عن دولة بحرية اسلامية نشأت في تلك البحار فان أهل البلاد وهم من الأباضية احدى فرق الخوارج اقد انشقوا على أنفسهم فاستقل الفريق الأَعْظَم منهم بالداخل والجبل الأخضر ، وجعلوا عليهم اماماً هو الشيخ الرويحي ثم خلفه الشيخ الخليلي وذلك على أثر مفاوضة السلطان تيمور مع الانجليز في سنة ١٩١٢ وما زال تيمور يحكم السواحل وطولها ثمانية كيلو متراً في عرض أربعين كيلو متراً واذا نزلت الى الجنوب لقيت جزيرة البحرين وعاصمتها منامه بتصورها الفخمة واذا صعدت شمالا وجدت امارات صغيرة بل مدناً مثل دبي وأبوظبي ورأس الخيمة . وسكن الشعب والمدنية والتعليم والسياسة والمالية . . . هذا كله وراء الستار وفي المستوى الخلفي ، لأن استئثار الأمراء

بالمملك وتنازعهم على السلطة وثروة الاقلية وفقر الأغلبية ، قد غطت على كل شىء وجاءت  
دسائس السياسة الأجنبية فقضت على البقية الباقية .

## ٢

روى لما حدث ثقة أنه زار عمان في سنة ١٩٢٤ ونزل بضيافة السيد احمد دملوك  
من أكبر أغنيائها ، وكان القصر فخماً والرياش نقيساً والمائدة رداحاً ، وكل مظاهر العز  
والرفاهية موفورة .

وفي الصباح دخل عليه في قاعة الجلوس التي أعدت له شاب جميل الصورة يلبس  
قيصاً في غاية القذاراة قد انقلب من البياض الى السواد وقد أرخى شعوره مكدسة على  
كتفيه وعلى جبينه ولطخها بزيت قدر فكان منظره كانسان الغابة ، وقد قال صاحبي انه  
ظن عند رؤيته أن هذا الشاب لم يذوق طعم النظافة حياته وأنه لم يعرف لون الماء ولا رائحة  
الصابون . فلما دنا منه وسلم عليه رد تحيته بغير اكثرات . فجاء رجل وجيه وهمس في أذن  
الضيف محدثي وقال له « هذا السيد محمد دملوك نجل السيد احمد دملوك » . فدهش الضيف  
ولم يخف دهشته على الشاب وقال له يسيد محمد لا عذر لك فيما أنت فيه من سوء البزاة ،  
فالغنى بحمد الله متوافر والماء كثير والثياب النظيفة الجميلة من الحرير والخمير والميسورة والحلاق  
يتمنى ان يتشرف بقص شعرك وتقليم أظفرك . فضحك الشاب وقال له « أريد أن أكون  
محدثاً ؟ !! »

غير أن هذا الشاب الذى يحمل في رأسه تلك المعقولة الغربية والذي تربى على أن  
النظافة قد تؤدي الى فقد الرجولة ، ونسي كل ما حفظه الأثر من تاريخ النبي ووصف حياته  
الخاصة . وما أمر به الدين الاسلامي . لم يكن غنياً ولا بليداً بل كان على أوفر نصيب من  
الذكاء وحسن الادراك وسعة الاختبار وكان في عينيه بريق يدل على سمو النفس . فقد قال يوماً  
لمحدثي : أريد حقاً يسيد فلان أن تصلح شئون العرب ، وانت تغار على تاريخهم وتمنى لهم  
السلامة والنهوض والعلاء ؟

فأجاب صاحبي بالايجاب .

فقال له : عليك إذن ان تلتقي بملايين والدى في البحر أولاً، فإذا تمكنت من ذلك فانك ناجح في انهاض العرب .

فاستفسره وطلب المزيد من البيان فقال :

لأعلم ياسيدى أن هذه البلاد تشمل عشرين أو ثلاثين شخصاً من أرباب الملايين وهم يسخرون الشعب كله في تكوين الثروة لأنفسهم ، فلا يعقل أنهم يعينون أحداً على تحسين حالة الشعب بتعليم أو تربية أو تهذيب . فالحال كما ترى يشقى الملايونان أو الثلاثة ليسعد عشرين أو ثلاثون رجلاً فقط . وأنشد :

وكم قاتل مالى رأيتك راجلاً      فقلت له من أجل أنك فارس

فدهش محمدي من ذكاء الشاب وفصاحته وصراحته وحرية وبعد نظره وقربه منه وتودد اليه وانقطع الى مسامرتة ولكنه لم ينجح طول مدة اقامته في اقناعه بأخذ حمام واحد أو تغيير قيمه القنر . وقال لى ان أولاد رجال اوروبيين أو شرقيين في أقطار أخرى ، يملكون عشر ثروة والد هذا الفقى يتعلمون في باريس واكسفورد ويعيشون عيشة الأمراء ولكن هكذا أحوال العرب .

٣

نرجع الى ما كنا فيه من ذكر تلك الدولة الاسلامية البحرية العظمى التي طردت البرتغال وتمددت الفرس والانجائز في بلاد الهند الى ان ذلت على أيدي أصحابها .

ان الخليج الفارسى هو الشق من الماء المالح الداخلى من بحر عمان بين بلاد فارس وجزيرة العرب وأوله من الجنوب مضيق رؤوس الجبال جنوباً وآخره شط العرب حيث مصب دجلة والفرات شمالاً ومن المدن العظيمة الواقعة على شاطئه بندر عباس ومسقط وبوشهر ولنجه والكويت وهو مزدان بجزر كثيرة فيها الصغير والكبير شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وأشهرها جزيرة البحرين جنوباً وجزيرة بيبان شمالاً .



كان خليج العجم من قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب ولا تطامن دولة غربية في الهند ولا يستقر أمرها إذا لم تكن هي القابضة بيدها على هذا المفتاح . وذلك لانه أسهل الطرق لتجارة الهند وأصلحها وهو أقل خطراً من المحيط الهندي وأقرب مواصلة وهو فوق ذلك في مأمن من العواصف الهوجاء التي تنتاب البحر الهندي في الربيع والصيف فضلاً عن الخريف والشتاء فقد روي لي صديق جاوى أنه كان في صيف سنة ١٩٠٢ مسافراً فيه فقامت عاصفة دمرت الباخرة تقريباً . وكنت قبل ذلك أظن المحيط الهندي على شئ من الهدوء وأضف الى ذلك أن الخليج الفارسي حصن بحري حصين وبابه مضيق هرمز حيث تكاد بلاد ايران تصافح بلاد العرب فضلاً عما في هذه الطريق من الجزر الغنية والمدن العامرة كما أسلفت . ولا يضل السائح طريقه ولا يملها من سواحل الهند الى جزائر الخليج الى البصرة فبغداد فسوريا فمصر فاوروبا .

وقد كان هذا الخليج دائماً مسرحاً للفتن والقلاقل والحروب التي يسببها حب السيادة والاستعمار . يريده الانجليز طريقاً آمنة للتجارة في أيام السلم ويريدونه حصناً مغلماً في وجه غيرهم في أيام الحرب لأنه مفتاح الهند ويريدون هذا المفتاح في يدهم وحدهم . هذه هي غايتهم الأولى والأخيرة . وقد تمكنا من القضاء على الاسطولين الكبيرين اللذين انشأا فيه فان دولة عمان كما سيحيى الكلام أنشأت اسطولا قضى على البورتغال . فكان ما آله التدمير على يد الانجليز .

وكان للبحرين أسطول شرعى كبير مسلح بالمدافع والذخيرة الوافرة . وقد استفحل أمره وبواسطته استولى حكام جزيرة البحرين على قطر والقطيف كما استولى أسطول عمان على زنجبار وشرق أفريقيا وبلغوا به رأس جواد يفار ( ص ٢٦١ دائرة المعارف الانجليزية ج ٢ طبعة تاسعة ) فخشى الانجليز عاقبة ذلك لأن مصلحتهم تقضى بأن تبقى بلدان الخليج متنافرة متشاقة متخاصمة لكل منها أمير مستقل كما هي الحال الآن في الكويت وأبى ظبي ودبي ورأس الخيمة وكما كانت في الحمرة قبل أن يستولى عليها الفرس في سنة ١٩٢٤

فاخطروا أمراء البحرين بأن القتال في البحر ممنوع وأن لبريطانيا حقاً في منعه تعترف لها به الدول الكبرى فلا يجوز اذن أن يخرج أسطولكم الى عرض البحر واذا خرج فالأسطول الانجليزي يقوم بواجبه (اقرأ يؤدبه ويحطمه) فاحتج الشيوخ والامراء بأن بلادهم جزر ثغورها مفتوحة غير محصنة ولا حصن لها الا الاسطول ، فان لم ندفع به الأعداء ملكوا بلادنا ورقابنا واذا لم ندافع هجموا علينا فاجاب الانجليز اذا كان الامر كذلك فان حكومة بريطانيا إذا امتنعت عن الحرب البحرية تتعهد برد الاعداء عن بلادكم (اقرأ نضعكم تحت الحماية .) . وهكذا تلاشى الاسطول البحراني (جزيرة البحرين) كما تلاشى قبله الاسطول العماني . هذا من جهة السياسة الخارجية

واذا أنت درست أحوال العرب الداخلية علمت من غير طويل عناء أن بليدة العرب الكبرى كانت ولا تزال ، نزوع كل قبيلة بل وكل عشيرة الى العزلة والاستقلال لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما تأمر به القبيلة أو يدعو اليه في بعض الاقطار ، المذهب الديني ، لا يخضع العرب لبعضهم بعضاً الا كرها ، ثم ينزعون الى السيادة المستقلة حينما وجدوا الي ذلك سبيلاً .

فتراهم ضحايا جهلهم ، وليس الجهل فقط لان الجهل الا عزل قد لا يضر كثيراً ، ولكنهم ضحايا الجهل المساح كما كانت شعوب استراليا وهنود أمريكا الوطنيين . وليتهم ينتفعون بهذا السلاح في محاربة أعدائهم أو رد غارة المغيرين . ولكنهم ينتفعون بهذا السلاح في قتل أنفسهم ولا يتركون وراءهم علماً ولا مدنية ولا ثقافة . بل الملك والسطة والمال لافراد قلائل ، والفقر والجهل والموت للاغلبية الساحقة .

وقد بينت كيف أن الانجليز وعدوا البحرين بالدفاع عنها ضد العدو الهاجم حتى دمرت اسطولها العربي . وبعد ذلك كانت كل حركة دفاع من الانجليز تقعد البحرين جزءاً من حريتها واستقلالها ... درجات بعضها فوق بعض تؤدي الى استيلاء انجلترا على البحرين فكيف يتقون بعهود الانجليز ووعودهم ، ومتى صدقت السياسة في وعودها لاسيا

مع الشرقيين عامة ومع العرب خاصة !

قال أحد أدباء البحريين يصف الاستعمار الأوروبي :

إذا كان هناك فرق بين الاستعمار الانجليزي واستعمار الدول الاخرى فهو أن الاستعمار الاوروبي كان نصاب الذي يقتل الشاة بجرة مدية في نجرها ، لا يتركها الا وهي تسلم الروح نخالقتها أما الآخر فمثل القصاب الذي يعذب الشاة وخرأً بالابر حتى ينزف دمها . غاية الميبتين أخف وأي الذابحين أرحم ؟

غير انك ترى أن العرب أنفسهم والشرقيين عامة يعينون المستعمر على أنفسهم ولا يقصرون في مساعدته على القضاء على أمتهم ووطنهم

وظالما رأينا في تاريخ الشرق الحديث أن المغلوب يساعد الغالب على نفسه فماذا

يحملة على ذلك ؟

أهو الجهل ، أم الضعف والجبين والخنوع ، أم الرهبة من القوى المنتصر ، أم الخضوع المصلحة الخاصة والطاعة العمياء .

ما جنى على العرب غير أنفسهم . كنا و كنا و كنا حديث مبتذل . يوم أقفلت المدارس في البلاد فعم الجهل وتوارثه الابناء كنا الجانين على أنفسنا . يوم خدعنا الاجانب بدولة عربية مستقلة ودفعوا لنا الذهب الوهاج ، وحملناه في صفايح ، وقضينا على الدولة العثمانية وطمعنا في ملك الجزيرة أولاً وفي الخلافة والامامة ثانياً ، كنا الجانين على أنفسنا ، يوم عزل هؤلاء الملوك وخلصوا وطرردوا كانوا الجانين على أنفسهم .

قد كانت القوة والمال والعلم بأيدينا فطرطنا فيها وفي قوميتنا وكنا الجانين على أنفسنا واليوم نرى القوة والعلم والمال بأيدي الاوريين فلا نقندي بهم في الفضائل والحسنات حتى نبلم شأوهم ونستعيد مجدنا فكنا الجانين على أنفسنا .

## ٢

انظر الى تاريخ عمان تجده صفحة دامية ملئت سطورها بأسماء الامراء والفاطميين المتقاتلين في سبيل السلطة والسؤدد فكان أول انشقاقهم على دولة العرب الاولى كونهم من الخوارج الاباضية ومن أمتهم الآن سليمان باشا الباروني الذي يعيش بين ظهرائهم منذ بضع سنين مما يدل على أن الاباضية في الخليج الفارسي كما هم في طرابلس وغيرها من ممالك الاسلام والخوارج هم الفرقة العاشرة من الفرق التي انشقت بها الاسلام ويقال لهم النواصب والحرورية نسبة الى حروراء موضع خرج فيه أولهم على علي وهم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض علي بن أبي طالب وينقسمون الى عشرين فرقة وهم ضد الشيعة على خط مستقيم

والفرقة التاسعة عشرة من الفرق العشرين هي الفرقة الاباضية أتباع عبد الله بن أباض الذي خرج في أيام مروان وكان من غلاة المحسكة: الذي زعمت الحارثية أنه لم يكن لهم امام بعد المحسكة الاولى الا هو وبعده حارث بن يزيد الاباضى الذي انتسبت اليه الحارثية . وقد أجمعت الاباضية على القول بامامة عبد الله بن أباض واقترقت فيما بينها فرقاً يجمعها القول بان كفر هذه الأمة (يعنون بذلك مخالفينهم من هذه الامة) براء من الشرك والايان وانهم ليسوا مؤمنين ولا شركيين ولكنهم كفار وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم في السر واستحلوها في العلانية وصححوا مناهجهم والتوارث منهم وزعموا في ذلك أنهم محاربون لله ورسوله لا يدينون دين الحق وقلوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض والذي استحلوه الخليل والسلاح فاما الذهب والفضة فانهم يردونها على أصحابها عند الغنمة

ثم افتترقت الاباضية فيما بينهم أربع فرق الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب « طاعة لا يراد الله بها »

وقد أسس الاباضية بضع دول منها دولة في تاهرت استمرت ١٣٠ سنة وأخرى في عمان وهي موضوع بحثنا هذا . وشبه دولة في طرابلس التي من بقايا أمتها سليمان باشا الباروني

الذي سبق ذكره فدولة تاهرت قضى عليها الفاطميون ودولة عمان قاومت البرتغال وطاردهم وقضى عليها التخاذل ثم الاستعمار الانجليزي ودولة طراباس قضى عليها الاحتلال العثماني

## ٥

أما خبر البرتغال وكيف حاربتهم دولة عمان فيرجع تاريخه الى ظهور الفونسو أبوكرکه (ولعله من أصل أندلسي) الذي ولد في ١٤٥٣ وهلك في سنة ١٥١٥. وكانت البرتغال له يده تشبه انجلترا الآن من حيث القوة البحرية وحب الاستعمار والمجوع على الشرق

وكانت غزواته الأولى الى الهند بثلاث بوارج حربية وما زال يغزو ويفتح حتى حصل لقب « حاكم الهند » واستولى على « جوا » واجتاح ساحل المالابار واحتل مدينة ملكا وهي مفتاح الهند الصينية وهو الذي وقف في وجه ترك آل عثمان وعاقهم عن دخول الهند وضرب عدن مرتين بالمدافع فدمرها واستولى على جزيرة هرمز وهي جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس وعند مضيق رؤوس الجبال الذي تتصافح عنده بلاد ايران وجزيرة العرب . وحصن جزيرة سقطرى لأن أهلها كانوا نصارى من النسطوريين وحالف نجاشي الحبش وحاول الاتفاق معه على تحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الأحمر ليتمكن بذلك من هلاك القطر المصري . فكان هذا الشيطان في أثناء حياته التعسة آفة عظيمة على الاسلام والمسلمين في جميع أنحاء الشرق وأفريقيا . ومن جلة مغازي هذا القرصان سواحل عمان فلك البرتغال مسقط وصحار والمطرح وقريات ولم يكن بأيدي الاهالي سوى فريضة « لاوة » وقد سار اليها الأمير ناصر بن مرشد فاستعان أهلها العرب المسلمون بالبرتغال فأمدوهم بالمال والسلاح ولكن ناصرأ فبح البلد ثم هاجم البرتغاليين أنقسمهم في مسقط وصحار والمطرح وقريات وانتزعها منهم وذلك لأن عهد أبوكرکه كان قد مضى فانه مات في سنة ١٥١٥ وناصر تولى الملك بعد ذلك بقرن تقريبا ولم يكن بتلك المدن الا بقايا البرتغال الذين تركهم أبوكرکه وأمدتهم البرتغال برجال وجنود ليستعمروا المدن التي فتحها قرصانهم الأعظم فطردهم ناصر من رأس الخيمة ثم هزم البرتغاليين في المدن الأخرى وفرض عليهم الجزية .

ويسجل بالفخر لناصر أنه منذ ورث العرش وضع نصب عينيه تطهير بلاده من العار الأجنبي وفهم في ذلك الوقت السحيق ( أوائل القرن السابع عشر ) ما لم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين ، أو ما فهموه و«طرحوا» عليه . لقد أدرك ناصر بن مرشد طيب الله ثراه ان الاوروبي المستعمر اذا أنشأ أطفاره في بلد لم ينته منه الا باستخلاص جميع البلاد واستعباد كل من فيها من الرعية . وأن الواجب على العاقل أن يتقى هذا الداء قبل أن يستفحل وأن يبادر الى اقتلعه بكل الوسائل قبل أن ينشب فيتأصل ويعز الدواء . فناصر بن مرشد ( ١٠٣٤ - ١٠٥٩ ) بعد بحق محرر عمان وباني مملكتهما . وخلفه سلطان بن سيف فنسيج على منواله في مطاردة الأجانب ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال في بلاده بل قصدهم الى بلاد الهند فأرسل أسطوله الحربى يغزوهم في ساحل كوجرات وديو ودامان فأخذوا بعض المدن وعادوا بذخائر عظيمة .

وكان سلطان بن سيف وعلله اخو ناصر أو ابن عمه أميراً ديموقراطياً على طريقة عمر بن عبدالعزيز فكان يخرج كسائر الناس وبعشى الجماع والمجانس ويختلط بالعامية بدون حارس ولا ياور ولا مصاحب ولا قرين بل حراسته من ثقته بحجة قومه . وصحابه من معرفهم فضله واجلالهم قدره .

وخلفه ابنه بلعرب في ( ١٠٧٩ هـ ) وبدأ الشقاق بين الأخين فنارعه أخوه سيف ابن سلطان . وانضم الفقهاء أو العلماء الى سيف وعضدوه بفتواهم ودسائسهم كعادتهم في كل بلاد المسلمين فكان ذلك بداية الشقاق . وانتصر سيف في هذه المرة ، ليس بفضل العلماء ولكنهم لم يكونوا لينضموا اليه ما لم يشعروا بقوته وتقوته فهم دائماً في جانب القوى . ولوانهم رأوا مغنا في جانب بلعرب ما تأخروا عن تعضيده والقتياله . . .

وقد أظهر سيف همه في مكافحة البرتغاليين حتى طردهم من مومباسه على شاطئ أفريقيا الشرقية وهو الثغر الذي تداولته البرتغال وعمان وزنجبار ، وانتهى الأمر بوقوعه في يد الانجليز في سنة ١٨٩٠ وكان الانجليز ورثة دولة عمان فورثوا فيما ورثوا ذلك الثغر الذي جعلوه

عاصمة لمستعمرة افريقيا الشرقية . وطرد سيف البرتغاليين عن جزيرة مبابا وضمها الى مملكة عمان واستولى عليها الانجليز كما استولوا على زنجبار . بل ان أسطول سيف بن سلطان اجتاح جزيرة سلزيت بقرب ممباي وكذلك مدينة بارسالور وماغالور ولم يقدر راجا كارزنا تيك أن يذب عنهما وخلفه في ١٧١١ ولده سلطان الثاني فثار على سياسة الفتح واسترداد ملك عمان وانتزع البحرين من يد الفرس . ومات وخلف ولدين أحدهما بالغ وهو مهنا والآخر قاصر وهو سيف فانقسم الناس بشأتهما وأراد كل فريق ان يولي أحدهما . وتغلب مهنا بفضته ودهائه على أخيه الصغير ولكنه قتل وبدأت الفتنة بين الامراء والشعب ( ١١٣٣ ) وجاء يعروب أحد الامراء وتولى باسم سيف القاصر ثم اغتصب الملك وجعل نفسه اماما أصيلاً ، ووجد عالماً أعطاه فتوى لمصلحته وهو عدي بن سليمان القاضي الشرعي الذي أعطاه حكماً شرعياً بأنه أحرز الامامة بحق وانه ليس بعاص ولا غاصب ( ! ؟ ! ) فقام ضده أمير آخر وهزم يعروب وقتل القاضي الشرعي وطاف بجثته الاسواق ثم قام أحد بن سعييد من اسرة البوسعيد فتولى بعض المدن وأحسن ادارتها وانتهى الأمر بأن نصبوه اماما في سنة ١١٥٤ هـ وكان لعمان أسطول قوى استعانت به الدولة العثمانية في سنة ١٧٥٦ على استرداد البصرة من العجم فنقلت بوارجه وقواربه نحو عشرين ألف مقاتل من عمان الى شط العرب كما كان يفعل الانجليز في الحرب العظمى من نقل الجنود على نقالات تجرها البوارج فانظر كيف انقلبت الحال وزالت الدول وأصبح العزيز ذليلاً والمستقل محكوماً والغالب مقهوراً . وكان من جملة أسطول أحمد بن سعييد طراد اسمه « الرجاني » ذكرناه بين أسماء القطع البحرية وهو الذي كسر سلسلة كبيرة من الحديد وضعها الايرانيون في شط العرب لمنع اسطول عمان من دخول البصرة كما صنع المصريون عند بولاق لما دخلت مراكب الفرنسيين لدى حملة نابليون . وبعد أحمد تولى ابنه سعييد بطريق ولاية العهد لا بطريقة الانتخاب لأن الامامة في عمان من صدر الاسلام تقع دائماً بالانتخاب على حسب مذهب الخوارج والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة ومذهب الجماعة ولكن تحول الأمر بعد أن صار ملكاً عضواً الى مبايعة الوارث

الذي يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك في عمان أيضاً فبعد أحمد بن سعيد تولى ابنه سعيد في سنة ١١٩٤ .

## ٦

ويمكن القول بأن عهد الاحتلال الانجليزي والدسائس الاستعمارية الحديثة بدأ في عهد هذا الامير وعهد أخيه سلطان الذي نازعه فانه في سنة ١٧٩٨ عقدت معاهدة بين شركة الهند الانجليزية وبين سلطان على بعض مسائل تجارية ، كما هي عادة الانجليز تمسكنا فتمكنوا ، وتبعها معاهدة اخرى بينه وبين الانجليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ يحق للانجليز بموجبها أن تعين مقيماً في مسقط . وفي بحر هذه المائة سنة من ١٨٠٠ - ١٩٠٠ استولت انجلترا على البلاد بالحيلة أولاً ثم بالتجارة ثم بالقوة القاهرة .

فلما جاءت الحرب العظمى كان الخليج الفارسي حبيبها ونور عينها ومفتاح الهند في يدها من شماله الى جنوبه ، وكانت جميع مدنه وجزأره وسواحلها وامرائه وشيوخه خاضعين لها وقد امتد نفوذها الى شرق افريقيا وسواحلها ، وذلك كله بعد أن استتب لها الامر في الهند كلها ، فهي ورثت البورتغال ، ولكنها لم تحارب البورتغال ، بل تسلمت التركية الشرقية من الدولة الاسلامية التي تعينت وصياً على التركية وقامت باعباء تصفية التركية خبير قيام ، فطردت البورتغال وطردت العجم ، ونظفت الخليج الفارسي من الاجانب واستولت على زنجبار وشرق افريقيا ، وسلمت هذا كله لقمة سائغة الى انجلترا . ولم يكن بقاء هذا المقيم الانجليزي في مسقط عبثاً . فانه فنصل ووكيل سيامي ، وخبير بالامور ، يدرس الأحوال ويتمزج بالامراء والزعماء ويبيث العيون والارصاد ويوزع الاموال السرية وبالجملة يمهّد السبيل في رفق وهوادة الى أن تسنح فرصة الاستيلاء التام . فان سيرپرسى كوكس الذي عرف منذ عشر سنين بأنه مندوب سام في العراق لم يكن كما يظن بعض الناس غريباً عن العراق والعرب بل انه كان في سنة ١٩٠٢ وكيلا لبلاده في الخليج الفارسي . وهؤلاء الوكلاء يقبضون على زمام الامور بطريقة تشبه طريقة الساطان عبد الحميد فقد روى ثقة عن أحد الموظفين



في الوكالة السياسية بالبحرين انه كان يجيء الى الوكالة ويخرج منها كثير من الرسائل والبلاغات السرية وفي الدار منها ما يملأ بضعة صناديق ويدهش فخواها كثيرين، حتى رجال السياسة في لندن

وكان من بوادر وجود الوكيل السياسي الانجليزي في مسقط ان شركة الهند الانجليزية تمكنت من ارسال اسطول في ١٨٠٩ حارب بعض العرب بتهمة القرصنة . وفي سنة ١٨١١ استعان السيد سعيد بأصدقائه الانجليز فاعانوه على قلعة ديناس فأخذها . وعاد الانجليز بقيادة الجنرال كبير الى محاربة الذين وصفوهم بالقرصان وأعلمهم السيد سعيد لأنهم صاروا حلفاءه .

وسار السيد سعيد والسادة الانجليز لقتال عرب جعلان الذين تركوا الابضية وصاروا وشاوية فقهرهم عرب جعلان وتوفي السيد سعيد عقب هذه الهزيمة حوالي سنة ١٨٢٠

وما زال الانجليز يهجمون على حلفاءهم الى سنة ١٨٥٤ حيث احتل الانجليز بندر عباس وأراد السيد سعيد ( أخو المتوفي في سنة ١٨٢٠ ) أن يحارب العجم فمنعه الانجليز من اسرار جنوده في البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم لأنهم لا يسمحون بحركات حربية في الخليج الفارسي . وصارت انجلترا من ذلك التاريخ تصارع بحقيقة مقاصدها وهي انها لا تطيق أن ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلا واحداً ان لم يكن تحت رايتها .

ولما تولى السيد تويني حارب الوهابيين وجرى أسطولا عظيماً لفتح زنجبار فتحفز الانجليز له وحكموا بينه وبين حاكم زنجبار لورد كاننج حاكم الهند فقضى برجوع الاسطول ؛ وقتل تويني في فرشه وأتهم ابنه سالم بقتله ، ولكن الانجليز عصّدوا سالما وسلموه الملك ، وهو بطبيعة الحال أطوع وأضعف لأنه مدين بنجائه من عقوبة القتل ثم بالعرش الانجليزي فلا يمكن أن يخالفهم . وكان الانجليز قد ادخروا لوقت الشدة عم تويني هذا واسمه تركي واحتفظوا به أسيراً في الهند ، فلما لم ينالوا كل بغيتهم من سالم وامتصوه لحما وافظوه عظماً ، طردوه من الملك وولوا عمه الذي أحضروه من الهند فجاء من بمباي الى مسقط وتسلم زمام الأمور

وحصلت في ١٨٧٤ فتنة فتغلب عليها تركي بتعضيد الانجليز وصارت انجلترا صاحبة  
الحول والظول في الخليج الفارسي وعمان والبحرين ، تولى وتعزل وتنصر وتخذل من تشاء  
بغير حساب

كل ذلك في مدى أربع وسبعين سنة من ١٨٠٠ الى ١٨٧٤ وفي سنة ١٨٨٨  
توفي تركي وخلفه ولده فيصل بن تركي وذلك بموافقة انجلترا التي أصبح أمير مسقط لا يصدر  
إلا عن رأيها وكانت قد دخلت مصر منذ أربع سنوات وحصرت الشرق العربي بما فيه  
العراق وبين النهرين والبصرة بين مصر غربا والهند شرقا ومن ذلك التاريخ بل قبله  
بعشرات السنين كانت قد رسمت خطة الاستيلاء على الجناحين ، فلم يبق الا الاستيلاء على  
القلب وهو جزيرة العرب

وانني لا أشك مطلقا بل أثبت بادلة تاريخية لا تقبل الشك ان انجلترا كانت من  
أكثر من مائتي سنة تريد وضع يدها على مصر ثم طمعت في بلاد العرب كلها ووضعت  
لذلك منهجا دقيقا أول بندقية تجريد العرب وأهل الشرق الأوسط من السلاح وكانت تريد  
دخول الجزيرة من الجنوب الشرقي فاستولت على عدن و بوغاز باب المندب ولكن أمة اليمن  
الصالحين الأتقياء الشجعان وقفوا لها ومنعوا دخول الأجانب بلادهم ورضوا بتوحشهم  
وتأخرهم ورفضوا المدنية الخلابة البراقة التي وراءها السيف والمدفع وسلاسل الاسر الدائم .  
فلما خابت في الجنوب ورأت أمة اليمن يكونون جيشا ويدخلون مع دول أخرى اشراء الاسلحة  
هاجمت العرب من الخليج الفارسي كما شرحنا وقد استعمل الانجليز في تنفيذ سياستهم كل  
وسيلة وأنا أشيد بفضلهم على وطنهم لأنهم لا يدخرون رجلا ولا مالا ولا عقلا في سبيل عظمتهم  
الاستعمارية والضحايا نامون يغطون غطيطا أو يتمتعون بالمال والنساء وقد استفادوا بنص  
القرآن في تعدد الزوجات وهو مخالف لما يقصدون فصار الملك أو الأمير يعدد الزوجات بحجة  
ربط أوامر النسب والمصاهرة فساعدوا الانجليز بالفتن الشائمة في بيوتهم فتعددت الزوجات  
ونشأ عن ذلك ضغائن بين الاخوة ومنافسة بين الامهات أساسها تباغض الضرر الذي أراح

الذين هم أمم أوروبا حتى أن مؤرخاً انجليزياً قال لهم الحقيقة في كتابه «التاريخ القديم» وهو رولنيسون حيث يقول في ص ٢٧

« أن تعدد زوجات الملك يزيد في عدد السباهلة في البلاط ويقتضى بناء القصور المتعددة التي توجب نفقات طائلة ويقتل شعور الولاء والمحبة في الأسرة الواحدة شعور الأبوة والبنوة والاخاء ، ويفسد الاخلاق ويعلم النفاق ويضعف قوة البدن والروح ويبعث على الخيانة والترف ويمكن من النفوذ والسيادة في الاحكام طبقة من أخط الطبقات »  
وكل ما رأيناه في عمان وغير عمان من الفتن والقتل سببه نزاع بين الاخوة حتى ان الأخ يغتصب حق أخيه والولد يقتل والده ( كما وقع للأمر تويني من ولده سالم ) .

وكذلك يسعى الانجليز بوسائلهم المعروفة بتأجير قوم من العرب يضربون علي أرتارهم وينشرون الدعاية لهم ويلبسون ثياب الغش ويقولون عن أنفسهم بالباطل أنهم من مشكري العرب أو مصلحي الاسلام ولا هم لهم الا ترويح السياسة الأجنبية الاستعمارية .

وكما أن المسلمين كانوا يعدون في أيام قوتهم بلاد الافرنج بلاد حرب ويعلمون ذلك ويثبتونه في أحكامهم الشرعية والمدنية والجزائية ولا يزال هذا الأمر حتى هذه الساعة في كتبهم ، كذلك الدول الأوروبية الاستعمارية تعد جميع بلاد المسلمين بدون استثناء ممالك أعداء ، فهم يسعون بكل الوسائل الى منعهم من تسليح أنفسهم وسواء أكانت البلاد الاسلامية صديقة لأوروبا أو معادية لها فمحكوم عابها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلا يجوز لها أن تتسلح .

## ٧

وهذا الحكم نفسه جرى علي بلاد عمان .

فانه قبل الحرب العظمى بسنتين ( ١٩١٢ ) حاولت انجلترا تجريد أهل عمان من السلاح ، حتى تريحها من جهتهم ، ولأن ثغورهم كانت مشهورة بتجارة السلاح شهرتها بتجارة اللؤلؤ والتمر الاسود ، فأوعزت الى السيد تيمور أمير مسقط بجمع السلاح من أيدي الاهالي

وشددت عليه في ذلك وهي تعلم أنه لا يخرج من يدها ولا يخالف أمرها وقد سافر الى بلاد الانجليز مراراً وقابله الملك جورج واحتفى به ، ولأن تيموراً تربطه بالانجليز معاهدات كثيرة أشد من معاهدات الحماية . فلما حاول ذلك انتقض عليه الأهلون وابعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب وزحف الثوار الي مسقط وحصروا الأمير وكادوا يوقعون به لولا ان وردته نجدة انجليزية حفظت له حياته ودامت الثورة عامين واستقل الثأرون بالداخلية والجبل الأخضر وولوا عليهم اماما هو الرويحي وخالفه الخليلي ووقع تيمور بالساحل ومدنه ، وأخذت الداخلية في تدبير شؤونها وقد فاز أهلها باستبقاء أسلحتهم

هذه مملكة عمان التي كانت أقوى دولة بحرية في آسيا ، قد آل أمرها بتلاعب انجلترا واستسلام أمرها لهم الى سقوطها وصارت امارة صغيرة محمية لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً . ولا يقدر أميرها أن يأتي بأمر مهما كان تافها الا اذا أشار به المعتمد الانجليزي الذي غرس اقدامه من سنة ١٨٠٠ في مدينة مسقط .

فتزف هذه الحقيقة الى أولئك البسلة من أبناء جلدتنا الذين لا يزالون يحملون بأن انجلترا لا بد أن تؤسس لهم دولة عربية ولا سيما الذين ينادون اليوم بضرورة تأليف الخلف العربي . .

وأما زنجبار والمستعمرات التي كانت لعمان في شرق افريقيا فقد اقتسمتها انجلترا مع المانيا وايطاليا ولم يبق لسلطان زنجبار على بلاده الا الاسم وكان آخر امراء زنجبار برغش ابن سعيد المتوفي في سنة ١٨٨٨

وقد هدم الانجليز والالمان دولة زنجبار التي تأسست سنة ١٨٥٦ كما هدموا دولة عمان ودمروا أسطوليهما كما دمروا أسطول البحرين .

وقد هدموها حتى لا يبقى لهم معارض ولا منازع في استعمارها لأن كل دولة عربية عزيزة الجانب على جوانب الاوقيانوس الهندي هي قذى في أعينهم وخطر على الهند في نظرهم .

## ٨

ولا يقل تاريخ الانجليز في البحرين والمحرة والكويت غرابة واغتيالاً عما رأيناه في عمان فقد تدخلوا في شؤون البحرين في سنة ١٨٦٧ بسبب وقعة دامسة وكان حاكم البحرين الشيخ محمد بن خليفة وكان رجلاً ابله فقد تقرب اليه الانجليز بواسطة وكيلهم السياسي الذي جاءه من أبي شهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيا . ومن شروط المعاهدة أن يتنازل عن حقوقه في تجبيز الجنود البحرية والسفن الحربية وانجلترا ترد عنه كل غارة . فلما وقعت موقعة دامسة وسافر الشيخ محمد الى قطر ليظني الفتنة انتهم الوكيل السياسي الانجليزي هذه الفرصة وأمر باطلاق مدافع البارجة علي القلعة بالمنامة حتى هدمها وطاب الوكيل من على أخ محمد أن يتولى الامارة ففرح على بذلك وخان أخاه ولكن محمداً تربص به حتى تمكن من محاربتة وقتله ومات محمد بن خليفة في ١٣٠٧ متفقاً أو مهاجراً في مكة وتولى الشيخ عيسى وقد أحسن الظن بالانجليز خمساً وخمسين سنة فاذلوه وامتهنوه واتهموا حرمة ملكه المرة بعد المرة وذلك ثمن اخلاصه لهم بعد الذي رآه من فعلهم بعنه محمد بن خليفة وموافقته على المعاهدة السابقة بينهم وبين عمه التي قضت على أسطول البحرين ووكل الدفاع عن البلاد الى بريطانيا .

وكان الشيخ عيسى يخاص الانجليز ويخون سواهم فقد فاضه مدحت باشا في معاهدة الدولة العثمانية فأبى وسلم خطابه الى الانجليز وخاره الألمان في المعاهدة فأبى وأعطى مكابتهم الانجليز فيما اذا كافأه الانجليز ؟ شددوا عليه الخناق في سنة ١٣١١ وسلبوا منه امتيازات قضائية لرعاياهم وفي سنة ١٩٠٣ أنزل سيربرسي كوكس ( بعد ذلك بعشرين عاما المندوب السامي في العراق ) جنوداً انجليزية الى البر وطلب احراق بقية أسطول البحرين ، ونفى أحد الامراء الي الهند خمس سنين ، واختصت الوكالة الانجليزية بالفصل في دعاوى الاجانب كلهم . وفي سنة ١٩٢٣ عزل الانجليز الشيخ عيسى وولى ابنه الشيخ أحمد مكانه . هذه قصة البحرين من حكومة مستقلة ذات أسطول حربي الى حكومة بغير

أسطول ، الى حكومة يراقبها وكيل سياسي انجليزى الى حكومة تشارك في ادارة شؤونها الداخلية والخارجية حكومة انجلترا الى حكومة تعزل انجلترا أميرها وتولى سواه والأمة جامدة لا تحرك ساكنا . حتى حق الهجرة تأباه انجلترا على بعض أهل البحرين الذين يأبون الضيم والمذلة .

فانه بعد عزل الشيخ عيسى خشى أهل البحرين على قوميتهم ودينهم فكتبوا يريدون الهجرة :

« إذا حالت القوة النارية بيننا وبين الاحتفاظ بشريعتنا الاسلامية وكرامتنا القومية غادرنا الوطن » .

وقد باشرت بعض العشائر الهجرة فعلا .

فأجابهم الوكيل الانجليزي :

« ان دولة بريطانيا تساعد الشيخ حمد (خليفة عيسى) في كل عمل معقول يجريه لمنعكم من الهجرة فاذا أقدم أحد على الهجرة عوقب بمصادرة أمواله ، واسقاط ديونه على الأهل ، ومنع سفنه من الغوص . » .

وكل ذلك في سبيل اللؤلؤ والهند .

## ٩

## ١

لم يبق في قراء العربية في العشر السنوات الاولى من هذا القرن العشرين قارى لم يشغل وقته وفكره باخبار الكويت والمحيرة فكنت في عصر كل يوم تتناول الصحف فلا تجد الا اخبار الكويت ومبارك الصباح . وكان هؤلاء المكاتبين المأجورين يرسلون برسائل تملأها الاغراض الشخصية والمنافع المادية . فلم تكن تستبين الحق . ولم يفتن في مصر الا القليل من النبهاء الى أن وراء الستار ما وراءه فانه ما كان يصل اليها من الاخبار سوى تنف ، عن حوادث خطيرة تحدث في جزيرة العرب . فهؤلاء الأمراء وهم من علمنا خلقاً ونشأة وحباً للمال والشهوات قاموا يجلسون على العروش بعدل وبغير عدل ويقترفون الجرائم ويبددون الأموال وقد أخذنا هذين الرجلين نموذجاً لغيرهما من أمراء العرب كلمة كوت معناها بيت ومنها كوت الامارة الذي اشتهر في الحرب والكويت تصغير كوت وهو اسم لامارة في الخليج الفارسي لها عاصمة هو ثغرها . وعائلة الصباح التي حكمت الكويت أصلها من عرب خيبر حيث يكثر اليهود في التاريخ القديم وقد توطنوا في الكويت منذ مائتين وخمسين عاما . وقد نسج صباح رأس الاسرة خيوط الدسائس حتي تمكن من الامارة على كويت وكان الحكم شوري بين العشائر الى أن تولى صباح بن جابر ثالث أورابم هذه الاسرة . وقد تقلص ظل تلك الشوري تماماً في أيام ابنه مبارك الذي كان ظالماً مستبداً فهذه أسرة عربية اسلامية توصل مؤسسها الى الملك بحيلة وأخذ يعدل بين الناس هو واثنان من خلفائه الى أن فسد الجيل الثالث والرابع فوصل حكمهم الى الظلم والاستبداد والقتل وبيع الضمائر ودس الدسائس والعيش في جو من الفتنة والدنايا . وبدلاً من أن استتباب الأمر للأمراء يؤدي بدولتهم الى الترقى في سبيل المدنية والنظام والعدل ، ، تراهم يتأخرون وينحطون وتفسد مشاربهم وتندثر تقاليدهم ، ويجرون الى الفساد والهاوية تلك القبائل والعشائر التي

ملكتهم عايتها . حكم الفرد والغنى ، وعدم المسؤولية والميل الشرقى للاستبداد وتقاص ظل  
الفضيلة وعدم الوازع الديني والخلقي . والمحطاط دول الشرق والاسلام في أنحاء العالم قد  
تعاونت كل هذه العناصر على تسميم عقول هؤلاء الرؤساء وقضت عليهم . ولو أنهم وجدوا  
مثالا حسنا في تركيا أو في مصر أو في جزيرة العرب أو في شمال أفريقيا فلعلهم كانوا ينجحون  
من أنفسهم ومن الامم الاخرى ان لم يستحووا من الله ورسوله . فهذه نفوس فطرية تستعمل الحيلة  
في الحصول على السلطة وقد يكون منهم الذكي والشجاع والقائد المغوار والسياسي الداهية  
ولكن لا يكون منهم الحاكم العادل الرحيم ، فيستغلون الشعوب لمصالحهم ثم يستنجدون  
بالعدو الأجنبي على اخوتهم وأعمامهم وأبنائهم وعلى شعوبهم أنفسهم فضلا عن الامراء  
جيرانهم ثم يقعون في يد المعتصب أو المستعمر ويموتون مية المجرمين والجناة ، بعد أن يقضوا  
حياة خاصة مخزية في الشهوات والخمور وتبديد المال واعتلاء صهوة الاهواء والانفاس في كل  
رذيلة . أما الحياة العامة فهي عندهم الدسائس والقتل والتقرب من الدول القوية لتنفيذ المآرب  
الشخصية . أما الأمم ، التي وكلت اليهم شؤونها ؛ والتي كانت وديعة في أعناقهم ، أما حياة  
الشعوب ، أما الرعية التي هم مسؤولون عنها بوصف كونهم رعاة فعليها السلام والاكرام .  
وبعدهم الطوفان .

## ٢

كان مبارك الصباح الذي حكم الكويت أكثر من عشرين عاما شابا قويا ذكيا وقد  
ولد حوالي نصف القرن التاسع عشر واشتهر في شبابه بالشجاعة والفروسية ، وقد روينا فيما  
مضى من هذا الكتاب أنه في سنة سبعين المسيحية عند ما كانت حرب المانيا وفرنسا بالغة  
أقصى شدتها كان في جزيرة العرب حرب أخرى ولكن ليس بين دولتين متعاديتين مثل  
بروسيا وفرنسا ولكن بين أخوين هما عبد الله وسعود ولدا فيصل بن تركي بن عبد الله بن  
محمد بن سعود الكبير . وهذان الولدان هما من أعمام الملك عبد العزيز ملك الحجاز الحالي  
وقد كان له ثمانية أعمام . فلجأ عبد الله الى الدولة العثمانية وفاوض مدحت باشا الذي كان  
والي بغداد وعلما ان مدحت عين عبد الله قائما ما وانتهمز الفرصة وأرسل جيشا ففتح القطيف



والاحساء ، ولما رأى مشايخ الكويت جيش الدولة العثمانية انضموا اليه وتولى مبارك الذي كان شاباً جيشاً كبيراً من رجال العشائر وساعد على فتح الاحساء واعتبرت الدولة امارة الكويت موالية لها واعترفت الكويت بسيادة اسمية للدولة .

في سنة ١٣١٣ هـ توفي الشيخ عبد الله شيخ الكويت وخلفه أخوه محمد ، وكان له اخوان طامعان في الملك هما مبارك وجراح ولكن محمداً علم بتلك المنافسة فأراد ان يضعفها بضم أحد أخويه اليه فأشرك معه أخاه جراحاً في الحكم كما لو كان وزيراً أو وكيلاً، فهنا أخوة ثلاثة لم يكونوا من أم واحدة وقد ورثوا البغض من أمهاتهم وليس لهم ما يشغلهم عن التطلع للامارة كما هي الحال عند امراء اوروبا مثل الانشغال بأعمال البر أو طلب العلم أو اقتناء التحف أو السياحة في انحاء العالم . . . وقد رأوا بأعينهم أو سمعوا أن سلاطين آل عثمان يضطهدون اخوتهم وعمومتهم وأولياء عهودهم ، وقد يلجأون الى خلع بعضهم بعضاً ، ويسجن الساطان الجالس على العرش أخاه او عمه ان لم يدس له السم في الدسم أو يناوله فنجان القهوة المشهور ، وهؤلاء العرب محاربون بطبيعتهم قد يغدرون في سبيل السلطة وقد يخونون العهود أما الله والدين والعقيدة والذمة والشرف فقد وضعوها في « الخرج » من زمن طويل وهذا ما تراه مجسماً في حياة عائلة صباح المنكودة .

فاليك ثلاثة أخوة : محمد وجراح ومبارك

محمد أمير الكويت بالميراث . وقد أشرك جراحاً ليتقى شره وليأمن مغبة اتحاد جراح ومبارك ضده . وكان محمد ضعيفاً وكان جراح صاحب النفوذ الأكبر في الحكم وكان يحب المال ويدخره ويضن به على غيره .

كان مبارك طموحاً للمجد شديد البأس حديد الطبع ماضى العزيمة متهوراً متسرعاً في أعماله ، عصبي المزاج ، كثير التقلب فيه من أسد الغاب ومن الحرباء له طبع بدوي وذوق حضري يجعله يميل نارة للعزلة وطوراً للترف يحبه عدوه حيناً وحيناً يخشاه ، فيخاص له أولاً ويداريه ثانياً وصاحب مثل هذا الخلق يميل الى النعومة في العيش ميلاً للمغامرة في الحياة ،

فهو يحتاج الى المال لالايكته كما يفعل أخوه جراح ، بل لينفقه ويسرف فيه ويوجد به ولهذا كان محبوبا من العشائر يلتفون حوله ويقرون له بالزعامة .

ولكن محمداً الضعيف وجراحا البخيل لم يكونا من علماء النفس فلم يطاعا على خفايا عقله وقلبه .

لقد أراد مبارك ان يتسلى عن الملك بالغزوات فنزع اليها والتفت حوله العشائر فغدا في حاجة دائمة للمال لينفقه في الحروب ، وكان أخواه محمد والجراح يبغضان ذلك ، لاختشية تفوقه عليهما بل خوفا على المال الذي كان يطلبه دائما فكانا يضنان عليه بالنوال ويسيثان اليه وقد يسكان عنه حتي نفقة بيته وعياله فصر مبارك على ذلك صبرا جويلا وكان حتى هذه اللحظة عاقلا وبصيرا ، وكان صبره عليهما فضيلة ينبغي له ان يتمسك بها ليكون رجلا عظيما . وربما ظن مبارك أن أخويه محمداً وجراحاً لم يكونا عثرة في سبيل مجده الشخصي بل في سبيل عظمة الكويت فنقد صبره ، كما نند صبر مكبث ، وتحرك في نفسه شيطان الغدر والانتقام ، وتخيل نفسه ملكا على البلاد ، ولكن لاسبيل الى الملك الا بزوال محمد وجراح وهو عاجز عن اشهار الحرب عليهما .

## ٣

وأخيراً صحت عزيمة على الجريمة .

فمنض في ليلة من شهر ذي القعدة ، وهو من الأشهر الحرام ولكن السنة كانت سنة شوّم سنة ١٣١٣ للهجرة ، ومنض معه ولده ودخلا على الرجلين وهما نائمان محمد والجراح واستل مبارك ولده سيفيهما وذبح مبارك أخاه محمداً وأمر ابنه ان يذبح عمه جراحاً .

وعند الصباح ، صباح الجنائيتين ، لم يكن مبارك ولا ولده ، وان كانت الكويت قد ضجت لمقتل الرجلين . بل تمكن مبارك من اخضاع أهل الكويت فأذعنوا له اذعان الضعيف للتوي وفر أولاد الذبيحين الى البصرة فشكوا أمرهم الي واليها التركي الفريق حمدي باشا ، وعلم مبارك بمساعهما فسبقهما الي بغداد يلجأ الي واليها رجب باشا ، وكان رجب باشا

أعظم شأناً من حمدي وأعلي مقاماً ، ومبارك يعرف أخلاق الترك لاسيما أخلاق الولاية في البلاد العربية ، وهذه امور يحسن فيها التلميح دون التصريح ، فتمكن مبارك ويدها مخضبتان بالدماء من استمالة رجب اليه بواسطة بعض الرجال ، وبعض الهدايا طبعاً ، وكتب رجب الى القسطنطينية عاصمة الاسلام من ترك وعرب وعجم ، يقول «ان الحادث بسيط وهو من الحوادث العادية المألوفة بين البدو ، وخير للدولة ان لا تدخل في الأمر لئلا يؤدي ذلك الى تدخل الانجليز .. ولعله يشير من طرف خفي الى ان الانجليز يحمون مباركاً ، أو يشدون أزره مادام قد قتل وغاب وملك ، وهم دائماً يحبون هذا الصنف من الرجال لأنهم يملكون زمامه و يقدرون على الانتفاع به ويتهددونه دائماً بالقصاص لجرمته ، وهكذا كان شأنهم مع سالم بن تويني حين قتل أباه فأنهم جوه الى حين حتى امتصوه وأخذوا منه ما كانوا طامعين في أخذه ثم طردوه وجلبوا عمه الذي كان سجيناً عندهم في الهند وسلموه زمام الملك .

بيد أن الانجليز لم يكونوا غافلين ولم يكونوا نائمين ولم تكن أعينهم المبتوثة مغمضة ولا آذانهم المرهفة صماء فقد سمعوا بالخبر واهتموا بالأمر . وكذلك لم يقصر أولاد القتيلين وهما في البصرة ، عن الالتجاء الى قنصل إنجلترا في نفس الوقت الذي التجأوا فيه الى الوالي حمدي باشا . وهم معذرون ، لأن الموتور معذور ، وصاحب الدم يستنصر أياً كان في سبيل الانتقام . ولم يكن هؤلاء الأولاد من الدهاء السياسي والوطنية الحارة بحيث يهدرون دم والديهم ليقال عنهم انهم أهل شتم وابهاء فلم يلجأوا للأجانب . وكان القنصل الانجليزي في البصرة طويل الباع في الدسائس فنصر أولاد محمد وجراح على عمهم مبارك وسعى في سبيلهم وسبيل سياسة دولته في الخليج الفارسي سعيًا حثيثاً أرغم الدولة العثمانية على التخلي عن مبارك وتخييره بين عقوبات ثلاث تنطوي اثنتان منهما على النفي .

(١) اما ان يحضر مبارك الى اصطامبول ويقبل عضوية في مجلس شوري الدولة

(٢) واما ان يسافر الى بلد يختاره وترسل اليه الدولة معاشاً مدى الحياة

(٣) واذا عصى الأمرين فان الدولة تجرد جيشاً لمحاربهه .

قد تقول ان هذا ليس عقاب قاتل ، ولكنه في الحقيقة عقاب لأنه حرمان المجرم من ثمرة الجريمة وخلعه من العرش الذي طمع فيه واستولى عليه بالعدو والدم .

ولكن عزيمة مبارك لم تقف عند هذا الحد ، ولم يئأس من النجاة فاستجمع ارادته وقصد الوكيل السياسي الانجليزي في أبي شهر وهو يعد حاكم الخليج الأكبر .

وأنت ترى أن مباركاً يحب العلاء في كل شيء ، فقد قصد رجب باشا والى بغداد وخصومه لجأوا الى والى البصرة وعند ما لجأ خصومه الى قنصل البصرة لجأ هو الى الوكيل العام في الخليج الفارسي وهو أكبر شأنا من قنصل البصرة .

لقد انتصرت إنجلترا على يد قنصلها بالبصرة وأرغمت الدولة على الشروع في معاقبة مبارك . ولكن إنجلترا نفسها وجدت فرصة سانحة بالتجاء مباووك الى وكيلها في الخليج ، وهي مهمها أمران أن تخذل تركيا أمام العرب وترجع في كلمتها ، وأن يبقى على عرش الكويت رجل يكون لإنجلترا عايه يد كما قدمنا .

أوعزت إنجلترا الى تركيا ان تضغط على مبارك ، وتكشر له عن أنيابها حتى أيقن مبارك أنه فقد أسباب النجاة ، فالتجأ الى إنجلترا فلبت طلبه وأكرمته وغسلت يديه اللطختين بدماء أخويه وطيبت خاطره ، ولا يعلم الا الله ماذا جرى بين رئيس الخليج وبين مبارك ، ولعله ليس بأقل مما جرى بين مفستوفيليس وفوست الشهير . ضمنت له إنجلترا الحياة والملك ، وعاهدها على العبودية والولاء .

وعند ما وصل المركب الحربى العثماني الى الكويت يقل تقيب البصرة وبعض موظفي الدولة حاملين الأوامر المالي الهايوني وهم يصممون على تنفيذه جاء مركب حربى آخر ينقذ الشيخ مبارك ويطرد المركب العثماني من مياه الكويت

وكان هذا المركب الآخر يحمل راية « يونيون جك » وشعاره : فرقي يا بريطانيا

## ٢

وعاد الشيخ مبارك الى الكويت ونجا من خصومه في البر والبحر ، وتعاهد مع آل سعود على آل الرشيد وما زال ينصر آل سعود حتي أخذوا الرياض وقتلوا خصمه الألد عبد العزيز الرشيد ، فأخذ يرهق الرعية بالضرائب التي لم يسمع بمثلها في الشرق ولا في الغرب فشارك الأهالي بالثلمت فيما يملكون أو يبيعون أو يستأجرون وشيد القصور وفرشها بأفخر الأثاث والرياش وتمتع نفسه بأنواع الملاذ ، لاعب العشاير وغالبها وغازل الدولة العثمانية وأقسم لها يمين الولاء ثم انقلب عليها وعاهد الانجليز وأخلص لهم لينقذوه من أعدائه العرب والترك . قرب آل سعود ورقي عبد العزيز ملك الحجاز الحالي في قصوره ، ولكن لم يكن الحب خالصاً لله بل ليضرب بهم خصمه ابن الرشيد .

أظهر الحب للعجمان ثم حاربهم وأشعلهم ناراً على ابن سعود .

كان ككثيرين من الأشرار في هذه الدنيا سواء أ كانوا شعباً أو ملوكاً ، موقنين سعداء الحظ فلما عاد الى الكويت ظافراً وهو الخارج منها هائماً على وجهه ملطخاً بدماء أخويه ، سبقته شهرته بالنفوذ والغلبة والانتصار على سياسة الدولة العثمانية والاحتماء ببريطانيا . فان الانجليز كما لا يخفي على اللبيب عقدت معه حلفاً « انجلو كويتيا » خلاصته أن لا يكون للشيخ مبارك علاقة مع حكومة أجنبية سواها ، لأن البيون الخؤون غيور لا تحب لاحد من رجالها أن يغازل أخرى . والقلب لا يسع اثنتين ولو كان قلب مبارك أو خزعل . وتعهدت هي من ناحيتها أن تحميهم من كل اعتداء خارجي من البحر وليس لها في البرشأن فلا تتدخل في شؤون العشائر .

وغني عن البيان أن اندحار الترك ورجوع مركبهم بالوالي والموظفين والخط الهمايوني ، قد قطع علاقة الكويت بالدولة وعلم مبارك أن الترك قد « تقعوا الخط الهمايوني » وشربوا منقوعه قبل أن يصلوا الى شط العرب ، وربما احتفظوا بالسلمة والسؤر للصدر الاعظم ووزير الخارجية بالمايين والباب العالي .

و كانت هذه المعاهدة سنة ١٣١٣ التي كتبت حتماً بمداد أحر ، ليكون بينها وبين فعلة مبارك وجه شبه ولو في اللون ، مقدمة المعاهدة الكبرى التي حصلت عليها انجلترا في سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العظمى بعام واحد بين تركيا وبريطانيا . وفي تلك المعاهدة العامة تنازلت الدولة العثمانية رحمة الله عن سائر حقوقها في قطر والبحرين ومسقط وعمان لبريطانيا وأخذت على عاتقها ( مسكينة حامية حبي الامم الشرقية المستضعفة ! ) واجب إنارة الخليج وحراسته من الاعداء !! ( من هم ؟ )

امتد نفوذ مبارك الصباح الى البصرة والمحيرة وصارت له كلمة مسموعة في أبي شهر مقر الوكيل الانجليزي منقذه . ولكنه مع كل هذا النفوذ في الجزيرة والخليج وشط العرب وشاطئ فارس ومع توفيقه في الحرب والسياسة لم يكن موفقاً للخير فقد بني لنفسه قصوراً عدة ولم يبن لله سوى بيت واحد ، ولم يهتم بتعليم شعبه ولا صحة أبادانهم . ولم يفعل الا جمع المال وتبديده في ملاهيه وشهواته . ولم يخلص لاحد وعاش ومات في محرم سنة ١٣٣٤ والحرب العظمى في ضحاها ( ١٩١٥ ) .

## ٥

استغفر الله بل كان له صديق من نوعه أحبه حباً جاً صافياً هو الشيخ خزعل فبني له في الكويت قصراً ، كما بني له خزعل في المحيرة قصراً . لقد أعطاهما الله الملك فليتمتعاً به وتهلك الشعوب العربية وتسقط الدولة العثمانية وتنتشر خراطيم الاخطبوط البريطاني في كل مكان ! فليس هذا بضائرهما شيئاً قليلاً ولا كثيراً مادام الخوان ملائنا والذن عامراً والندامي يتقاذفون من كل فج عميق بصطحبون الغواني والراقصات من مصر والعراق والشام !!

وقد كانت بينهما رابطة أخرى وهي رابطة الاجرام فقد قتل خزعل أخاه كما ذبح مبارك أخويه .

ولما تبادل خزعل ومبارك القصور كما كانا يتبادلان الكؤوس كلما كانا يجتمعان

على ضفاف قارون أو على شاطئ الخليج ليقتضيا أياما وليالي بين أسراب من القيان والعازفات ويديران أقداح الطلى قبل أن تفاجئها كأس النون الدهاق . وقد سبق مبارك صديقه الى العالم الآخر . أما خزعل فلا يزال على قيد الحياة في أحد سجون طهران . وخزعل هذا واسمه الرسمي أطول من أسماء أمراء الاسبان سمو السردار أقدس معز السلطنة الشيخ خزعل خان ابن نصرت الملك الحاج جابر خان الجاسبي المحبسي الكعبي العامري أمير نويان وسردار عربستان الخ الخ .

وهو من أمراء العرب ولكنه يحكم ولاية فارسية . وكان غنياً وكان كريماً على الشعراء والغواني والندمان ، كآزه أحد أمراء البرامكة في عهد الرشيد . يحب اللهو والغناء ويميل الى الأدب والشعر ، ويجب أن يهاجر اليه الشعراء بتصاندهم السروقة أو المصطنعة فيجيزهم ويملا أفواههم دراً كما يملأ حقائب الغواني ذهباً وجوهرات . وكان شعاعه وهو في امارته « الدنيا بخذا فيرها الخفض والدعة » وقد قتل أخاه أيضاً كما قتل مبارك أخويه

لقد كان هذا الشيخ الخليع متفانياً في حب الجمال والفن ، كآزه أحد أعيان باريس في عهد الديكادنس ، أو أحد أمراء الأندلس الذين سبقوا سقوط بني سراج . كنت تنقصه شجاعة مبارك وسياسته ، ولكنه كان يحبه لتشابه بينهما في الدهاء والدس وحب الملدات روى الاستاذ امين الريحاني في كتاب ملوك العرب ج ٢ ص ١٧١ عنه ما يأتي :

« تجى المغنية من حلب أو الشام الى الحمرة وهي لا تملك الا خليخالها فتقيم عدة أشهر في القصر وتعود غنية مثقلة بالحلي . يجي الادباء والشعراء وفي جيوبهم قصائد اللديح فيعودون من الحمرة وفي جيوبهم أ كياس من المال » اه

وكان الرجل شيعياً ولكنه يحب أهل السنة ومسلما ويكرم النصارى واليهود والوثنيين ، ويقرب النسيس ويصادق المبشر ويستفيد من محادثة البنائين الاحرار . يعاقر بنت الحان ، ويلعب البوكر مع أصدقائه وضيوفه فان عزا ودا أولاده الى المائدة الخضراء الخمسة الاضلاع .

أما الشريعة السمحاء ، فهو يحبها وينفذ منها زواج المتعة وكان له في مقر ملكه ستون زوجة وهو قل أن يعرف أولاده وإذا نأواه أحد من مشايخ القبائل وخرج عليه وكانت للشيخ الثائر بنت صالحة للزواج زاره خزعل وشرفه بالمصاهرة فتبرد نار الفتنة وتجل محلها أفراح التعريس والزفاف . وكان الى سن الخامسة والستين يسافر من عاصمته في سبيل النكاح . وكانت علاقته مع ملوك الارض حسنة فجمع بواسطة السفراء والقناصل والوسطاء عشرات الاوسمة والنياشين من سلطان تركيا وشاه الفرس وملك الانجليز وبابا روما بنديكتوس الخامس عشر . ولكن أعظم نيشان كان يحمله في قلبه الاخضر الخصب وهو نيشان الغرام وشعاره

ادين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

هذا الشيخ الذي وصفناه ، وكان صديق شيخ الكويت الخاص وعند ما أعلنت الحرب العظمى وسعت الوفود اليهما ذاك يجذبهما الى الترك والامان وهذا الى الحلفاء ، والشيخان يعدان ويخلمان ويقولان ولا يصدقان ، ويتظاهران بالود للواحد في غيبة الآخر فإذا خلوا بهذا الآخر قال له اننا معك انما نحن مستهزئان وهما في كل دقة يجلبان المال ، ويخزنان التحف والهدايا ويظنان أن الأمر قد ينتهي بفوز النفاق بغير حاجة الى الطعام . يقول أحدهما اكتب للترك تفجعك عندهم ولا تضرك عند الانجليز ، ويقول الآخر ابتمم الليتشان وشكسبير ، أحسن معاشرة لورنس زعيمهم الكبير .

وما زال هكذا حتى تمكن الانجليز من هزيمة الترك في البصرة فاتهم اتخذوا الكويت مخزنا للذخائر والسلاح ، وأمروا خزعل باعداد جيش جرار قوامه عشرة آلاف جندي فقطعوا خط الرجعة على الانراك وداروا حولهم فاضطر الانراك للتقهقر وفاز الانجليز . وهكذا ضاع العراق على يدي هذين المجرمين الخائنين العابثين بحقوق الدول والشعوب .  
ولكن ربك المرصاد .

فان شيخ الكويت قضى غير مأسوف عليه في سنة ١٩١٥ ، اذ كان ريده ابن سعود



قديماً لتأديبه وهو الذي نشأ في بيته وكان يدعو قائلًا أنت ولدي . وعبد العزيز ابن سعود :  
يقول أي نعم يا والدي ولكن في أخلاق ابن سعود مالا يلتئم مع كل هذا الخبث والغدر العظيم .  
أما الشيخ خزعل فقد أسره الفرس بحيلة غريبة بعد أن استفحل شره وتحققوا من  
سدة لؤمه وكيده . فقد كان جلالة الشاه بهلوي خان وزيراً للحربية ، فأرسل الى خزعل هذا  
ضابطاً من الجيش الفارسي نزل في ضيافته وتودد اليه ووافقته على خطته في سروره ولذته .  
ثم دعاه الى نزهة بحرية في زورق جميل فلما أن بلغا الشاطئ الفارسي اتضت عليه شرذمة  
من الجند وقبضت عليه وساقته في سيارة الى أحد سجون طهران ووضعت حكومة الفرس  
يدها على الحمرة لانها ملكها واحدى ولاياتها . وصادروا أملاك الشيخ الخليلع الرقيق فلم  
ينفعه شعر الشعراء ولا عزف البيان . وتشفع الانجليز لدى دولة الفرس في شأن الشيخ فأبقتوا  
على حياته وهو لا يزال في طهران سجيناً .

لا تقول ان أمراء العرب كلهم من هذا القبيل ، فان بينهم رجالاً أشداء في الحق ،  
أمناء على اليهود أهل صدق ووفاء واخلاص ، محبين لوطانهم يذودون عنها ويتفانون في  
حمايتها والمحرص عليها وفي مقدمتهم الامام يحيى أمير اليمن . وكان أمراء مسقط وعمان  
في عهدهم الاول وقبل أن يدب بينهم ديب الشقاق وتفرقهم الطامع والاحقاد في أعلى ذروة  
من علو الهمة وصفاء النية وحب الاسلام

ولكن الكثرة الغالبة ولاسيما في العهد الاخير أخلاقها كأخلاق هذين الاميرين  
من أمراء دار التمثيل . اللذين يثيران البكاء حيناً وحيناً يثيران الضحك العميق . على  
أنهما لم يخلوا من الذكاء والشجاعة والاقدام وسعة الصدر رنباة الذكر وصفاء الفكر ولكن  
ما فائدة هذا كله ان كانت الارادة ضعيفة وحب الاستبداد متمكناً وظلم الشعب ديدنهما ويع  
الوطن داءاً دفيناً في فؤاديهما . بل ما فائدة المواهب اذا كان المال يعنى صاحبها ويصمه ويسهل  
له التفريط في حقوق البلاد ، وأي تقع يعود على العرب من كثرة الزواج وتبذير المال في  
بجالس المدح والشراب ، وملا حقائب أهل الخلاعة بالذهب والفضة ؟ ثم تكون لها هذه  
الخاتمة الخاسرة .

## ١٠

لقد بدأ البحث في المسائل الاجتماعية في مصر منذ ألف المرجوم قاسم امين كتابه في تحرير المرأة . لأن المرأة هي قوام الحياة الاجتماعية في كل بقعة وقطر . فللمرأة الإنجليزية اشتهرت بتدبير الدار والدأب على العمل في سبيل اسعاد الاسرة ، وتوفير وسائل الهناء حول الموقد والخوان ، والمرأة الفرنسية معروفة بذكائها وفطنتها وحضور بديهتها وحسن برتها والمبالغة في صنوف التجميل والزينة والمرأة الالمانية وفيه لزوجها تحبه الحب كله ، وتودعه كما تستقبله في كل صباح ومساء بدموع الفرح أو الاسى وهي بعد تجيد الطبخ وصنع الفطائر والمرققات وتحب الموسيقى وتشارك زوجها في حمل اعباء الحياة والمرأة البولونية لاتصلح لازواج بقدر ماتصلح للعشق فهي شديدة الشغف بالمغازلة والمرأة الروسية عاقلة عليمه صبور على الشدائد تعين زوجها وتساعدده واعجابها بالذكاء والشجاعة أعظم من اعجابها بالجمال أو بالقوة وقد كان لها أوفر نصيب في الثورات الروسية والاستقلال في سبيل الفكرة التي بها تحي ولاجلها تموت .

أما المرأة الشرقية ولاسيما المسلمة فيندر أن يكون لها مشاركة في أعمال الحياة الخارجية عن بيتها . ان اليابانية شاركت رجلها في الحرب والتجارة والسياسة والمرأة الهندية التي كانت خاملة قد نهضت في العشرين سنة الاخيرة وأخذت تعمل مع الرجل وذلك بفضل تعلمهن تعليما حديثا في اوروبا .

وكان منهن سيدات شواعر وخطيبات أعن غاندي وحلان محله عند اعتقاله في ثورة سنة ١٩٣٠ (١) . وكانت المرأة التركية ذات نصيب وافر في الثورة التركية ، فقد وصفت

(١) السيدة سارچو بني نايدر وقد رأيناها مع غاندي سبتمبر سنة ١٩٣١ على ظهر الباخرة بيور سييد

السيدة مارسيل تينير في كتابها « مذكرات سائحة في تركيا » باريس سنة ١٩١٠ مآراته من أعمال هؤلاء الهوانم اللواتى كن لا يعرفن قبل حركة الدستور سوى الحریم والطنافس وأوانى المسكرات والحوى فاذا هن قد اشتركن في الثورة اشترا كما فعلياً وكان هن فضل بذ كر . وكذلك المرأة الصرية منذ ظهور كتاب قاسم امين ، الذي هاجه خصومه من كل جانب ، قد خطت خطوات واسعة في التربية والتعليم وحاوالت رفع مستوى الحياة المصرية على المخطط الافرنجية .

و بعد ان كانت الكاتبة الفرنسية المرحومة زوجة حسين رشدي باشا الأولى تصف حياة المرأة المصرية العذبة في حالتى الزواج والطلاق في كتابها عن « الحریم » وعن المطلقات « ليريوديه » ١٩٠٤ و ١٩٠٨ وكانت السيدة جان ديشراى وهى سيدة من جنوب فرنسا وزوجة لطبيب مصري اسمه سليم فهمى نطعن على المصريين أشد الطعن في كتبها ، رأت الثانية منهن ؛ ولم تعش الأولى لترى ، الحركة الوطنية المصرية في ١٩١٩ فككتبت معجبة في مجلة باريس بعنوان « في مصر » تقول

« اننى قد أصبحت أشهد العجائب والغرائب في هذه البلاد ! ان مثلى ممن عرف مصر في عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد بعينه من تطور شأن المرأة المصرية في هذه الاعوام الاخيرة هذا التطور الاشد غرابة من كل ما حدث من أنواع الانقلاب في وادى النيل ان من كان يعرف تاريخ حياة المرأة المصرية ، حياة الالهمال والانتباع في كسر بيتها ، بمعزل عن أى شأن أشتم منه رائحة سياسية أو اجتماعية ليدهش دهشا كبيراً حيال ما قد حدث من التطور في هذه الأشهر الاخيرة فقد قامت في مصر مظاهرات كبرى في صيف العام الماضى (سنة ١٩١٩) فاحتشد النساء في القاهرة في مواكب جليلة فهرعت الجنود البريطانية للحال واصطفت نفاقاً من حول الموكب مصونة نحو النساء البنادق وفي رؤوسها الحراب المسددة اللامعة واذا هدد جندى سيلا لسرعان ما دارت اليه زائرة زائرة أنثى الأسد تحمي اشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به « اغرس أيها الجندى حربتك في صدرى فيعرف العالم ان هناك واحدة

من النساء أمثال الآنسة كافل « اه كلام زوجة الطبيب .

وقد حدثت هذه الحادثة في شهر ابريل سنة ١٩١٩ فان الساطة العسكرية كانت صرحت بمظاهرة نسوية ثم منعتها ومنشأها رغبة السيدات المصريات في تقديم احتجاج لقنصل الدول فلما صدر الأمر بمنعها أحاطت بالمظاهرة صفوف من الجند الانجليز الذين أخذوا يطاردون الجماهير في شوارع قصر العينى وشارع سعد زغلول وما حولها وقد حاصر الجنود هؤلى السيدات ومنعوهن عن التقدم نحو غايتهم ومن العودة الى منازلهن فتقدمت واحدة منهن وقد قيل انها السيدة استير ويصا ابنة المرحوم اخنوخ فانوس الذى كان أخطب الاقباط ، وأثبت محمد صبرى المؤرخ المصرى فى ص ٤٣ من كتابه « الثورة المصرية » أنها السيدة هدى هانم شعراوى . فقد تقدمت تلك السيدة وكشفت عن صدرها كما كانت تفعل احدى الرومانيات أو العربيات وقالت « اقتبنى ليكون فى العالم ميس كافل اخرى » وقد رأيت بنفسى هذه المظاهرة بصحبة قاض مصرى (الآن مستشار بالاستئناف) كانت زوجته بين هؤلاء السيدات ، وقد بقين ساعتين تحت وهج الشمس ولولا تدخل قنصل امريكا وقنصل ايطاليا اللذين لجأت اليهما صفية هانم زغلول ماتمكن السيدات من العودة الى منازلهن ، وأثبت المؤلف السالف الذكر أن فتاة مصرية خطبت بالفرنسية أمام حفل من الاجانب على شرفة فندق شبرد فقالت « اننى لن أزوج لثلا ألد ولداً يكون عبداً للانجليز » وأنا أرجح أن صاحبة الحادثة الاولى هي استير .

ورأينا عشرات المرات طوائف من النساء المصريات العاميات راكبات على مركبات النقل ، يظفن بالشوارع مهللات فرحات ، وحوطنن الأعلام الخافقة « كانت حملة وانشالت ياسيدا ! » يقصدن بذلك الى زوال الاحتلال الانجليزى وقد كانت هذه النداءات والتهنئات والاغانى صادرة عن اخلاص وسلامة فطرة فخرت فى نفوس كل من رآها أسمى العواطف واستمطرت الدموع من العيون . ولكنها كانت سابقة لاونها وأسفاه :

فحق للسيدة جان ديقراى ان تدهش مما لم تسكن تحلم به قبل اليوم .

## ٢

غير ان المرأة المصرية مزيج من المرأة العربية والمرأة المصرية والمرأة التركية، وهي سريعة الانفعال والتأثر وجديرة بأن تشعر بما شعرت به ابان الثورة المصرية وقد نابر بعضهم على العمل في صفوف المجاهدين في سبيل الاصلاح السياسى أو الاصلاح الاجتماعى . ولكن حب النفس والغيرة قد تؤثر في بعضهم فتختط كل منهن خطة تورثها الظهور والشهرة ولا تود ان تعمل هادئة في الصفوف، وذلك لمجرد شعورها بمكانتها أو ثروتها أو طيبة أرومتها فهي لا تريد ان تخضع لأحد ولا ان تسكون مرؤوسة لأحد .

ولكن الدور الذي مثلته المرأة المصرية في الثورة المصرية لم يغن شيئاً في ميدان المعترك الاجتماعى فحياة البيت المصرى لا تزال كما وصفنا والمرأة المصرية الغنية المتعلمة المتزوجة تنهب زوجها وتبدد ثروته في تجميل نفسها وتجميل منزلها لجعله علي النمط الاوروبى .

ولم تعمل واحدة منهن ماعلمته أم محمد على الهندي ولا ماعلمته مدام كما أو السيدة سارچوينى نايدو ولا ماقامت به السيدة خالدة أديب في النهضة التركية الحديثة .

وكان العهد الأخير على مصر عهد اسراف وتبذير وبلاء ولا سيما منذ تهتكت المرأة في لبس الثياب ورفع الحجاب وركبت رأسها بغير رقيب ولا حسيب ، وعذرهن وعذر من يدافع عنهن انما هو وجودنا في طور الانتقال أو التحول . ودور التحول هو بحكم الضرورة دور فساد في الآداب وانحطاط في الاخلاق وعبث بالدين مما قد يظنونه عرضاً يزول أو مرضاً يبرأ ولكنه في الحقيقة داء مزمن لا يشفى الا بكر الأعوام .

فكل من يرى المرأة المصرية ولا شغل لها الا زينتها وحليها وتجميل شخصها الفانى واعجابها بكواكب السماء ، وغشيانها أما كن الملاهى وسماع الغناء وترتيب الحفلات اليومية لشرب الشاي وتبادل الأفكار في مستحدث الأزياء ، ليرتاب في مستقبلها من حيث قبولها الاصلاح، وقد يثبت في نفس المفكر الحزين ان أظهر نتيجة لهذا الدور أو هذا التطور، البادى بالتواليات والمنتهى بقيادة السيارات ، هي تزلزل نظامنا القديم الكريم

الفأمة عليه حياتنا البيئية وعاداتنا الاجتماعية وتضعف المعتقدات الدينية وترزع حياتنا القومية فإن النظم العتيقة على ما بها من عيوب كانت مشتملة على فضائل جمة ، وانني وان ذكرت الدين فلا أقصد العبادات فحسب ، لأنه من المعلوم والمسلم به أن المرأة المصرية المسلمة لا تمارس شعائرها الدينية وربما كانت الصلاة أو الصيام موضع السخرية في نفسها

وانني لاتهمني اقامة الشعائر على ما فيها من الفضائل وتهذيب النفس وطهارة البدن والروح والنهي عن الفحشاء والمنكر بقدر ما يهمني أثر الدين في النفس من حيث المحافظة على الفضائل والأعراض ، والتعود على الزكاة والاحسان والقيام بأعمال البر والصدقة التي تقوم بها المرأة الاوروبية، التي يدعون انها غير متدينة ، والأراة المسلمة المصرية قبل ان يكتسح أخلاقها تيار ظواهر المدنية الجارف .. ان امهاتنا كن جاهلات ولم يكن يقرأن مؤلفات الفرنسيين والانجليز في القصص ، ولم يكن يتقن رقصة الشارستون ولم يدقن طعم الشعبانيا ولا الشاي الحديث ولم يتسامرن مع أصدقائهن أو أقربهن على دقائق الجازبند ولكنهن غرسن في نفوسنا بعض المبادئ الصالحة وحثننا بفضائلهن الصامته على طلب العلم والاستزادة من الاخلاق الطيبة وقد رأينا خطبة مولانا شوكت على وافية في هذا المعنى (١).

٣

وربما كانت المرأة المصرية معذورة في الخطة التي تسير عليها لأنها لا ترى أمامها قدوة حسنة لاني زوجها ولا في أبيها بعد ان انترض جيل أمها وجدتها . وكانت الصورة التي تراها من الأخلاق صورة بشعة مؤلمة . فان المصريين المستجدين تحت ستار النهضة الحديثة والتجدد واستقلال الفكر ، والشخصية البارزة وما إليها من الألفاظ والتعبيرات العقيمة قد قضوا على صفات الاحترام الماضي ، واكرام الكبار والشيوخ واعتبار الحكم والنصائح الصادرة عن المجر بين من الأهل والأقارب ، وبعد ان كان الوالدرب الأسرة وولي العترة ورئيس العشيرة وكانت كلمته فيها هي المطاعة وأمره النافذ المقضى وكان حارس مقامها

(١) التي القاها على لفيق من سيدات مصر في العام الماضي قبل ظهور فضائحه ومساعدته للاستعمار .

وراعى حرمتها كما هو مصدر رزقها فقد أصبح مجرداً من تلك الصفات وصار أصغر قرد من أفراد العيلة يعنى ان يستوى معه في كل شأن من الشؤون وينازعه السيادة في كل أمر من الأمور ، وقد روى لى والد أنه أصبح لا يستطيع ان يصدر لابنه الناشئ أمراً لأنه واثق من مخالفته ، وان أراد الولد طاعته لبقية احترام أو خوف ، تعضده الأم وتنصره على أيه فتفسد النظام وتحدث النفرة بين الوالد والولد التي تتلوها الهوة التي تفرق بينهما الى الأبد وما قضية البنت الا كقضية الواد في هذا السبيل . وقد صارت الفتاة في الثالثة عشرة مثل أمها في الثياب والزينة ، وربما كانت موضع سرها ومحل ائتمانها وكاتمة أمورها في شؤون لا يطلع الوالد عليها ، وقد صار الطلاب في المدارس في العقد الثاني من أعمارهم يعرفون من خفايا الحياة وأسرارها ما لم يكن ابن الأربعين يعرفه منذ خمسين عاماً ، فبعضهم يشرب الخمر ويلعب الميسر ، ويخاصر النساء وهو بعد لم يتم دراسته ولم يتخط دور العلم وقد رأيت بعيني رأسى والدأ وولده على شرفة فندق كنتننال وكلاهما من موظفي الحكومة وأحدهما برتبة الباشوية يعاقران الخمر ويغازلان غادة واحدة . فلما ذكرت ذلك لأحد أصدقائي ، قال لى ليسا وحيدين في هذا المجال وأمثالهما كثيرون ، وقد صار الولد والبنت كلاهما مرهقين لوالدهما في طلب المال للاتفاق منه لافى الثياب والمأكل والنزهة البريئة بل فيما لا يستطيع القلم تدوينه وتسطيره .

ولا أنكر ان بعض الآباء قد يشجعون هذا السلوك ، بتغاضيمهم أو رضاهم عنه رضى تاماً ، وقد يعرف عن بيته الانحراف عن جادة الاستقامة وهو صابر صامت اما الحاجة اقتصادية واما لبلادة في الخلق ، واما لضعف الارادة وانطباع نفوسهم على الذل والفساد وقد ترى رجلاً عظيماً مستقل الرأي يشغل منصباً كبيراً ويبدو للناس كالأسد في العرين أو كالنخلة العالية ، واذا هو في بيته كالقط أو كالكلب يبصص ويخنخع لمولاته وهي زوجة شابة تغلق عليه الباب من الخارج ولا تنبئه بموعد خروجها ولا عودتها . والأولاد بين هذا وذلك ضائعون ، وقد يكون الآخر ، أثناء تغيب زوجته غيبة شبه منقطعة قد ألف مجالس الشراب

والغزل ولا يعود الى منزله الا في مطلع الفجر فيلتقي هو وهي على عتبة الدار بمشهد من الجيران والاولاد والخدم .

وماذا تنتظر من أمة طلقت كل جليل جليل في ماضيها واتخذت أزياء الافرنج وأقشتمهم وأساليهم في معيشتهم ولم تسكتف بذلك بل جاوزته الى عادات شرب الخمر وادمان المخدرات والمقامرة وحفلات سباق الخيل التي يتزاحم فيها كبارنا وصغارنا كما لو كانت حفلات دينية أو وطنية وتنتشر الصحف صور بعض أعياننا وشباننا وتقول في وصفهم « هذا فلان بك وقد ربح بضع مئات من النقود وحوله ثلاث غوانى أوروبيات في حفلة السباق الفلانية » .  
 أى تحريض على القجور والنزق بعد هذا التمجيد والتخليد على صفحات الجرائد اليومية ؟  
 بيد أننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الاوربية كالاتحاد والناصره والتضحية وبذل المال في سبيل الخير ، وشد أزر المشروعات الوطنية وازدرينا ديننا وآدابنا القومية وتاريخنا وتقاليدنا ولم ندرس ماضينا ولم نطلع على صفحات حضارتنا ولم نبن ركناً جديداً كما كانت أوائلنا تبني ولم نفعل كالذي فعلوا . بل هدمنا وعشنا بين الأتقاض وسترنا أنفسنا باسمال من بضائع اوروبا وزينا أدمعتنا ببعض قشور من علومهم ولم نشيد لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً بدل الذي تهدم فأفسدنا حياتنا فساداً يبدو كآزه لاصلاح له . فوجب علينا إذن مداواة العلة قبل استفحالها وعلاج الداء قبل الاعضال

هل كان قاسم امين يحلم بكل هذا ؟ هل كان يتمنى ان تصل المرأة المصرية الى هذا الدرك من الانحطاط في سبيل السفور ، ان دعاة السفور الآن ليخجلون من دعوتهم . بعد ان جرت المرأة المصرية شوطاً بعيداً في ماهو عكس الحرية المقصودة . لقد كان قاسم رحمه الله يرمى الى تحرير عقلها من قيود الجهل ، وتحريرها من قيود الاسر المنزلى واسترجاع حقوقها التي شرعتها الشريعة المحمدية السمحاء ولم يكن يقصد الى الابتذال والتردى الذي صارت اليه المرأة المصرية بفهم الحرية المعكوس ..



## ٤

أما الأفتدى المصرى وهو الطبقة السائدة فى المدن ، فهو مثال محزن من الخليط  
الافرنجى والشرقى ، وتعليمه بحكم الضرورة عاجز عن ترشيده ، وقد قضى كرومر أربعين  
عاماً فى تعليم المصريين تعليماً يؤهلهم ليكونوا موظفين فى الحكومة وخداماً للانجليز وقد رأيت  
رجلاً صار فيما بعد وزيراً وكان إذ ذاك وكيلاً لحدى الوزارات ينتظر مستشار الداخلية فى  
محطة العاصمة فلما وصل المستشار أهوى الرجل على يده يريد تقبيلها ثم قبل يد زوجته ثم  
ذهب الرجل فى أمر اعداد المتاع للنقل ، فالتفت المستشار فلم يجده فناده بأعلى صوته  
« يافلان » فجاء المسكين يعدو ويشق صفوف الناس وهو يجأر : يس سير ! بالانجليزية .

وقد تمثل لى فى هذا المنظر ايس فقط الذل الذى وصل اليه المصرى ، وليس الثمن  
البخس الذى بيعت به الكرامة الشرقية ( ووكيل الوزارة هذا عالم فاضل ، وشاب نبيه ، ومن  
سلالة تركية عالية ) بل تمثل لى نجاح سياسة كرومر ودنلوب فى نصف قرن ، وقد بلغ من  
تركز المهابة الانجليزية فى قلوب هذه الطبقة من الحكام أن رجلاً شغل مناصب القضاء  
عشرات السنين ثم عين وزيراً لحدى الوزارات ، وحالما كان يباشر أعماله فى غرفته علم ان  
سير برونات مستشار العدل السابق فى مصر وعدوها اللدود الذى شبه الثورة المصرية  
بشراة نار تطفئها بصقة انجليزية ، قد وصل الى باب الوزارة ليزوره وكان برونات قد خرج  
من الحكومة المصرية من زمن وعين رئيساً لجامعة شنجاهاى وكان يسافر فى مصر سائحاً  
لأكثر ولا أقل ، وقد رأى من الجمالة أن يطوف بالوزارات ليتعرف الى وزراء العهد الجديد  
فلما علم المستوزر بمقدمه وقبل وصوله الى درج السلم الموصل الى غرفته نهض ولم يلاحظ ان  
مفتاح أحد الأدرج مشتبك بسلسلته الذهبية فانقطعت السلسلة وكان المستشار لم يصل بعد  
وبقى فى انتظاره بباب غرفته بضع دقائق ولم ينل من تحيته واستقباله غير قطع « الكتينة »  
الذهبية وقد روى لى هذه الحادثة كاتب سره وكل منهما لا يزال حياً يرزق .

طبعاً اننا لاننكر قيمة التعليم الاوروبى وقد استفدنا به أعظم الفوائد ، وأنا لآلتصور

ماذا تكون حالة أحدنا ان لم نتفقه بأدابهم ولم نقرأ كتبهم ولم نطلع على مجلاتهم ومحفهم .  
ولكن قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا تقوم بذلك أن التعليم  
مع كونه الدواء الشافي لامراض عديدة وكونه ضروريا لا يابد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعي  
الصحيح فانه اذا لم نحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تدبيره القسط الأكبر من الاجادة  
والاحكام انقلب بقوة فعله وعمله سماقاتلا تتولد منه جرائم الفساد والاضطراب لان شأنه  
أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ويهيج ضعاف الادمغة ويستثير مساريع الاطامع  
وبعدي الآمال مما لا يستطيع تحمته في الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط  
والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراماً .

## ٥

وقد كانت هذه خطة كرومر في التعليم في مصر وبقيتا عشرات السنين نصرخ ضد  
دنلوب وزير المعارف المقتنع ، ونحتج على سياسته ولا من يجيب ذراعنا وكان وزير يذهب  
وأخر يجي ، ودنلوب رابض في كرسيه لا يتزحزح كأنه ورثه عن أجداده الاسكتلنديين ومنحه  
الانجليز لقب دكتور على جهله وقد كان حقا دكتوراً في الاستعمار وخنق الآمال القومية  
وقتل اللغة العربية ودراسة الدين وفي عهده انقلبت المشيخة الى افندية بطرايش كالطراير  
وكانت لهم حياة مضخكة ومحزنة وهم يلتمنون دروس النحو والصرف والبيان والبديع وعادوا  
بعد بضع سنين يلبسون العلم والقفاطين فكانوا كالغربان في تقليد الطاووس .

وعلى الرغم من كل جهود الانجليز ونجاحهم في صبغنا بالصبغة الافرنجية مع نقص  
التعليم وحقارة شأنه وقلة العلوم التي تلقيناها واختصار المناهج وتلقينا التاريخ والجغرافيا  
والرياضيات والطبيعات بالانجليزية ولم يكن ينقصهم الا ان يعلمونا اللغة العربية بالانجليزية ،  
على الرغم من هذا لم يفوزوا بتأربهم فقد تعلق بعضنا بالمثل الأعلى وتعلمنا اللغة الانجليزية  
لزياة ثقافتنا وقد لمح كرومر من خلال الرماد وميض نار فعاد يقول في تقاريره انه يرتاب  
شديد الارتياب في شأن المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية ، والحقيقة ان المستعمرين بعد

ان رأوا في الحى رجلا أمثال مصطفى كامل وقاسم امين بدأوا يعززون السبب في انتشار روح المقاومة للاستعمار، الى التعليم الذى جاءوا بمناهجه وأساليبه وكان أول البادئين بهذا لورد ما كولى ثم كرومر وغيرهما من رجال السياسة فأخذوا يحدرون حكوماتهم من اتقان التعليم في المستعمرات بحجة ان الغالب على الناشئين هو النزوع الى الثورة اذ كانوا يقرأون أموراً تسمى عقولهم هضمها ويقسسون أقيسة فاسدة فيتعبون ويتعبون فهم يرغبون قلع العلوم الشرقية من بين الشرقيين ولكنهم يضمنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية لثلاثياً بها نفوس هذه الامم اذ يعلمون انه لا يجتمع العلم والمثل في محيط واحد سواء كان علماً شرعياً اسلامياً أو علماً اوروبياً عصرياً أو علماً جامعاً بين الامرين .

## ١١

١

يوجد شبه شديد بين الرومان والانجليز في طريقة استيلائهم على ممالك الشرق . وذلك في عدم مقاومة الممالك التي استولى عليها الرومان في اوروبا وآسيا . فان الشعوب التي هاجتها روما كانت بحال من الضعف والاستسلام لا يمكنها من المقاومة لأنها قضت قرونا عديدة في الجهاد في سبيل الاستقلال وقد فشلت وما لقيت بعد الجهاد والعناد الا الظلم والاستبداد والضييق . فجاءت رومه والبلاد المفتوحة منهوكة القوى فاستولت عليها بدون مقاومة . هل كان هذا من حسن حظ الرومان أو من بعد نظرهم وترقبهم الفرص لانهازها . ولم تكن رومة في حاجة الى استخدام عدد كبير من جنود الاحتلال بل كان عدد تلك الجنود بمثابة قطرة الماء في المحيط

وما أشبه حظ الانجليز في الهند بحظ روما في فتوحها القديمة فان الانجليز استولوا على الهند بسهولة تامة بعد الدولة الموغولية ولم يستخدم الانجليز في الهند الا بضع عشرات الالوف في بلاد أهلها يعدون بمئات الملايين . في حين ان هؤلاء الانجليز أنفسهم احتاجوا الى ٤٥٠ ألف عسكري لتهدئة جمهورية البوير في أوائل هذا القرن في جنوب افريقيا . وهم لم يجندوا خمس هذا العدد في القضاء على ثورة الهند التي قامت في سنة ١٨٥٧ .

وقد أسس الانجليز شركة في ١٦٠٠ وطلبوا من دولة الموغول في ذل وخضوع أن تمنحهم بعض الامتيازات الاجنبية اسوة بالبرتغال والهولانديين الذين سبقوهم فتحوا تلك الامتيازات في الربع الأول من القرن السابع عشر والى أوائل القرن الثامن عشر لم يفكر الانجليز في الفتوح لقوة دولة الموغول في نظرهم ولكن موت الملك أوزنجرب أدى الى انحلال الدولة وانقسام البلاد وظهور امراء الطوائف والدويلات الصغيرة فاستقل كل أمير وكل راجا وكل نواب بمسلكته فجاء دوبلكس الفرنسي الى الهند واحتل بونديتشرى وتلاه كليف ووارين هستنجز

وكورنواليس وولزلي من قادة الانجليز واختصموا مع الفرنسيين في الشرق كما اختصموا معهم في الغرب وقد استولى الانجليز على الهند بسكون وهدوء وبغير مقاومة وكان ذلك مقدمة لتأسيس امبراطوريتهم العظيمة التي تمتد على جميع بلاد الهند والسند والبنغال وبرمانيا وسيلان وتبلغ مياه المحيط الهندي جنوبا وجبال هيمالايا ونهر الاندوس شمالا.

## ٢

لقد قامت في الشرق فتوح متعاقبة من الشرقيين أنفسهم وأشهرها في التاريخ فتوح العرب ثم فتوح الموغول ثم فتوح الترك وفي العهد الأخير بعض فتوح الجنس الاصفر (اليابان والصين) أما فتوح العرب فليس هذا مجالها لأنها مقترنة بفتوح الاسلام ولا يتسع المجال لبيان ملخصها وهي معروفة للجميع ، وقد تخللت هذا الكتاب نبذة عنها واشتهرت تلك الفتوح سواء أكانت في الشرق الأدنى أو الأوسط أو الأقصى بالرحمة والعدل ونشر العلوم والمعارف والتعاون مع الشعوب المغلوبة في سبيل الحياة والمدنية وحيثما حل الاسلام كان قوة ممدنة مهذبة معينة .

اما فتوح الموغول فكانت بلاء على الامم التي غلبتها فان هذه القبائل المتوحشة أو تلك الجماعات من الشياطين في شكل البشر لم يعرفوا الانسانية حتى يروعها ولم يفهموا العدل أو العلم حتى يعدلوا ويعلموا . ولا تزال أسماء جنسكيز خان وتيمورلنك الأعرج وهولاكو تحمل الرعب في ثنايا احرفها حتى لدى كتابتها أو قراءتها - فان هؤلاء الاشرار الذين ذكرنا بعض أخبارهم قد كرهوا العلم واحتقروه الى درجة انهم في تركستان قصدوا الى مدينة بخارى التي كانت مشهورة بمكاتبها وثقافتها العلمية والدينية ومنها البخارى صاحب الحديث المشهور فقد نزل الموغول بالبلد فذبجوا رجالها وأسروا نساءها وأطفالها ( قتلوا الرجال واستيقموا النساء لما ربهن) واحرقوا المدينة بكل ما فيها من ثروة وعلم وجعلوا الكتب القيمة وكلها مخطوطة طلعاما للنار

اما فتوح الترك فلم تكن من قبيل هذا الفتح وكان للترك كرامة ودين وعقل وان

لم تكن لديهم مدينة عريقة فهم ان فتحوا لا يحرقون المدن ولا يبيدون الشعوب ولا يسلون الكتب طعاماً للنار .

ولكن أهل الجنس الاصفر لا يقولون في القسوة عن الموغول وان كانوا متمدين فهذه اليابان تذيب شعب كوريا منذ أوائل هذا القرن الى الآن صنوف العذاب وتسقيهم أوانام من الظلم مع انهم جيران وأبناء عمومة وبينهم وبينهم خليج ضيق من الماء ولكن أحد الكتائبين في الاستعمار الياباني شبه كوريا بإيرلاندا بالنسبة لليابان التي هي شبيهة بالدولة البريطانية . وكما ان إنجلترا ظلمت إيرلاندا سبعمائة سنة وهي اوروية مسيحية وجارة مستأمنة كذلك لا يستغرب سلوك اليابان في كوريا .

أما الصين التي صارت جمهورية والتي أذلتها اليابان في ١٨٩٥ وحاربتها اوروبا وقهرتها مرات عدة فقد استولت على تركستان الشرقية وهي بلاد اسلامية واستعمرتها وعدد سكانها لا يقل عن عشرة ملايين وهي تحكمها الآن بحاكم مستبد مطلق وصفه السيد منصور خان أحد أبناء تلك البلاد وقد جاء مصر أخيراً لنشر الدعوة لوطنه ، بأنه أشبه الحاكم بالبر وقنصل الروماني الذي كان حاكماً بأمره مفوضاً له كل شئ في البلاد المحكومة

## ٣

لقد كان الاستعمار الاوروبي تأثير شديد في تطور الشعوب الشرقية عامة وفي العالم الاسلامي خاصة ، ولكن هذا الاستعمار الاوروبي وحده لم يكن العامل الحقيقي في ذلك التطور بل ان الشعوب الاسلامية بدأت تفعل وتتأثر منذ خمسين عاماً بحكم مؤثرات ذاتية قائمة بامزجتها وتكوينها ومعتقداتها ، كأن الاسلام يحمل في ثناياه نظام الاندثار والتجدد الذي يجعله قريب الشبه من الكائنات الحية . فخلايا الجسد البشري تجمها ويموت في كل لحظة والكائن مع ذلك يتجدد ويتقوى وينمو ولولا تلك العملية الفيزيولوجية لوقفت حركة الحياة . وكذلك في الاسلام قد تندثر بعض الدول أو بعض الانظمة ويموت بعض الزعماء ، وتنطوى صحف نهضة من النهضات ولكن الحياة لا تنقطع والجسم لا يموت . وقد

كانت صدمة الاستعمار الذي بدأ بشدة متناهية منذ خمسين عاما حتى أيقظت تلك الامم التي مضت عليها أجيال طويلة في سبات عميق . فلما نهض الاسلام والشرق كجبار عظيم أصابته لطمة قوية أخذ يزحف على يديه وقدميه ، ويرفع رأسه رويداً ، وينحني ليقف ويتحضر ليهجم ، وهو في نفس الوقت مأخوذ بشدة الضربة ، في رأسه دوار ، وفي جسمه ألم وفي ذهنه خبال ودهشة ولكنه ناهض لا محالة وقد أحسن سيرفالتين تشير ول وصف هذه الحالة حيث يقول :

« أمواج وغمار تتلاطم وتتسكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وأراء وأفكار غريبة تتدفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت أجيال طوال فبعض يأخذ ولا يحسن الإخذ وبعض يعرض ويأمن وعقائد تنبدد ثم تعود فتجينا ونظم صناعية مضطربة ومناهج تعليم وتهذيب غير متمسكة ومبادئ غريبة في أفق الإدارة والتدبير والفضاء تنتشر في مجتمع متنافر الوحدات وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارتها على الحالة الاولى من السذاجة وتصادم عنيف مستمر لا بد منه بين أقوام السكان والحكام الغرباء وحروب مستديمة الاتقاد ، وبعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقي جبار في الشرق الأقصى »

وقال كاتب فرنسوى « الحق أن الشرق على العموم والعالم الاسلامي على الخصوص لقي دور من الانتقال عظيم ، يجوز الشرق اليوم برزخا فيه يعارك الماضي الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

وعند ما خطب شوكت علي في جمعية الشبان المسلمين ووصف حالته هو وأخيه لدي عودتهما من جامعة اكسفورد أشار الى هذا التناقض في الحياة الشرقية التي غمرها الاستعمار الغربي فكنت ترى بعين الخيال قصورا هندية تشبه في طرازها تلك الهياكل البديعة التي وصل في اتقانها الفن الموغولي والفن الاسلامي الي أعلى درجات الكمال

وقد زينتها الامتعة المجلوبة من محل مايل وشركاه ببلاد الانجليز ، فنبذ الشرقي مدنيته وأخذ باحتر مالدي أوروبا من مظاهر حضارتها وأصبح في عقله خليط من عناصر فتاكة بعضها موروث وبعضها محبوب فأورثه ذلك التناقض اضطرابا وخللاً .

## ٤

وكان هؤلاء المستعمرين الاوربيين قد درسوا سياسة ما كيايلى ومبادئه التي دونها في كتاب الامير ، فقد اخضعوا بعض بلادنا الشرقية بالقوة العسكرية كما صنعت فرنسا في الجزائر ومرا كش باتحادها مع اسبانيا بعد الحرب العظمى وكما صنعت ايطاليا في طرابلس وروسيا في اواسط اسيا وانجلترا في مصر ، وفرنسا في سوريا وبريطانيا في العراق وكذلك تم بعض الفتح بواسطة الطرائق الاقتصادية وهو ما يطلقون عليه وصف الفتح السلمي بأن تقبض بعض دول أوروبا على خناق بلاد شرقية مستقلة ، برؤس الاموال الأجنبية ، ومتى تمت عملية الخنق أخذت السيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً وقد حدث هذا في بلاد العجم وفي مصر عهد اسماعيل ، واستمر بعد الفتح العربي في سنة ١٨٨٢ وكانت أوروبا في كتمان الحاليتين تقضي على الحكومة الاهلية المستبدة القليلة الحول والطول وتقيم مقامها حكومة استعمارية منيعة الجانب شاكية السلاح شديدة الشكيمة فتثبت النظام الظاهر وتبدأ الدولة القائمة تستدر الخيرات وتبتزها .

وهذه هي الخطة التي سلكتها فرنسا في الجزائر ثم رأت فشلها ، فنشأت العداوات في قلوب أهل الجزائر بعد أن تشدت شمل أسرة الداى وهاجر هو وأهله الى مصر حيث مات ودفن في الاسكندرية وعاشت بناته من بعده عيشة اليم والمذلة ، وقد عرفنا أحد احفاده الذي روى لنا تفصيل هجرة الاسرة وما صادفته من صنوف الهوان بعد فقد ملكها وثورتها . وبعد أن انتهت مقاومة الامير عبد القادر الجزائري الذي كتب بسيفه صحيفة من أنصع صحف الجهاد الوطني . فلم يبق في الجزائر قلب واحد يجب فرنسا أو يحترمها أو يصدقها ، وهي من جانبها لم تعمل على ترقية الشعب أو تمدينه فلم ينبغ منهم حتي الساعة عالم ولا طيب ولا رياضي ولا فلسكى مع أنهم شعب يزيدون عن عدد سكان هولاندا وبلادهم من أغني وأجل بلاد أفريقيا . فهض علماء السياسة الاستعمارية في فرنسا وأعادوا النظر في كتاب ما كيايلى وأشاروا على حكومتهم بتغيير خطتها ولم يكن ذلك ممكنا في بلاد الجزائر التي كان قد مضى



على فتحها خمسون عاماً فأروا أن يأخذوا بلاداً أخرى لينفذوا فيها تجربتهم الجديدة ، وكان القطر التونسي أمامهم لا يزال مستقلاً تحت حكم الباي ، وكان الوزير خير الدين باشا عائداً من أوروبا بأفكار الإصلاح ومشروعات الحياة النيابية التي بدأ في تنفيذها . فأدركت فرنسا أن انتقال تونس من القديم الى الجديد على يد حكومتها الوطنية قد يجعل الاحتلال صعباً في المستقبل ان لم يكن مستحيلاً فدعمتها قبل احتلال إنجلترا لمصر بسنة أو سنتين وطبقت فيها خطة سياستها الجديدة واليك ما كتبه هانوتو الذي كان وزير الخارجية في ذلك الحين عن تونس !

« قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد بدون جلبه ولا ضوضاء نريده  
القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والحفاظة على مركز الباي وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التدخل في شؤون البلاد والقبض على أزمته بدون شعور من أهلها ( كذا )

« تم هذا الانقلاب بسرعة واين فلم يتألم منه الاهلون ولم ينخدش له احساساتهم اذ البثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها وتركت أزمة الاحكام بايدي القواد والقضاة ولم يغير شئ من القوانين الاهلية الا يرضى وتصديق من الاهالي وربما كان يطلب منهم وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهذا المسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين وجملة القول أن انقلاباً عظيماً حصل بدون أن يجر وراءه ألماً أو توجعاً أو شكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان الحمدي واقتربت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقتراناً لم تغشه سحابة كدر

« اذا يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انقصم الجبل بينه وبين البلاد

الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض ، اذا توجد أرض ثقلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الايوي ( يقصد الاسلام ) أرض نشأت فيها نشأة جديدة نبتت في قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها، أرض يصبح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ونموذجاً ينسج على منواله الا وهي البلاد التونسية « اه كلام هاتوتو

## ٥

كتب هذا المقال في مايو سنة ١٩٠٠ ولم يمض على دخول فرنسا في تونس عشر سنوات ، وعلى دخول إنجلترا مصر ثمانى سنوات . وكان كرومر قد سبق الفرنسيين الى تطبيق هذه السياسة ، ويكفي أنهم دخلوا مصر وضربوها بالمدافع وخرّبوا حصونها وقتلوا جيشها بدعوى أنهم يدافعون عن عرش الخديوي، فن المعقول والمتنظر أنهم سيحافظون عليه لدى الدخول أشد المحافظة وما زالت هذه محبتهم للتفريق بين الشعب والحاكم من جهة ولتبرير مركزهم أمام الدول ، وان لم يكونوا في حاجة لذلك لانهم في الاعتصاب سواء ، الى أن خلعوا ذلك الخديوي نفسه في سنة ١٩١٤ وحينئذ ابدعوا حجة المواصلات الامبراطورية ، وما زالوا يترقون بها الى أن أعلن شميرلين زواج مصر ببريطانيا في خطبة برلمانية رنانة فقال « لقد أراد الله أن يتزوج هذان القطران ، ولا يفرق البشر بين من جمعهم الله !! »

ولكن ماذا كانت نتيجة حكم فرنسا في تونس وانجلترا في مصر هل فصم الجبل حقاً الذي يربطنا بالامم الاسلامية ؟ وهل محى من ذهننا ذلك الماضي الاسلامي الذي يمتنون وهل انطلت حيلة المستعمرين علينا فالتخدعنا لهم ؟ ان جهاد تونس في سبيل استقلالها معلوم ، والحركة الوطنية قد قامت في سنة ١٩٢٠ ، وهي الآن على أشدها يقودها رئيس الحزب الوطني التونسي السيد محمد محيي الدين القايلي ، وليس في تونس رجل واحد يخلص للحكم الاجنبي الا اذا كان يهودياً أو خائناً لوطنه أما نتيجة الحكم البريطاني في مصر فقد ظهرت في حادثتين الاولى حادثة دنشواي التي انتهت بخروج كرومر من مصر في مايو سنة ١٩٠٧ ملوماً محسوراً ، والثانية حادثة الثورة الكبرى التي شبت نارها في ١٩١٩ .

وسواء أكان في فرنسا أم في إنجلترا فقد أجمع سياسة القرن العشرين من المستعمرين على مادونه كرومر في كتابه عن حكم إنجلترا في مصر من ١٨٨٢-١٩٠٧ مجلدان (ظهورا في سنة ١٩٠٨) فقد وصف خطط الاستعمار الحديث بقوله .

« يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة ويجب أن تكون أصول أحكامنا التي هي الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكنا من حيث الاعتبار السياسي والاقتصادي والأدبي قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة والنقص هذا هو حجر الزاوية في بناء الامبراطورية . ان المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جليا في حسن التصرف بما في أيدي هذه الامبراطورية من القوى فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء وابتنا وجوهنا شطر المستقبل رفيعي الجباه لا نخشى أن يعرفونا ما عرا الامبراطورية الرومانية من قبل من الفساد والدخل وان لم نستطع فكنا فيه من الجهلاء الاغبياء فقد استحققت الامبراطورية البريطانية الانمييار من عل ولسرعان ماتتناثر حلقاتها وتبدد بعد الاجتماع »

وظاهر من كلام هذا الرجل المسمى باللورد كرومر انه ينسج على منوال هانوتو الذي سبقه الى ذلك بسبع سنين ، ويتميز عليه بأن هانوتو كان وزير الخارجية ولم ينفذ سياسته بشخصه في تونس ، ولكن كرومر نفذها بنفسه ورأى ثمارها في مصر ، ومن الجلي انه لم ينصح بالرفق والحكمة والالفة لخدمة الشعوب المحكومة ، ولا لاستدراار خيراتها ، وهو شئ مضمون ولكن خوفاً على كيان الامبراطورية من التزعزع فقد اخذ الناس يلهجون في بداية القرن العشرين بقرب زوال الامبراطورية بعد حرب الترنسفال ، وأخذوا يقارنون بينها وبين امبراطورية الرومان ولما كان كرومر أحصف وأقدر حكامهم وكانت عقليته تشبه عقلية بروقنصول روماني ، لا ينقصه الا الخوذة والبلطة والظيلسان والفولاذ ، وما اليها من مظاهر الأبهة والسلطة ، فقد رأى أن يتفضل على العالم بنصائحه ، ليقال انه أول بان في أركان تلك الامبراطورية البريطانية ، ومنقذها العظيم الذي رسم لها خطة النجاة من الوقوع في الخطر

الذي وقع فيه أسلافها العظماء الذين نشأوا على ضفاف نهر طيبر

ولكن كرومر لم يحسب حساب دنشواى التى اهرق فيها دماء الفلاحين ، ولم يحسب حساب الحرب العظمى ، ولم يحسب حساب نهضة الشرق والاسلام التى نرى مظاهرها في كل قطر وأمة . ففضى بحسرة سقطته عن عرشه الوهمي ، وعاش بعد خروجه من مصر عشر سنوات تجرع في أثنائها كؤوس الندم على ماجنت يدها في تلك القرية الصغيرة ، ورأى بعينه بداية الانحلال الذى أخذ يدب في عناصر الدولة البريطانية وها هم رجال كان يحسبهم لعهد صعاليك أو فاليك من شعراء السياسة وأرباب الاحلام يتولون السلطة العليا في جميع أقطار اوروبا ، فلشد ما كانت رجعية كرومر ، عند ما ظن أن عهد روما سوف يعود وان انجلترا المسيحية المتحضرة ستكون وارثة ذلك الصولجان الوثني الغشوم .

٦

ولواننا تمسينا مع كرومر ، الذى أراد لورد لويد أن ينسج على منواله في مصر ، وأخذ يتمشdq بذكره ، وانتحل سياسته « فاصوخة » وتيمية وحجابا ، فكانت عاقبته السقوط والفشل من جراء سياسته نفسها ، لواننا تمسينا مع فلسفته الاستعمارية وصدقناه طرفة عين وقسنا عمله بعمله ، ونظرياته بتنفيذه كانت النتيجة بالمثل السائر « اقرأ تفرح ، جرب تحزن ! » فان عهد كرومر كان عهد استئثار واستبداد وقسوة وانذار للشخصية المصرية ، وفي أثنائه ورد تلغراف جرانفيل الذى يؤذن بخضوع الرئيس المصرى للمرؤوس الانجليزى . وكان الجفاء على أشده بين الحاكم والمحكوم ، فكان نادي تيرف كلوب ، أشبه الاشياء في القاهرة الحديثة بجبل أولب عند اليونان القدماء مهبط الآلهة ومسرحهم ، وكان الانجليز يعيشون في مصر عيشة الارباب في البلاد القديمة وكانت علاقة الاساتذة الانجليز الذين كان يحشدهم دنلوب من شوارع لندن وابردين ، بتلاميذهم المصريين علاقة السيد الأمر المطاع المتعجرف بالعبد الخاضع الذليل . وقد ذقنا نحن وعشرات ألوف التلاميذ مرارة هذه المعاملة في المدارس الثانوية والعالية ولم نر قط اجتماعا يلم شمل المصريين والانجليز ، ولم يتبادلوا قط كلمة مودة أو اخاء ، بل كانوا يعيشون في السماء الثالثة وان خاطبتهم في ذلك قالوا :

« اننا لا نريد أن نختلط خوفاً من سقوط الهيبة » أما في الهند فالحال على أشجع ما يكون فإن الوطنيين لا يركبون الا في الدرجة الثالثة واذركب أحدهم في الدرجة الأولى يوقف القطار ويرمى به وبمتاعه في أقرب محطة ، وروى لنا الاستاذ الثعالبي عن هولاندا ، أن الحاكم الوطني اذا دنا من الهولندي يركم ويجلس القرفصاء ولا يرفع عينيه في وجه محدثه . ومع هذا فإن الكتّاب الفاضل والعالم المدقق لوثرروب ستودارد مؤلف حاضر العالم الاسلامى الذي نقله الى العربية الاستاذ النابه النابغ عجاج نويهض بك ( مصر سنة ١٩٢٦ ) يقول في ص ١٠ من الجزء الثانى

« فى القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخذت تشعر شعوراً حقيقياً عميقاً بالغاية الفضلى المثلى وهى واجب الانسان الأبيض . . . معتقدين الاعتقاد الراسخ كله أن امتداد السيطرة السياسية الغربية انما هو الذريعة الفضلى وربما الوحيدة لانهاض الجانب المنحط المتدلى من من العالم وللأخذ بنصرته فى سبيل التجدد والارتقاء . والحقيقة التى لامراء فيها أن المستعمرين لم يغيروا من خطة الاغتيال والاستثمار والاستعباد ، ولكنهم عدلوا طريقة الاستعمار بما يعود عليهم من الفوائد ، ويديم سلطتهم ويحفظ كيان امبراطوريتهم من الزوال . والحقيقة التى لامراء فيها أيضاً أنه ما كادت تطالع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافة قد تنفضت عنها خيلتانها وبددت غياهب جهلها وحطمت عقال خمولها وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة وأنشأت تمهد لنفسها مهبلاً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء . »

وان كان الشرق قد تبدلت شؤونه غير أن سياسة اوروبا الجائرة ام تتبدل

يكاد الباحثون لا يدركون تعليلاً لهجوم اوروبا فى هذه الآونة الاخيرة على الشرق ذلك الهجوم الفظيع والحق ان اوروبا كانت صابرة ومتمهلة على افتراض سكون الشرق ونومه واستسلامه فلما رأت بوادر نهوضه فى أواخر القرن التاسع عشر وبفجر العشرين طفت اوروبا تتجهم فى وجه الشرق المستيقظ الناهض وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروحه الهائج فاساءت اليه بذلك فى بضع سنين معدودة اساءة تفوق جميع ما ناله منها من

الشر والهوان طيلة مئتي سنة خلت

وما أصدق ما كتبه سيدني لوانجيزي في سنة ١٩١٢ وتمثل به ستودارد :

« ماشبه غالب الدول النصرانية في سلوكها هذا الذي ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية بعصابه من اللصوص يهبطون على الحلال الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل فيشخون فيهم ثم بقلبون بالغنائم والاسلاب ما بال هذه الدول لاتفك تدوس حقوق الامم المجاهدة في سبيل النهضة وعلام هذا العسف الذي تضرب به الشعوب المستضعفة وهذا الجشع الكلي لانتياش ما بين أيديها وما خلفها . ان هذه الدول الغربية النصرانية هي بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة ان القوى الشاكي السلاح يحق له الاتقضاض على الضعيف الأعرل وآتية بالبرهان القاطع على ان مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها ألبتة حيال القوة المسلحة . لقد تجردت تلك الدول عن كل حسنة في معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشد الجيوش همجية في الزمن القديم »

هل يوجد وصف أصدق من هذا، لحالة هذه الدول الأوروبية « المتعدنة » ؟ لقد كانت هذه الخواطر تجول في نفسنا ونعجز عن تصويرها وان كنا تصورناها ، ولعمري ان التاريخ الوسط والحديث كليهما يؤيدان صدق هذا العالم الفاضل فان قبائل النورسمان التي انحطت من الشمال على بلاد الأنجليز واستعمرتها لم تكن الا قبائل رحالة ، هجامة ، سارقة متلصصة ، فلما عاشت وتحضرت ، وتدربت استمرت خلتها النفسية ، وان كانت تخفيها الثياب الرسمية والقبعات العالية . ولكن روح النورسمان الخطاف القاتل الفاتك لا تزال تحقق بين جنوبهم وهي التي أوحى اليهم تلك الاعمال في الشرق والتي يضح منها كتاب من بني جلدتهم ويشهد بها شاهد من أهلهم .

## ١٢

## ١

وإذا نظرت الى الشرق من حيث الفقر والغنى وعلمت أن النقاد الاجتماعيين يمتدحون على الانجليز لوجود طبقتين اجتماعيتين واحدة في أقصى الثروة والأخرى في أشد الفقر ، فإنك ترى في الشرق الحال نفسها لأن الشرق مثال انجلترا من حيث الغنى الباهظ والفقر المدقع . ماعدا طبقة صغيرة من الموظفين الذين أخذوا في العهد الأخير بفضل تراكم مرتباتهم يدخلون في الطبقة الأولى من حيث استثمار ثروتهم .

وقد ظهر هذا الفرق العظيم منذ ارتقت أسباب المعيشة وأصبحت نفقاتها لا نطاق بالنسبة للفقير وأصبح الفقير لا يجد المال الذي يكفيه نفقته ، فهو مضطر لأن يقتر على نفسه تقديراً لكي يتسنى له بذلك الحصول على قدر ما يستطيع من حاجاته الجديدة . واننا للأسف نرى شعوب الشرق عامة ومصر خاصة لم تكن يوماً بعارفة للاقتصاد ولا التوفير بل ان الفقير منهم لا يزال مبدراً حتى يرد موارد التلف وكان الفلاح المصري وابن البلد سواسية في اقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم فيبذرون حتى يرزحوا تحت أعباء الديون ويقترض من الرومي واليهودي ويبيع محصولاته قبل ظهورها بعدة أشهر حتى اذا جاء المحصول خرج منه واضطر لقطع ثمنه بالبخس قدره ولا يلبث أن يشعر بالحرر من الدين وتحويل بعضه الى العام المقبل بفوائض مركبة بعد رجاء وتوسل حتى يعود الى الاستدانة من جديد وهكذا دواليك الى أن يتلاشى وينتهي بالافلاس . وهكذا تستطيع أن تتصور مبلغ ما انتهت اليه الحال من الضيق والازمة في سنوات ١٩٠٧ و ١٩١٤ و ١٩٢١ و ١٩٣٠ .

لأنك ان التعليم الحديث قد جاء في العهد الأخير بنتائج حسنة فقد عادت مؤخراً من البعثات الاوربية بضع فتيات تخرجن من جامعات انجلترا في العلوم الطبيعية والرياضية

وعينت احدهن في منصب أستاذ معين في كلية العلوم بالجامعة المصرية ( ١٩٣١ ) وفتحت أبواب مدرسة الطب للطالبات وهن يدرسن في العمل والمستشفى بجوار زملائهن من الفتيان وقد كانت المرأة المصرية قبل ذلك مستغرقة في الجهل والغباوة واذا كانت هكذا فما أسوأ التربية التي تنشأ بها أولادها الذين على صدرها وبين ذراعها وهل من بلية أعظم من هذه البلية التي تحول دون ارتقاء الفتى الشرقى والفتاة الشرقية ارتقاء عقلياً وهما يشبان في مخادع الحرم على جهل شديد يتضائل به الاستعداد الفطرى وتضييق به المدارك ، لأن ما ينطبع في نفس الابن ويرسم في لوح ذهنه وهو يرتضع ثدي أمه في السن التي يسكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه في سائر العمر لأبى أثرأ من جميع ما يتقناه الابن فيما بعد علي المعلم وبهذا الاعتبار مادام نصف الشرق لم تصل اليه عوامل الارتقاء ، فنهضة الشرق الاسلامى على الجملة تظل ناقصة بترأ ولا سبيل الى إكمالها ما لم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً .

وقد صرخ المرحوم فتحى زغلول في حفلة تكريمه في الجامعة المصرية سنة ١٩١٣ قائلا « علموا الأمة » فأجابه صوت « علموا الأم تتعلم الأمة » . فاننا بتعليم الأمهات وتهذيبهن نبدل حالة الشرق تبديلاً تاماً فان البنات متى ما تلقين معارف وعلومًا صحيحة مع ما يحفظنه من آيات القرآن وأدب الاسلام استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً سواء كن بنات أم أخوات أم أمهات أم زوجات . ان الحياة القديمة التي كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديوان لاهية لا تعرف شيئاً أكثر من تناول ضروب الخلاء آونة بعد أخرى . ومضع الصنع واللبان وماجئة مع الخوادم اللواتى حولها تارة وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، والتحدث عن الزار والجن ، والشبشة والرقى والتائم والأحجية وزيارة الأسياد ، أو عن الأزياء وعن الثياب وقائدة الأصباغ ، والأدوية الناجعة فى إزالة الشعر وصبغه ، وتطرية الوجه وصقل الأظافر ، ووسائل السمن المصطنع والتدفئة أمام المنقل قد انتقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ترى فيها المرأة المهذبة رفيقاً لزوجها وشريكاً أميناً لاجارية



ولا سلعة بين يديه . نعم اننا لانطمع في أن تصحبنا زوجاتنا الى حفلات الصيد والقنص ، ولا في لعبة الجولف والتيس ولا ركوب المظلمات من الخيل كما يصنع نساء الانجليز ولكن نطمع في أن تكون المرأة عوناً لنا لا حرباً علينا . وصديقة تعيننا لا عدواً . يعطلنا ويقاومنا .

## ٢

ومن الظواهر العجيبة التي نراها في الشرق منذ التغلب الاوروبي زيادة عدد السكان فقد كان المصريون في أول القرن لا يزيدون عن مليون وبلغوا في سنة ١٩٠٠ عشرة ملايين وفي سنة ١٩١٧ أربعة عشر مليوناً وفي سنة ١٩٢٤ سبعة عشر مليوناً وكانت الهند في أول العهد الانجليزي مائة مليون وبلغت الآن ثلثمائة وخمسين مليوناً وكانت اندونيسيا في أول الاحتلال الهولندي عشرة ملايين وهي الآن ستون مليوناً .

وبعض ممالك أوروبا آخذة في الازدياد مثل هولندا واطاليا والمانيا ولكن انجلترا وفرنسا آخذتان في النقصان أو باقيتان حيث كانتا .

وهذا طبعاً راجع لجملة أسباب منها تقدم علوم حفظ الصحة وانتشار مبادئ المعرفة في مقاومة الأمراض وتقليل نسبة الوفيات وفضلاً عن ذلك فإن الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكورها قابليتها للتناسل والتوالد والديانات الشرقية لاسيما الاسلام تحض على التناكح والتناسل وتنهى عن وأد الأطفال الذي كان شائعاً في الجاهلية . وتقليل النسل وممارسة الاجهاض معدودان جريمتين دينيتين كما أن الأخيرة منهما يعاقب عليها القانون . وكل شرقى عقيب الزواج يطمع في أن يكون له ولد يرثه ويحفظ اسم أسرته ، كما لو كان امبراطوراً عظيماً ! وأتباع المعري في اعتبار التناسل جريمة وجناية قلابون في الشرق الاسلامي وهذا ناشى أيضاً عن شدة العاطفة الجنسية وعن أسباب اقتصادية فإن الرجل الفقير في الشرق يجب أن يولد له أولاد ليعينوه في الحياة بعملهم المبكر سواء في الحقول أم في المدن .

وقد نعى أحد كتاب الفرنسيين وهو فان جنيب السوسولوجي على أهل شمال افريقيا كثرة الزواج والتبكير بالتناسل وقرر في مقالة قيمة نشرها في مجلة ماركوردى فرانس

( اكتوبر سنة ١٩١٦ ) ان الافراط في الزواج والتناسل قد أديا الى هبوط المواهب العتملية وأورثا تلك الشعوب نوعاً من الخمول الذهني . وهذا الأمر مشاهد في مصر أيضاً حيث يفرط أفراد الطبقة الوسطى في تعاطي المخدرات ولا مأرب لهم منها الا الاستمتاع فيأتى النسل عرضاً غير مقصود بالذات وتتراكم هموم الحياة وأثقالها على رب الأسرة فيذهب هو وأسرته ضحية لذة قصيرة تعقبها أفجع الحسرات من الفقر والدمار ولا يغيب عن الذهن ان العهد الحديث قد جلب معه قضية المعيشة وكيف نبتغى أسباب الرزق في هذه الدنيا مع مابلغناه من الفقر المدقع في جميع ناحيات الحياة فان الفقر أكبر بلية وهو أبو البلايا وقد قال النبي كاد الفقر يكون كفرةً وعزى الى الامام على أنه قال « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » .

واننا نرى بأعيننا ما هو منتشر في البلاد الشرقية والمصرية من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين عن كثرة النسل والولد ونشعر بما يقاسيه جانب كبير من أبناء الأوطان الشرقية من النصب والمضض في ابتغاء أسباب الرزق وقد سنت الحكومة المصرية قانوناً يجعل سن الزواج ست عشرة سنة للبنات وثمانى عشرة سنة للولد ، ولكن الفقهاء والحمامين الشرعيين ابتكروا طرقة لعقد الزواج العرفى الذي يجعل القانون حبراً على ورق ، بل ان محاكم الجنائيات حكمت بأن تغيير السن في ورقة الزواج لا يعد تزويراً يعاقب عليه ، لأن عقد الزواج عمل لا يثبت النكاح لا لاثبات العمر .

وهكذا سقط القانون في الماء وان حجة أصداده قوية ، فان الحمامين الشرعيين يرون فية معطلا لأعمالهم ، لأن الزواج بين من هم أقل من هذه السن يمنع من سماع الدعاوى الشرعية فى النفقات والطاعة وثبوت الأبوة وماشا كلها والرجل القضائى، الواقف على حقائق الأمور يرى في زواج بنت الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة اتقاداً لها من خطر أشد من لزواج بالنظر الى الحالة الاجتماعية الحاضرة . وعلى كل حال فالزواج والشرع في تأسيس الأسرة أخف ضرراً من الدعارة أو التفريط في العرض .

ولكن أضرار الزواج الباكر مؤكدة ومعروفة ولا بد من مقاومته بكل الوسائل

ثم بعد هذا ماذا يفيد أن تكون الأسرة مكونة من عشرة أطفال اذا كان تعليمهم ناقصاً وغداؤهم غير كاف ، ومستقبلهم غير مضمون في حين أن الأسرة المؤلفة من ثلاثة أو أربعة أطفال تكون أقدر على مكافأة الدهر والخروج من ربقة الجهل والفقر .

## ٣

ان أهل الشرق جميعاً سواء كانوا من المدن أم من أهل الريف والقرى يكادون لا يجاوزون في ابتغاء الرزق حد الكفاف. وفي كل يوم ترى موظفاً يموت فجأة ، فترى غداة موته طلب استرحام من أسرته على صفحات الجرائد منبئاً الحكومة التي كان يخدمها ، والأمة التي كان يعيش بين ظهرانيها أنه لا يملك شيئاً وأن له أربعة أو خمسة أولاد قصر وأن معاشه الذي يبلغ ثمانية جنيهات بعد ان كان يتقاضى أربعين أو خمسين جنيهاً لا يكفي لقوت أولاده فتنفخهم الحكومة مائة جنيه أو مائتين أو خمسمائة فلا تلبث أن تنفذ ثم تعود الكرة ويكون الموظف الأمين المتوفى قد نسي واصداقؤه قد انفضوا من حول أولاده ، وأقاربه تنحوا عن أرملته ، كما هي العادة في بلاد الشرق ، فلا يجد نداؤهم أذناً مصغية فيقتضون البقية من حياتهم في المسغبة والمترية . وقد ترى قاضياً كبيراً وضابطاً عظيماً أو طبيباً شهيراً وقد صار أولاده كتيبة أو موظفين صغاراً في أحد المصارف لأن الرجل لم يستطع الادخار لهم والأم لا تملك طرق تدبير الحياة والتعاون في الشرق مفقود ، وفكرة التأمين علي الحياة غير شائعة وتقوم ضدها فكرة القضاء والقدر وتحديد الأجل وترك الأمر لله لأنه يضمن الأرزاق . وعند مامات المرحوم الشيخ محمد عبده لم يكن يملك شيئاً سوى بيت مبنى بالطوب الني ، على أرض أخذها هبة من لادى بلنت ، فنحت الحكومة أسرته ألف جنيه . مع أنه كان في مقام رئيس أساقفة كاتدربري أو أسقف باريس ، ولو مات أحد هذين لوجدوا وراءه ثروة ضخمة وقد مات قاسم امين وانفقت أسرته بمال التأمين وغيره كثيرون . فقل لي بربك ماهذه الحال التي نحن عليها وماذا تكون نتيجة حياة رجالنا المهديين في أرزاقهم وقديماً قال الامام الشافعي « لو شغلت ببصلة ما حلت مسألة » أليست هذه عقدة اجتماعية كفيلة بانشغال بالناس ، بل ان المشتغلين بمسائلنا السياسية لم يكونوا أسعد حظاً من علمائنا العظام في العهد الغابر فلم يترك مصطفى

كامل ثروة، ومات محمد فريد شريداً طريداً لا يملك شيئاً كأنهما بعض الزهاد في صوامع الأديرة! وإذا انتقلت الى الطبقات النازلة من الفلاحين فان ما يمانونه من الفقر الذى وصفنا طرفاً منه لا تصل البلاغة الى الامام به. وذلك ناشى عن تبذيرهم وعدم تدبيرهم.

قل بريلسفورد الاقتصادى يصف حالة الفلاح المصرى فى مستهل هذا القرن :

« ان مناظر الفاقة التى رأيتها فى القرى لم أشهد قط مثلها فى جبال مكدونيه ولا فى بقاع دونجال . فهذه القرى فى مصر انما هى ركام من الاكواخ « العشش » المبنية من الطين لا يتخللها أشجار ولا ازهار ولا غياض ولا بساتين ، والاكواخ من الداخل ليست مستوية الأرض وليس لها نوافذ فهى أشبه بالسرايب الصغيرة مؤلفة فى الغالب من غرفتين صغيرتين غير مشيدتين بالجص ولا مفروشتين بالبسط والطنافس ولم يكن فيها من الاثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ من النحاس والفخار وجرة مملوءة من طعام الذرة وأخري ملائمة بالماء العاكر الذى تنقله المرأة على رأسها صباح مساء »

ولم يشأ بريلسفورد أن يجرح احساس الانجليز ويذكر مجاورة الانعام للانسان ولا روث البهائم ، ولا تراكم حطب القطن على السطوح مما يبعث على اشتعال النار لا بسط شرر ، ولم يذكر المستنقعات ولا أكوام الطين والتراب ولا قذارة الملابس وصفرة وجوه السكان وقلة تغذيتهم وانتشار البلاجرا والانكاستوما والبلهارسيا . لأنه يعلم أن الانجليز حكوا البلاد منذ أربعين عاماً لترقية الفلاح وانقاذه من مخالب الافلاس وطالما افتخر كروم بأنه صديق أصحاب الجلايب الزرقاء . التى قال ظريف فى وصفها أنها مصبوغة بالنيل الهندى رمزاً على حدادهم لما هم فيه من البؤس والضراء . وقال « رأيت بنفسى فى قرية ط . أكواخا مصنوعة بأيدي الفلاحين وهى عبارة عن حوائط من الصفيح والبوص مغلقة بالوحل وليس لها نوافذ ولا بد للدخل اليها أن ينحني لينساب داخلها انسياب الكاب فى وكره أو الثعبان فى جحره وعلى مقربة منها ، وعلى قيد بضعة أمتار قصر مشيد على ألف متر ، له نوافذ وأبواب وشرفات وأعمدة يتخلل الهواء والنور وحوله أشجار وجنان وفيه سائر أنواع النعيم

الأرضى ومداخنه تعمل ليل نهار في تسخين الماء وطهي الاطعمة وهذا القصر لصاحب الأرض التي يزرعها سكان تلك القرية . وهو يراها منذ عشرات السنين ولم يخطر بباله أن يحسن حالة ساكنيها ، كما أنه لم يخطر ببال ساكنيها أن يقتصدوا لتحسين حالتهم . قد رأيت هذا في سنة ١٩٠٨ ، وتكلمت في هذا الشأن مع صاحب القصر فضحك من قولي ، وقال ان الفلاحين لا يحبون الا هذه المساكن ، وانهم لا يقبلون على السكن في سواها « اه . ومنذ خمس سنين قامت ضجة حول بناء مساكن نموذجية للفلاحين وشيد أحدها فعلا في المعرض الزراعى ، ولكن ما لبث أن شيد حتى هدم ولم ينفذ المشروع في احدى جهات القطر المصري

أما المدن فان الاحياء الوطنية منها لا تزال على ما كانت عليه في القرون الوسطى ، وقد قال في وصفها لويس برزان يصف أهل القاهرة مانصه :

« لعل الفقر والفاقة في بيوت الطبقة الفقيرة في القاهرة وسائر بلاد مصر أشد منهما في سائر الاقطار الشرقية ، فمثل هذه البيوت مؤلف في الغالب من غرفتين أو ثلاث لانوافذها لدخول نور الشمس والهواء النقي متصلة بايوان ، لا يقل عنها ظلمة وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن ألواح الجدران الخشبية النخرة على أرض المسكن القذرة ، والهوام والحشرات مستقرة على الحصر والفرش » .

« واذا التفت الى وسائل العيش وأسباب القوت رأيت أجور بعض العمال لم تتناسب مع غلاء الأسعار ، بحيث أن العامل لا يستطيع مماشاة السوق وأصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات الحياة . وهذه الحال هي أشد ما يكون في المدن والمرا كز الصناعية . حيث أهل الطبقات الدنيا من عملة وساقة وحوذيين وباعة وغيرهم لا طاقة لهم ألبتة على احتمالها فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخناق ، المستحكة عرى الضيق ، مظاهر فساد الاخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الجرائم والجنايات » اه .

وفي نظرنا أنه لاعلاج للفقر والجهل في الريف والمدن الا بنشر التهذيب الديني والتبشير بمبادئ الاقتصاد والادخار . فالدين والاقتصاد وحدهما دون غيرها كفيلان بالاصلاح .

## ١٣

١

لو تنبأ خايفة أو سلطان بأن مظاهر الاكرام وحسن الضيافة التي منحها كبار الاجانب الذين حلوا بلاد الشرق في سبيل التجارة أو الاستكشاف ستقلب بعد بضعة قرون أنواعاً شتى من البلاء على تلك الامم الشرقية ما كان منحها ، ولعله ما كان يفتح أبواب ممكته للقادمين الذين تمكنوا على مر السنين من قلب الجاملة الودية سيفاً مصلتاً على أعناق تلك الأمم التي استضعفت في الارض بعد العظمة والقوة

ولكن أي خير في ممالك الشرق عامة والاسلام خاصة لم ينقلب شراً وأى مسألة لم تصر على كراي الا عوام بيننا وبينهم محاربة . ان تلك الشوكة التي ما فتئت تخزنا في جنوبنا كيفما تقلبنا هي بلاريب من أشد النكبات وقمماً — وقد فرت فرصة الحرب الكبرى ولم نفل من إلغائها أربا وتمكنت أمم شرقية مثل الصين والفرس والترك من محوها من سجل حياتها القومية ولا نزال نحن ننظر بعين المريض الى صفحتها في سجل حياتنا كما ينظر المقضى عليه في كتاب يشمل الحكم عليه بالعذاب المؤبد وقد تفرقت تلك المسألة بضع مرات في العهد الاخير بمناسبات خطيرة وتمفرت الجهات المختصة نحو العمل ولكن على أية خطة ؟؟

كانت السياسة المصرية منذ ثلاثين عاماً ذات صبغتين صبغة قومية وصبغة حكومية من حيث الامتيازات . وقد ألف في ذلك الحين الاستاذ بلسيه دوروزاس مدير مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة كتاباً قيماً في الموضوع فالتفت الآراء المصرية حول بعض نظرياته فنشأت لدى الوطنيين في عهد من العهود الوسطى فكرة تحييد الامتيازات والاحتفاظ بها بوصف كونها سياجاً دولياً ذالون قانوني يقضى بشبه المساواة بين انجلترا وغيرها من الدول الاجنبية وقالوا لو أن تلك الامتيازات زالت فقد نسي مع انجلترا وجهاً لوجه دون

حسيب أوريقيب واذن تفقد المسألة المصرية صبغتها الدولية ولعلها تسعى لنشر حمايتها دون منازع من الدول الأخرى وكان المرحوم مصطفى كامل من أنصار هذه الفكرة لاعتماده على فرنسا في ابان نزعته الأولى - وما زالت هذه عقيدته الى أن حلت سنة ١٩٠٤ وتوثقت علاقة إنجلترا بفرنسا وظهر في الوجود « الاتفاق الودي » الذي سبق الحرب العظمى بعشر سنين ومهد لها السبيل . وحينئذ دب اليأس الى قلبه

ونذب حظ مصر في رسائل بليغة أرسل بها الى صديقه ومعينه الأولى مدام جوليت آدم وتزعزعت ثقتنا في نظرية التفضيل ولكننا كتبنا أمرنا

أما الوجهة الحكومية منذ ثلاثين عاما فكان يمثلها لورد كر ومرو وكان هذا السياسي الخنك يظهر آراءه ولا يخفيها ويكتبها ولا يكتبها ويغض الكتمان في الامور العامة - كما كان نصيراً لحرية الصحافة - ويعتبرها صمامة أمان للتنفيس عن الكروب التي تعانها الشعوب المحكومة - وكان يطالع على العالم في كل عام بتقرير مديج بأسلوب خاص يعد من أعلى الاساليب في المدونات السياسية فماذا كانت خطة هذا النابغة في الامتيازات ؟ كان يميل الى الغائها ويوالى الحملات عليها في صفحات تقريره السنوي وينسب اليها تعطيل أعمال الاصلاح - ولكن حيرته - على شدة حذقه وبراعة حيلته - كانت ظاهرة في الوصول الى حل يوفق بين رضاء الدول وحسن التخلض ومجاملة أرباب الأموال وتنفيذ السياسة الانجليزية في وادي النيل الى أن دلته التجارب وهدته اناته الطويلة على فكرة وسط تخفف ويلاط الامتيازات ولا تحوها تمام المحو - وهي فكرة لاشك ميكا فيلية - فكرة اشراك الاجانب معنا في مجلس تشريعي تكون قوانينه نافذة على جميع سكان مصر - وهذا المشروع نفسه الذي جمع كر ومرو شجاعته للبروز به بين ظهرائنا هو النواة لمشروع سيربرونيت الذي قامت له مصر وقعدت، صاغه كر ومرو بصورة مخففة ملطفة ولكن برونيت أرادها كاملاً شاملاً قاضياً على كياننا القومي . فضلا عن الفرق بين المهدين عهد كر ومرو وعهد برونيت فقد كان كر ومرو يستمد قوته من نفوذه الذاتي ومن شخصيته القوية ومن تاريخ أعماله في مصر -

وكانت تلك الخطوة الجريئة منه بمثابة اعلان للعالم بأن إنجلترا تنوي البقاء عملاً بالمبدأ القائل «سأبقى حيث أنا» .

وكان قبول الاجانب نظرية الاشتراك فى التشريع بمثابة رضاء ضمنى بشرعية الاحتلال — فلم يلق كرومر تشجيعاً فى مصر ولا فى الخارج — فى مصرفات عليه قيامة الوطنيين الذين تشبثوا باهداب الامتيازات للنظرية التى شرحتها والدول الاجنبية لانها أدركت مغزى الخطة السكرومرية التى تحولت فيما بعد الى نظرية حماية الاجانب — ولم تكن أمة شرقية قد اجترأت بعد على الغاء الامتيازات بل كانت الدولة العثمانية غارقة من أخصها الى قمة رأسها فى بلوى الامتيازات . بل كانت اليابان زعيمة الشرق الاقصى خارجة من حرب الروس الدامية التى انتصرت فيها أمة وثنية على أمة مسيحية فمدت لها دول أوروبا التى تعرف كيف تحترم الحديد والنار يد المودة وصاغتها على اشلاء الجيوش القيصرية المحطمة فلما نطق أقزام طوكيو الاذكياء الاقوياء بكلمة المساواة بين الشرق الاقصى والغرب وطلبوا الغاء الامتيازات وقالوا اننا نحسن الطعن والضرب ونقن تدبير خطة الحرب فاذن نستطيع احسان الحكم بين الجميع ونلغى الامتيازات الأجنبية !! فطأاً الغرب رأسه وأجاب: نعم! فلما جاءت الحرب العظمى وأعلنت إنجلترا الحماية لغت امتيازات الأمم المعادية لها ولما تبلشفت روسيا أسقطت امتيازاتها ولكنها لم تمس امتيازات الأمم الموالية على ما فى هذا العمل من التناقض الظاهر فان الحماية معناها تحمل مسؤولية الحكم فلم يكن هناك معنى للتفرقة فى المعاملة بين الدول

وعقدت المؤتمرات وسويت المسائل بين الدول ومصر صامتة ساكنة ولم تحرك ساكناً بصفة جدية نحو الغاء تلك الامتيازات والخلاص من أغلالها

ولكن اليوم عادت المسألة بشكل جديد فمصر تريد تعديل قانون المحاكم المختلطة لمحكمة تجار المخدرات والرقيق الابيض ( وغيرهم من نوعهم ) جنائياً أمام تلك المحاكم وهذا يتطلب تعديلاً فى نظام الامتيازات وتريد التسوية بين المصري والاجنبى فى أداء



الضرائب المحيية التي تتنوي ايجادها لتعمير الخزانة المصرية . فخطت البلاد خطوتين الخطوة الأولى اصدار قانون الجنسية الذي جلب علينا احتجاج دولتين من الدول العظمى فقد رأت كل من فرنسا وايطاليا وهما دولتان مفترض لديهما الولاء لمصر وحسن المجاملة أن في المادة الخامسة عشرة من ذلك القانون مساساً بمقوق رعاياها وهذه المادة من أهم مواد القانون وهي تعطي وزير الداخلية حق اخراج السكان الذين أصلهم من حزر الارخبيل التابع لايطاليا وسكان البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي وقد أتمر الاحتجاج ثمرته النافعة للدولتين العظيمتين المشار اليهما ، وواققت الجهات المختصة على أن النص ينصب على الرعايا غير المرغوب فيهم ( Indesirable ) وتعهدت وزارتا الداخلية والخارجية بتنفيذ هذا التفسير وسوف يعطي هذا الحل فرصة للمشاكل - فمن له الحق في الوصف وكيف تكون طريقة المعارضة وهل تتخلى الدول عن حماية رجل من أقوياء رعاياها - بعد الذي رأيناه من حوادث القتل الواقعة من زعانف الاجانب على المصريين فينتقلون الى عواصم الممالك الحامية وتصدر في حقهم أحكام مخففة تكاد تكون أحكام الأم الحنون على الولد المدلل - يجب في مثل هذا المجال فعل حاسم واظهار رغبة صريحة و كان العقل لا يقبل أن مصر تتعرض لأجنبي مسلم أو مستقيم وهذه الحلول تسمى انصاف الحلول وهي أشد خطورة من بقاء المشاكل بغير حل وبقاء القديم خير من حل ضعيف .

أما الخطوة الثانية ( ومن غرائب المصادفات أنها خاصة بالمادة الخامسة عشرة أيضاً ولكن من لائحة ترتيب المحاكم الاهلية ) فخاصة بوضع حد الأفضية التي سارت عليها المحاكم المختلطة حين بسطت اختصاصها على الاجانب من غير ذوي الامتيازات استناداً الى المادة التاسعة من لائحة ترتيبها وكانت تلك المحاكم وهي جهات قضائية أولى برجع الحق الى نصابه وحسن تقهم النصوص والآآن لقد تغير الزمن وأغيت الامتيازات من سائر أمم الشرق ولم تعد مصر في حاجة الى اللجوء الى نظرية الامتيازات الأجنبية لحماية الفكرة السياسية بفكرة قانونية فقد كشفت أور و باقناعها ومدت يدها الحديدية وظهرت نياتها واضحة

« ١١ - حياة الشرق »

صريحة في جميع أنحاء العالم وإن لم نكن حاربنا الحلفاء وانتصرنا لنحوز الاحترام في نظرهم فقد حاربنا في صفوفهم وقد أظهر القضاء المصري في خلال الأربعين سنة الماضية قدرته واستقلاله فلاولى بنا أن نصارح الدول المثلثة لدينا والتي لنا شرف التمثيل السياسي لديها بحقيقة أفكارنا وهي أن الامتيازات الاجنبية أصبحت أنظمة غير لائقة وغير جديرة بكرامة الطرفين.

## ٢

لاريب في أن مصر الآن في فترة سكون ومراقبة ، ومثلها كمثل الجالس في برج عال يشرف على ماحوله من الأمم القريبة والبعيدة ، ولا يمكن من كان في مثل موقفها ، أن لا يتأثر بما يقع أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ، من الحوادث الكبار ، وقدماً تأثرت مصر بأوروبا في السياسة والتجارة والتعليم والصناعة والصحافة واتخاذ المخترعات الحديثة والانتفاع بالمفيد منها ، ولا يخلو الامر من أنها أوذيت في هذا السبيل بالتقليد أو باتخاذ الضار من الاخلاق والعادات

ومصر ليست متصلة بالغرب والشرق مجرد اتصال . وانما هي مشتبكة اشتبا كاثيقاً ، وكل خطوة من الخطوات التي قطعتها في المائة سنة الأخيرة ، كانت تدنيها من أوروبا ، ففي عهد محمد على الكبير كانت دولة حربية صناعية في دور التكوين وكانت معنويًا تابعة لفرنسا في علومها وسياستها وتقاليدها لقرب العهد بالفتح الفرنسي ، ولرغبة محمد على في مخالفة تلك الامة لاسباب بطول شرحها غارت وتقدمت واستتب الأمر لها كما الذي كان من نوع المستبد المحب للخير Benevolent Despot وفي عهد خليفته ابراهيم باشا حاربت في الشرق وانتصرت في الشام وفي تركيا ووقفت عند حدها وعرفت شخصيتها بين الامم الغربية والشرقية ، وفي عهد سعيد نبنت فكرة قناة السويس في رأس الفرنسي فردينان ديلسبس المنحدر من مدرسة سان سيمون الفلسفية ، واتصل البحرين على يد المصريين الذين هلك منهم مئات الالوف في سبيل الانسانية وتقريب المسافة بين انجلترا والهند ، ولما رأيت انجلترا عجزها عن منع حفر القناة انصرفت إلى الاستيلاء عليها ، وتم هذا الاستيلاء أو كاد في زمن

الحاكم الذي احتفل بانتتاح القناة ، وكان المغفور له اسماعيل باشا حاكماً حديثاً يجب أن تكون بلاده جزءاً من أوروبا ، فدن المدن ومصر الامصار وشرق الطرق وحفر الترغ واستقبل الامبراطورة والسلاطين والملوك واستدان حتى اضطر لترك وطنه بعد أن أثقل كاهله بالملايين في سبيل المدينة الحديثة ، ولم يجد له من أوروبا نصراً ولا معيناً سوى ملك إيطاليا الذي ضافه وفي عهد خليفته نضج « الخراج » وعملت العملية الجراحية ، وظهرت اثورة العرابية ودخل الانجليز مصر ، وكانوا في أول عهدهم شبه مسلمين لأنهم لم يشاءوا أن يكذبوا دعواهم بحماية العرش ، فلما مات توفيق إلى رحمة الله وخلفه ابنه على العرش وكان في ريعان الشباب ، بدأ عهد المقاومة بين إنجلترا ، يمثلها ذلك الكهل المحنك المدرب لورد كرومر ، وبين الوطنية المصرية ، إلى أن أعلنت الحرب العظمي سنة ١٩١٤ فكانت فترة الاستسلام والحماية تحت حكم القبر ثم ظهرت الحركة الوطنية الأخيرة وكان من تاريخها ما لا يزال عالماً بالاذهان

وفي كل فترة من تلك الفترات كانت أوروبا تزداد منا تقرباً وبنا احتكاكاً وتتدخل في شؤوننا الصغيرة والكبيرة ونحن تقبل الحوادث نارة بالارغام وطوراً بالمساومة وقد وضعت الحرب أوزارها وخشيت ممالك أوروبا الظافرة التي كانت تسمى « الحلفاء » أن لاتسفر تلك المذبحة البشرية البشعة عن شيء من الخير الذي كانت تمنى به جموع الانسانية المجرحة المظلومة المغلوبة على أمرها ، وتلك الشعوب الصغيرة الدامية . وأرادت من جهة أخرى أن تكون لذاتها نواة دفاع ضد حوادث المستقبل الخفي . فابتدعت فكرة عصبة الأمم . ولم تكن تلك الفكرة حديثة العهد بل قال بها كثيرون من ساسة أوروبا لاسيما الفرنسيون منهم وفي مقدمتهم موسيو ليبرجوا الذي كان يرجو اتقاء الحرب بوسيلة التضامن بين الامم المتمدينة ( راجع كتابه الذي نشره قبل الحرب La Paix par Solidarité internationale وكان ظاهر هذه العصبة خلافاً خداعاً لكل الامم حتى أن بعض ساستنا كان يعد الانضمام اليها نعمة كبرى . فما لبثت حقيقتها أن انجلت عن كونها عصبة الامم الغالبة وقد اخترعت نظام الانتداب وهو استعمار حقيق يابس ثوب الصداقة ودليله ما حدث في سوريا والعراق . وقد

أراد الله لفظ بنا ولم تمسنا ربح ذلك الانتداب المنحوس ولعل السادة السياسيين أدركوا أننا تعلمنا ما يكفى لعدم قبول تلك الحيلة . ولم تدخل أمريكا تلك العصبية فأظهرت أنها تعرف بواطنها . ودخلتها المانيا ليكون لها صوت مسموع في تخفيف وطأة الدين وتعجيل الجلاء عن بعض أراضيها المحتلة واسترداد بعض مستعمراتها .

وقد قرأنا من المباحث الاخيرة في الكتب والمجلات ومحاضرات أساتذة الحقوق الذين انتطعوا لدرس روح عصبية الامم وتقيم طرقها Mécanisme ما يجعلنا نعتقد أن حياة تلك العصبية رهينة قوة الدول الكبرى التي تتألف منها وعند ما تضمحل تلك الدول في حرب كبرى ( يقول الكثيرون بضرورة اشتعال ناراها ويحتمونها تحتميا ) تنحل طبعاً تلك الجمعية فتكون أمريكا حينئذ هي دولة المستقبل بقوتها المادية وقوتها المعنوية وبنوعها في الاختراع والابداع وتسخير الطبيعة للانسان وثروتها التي تكاد لا تقنى في جوف الأرض وعلى سطحها ، وأوربا العجوز تعلم ذلك وتنتظره وتلمح كوكب تلك الجمهورية الساطع ، وتدرك أنها نفسها في طور الانحلال والذوبان .

فلا تستطيع مصر أن تجهل ذلك أو تتعامى عنه أو تغفله بل ينبغي لها أن تسلك عين السبل التي سلكتها جمهورية الولايات المتحدة للتقدم بالعلم والصناعة والاجتهاد ، وأن تسعى للتقدم والاصلاح في جميع ناحيات الحياة ، فإن الامريكيين المشهورين بالعجلة والتقليد والاكتفاء بمظاهر الاشياء ، ، إنعاهم في الحقيقة رجال عمليون وتبدو حياتهم للجاهل بطبيعتهم بتلك الحالة السطحية ، وايس أمام أمريكا ما يعوقها عن سيادة العالم كسيادة الرومان ، ولكنها لا تريد ، وقد أسفت على دخولها في مأزق الحرب العالمية ، ويؤكد ساستهم وعلماءهم انه لو ظهرت حرب أخرى فلن يكون لهم شأن فيها . وكفاهم ما أصابهم من ضياع الرجال والمال ومماثلة الدول المدينة وظهور مبادئ ويلسون الذي كان يمثلهم بمظهر الرجل العالق بالمثل الأعلى المندفع وراء الخيال اندفاعاً أفقده ميزان الحقائق الجارية بين الدول ولعل من أعظم ما تنتفع به من أمريكا طرق التعليم فيها وتأسيس المدارس الحديثة

القائمة على مبادئ علم النفس ودرس معقولة التلاميذ والطلاب . وقد كان أعظم فلاسفتهم في العصر الحديث وهو ويليام جيمس استاذاً مدرساً ثم نقل مصر من الزراعة الى الصناعة . ولا يمكن مصر أن تجهل ما هو حادث في أوروبا ذاتها وفي أحضان جمعية الامم التي عجزت عن تطبيق نصوص نزع السلاح أو تخفيضه في العالم إلى الحد الأدنى الذي يتفق مع سلامة كل دولة . وهذه النصوص المنقولة عن عهد جمعية الامم مطاطة وقابلة للتأويل والتفسير على هوى كل دولة وكل دولة تستطيع أن تملص من أى تخفيض حقيقى في سلاحها . وستبقى هذه المسألة من المشاكل الاوربية المعقدة التي يصعب حلها . وقد ثبت لمن يرقب حالة العالم السياسية ان الدول الاوربية تستخدم العصبة لتبرير مقاصدها الخاصة ولتصنيع سياستها بصيغة قانونية لتبريرها أمام الشعوب . أما أمريكا فليست في حاجة إلى الدخول في هذا المأزق ولا يهملها البرنامج البري أو البرنامج البحري . . . كما رأينا فعلا . واليك إيطاليا واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وتركيا وكل منهن تعيش تحت نظام حكومة مطلقة يتصرف في شؤونها رجل واحد تميز بمحو النظم الدستورية وجعلها أثراً بعد عين في حين ان أمريكا مع نموها وتقدمها وتطورها لم تحتج لتغيير نظام حكومتها ولا للقضاء على دستورها . وهذا النظام المطلق معلق بحياة شخص واحد أو بضعة أشخاص ولا يعلم مستقبله وما آله بعد حياته إلا الله الذي يعلم السر وأخفى !

أما ألمانيا وفرنسا فهما الدولتان المنهوكتان اللتان تعيشان بين الرجاء والخوف وقد حدثت في ألمانيا عين الظاهرة السياسية التي حدثت في فرنسا بعد الهزيمة فان فرنسا انقلبت من امبراطورية الى جمهورية بعد حرب السبعين وكذلك ألمانيا انقلبت الى جمهورية بعد حرب ١٩١٤ . وكتناهما في كفتى الميزان ، وترقبان انجلترا ( التي استفادت وحدها من الحرب ) بعين الحذر وتحسدانها على ما أفادت من مستعمرات وانتدابات وآبار للزيت والنفط في الشرق ، وتفوذ خارق في الغرب ، على حساب برتاومارين الدائمين . . . وكل هذه الدول الغالبة المغلوبة . الخادعة المخدوعة تشرئب بأعناقها في ثياب الوجع والحيرة وتحارب بكل

قواها منفردة ومجتمعة الدولة الروسية التي غامرت في مجهولة تاريخية تشبه معادلة جبرية معقدة الحروف والاعداد ، وعندنا أن روسيا لاتزال في دور التكوين الاجتماعي وهي أشبه الاشياء بطهى ينضج في مرقه الدسم الكريه الرائحة . فان المشاعية ، حسب مبادئ الدولية الثالثة ، تجربة شديدة الخطورة ، ومجازفة غير مأمونة العاقبة . وليس لدي الروس ما يمكن مصر أن تستفيد منه أو تقتدي به لخالفه مبادئها لعقائدنا ومدنيتنا وآدابنا . فلنتركها « تستوي في صلتها » على حد قول السياسي العتيق كرومر عن السودان في عهد المهدي ولنتجه قليلا نحو الشرق فاذا هو أيضاً قدر ينلى على نار متأججة . فن ثورة وحرب يعقبهما فتور وخبود في سوريا الى حرب الجوريليا في شرقي الاردن وحدود العراق وهذا الحجاز ونجد والرابع المعمور والرابع الخراب لاتزال كالبوتقة المصهورة في يد صائغ ماهر تعوزه المادة اللازمة لصنع الذهب وإذا رفعنا بصرنا إلى ما وراء العراق رأينا تلك الدولة الفتية التي أوقعها تسرع صاحبها في حب الاصلاح في هاوية الفوضى وحرب القبائل وقد نزع التعصب الأعمى ودسائس الأجنبي تلك السلطة غير المحدودة من يد أمان الله ووضعها في يد آفاقي هو أقرب الى زعامة اللصوص منه الى سيادة الممالك<sup>(١)</sup>، ولاتزال الدولتان الاسلاميتان اللتان فتنته مظاهر الاصلاح فيها وهما تركيا والفرس بعيدتين عن معاونته ومناصرته ، لأن تركيا تكاد بشق الانس تبلغ غايتها التي رسمها لها ونفذها رجل واحد نابغ في الحرب والسياسية والتشريع يعمل في جيل واحد ما يجب عمله في بضعة أجيال ، ولا يشبهه عن بعد الا شاه الفرس العصامي الذي يستغويه التقدم والارتقاء ويعوقه الجمود القومي الذي يشبهه قباء عتيقاً مركزشاً بالخز والديباج ومرصعاً بالجواهر ولكنه من ثياب القرون الوسطي يرغم صاحبه على التدثر به للدخول في محفل حديث العهد بين المتعاصرين من أهل المدنية الجديدة .

أما الهند فقد تنازعتها الانتماءات القومية وبددت أوصالها خناجر التعصب وهذه الصين التي لم يكن يرجى لها تنبه من سباتها العميق الذي جعلها أشبه شئ

(١) المقصود به باجى سقا ، فقد كتب هذا الفصل في عهده .

بأهل الكهف قد تنبتهت وهي تحارب بعضها بعضاً كما كانت تفعل احدى الدول الاوربية في القرون المظلمة ، ولكنها حروب تعقبها الحياة والسلامة والسير الى الامام اذا استطاعت أن تتخلص من المؤثرات الأجنبية المضرة بها والتي لا يقبلها عقلها ولا تندمج في مدينتها .

ومصر الناهضة الرياضة الساكنة المراقبة ترى كل ذلك وتفهم وتدرك ولكنها صامتة لأنها تتعلم وتتطور وتنظر وترجو أن تنفع بالدروس التي تتلقاها من الداخل والخارج وما يراه البعض كبيراً خطيراً قد تراه مصر صغيراً دقيقاً عديم الشأن في نظر التاريخ وفي حياة الامم . لأنها هي الأخرى التي حلت فيها روح أبي الهول العظيم صابرة ترمق بيمين الهدوء والألم ظهور شمس الحياة والامل من وراء الأفق

## ٣

ان الأنظمة النيابية نعمة الامم الحديثة. ولكن يجب أن يحسن تكوينها وانتخابها فان انجلترا وهي سيدة الامم النيابية وبرلمانها شيخ البرلمانات . واقعة في خطأ واضح . فان تسعة أعشار الامة الانجليزية عمال ولا يملكون شيئاً الا تعب أيديهم . وتجد تسعة أعشار البرلمان من الملاك الذين لم يعرفواهم وآبؤهم عمل اليمين ولا عرق الجبين حتى في عهد سيادة العمال فان حزب العمال في الحقيقة اسم ومنهاج ليس الا ، ومن أعضائه لوردات وسيرات ومسترات من أغنى متمولى الدنيا . فلا يعقل أن برلماناً كهذا يسد حاجات شعبه . والا فأين أعماله في مقاومة تكويم الثروات الفردية غير الالتجاء الى التشريع الاستثنائي مثل الضريبة على الدخل وغيرها . وانك اذا حولت نظرك الى البرلمان الفرنسى وهو وليد الثورة الفرنسية العظمى فان منظراً محزناً يقابل نظرك من تعدد الاحزاب ذلك التعدد المهلك ، وتهافت الأعضاء على اقتناء الثروات بطرق غير مشروعة فكانت فضيحة بناما الشهيرة التي سجن بسببها دي لسبس وفضيحة أوستريك وغيرها بل ان بعض أعضائه بعد أن تولوا الوزارة وهي أرفع منصب في الامة آثموا بالخيانة العظمى وثبتت عليهم وحكم عليهم بالنفي وغيره : وقد ظهر ضعف النظام البرلماني المقرون بسوء الانتخاب إذ تغلب عليه فريق من الرجال الذين صاروا

ديكتاتورية مثل موسوليني في إيطاليا وپريمودي رافيرا في اسبانيا وغيرها في بعض بلاد الشرق . فظهر وجوب تشريع حازم يحمي النظام النيابي ويصونه لدى عواصف الاستبداد الفردي، وحسن الانتخاب. حتى يمكن الانتفاع به والا فيصير حلاماً مزعجاً للأمة وداعياً للسخرية من الاقوياء الذين يريدون الاستئثار بالسلطة الا أن حالة الفلاح والعامل لما يدعو الى الحنان والشفقة فان انتشار الفقر في تلك الطبقة مع سيادة الجهل مما يفتت الاكباد فانهما فريسة للشقاء وللأمراض الفتاكة وظروف حياتها اليومية تكاد تكون من آثار الفرون المظلمة . ولم أدرك حالة الفلاح والعامل قبل التسلط الاجنبي ولكنني لا أظن أنها وصلت الى ما هي عليه الآن في الشرق . فان أوروبا لم تكتف بالفتح الحربى والسياسى بل فتحت البلاد فتحاً اقتصادياً وكان ذلك الفتح أوسع نطاقاً من الحرب السياسية وأرسخ قدماً فان أوروبا التي انتقلت في القرن الماضي من عهد الزراعة الى عهد الصناعة والتجارة تراكت لديها المصنوعات وأرادت أن تجدد لتصريفها أسواقاً فلم تجد أروج من أسواق الشرق .

وإذا رجعنا الى تلك الصناعات نجد انها من نتائج الاختراعات والاكتشافات العجيبة التي وفق اليها الاوربيون بمحض اجتهادهم وذكائهم وليس لشرق واحد أي فضل في اختراع منها بحيث حولت نظرك وجدت اختراعاً أوريبياً أو أمريكياً أى صادراً عن الأمم الغربية .

وقد حضرت مرة مناقشة حادة بين رجل مثقف على الطريقة الحديثة وأحد علماء الرسوم فكان العالم يقول : إن الاسلام هو دين الله وأمه هي الشعوب المختارة وهي أحب الأمم اليه سبحانه وتعالى لأنه وفقها الى عبادته على أفضل الطرق وأسماها فاعترض عليه المثقف قائلاً : كيف تقول ذلك ياسيدي مع أن الله سبحانه وتعالى لم يفتح على واحد .. واحد فقط من أبناء هذه الأمم باختراع واحد نافع مثل الكهرباء أو البخار أو ما اشتق عنهما منذ ستين أو سبعين عاماً كالبرق واللاسلكى والتليفون والمحرك الكهربائى والطيارة . فسكت العالم قليلاً ثم قال : وهل نسيت علماء العرب وما أحدثوه في الفلك والكيمياء والرياضيات .



فقال المثقف : كلا ! لم أنس ولكن هذه كانت أعمالا بدائية ، ولو أنني سلمت جدلا بان الأروبيين اتخذوا ثمار قرأح العرب أو غيرهم من الشرقيين كالصينيين ، فإن هذا لا ينبغي أنهم طبقوها تطبيقا عمليا في كل ما أتجهوه وعاد على الانسانية بالخير العميم .

على أن الذي يريده الرجل المثقف على الطريقة الافرنجية هو أن الدين المسيحي لم يكن عائقا لاهل أوروبا عن الاختراع والانتاج المجدي وكذلك لا يجوز أن يكون الدين الاسلامي عقبة في هذا السبيل ، وحينئذ لا دخل للدين في ترقية العقول وتقوية الاخلاق وتربية الرجال تربية صالحة تؤدي بهم الى الأعمال الجليلة . وماذا يجدينا الآن أن يقال ان أول من اكتشف أمريكا رجل مطوحون من العرب وصلوا الى المكسيك أو البرازيل وعادوا الى ثغر « وأسفاه » بشمال أفريقيا ، في حين أن الذي اكتشف أمريكا حقيقة هو خريستوف كولومبوس وفريق من البحارة الاسبان . فيجب إذن أن نعرف أن كل الاختراعات الحديثة التي بنيت عليها الصناعات هي ثمرة عقول أهل أوروبا دون سواهم ونتيجة اجتهادهم ودأبهم ويصح أن يقال في حقهم « كل ميسر لما خلق له » لأننا رأينا أشخاصا منهم يقضون عشرات السنين في سبيل أمام جزء بسيط من اختراع مهم . وأمامنا أمثلة واضحة في اديسون وماركوني . واينشتين وهم من الاحياء وباستور وكوخ وورتنجن وفارادي وفولثيرا وهم من الموتى ..

## ٤

وقد هجم الاوروبيون بصناعاتهم وبضائعهم على الشرق الذي لا يزال حتى اليوم في دور الزراعة وهو الدور الأول في حياة الامم . وكان الفلاح الشرقي منذ خمسين عاما ولا يزال الى الآن يحرث بالمحراث الخشبي ويسقى الأرض بالناعورة والشادوف .

وبديهى أن الكثرة الساحقة من شعب زراعي تكون مستغرقة في الفقر والجمل فلا يتمكن أحدهم من الظهور بعمل نافع حتى ان المرحوم محمد علي باشا كان يأمر بخطف الاولاد من الحقول لتعليمهم في المدارس ومن هؤلاء الخطوفين والمساقين الى التعليم رغم أنوفهم خرجت فئات النوابغ الذين كانوا فخر مصر في مستهل القرن التاسع عشر وأواسطه أما الفئة

القليلة التي اشتملت على الاشداء أهل الجراءة والاقدام الذين كانوا من الهمة والنشاط بحيث لا يبالون بنسخ العادات العتيقة والاوزاع القديمة البالية ويريدون الخروج من القيود التي قيدتهم بها الاجيال السالفة فكانوا من الفقر بحيث تعوقهم قلة رؤوس الاموال عن الأعمال الجليلة وانني لا أنكر أن في الشرق أموالا مكدسة واسكن الشرقي مفطور على دفن المال ونخبته في بطن الارض وقد روى خصمنا اللودود ايثلين بارنج المسمى لورد كرومر في أحد تقاريره أن رجلا في صعيد مصر اشترى ألف فدان ودفع منها ذهاباً صفقة واحدة وجاء المال من جهة مجهولة محملا على قطع من الحجر التي تستعمل في نقل السماد . وقد شهدت في العهد الاخير ( ١٩٣٠ ) حادثة وقعت في قرية الكالج من مديرية قنا خلاصتها أن رجلا كان يخفي تسعة وعشرين ألف جنيه في بيته المبني بالطين فاتفق ابنه مع آخرين على سرقتها وسرقوها ثم اكتشفت وردت الى صاحبها : وهذا الرجل لم يفكر في استثمارها في أي عمل نافع . وغيره مئات بل ألوف في الشرق عامة وفي مصر خاصة يكومون الثروة النقدية ويضنون بها على الاعمال ويحبسونها حبسا قبيحا ويبخلون حتى على أنفسهم وأولادهم كأنهم حراس عليها لمن يبددها بدمهم أو يسرقها . ومن هذا النوع نظام الوقف المنحوس الذي يجبس عقار الواقف ليضمن أرزاق اولاده واحفاده الى أن يرث الله الارض ومن عليها ... وهذا الحبس نفسه دليل على عدم تمسك المسلمين بالقضاء والقدر وضمان الارزاق اذ لو آمنوا بذلك لعلموا اولادهم وتركهم يسعون في الارض في سبيل معاشهم كما يصنع أغنياء الاوربيين والامريكان . وكأني بالشرقي والمنصري لا يحسب المال وسيلة للكسب والربح أو ذريعة لتبادل المنافع بل كان يحسبه كنزا يجب على صاحبه أن يحرص على اخفائه ودفنه ليوم عبوس قطير ومن أمثالهم « القرش الأبيض ينفع في النهار الاسود » فكان استجلاب البضائع الأوربية وسيلة لاستخراج تلك الكنوز بحيلة شيطانية فان الاوربي عمل على تعطيل نهضة الشرق وانتقاله من طور الزراعة الى طور الصناعة فتراكت الأموال لديه والشرقي محتاج الى تلك الصناعات فاقبل مضطرا في أول الامر على شراء منتوجات أوروبا حتى النسيج الذي يصنع

منه ثيابه . والمعجيب أن القطن المصري الذي كان يباع بأقل الأثمان يذهب الى أوروبا ويعود في شكل قماش فيباع بأعلى الأثمان وربما كان قنطار القطن الذي ثمنه أربعة أو خمسة جنيهات يباع لنا بمائة أو مائتين من الجنيهات . فالفرق بين ثمن الخام وبين المصنوع يقع في جيوب الاجانب فينتفع به عمالهم وأرباب المصانع وذوورؤوس الاموال وشركات النقل والملاحة . وكان المدير بنا أن تكون لنا كل تلك الثمرة . والادهى أن الجيد من محصولاتنا لا يصل الى أيدينا فالقطن الجيد تصنع منه أقمشة لانزاهاولا يرد الينا الا المصنوع من القطن الوسط والردى . وكان رجال فضلاء أمثال المرحوم الجمال يسافر في كل عام الى انجلترا يطلب « طليية » من المصانع ويتقن في اختيار الرسوم والألوان ويشدد في عدد الخيوط التي تدخل في النسيج سدى ولحمة ، ولكنه لم يفكر يوماً في أن يصنع بنفسه نسيجاً لمتاجره . ولعله لجأ الى بعض الأغنياء فخذلوه أو حسدوه وأبوا أن يكون له الفضل في مثل هذا الابتكار . وفي حين أن أكبر السائحين كانوا يقبلون على شراء منسوجاتنا الجميلة من الحرير والقصب والمخمل ويدفعون الالف ثمناً للسجاجيد الشرقية أو الاواني النحاسية المنقوشة أو للخشب المطعم بالصدف والعاج كنت ترانا مرغمين بحكم الاستعجال والفقر والاضطرار مقبلين على شراء أحقر الأقمشة التي ترد الينا من فبريقاتهم وقد كان للمرأة المصرية الجاهلة أعظم نصيب في خراب المصري الوسط والغنى ، لان جهلها وبذخها وغرورها وبغضها للبساطة والجمال الطبيعي أغرمتها جميعاً على الاقبال على المتاجر الافرنجية لتشتري منها صنوف الحرير والمخمل والكريب دي شين والكريب چورچيت والفايلا والمانيلا والبانستا والحرير الهندي ( اسما فقط ) والدنتلات والشرايط والخرجات والخرز ومئات الاصناف من حاجات لبسها وزينتها فكانت المرأة المصرية الآخذة باهداب المودة ، تنهب أموال أسرتها المصرية لتصبها في جيوب الاجانب باسراف لم يسبق له مثيل ، دع عنك ما تنفقه في أسباب الزينة والتوايلت الخداعة من دهون ومساحيق وكحل وعطور بعد أن أعرضت عن « حسن يوسف » و « خضاب الميدان » وصنوف الطيب والعطور التي تملأ حوانيت التريعة ، وان كان معظمها مستجلباً وأسفاه

من أوروبا ولم يكن الرجل الشرقى باقل اقبالا علي خراب نفسه من هذه الجهة فانه اذا كان يلبس الملابس الافرنجية فهو من رأسه الى أخص قدمه مجهز من أوروبا فطر بوشه من النمسا وزره من تركيا وقيصه من فرنسا وربطة عنقه من ايطاليا وزرايره من تشيكوسلوفا كيا وقاش بدلته من شفيلد أو برمنجهام أو ولقرها متون وجواربه من أمريكا أولندن وحذاءه من انجلترا أو سويسرا وثيابه التحتانية الصوفية منها والقطنية من ألمانيا أو اليابان ولم يبق بعد ذلك الا صورة اللحم والدم والله أعلم كم من الأمم اشتركت في تكوينها ! دع عنك عاداته الأخرى اليومية فهو يركب في سيارة انجليزية أو فرنسية ويشرب مشروبا اسكوتلنديا ويدخن سجائر من هولاندا ويقبض على عصي مصنوعة في يوجوسلافيا

## ٥

وقد كانت اوروبا في ادخال صناعاتها ومتاجرها في بلادنا حاذقة ماكرة فانه اعرفت أن عرض البضاعة يجذب الأفكار اليها وان شراؤها يوجد فينا عادة تتأصل في نفوسنا ، والانسان بطبيعته أسير عاداته . ورهن حاجته التي تصبو نفسه اليها . وقد قرأت مرة أن رجلا أحب فتاة فقيرة جميلة وأراد أن يستولى عليها رغم ارادتها فأرسل اليها من عودها على التأتق في الملابس والمأكل ثم فارقها فاحتاجت الى مذاقته من أطراف النعمة فوقعت فريسة سهلة في حبال عاشقها الذي أمرها بما كان ينقصها مما تعودته من ضروب البذخ والرفاهية فباعته تسهاله بيع السماح وقد كان هذا هو عين الدور الذي لعبته معنا اوروبا فانهما فتنتنا بمخترعاتها وصناعاتها حتى تعودناها ثم تركتنا نجري وراءها . وقد قال أحد علماء الاقتصاد الغربي :

« ان الاطلاع على المخترعات العصرية وأنواع الأغذية والآنية الحديثة مما لم يكن موجوداً من قبل قد دعا الى ظهور حاجات جديدة ما لبثت أن ساقطت المنازع النفسية حتى رسخت واستقرت فيها »

لقد أتمت دراستي الثانوية والعليا على نور مصباح البترول ، وسكنتني منذ تعودت

القراءة على نور الكهرباء لا أستطيع الرجوع الى غاز الاستصباح الا مضطراً وفي ظروف قاهرة  
وكنت أنام قبل سفري الى اوروبا على سرير من الحديد ( صنع فيليبس من فضلك ! ) فلما  
رأيت في اوروبا أسرة الخشب ونمت عليها واستطبتها لم تعد أسرة الحديد تحمولى . وكنت  
قبل سفري الى اوروبا آكل مع أهلى على « الطاباية » أو الخوان وأجلس متربعا ، والآن  
لا أملك الا كل الا جالسا على كرسي أمام مائدة اورويية . . وقس على ذلك تلمس دلاءنا  
الذفين الذى تواطأنا بجهلنا مع اوروبا على تمكينه من أفئدتنا وعقولنا. لقد رأيت عمالا من اليابان  
في احدى البواخر الاوروية اذا حان وقت الطعام ينتحون جانبا ويأخذون فى الأكل من أوعية  
ملئت ارزا وفي أيديهم قضبان صغيرة من الخشب يلتقفون بها حبات الارز بسرعة مذهشة  
تدعو الى العجب ثم يشر بون الشاي الذى صنعوه فى آنية يابانية فعجبت لهم ، وعجبت كيف انهم  
وهم يخاطون الاوربيين ويعملون فى خدمتهم قد أعرضوا عن المرائد الحافلة بصحاف اللحم  
والمرق والاسمك والخضر والبقول واكتفوا بطعامهم هذا على طريقهم الوطنية . وقد اقنعت  
ان تمسكهم بعاداتهم ( حتى اننى رأيت بعض النبيلات منهن على ظهر تلك الباخرة يحملن  
وراء ظهورهن وسائد هي رمز الشرف ولم يتخلين عنها) لم يكن ذلك التمسك عائقا لهم عن  
مجاراة الاوربيين فى المدنية المادية والقوة الحربية وحشد الجيوش وتجهيز الأساطيل واطلاق  
المدافع .

هذا هو المصرف الأكبر الذى ذهب اليه ثروة الشرق الخزونة . على أن الاوربيين  
الذين أرسلوا الينا بضائعهم لم يقتصر وا على ذلك بل انهم أرسلوا الينا رؤوس أموالهم لغايتين  
الأولى : رهن الاراضي العقارية وامتلاكها بالتدريج وسلب أموالنا أرباحاً مركبة وفوائد  
باهظة وهذا عمل المصارف العقارية فى مصر وسواها . والثانية استثمار موارد ثروتنا المعدنية  
التي لاتزال بكراً سواء بصنع السكك الحديدية أو مد خطوط الترام أو تسيير سيارات حافلة  
( كشركة ثورنيكر وفث ) أو استخراج البترول أو تأسيس المدن التي صارت أهلة بالسكان  
منا وقد شادها عمالنا والثروة للاجانب ( هلبو پوليس ) والآف من المشروعات الأخرى

ووظيفة المصري فيها وظيفة العامل الأجير والعبد الحقير الذي يعمل بقوت يومه ويطرده في أى وقت وعند شيخوخته يلقى به ليموت في الطريق أو في أحضان عيلة هي من الفقر بحيث لا تملك ثمن أ كفانه . والاوروبى هو الرئيس والمدير العام ، والمتسلط على كل صغيرة وكبيرة حتى ان النور في عاصمة القطر المصري في يد شركة أجنبية والماء ، الماء الذي نشر به من النيل السعيد أو الشقي بنا في يد شركة أجنبية والنقل العام والخاص في أيدي شركات أجنبية وأعظم الفنادق والمطاعم ومشارب القهوة والحانات كل ذلك في أيدي الأجانب . فالمصرى في بلاده بل الشرقى في أنحاء شرقه عامل حقير ووسيط ينقل المال ويتعب فيه بعمله وجده وكده ليعطيه هيناً ليناً عفواً صفواً للسيد الأجنبي وليس الأجنبي هنا هو الانجليزي المحتل للبلاد بجيشه وقوته بل الأجنبي هنا هو كل من هب ودب ودرج من بلاد الغرب كالرومى والبلقانى ( أما كن بيع القبول المدمس ومطاعم الفقراء في أيدي جماعة من البلغار وقد أحسنوا ادارتها أيما احسان ) والايطالى والمالطى والپليانى والاسبانى والالماني وغيرهم . والانجليز قد تهاونوا مع هؤلاء الأجانب وسهلوا لهم العيش مع تمتعهم بالامتيازات الأجنبية ، ليكونوا لهم سنداً عند قيام المركات الوطنية . فان الاوروبى غير الانجليزي يعلم يقيناً انه لولا الانجليز ما كان له أن يتحكم في مصر هذا التحكم الجائر ، ربما كان له حق الضيافة والارتزاق في حدود المعقول ولكن التملك والصولة لم تكونا له ان لم يشد أزره البريطانى الذى يحلب البقرة ويسمح لغيره بحلبها أيضاً . .

وبعد أن كان اليهودى والأرمنى هما وحدهما المشهورين بتعاطى الربا والرهون في المنقول أصبحت جميع الطوائف نستغلنا من هذا السبيل أيضاً وتنسف أموال الأسر الكريمة بالاستيلاء على أفئدة السفهاء من أبنائها وأحفادها

## ٦

وكانت ثلاثة الأثافي أن أخرجت لنا اوروبا منذ عشرين عاماً صنوف المخدرات والسموم البيضاء فجاء الكوكايين والهيرويين قاضيين على البقية الباقية من أموالنا وعقولنا

وأخلاقنا . وعليك أن تقرأ تقرير رسل باشا حكمدار القاهرة لتعلم مقدار تقشى هذا الوباء بين ظهرانينا وهو وباء لم تصل الى عشر معشار أذاه صنوف المخدرات التي تعود عليها الشرقي قديماً كالتنب الهندي والأفيون والمعجون المصنوع من حشيشة الدينار وأشباهاها . وعليك أن تدخل الى احدى جلسات المحاكم الجنائية فى أنحاء القطر المصرى لاسيما محاكم العواصم لترى أن تسعين من مائة من القضايا هي قضايا المخدرات واحرازها وتعاطيها والاتجار بها ، حتى تظن أن الجرائم الأخرى المنصوص عليها فى قانون العقوبات قد اختفت وتلاشت، ونسخت من الوجود جرائم السرقة والاحتيال والتعدى على المال والعرض وأصبح العقل المصرى مشغولاً بالتخدير . . . وحتى ان بعض القنصليات الأجنبية ، بواسطة بعض موظفيها المميزين كانت لهم أيد فى تهريب تلك المخدرات دع عنك بعض قباطنة البواخو وضباطها وبحارتها وبعض ضباط الجيوش الأجنبية وجنودهم، كل هؤلاء قد اشتركوا فى القضاء علينا وعلى أموالنا وأخلاقنا وقد أعانوا علينا حرباً عواناً سوف تنتهى ان لم نتيقظ فى اللحظة الأخيرة بهلاكنا وابدتنا عن آخرنا . كما فى أهل استرايا وأهل امريكا الاصلاء .

ومعظم البلاء فى كل ما تقدم واقع على الشرقى والعربى والمصرى فهم الذين يذهبون ضحية اولى، ومثلهم كمثل الجنود العاديين فى الميدان .

أما الطبقة الوسطى والطبقة المتعلمة فربما كان لديهما شىء من المقاومة بفضل قشور العلم وبفضل البقية الباقية من المال والنشب ولاعتماد أفرادهما فى الغالب على مرتبات الحكومة التى يتقاضاها الموظفون وكادت تستغرق نصف ميزانية الدولة أو ثلثيها

وقد ادعى بعضهم أن مصر خالية من العمال لأن ليس بهامصانع وأن معظم سكانها زراع يعيشون فى المقول . وقد كان هذا صحيحاً الى أواخر القرن التاسع عشر أما من بداية القرن العشرين فقد أخذ جيش من الفلاحين يتدفق على العواصم والبنادر للسعي على القوت أو لانجذابهم نحو المدنية البراقة الخلابة بفعل الميل الى كل جديد . وكانوا يترامون على المدن كما يترامى الفراش على النار .

وقصة هؤلاء التعساء محزنة للغاية . فان قراهم في الصعيد أو في الوجه البحرى قد وصلت الى أسفل درك من الفقر والقذارة ، وقل العمال فيها لأن معظم سادتها وأرباب الأملاك فيها هجرها . والناس على دين سادتهم فقلدهم أو تعلم بمضهم تعليماً أولياً فأصبحت الحياة في القرية لاتروقه . فجاءوا الى المدن زرافات ووحداً . ومن هؤلاء تجد في شوارع القاهرة ألوفاً مؤلفة وبعضهم يعملون في العارات والمباني أجراً يربحون عيشهم مياومة وبعضهم يرتزقون ببيع الخردوات القليلة الثمن وبعضهم يبيعون أوراق النصب والبعض يرتزقون ببيع القول السوداني والحصى والحلوى والصحف وانك لتدهش إذ ترى أمامك جيشاً من العالقة الأسماء الأبدان والأبصار الأقوية البنية يحومون حول المارة والراكبين يعرضون بضائعهم الحقيمة ويبيعونها بأبخس الأثمان مما تتخيل أنه لايكفى لقوتهم في وجبة واحدة وتنحى على الأمة باللامعة لأنها لاتستثمر قوة هؤلاء الأشخاص في الأعمال النافعة المنتجة وتحديثك تفسك أن حكومة رشيدة تستطيع أن تحشد منهم جيشاً يفتح افريقيا لأنهم لايقولون في طول القامة وتقسيم البدن وقوة الجلد عن حرس الامبراطور فردريك الأكبر . وهذا هو الذي حدث فعلا في أثناء الحرب العظمى فان انجلترا جندت منهم فرق العمال ، الذين كان لهم نصيب في نصرة الحلفاء كما قال بذلك لورد للنبي في خطبة ألقاها بمصر الجديدة . واسكن مصر في زمن السلم ليست بحاجة الى جيش والمعاهدات الدولية تعوقها عن تكوينه .

وانك اذا سرت متغلغلا في الأحياء الوطنية التي يسكنها هؤلاء الناس في خط الزهار أو عشش الترجان أو ضواحي بولاق وناحية العطوف وطولون رأيت مظهراً آخر من مظاهر الحياة فان هؤلاء الأشخاص يعيشون في غرف ضيقة مظلمة وقد يحشد عشرون منهم في غرفة واحدة ويعرضون أنفسهم لفساد الأخلاق ، ومنهم يحشد جيش الجريمة فنههم تجار المخدرات بالقطاعي ومنهم الذين يؤجرون على القتل والضرب وشى الوجوه بحامض الكبريتيك ومنهم حماة الدعارة ومنهم من يأوى اللصوص ويؤلف العصابات لقطع الطريق وسرقة المنازل ليلاً ونهاراً . وهم ليسوا في القاهرة وحدها بل في جميع أنحاء القطار المصرى سبب لخلل الأمن



وذهاب الطمأنينة من النفوس وعامل من أقوى العوامل في الشر والأذى وقد اتخذ بعضهم أما كن لتعاطى المخدرات بالحقن تحت الجلد يسمونها « عيادات » وهي مغاور تحت الأرض ينتشر فيها الموت والقتل وبذل النفس والعرض في سبيل ملاذ التخدير بالسموم البيضاء وقد ذهب الكثيرون ضحية هذه المغاور التي لم تصل إليها جحور الأفيون التي وصفها مؤلف قصة روكامبول .

بيد أن هؤلاء الناس لو نظرت الى حقيقة أمرهم وهم يستحقون في نظرك الاعدام شقاً أو على الأقل عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة ، لرأيهم في نهاية الأمر يستحقون الختان والشفقة . لأنهم ضحايا الجهل والفقر ، وقد ألقى حبلهم على غار بهم . فتراهم يبيمون على وجوههم كريمة الأنعام . وكانهم بعثوا قصداً ليعيشوا في الأرض فساداً وليهلكوا أنفسهم بأيديهم ويهلكوا سواهم . وهم قصر ، لاولى لهم ومضيعون ليس لهم من يرشدهم .

ولو عرفت أن هؤلاء هم خيرة الرجولة المصرية الحققة وأن سواعدهم القوية يمكنها أن تعمل في الحقول وفي المصانع وفي الجندية ولو أنك علمتهم ربما ظهر منهم نوابغ لو علمت ذلك لا أدركت أن الداء دفين وأن الجرح أبعد غوراً مما تظن وأن الشر المنتظر أكثر مما يصل اليه حساب حاسب .

بيد أن هناك فريقاً آخر من الأمة المصرية هم الذين يعملون في العامل منذ بداية هذا القرن . وقد لجأوا للصناعات الموجودة مثل محالج القطن ومصانع الدخان والمطابع . وهؤلاء لهم قصة أخرى . فقد زار في مصر عام ١٩٠٨ المستر بريسافورد الكاتب الانجليزي الاقتصادي وكتب في جريدة الديلي نيوز مقالات وصف بها مارآه خاصاً بالعمال ونقل مقالاته الى الصحف العربية . قال :

« ليس في مصر قانون للعمال ، لأنه لم يكن بها مصانع وأغلبية الشعب تعمل في الحقول . ولكن في مصر محالج للقطن يعمل بها العمال ثلث العام أو نصفه وهم يعدون القطن للشحن والتصدير بعد حاجته وتخليصه من البذور ويعمل في هذه المحالج أطفال ونساء ورجال

فأجرة البالغ تتراوح بين ثلاثة قروش وأربعة وأجرة الصغير من قرشين الى قرشين ونصف إن كان ماهراً أما ساعات العمل فلا قيد لها فقد يعمل الكبير والصغير اثنتى عشرة ساعة أو خمسة عشرة ساعة بدون رقيب ولا حسيب وعند ازدياد العمل قد يعمل الأطفال اثنتى عشرة ساعة ليلاً فضلاً عن النهار . فأين بربك يوم الثمانى ساعات وأين الرحمة بالأطفال وقد قامت كاتبة انجليزية في ١٩٣١ تنعى على بعض المصانع سوء ماملة الاطفال وذكرت أنهم يعملون فى مصر ووراءهم قائد يسوقهم بالسياط كما لو كانوا فى عهد القراعنة أو كأنهم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة . وقد قامت بشأنهم ضجة ثم خفت صوت الاحتجاج فكأننا من سنة ١٩٠٨ الى ١٩٣٠ لم تتغير الأحوال من حيث عمل الأطفال فى المصانع المصرية .

من الاقوال الشائعة عن مصر أنها لم تغير أدوات الزرع والحراث والري التى أفتتها منذ آلاف سنين ، وقد أخذ هذا دليلاً على الجمود ، والتمسك بالقديم ، والاعراض عن الابتكار والتجديد ، وعندما اخترعت أدوات حديثة لاستخراج الحجارة من المقالع قعد المصريون عن الانتفاع بتلك الأدوات وبقيت مبانهم على ما كانت عليه وما ذلك الا لانطباع المصريين بطابع الجمود . فهم أسرى العادات والنظم المتفق عليها ، حتى فى أروع المواقف وأفجعها تراهم على حال من الفتور ، تدهش اللبيب ذا الحساسة .

ولا يقف نقد الناقدین عند هذا الحد فقد ادعى أحدهم أننا نفتقنا المثل الأعلى وأن تاريخنا القديم كله لم يخرج شخصية قوية ولم يغن العالم بشرارة عبقرية واحدة . لأن التقليد ديدننا ولأن مواهبنا محدودة بالمحافظة على كل عتيق . وقد استشهدوا بآثارنا فادعوا أن تماثيلنا كلها تصور الشخص الانسانى فى وضع واحد لا يتغير وهو وضع مصطنع مستحيل فترى الشخص جالساً أو واقفاً مطبئاً يديه ومحدقا بك كأن التمثال المحجرى منقول عن شخص من جاد . وليس بين الآثار المصرية ما يدل على نبوغ التمثال سوى التمثال الكاتب فى متحف اللوفر وهو من أعمال الأسرة الرابعة .

## ١٤

١

وأهمهم يعللون هذه الحال بأن أرض مصر هي مخلوقة النيل وهبته وصديعته فلا حياة لها الا بالزراعة فان النيل جعل من الفلاح زارعاً وكان نجاح مصر وقوقها راجعاً الى استثمار الارض فلم تستطع مصر الخروج عن هذه الدائرة دائرة الطين والزرع وأن انحطاطها العقلي راجع بلا ريب الى أسباب اقتصادية . فان الطبقات الحاكمة استولت على ثروة البلاد لمصلحة أفراد متميزين يعدون على الأصابع . وان هؤلاء الأفراد لم تكن لهم الا غاية واحدة وهي أن يستبقوا الفلاحين في العمل الدائم ، ليجلبوا لهم خيرات الارض فينفقوها هم في شهواتهم وصنوف تمتعهم ، في حين أن الفلاح يبقى طول حياته عاملاً كالرقيق أما أرباب الصناعات فقد قسموهم فرقاً ولم يجعلوا لهم افاقاً من المطامع ولم يفسحوا لهم مجال التقدم والنجاح فسرعان ماسقطوا الى مستوى منحط بين البلاده والكسل وفقد الرجاء في المستقبل . أما الكتابة والتدوين وصناعة القلم فقد أمست رهناً ارادة الامراء يستخدمون أربابها في مقاصدهم ويسخروهم في أعمالهم ككتابة السمر وتقييد أرقام الدخل والخرج ومخاطبة الفراغنة العظاء وكتابة الأحجية والتائم .

وكانت غاية المصري أن يعيش لشهواته في هذه الحياة وأن تستمر تلك الشهوات مع ما يحيط بها من التمتع حتي بعد الموت وما وراء القبور فانصرفت همه الفراعنة والمهندسين ورجال العمارة الى تشييد تلك الآثار من اهرام وغيرها وتزينها في سبيل الموت وبقاء الجسد وما غايتهم من تلك المباني المشيدة والحصون التي تناطح السماء وتحارب الدهور الا الاحتفاظ بالأجساد المنحطة وصيانة الحلى والجواهر والتحف التي أودعوها قبورهم

ولم يغب عن ذهن الناقدین لتاريخنا أن الأمم التي تغنيها الطبيعة وتوفر لها جميع

مطالبها المادية هيئات أن تتطلع الى شيء من صنوف المجد الذي تتطلع اليه الأمم الفقيرة المدفوعة بحكم الطبيعة الى الجهاد والعمل .

فان الطبيعة السخية في قطر من الاقطار تمنع أبناءه عن البذل وتوفر عليهم الجهود لأن الفرد الانساني انما يتسكرو ويتحایل ويتفنن في حالة الحاجة والعوز . انما اذا لم يكن معوزا ولم يكن تنقصه مطالبه المادية فهو بمثابة رب المال الذي يعيش من ايراده ، فما عليه الا أن يمد يده ليقطف ثمار الارض الغنية . وترى الرجل الذي لا يؤمل ربحاً سرياً مباشراً في بلاد أرضها خصبة لا يمد يده للعمل أما الرجل الذي يعيش في واد غير خصيب أو في أرض جبلية فهو يرى صعوبة العمل ولا يرجو النتيجة الا في المستقبل فيبدأ بالاجتهاد . فلذا كان غني الاقطار من البلاء على أهلها في بعض الأحيان .

لقد خلق الرجل ليجدد ويخلق ويتسكرو ويوجد مثلاً عليا ، حيث لا توجد ، فاذا ما كانت الطبيعة سخية خصبة يمسى الرجل الذي هو الزعيم والمقدم بين مخلوقاتها ، وهو لا يزيد عن أحدخدامها وكأنه جزء ضئيل في آلة صناعية مهولة لا رأي له ولا ارادة ، وبالتدرج تبطل مواهبه وتتعطل فيعود فرداً عادياً عاملاً كالرقيق

ولا يقتصر الجمود والعقم على ذكاء الاستثمار المادى بل يتعداه الى الفنون فتجذب أرضها أيضاً وتفتقر العقول فلا يظهر شاعر ولا كاتب ولا مصور وتبقى تلك الفنون النفيسة وقفاً على فريق صغير من الاغنياء الذين لديهم من المال والا رزاق ما يضمن لهم فرص الفراغ ، يتلهون فيها بالفنون ولكن هؤلاء همما بلغت ثروتهم ومهما أنفقوا من ملايين فلا يصلون الى شيء ذي قيمة من الفنون فان العبقرية الادبية والفنية لا تتبع نفسها بالمال .

غير أن زيادة الغنى ليست وحدها هي التي تقضى على العقول والمواهب بل ان الفقر أيضا يقضى على العقول والمواهب ويقبرها . وان بقاء الحكم في أيدي فرد أو جماعة يرهقون الشعب ارهاقا مستمراً في سبيل الحصول على المال سوف يعقبه العقم العقلي .

ولقد كانت المدن المصرية ملكاً للأغنياء ، ولا يؤمها الشعب الذي انتطع لخدمة

ساداته في الحقول فكانت المدن المصرية أو المكسيكية ( أشدة الشبه بين المدينتين ) مظهراً للثراء والأبهة . ولم تكن فيها طبقات من الفقراء الا مسخرين في خدمة مواليهم .

أما المدن التي تأسست في ممالك أخرى ولم تكن الطبيعية قد حبّتها من الخصب ما تمتعت به بعض المدن الشرقية في التاريخ القديم فقد كانت على فقرها السابق مصدراً للنور في العصور الحديثة ، لأن فقرها وفقر سكانها أعدم للنجاح في الجهاد وجعلهم مصدراً للأفكار الوهاجة التي دفعت بالانسانية الى الامام لأن المهاد والكفاح قد دربا أهل تلك المدن وفتحوا لهم الطريق فكانت تلك المدن مصدر المدنية الحديثة سواء مباشرة أو بالواسطة واليك أمثلة أئينا وروما واورشليم ومكة وفلورنس وباريس

## ٢

وانك اذا رجعت الى حقارة الأجور التي يتناولها العامل المصري وقارنتها بالأجر الذي يتقاضاه العامل الافرنجي في مصر ذاتها وفي العمل نفسه سمعت من يقول لك ، وقد يكون الحبيب مصرياً « كيف تنتظر أن يستوي المصري والأجنبي في الأجور هل غاب عن فطنتك ان العامل المصري يأكل الفول والطعمية ويلبس الخلقان ، ويعيش في كوخ أشبهه بقن الدجاج ، في حين ان العامل الافرنجي يأكل اللحم والبقول ويشرب النبيذ ويلبس السراويل والقبعة ويعيش في بيت محترم وله زوجة وأولاد » . . .

وقد صدق المعترض فأننا قد رضينا من شظف العيش وقشف الطعام وقنعنا بأقندر الثياب وأحقرها وأدنى السكني وأرذلها فقيمتنا لا تتجاوز مظاهر حياتنا . وقد فرط العامل المصري في أشد الاشياء مساسا بكيانه وهي القوت والثوب والسكن ، التي من أجلها يعمل فان لم تتوافر له على أسلوب مقبول فبئست الحياة وبئس العمل وبئس الوجود ! ولعمرك ماذا يرغبه على الصبر على هذه الحال والبقاء عليها أجيالا بعد أجيال ، ثم هو ينشئ أولاده عليها ويلقنهم الرصوخ لها ظناً منه أوزعما أنه لا يجد أفضل منها ، ثم ماذا تنتظر من ذلك العامل التمس الحقيير الذي يتناول نزر الأجور ويعيش العيش الشظف ويأكل الطعام القشف ؟ ألا

تراه يغدو بعد ذلك ضعيف البنية قليل العزم فأترالهمة نادر الانتاج مهتماً من في العمل ومهما  
قضى من ساعات الليل والنهار . لقد رأيت منذ عشرين عاماً عمالاً في بعض مصانع الحرير  
في مدينة د . . يعملون في بناء متهدم وقد جلسوا صفاً رجالاً ونساءً وأطفالاً وهم نحال الإبدان  
صفر الوجوه قد دب إلى أبدانهم داء السل وفشت فيهم الانيميا والبلهارسيا وهم يعملون  
صابرين طوال النهار لمصلحة رجل يعيش بجوارهم في قصر منيف محاطاً بأفخر الاثاث والرياش  
ويابس أفخر الثياب ويأكل أشهي الطعام وله أولاد كأنخنايص وكلهم من الجهل على  
أعظم نصيب فتخيلت ان الشيطان قد أوصل أنبوبة من هؤلاء الفقراء إلى شرايين هذا الغني  
حتى أفرغ دماغه القوية في جسمه وجسم أولاده وترك العمال كما تترك دودة القز بعد  
اخراج خيوطها . وقد علمت ان مصنعا فخرها قد شيد وتحسنت حال العمال .

وفي سنة ١٩٢٠ رأيت في القاهرة في جهة « السبع قيعان » خرائب يسوءونها معامل  
يعمل فيها رجال على هذه الطريقة عينها لحساب أرباب الاموال من تجار الشاهي والقطني  
فعلمت أن الامر ليس قاصراً على الارياف بل انه أيضاً في قلب العاصمة وبين سمعها  
وبصرها . وهؤلاء العمال مسؤولون عن حالتهم لعدم استقامتهم في أمورهم .

وليست طبقة العمال في مصر في عهدها الحاضر بصالحه للاستفادة من الانظمة  
الحديثة لأن معظمهم من حثالة الطبقة العاملة ولا يدخلون في حظيرة المعمل الا بعد أن  
يطرقوا جميع سبل الرزق فيجدوها منسدة في وجوههم فينقلون إلى تلك الخرائب التي لا تحسن  
الا للحشرات ويتنعون بما فيها لأنها ملجأهم الأخير . وهمم أن يخطفوا أجورهم لينفقوها في  
طعام قليل وشركثير ، وقد رأيت في مصنع حاطون الذي يصنع التحف الشرقية عاملاً يعمل  
في حفر النحاس ويتقاضى جنياً في اليوم ولكن هذا العامل الحاذق الماهر الهادئ ينفق كل  
ربحه في تدخين المشيش ، فالعامل وحده هو الخاطئ والمسؤول عن فقره .

وعلمت من بعض أرباب الاعمال ان معظم العمال المصريين اذا تحسنت حالتهم  
قليلاً أسرعوا إلى ترك العمل لينفقوا ما ادخروه في الكسل والرقاد والملاهي الدنيئة حتى اذا

جف معينهم عادوا يتكأون ويتوسلون الى صاحب العمل ليقبلهم . وإما يزايون العمل بتاتا لينتظروا عملا أفضل من الأول فلا يعودون الى مصنعهم الأول بتاتا . وانك اذا غشيت محاكم الجنح والجنائيات رأيت فريق المتهمين بالسرقة والنشل والتخدير والاحتيال كلهم من طبقة هؤلاء العمال الذين أتقنوا صنعة من الصناعات ثم تركوها الى الاجرام بحكم سوء التربية أو رفقاء السوء أو العدوي الخلقية من السجون وسواها . وقد يفضل أحدهم بمض الاعمال السهلة كأن يكون كمساريا في الترام أو في السيارات الحافلة لأن العمل فيها أهون وربحها أوفر ولأن الصناعات المصرية قد اضمحلت وماتت ولم يعد لها شأن يذكر فسدت في وجوههم أبواب الرزق وامسوا عاطلين . فالعامل هو الملووم وهو وحده المسؤول .

ولو كان العامل من هذه الطبقة يعيش بمفرده لمان الخطب وعلمنا انه فرد يذهب ضحية أخلاقه و كسله وتهاون الامة في شأنه وضحية الاستعمار الاوروبي ، ولكن قد يكون أحدهم رب أسرة وله زوجة وأولاد بل قد يكون له زوجتان أو ثلاث وله من كل منهم سلسلة من الاطفال . وقد اشتهر المصري بأنه اذا كان أعزب ووجد في جيبه قليلا من المال ، لجأ الى الزواج ، وقد تطول فترة الزواج أو لا تطول لأن باب الطلاق مفتوح وان هو لم يطلق امرأته تركها أشزراً بغير نفقة ولا قوت ولا كسوة وربما أنتق ما يربحه في زيجة أخرى أو في حب امرأة فاسدة من طبقته . ولو اتبعوا الدين ومكارم الاخلاق حسنت حالهم .

فكيف السبيل الى النهوض من تلك العثرة ، والخروج من تلك الورطة والنجاة من ذلك المأزق . ونحن نيام وخصومنا متيقظون وكلما خطا الشرق خطوة ( على افتراض انه يخطو مع انه ساكن لا يتحرك ) خطا الغرب خطوتين وعند ما شرعنا في ركوب الدرجات والسيارات تكون اوروبا قد وقعت الى صنع الطائرة والمنطاد وبلغ فن الطيران غاية الكمال ، كما حدث فعلا بعد الحرب العظمى فان اوروبا استفادت من الكارثة ببعض الفنون فخلقت الطيران المدني للنقل والبريد . وسار المقيم في القاهرة يستطيع الوصول الى بغداد عاصمة هرون الرشيد في ثمانى ساعات ! ! بعد أن كان يقطع المسافة في الصحراء في خمسين يوماً مستهدفاً

لاخطار البر والبحر والسماء وقطاع الطريق . وذلك لعمري نجاح لم يحلم به سليمان  
ولا عفاريت سليمان .

والأدهي اننا وان كنا نركب الدراجة والسيارة فاننا حتى الساعة لانملك صنعهما  
ولا تصليحهما كما يجب وقد قال لي أحد أصحاب ملاجئ السيارات بالقاهرة « ليس ياسيدي  
في مصر ميكانيكي واحد يمكنه أن يصلح ما ينتوه فضلا عن صنعه » .

## ٣

وإذا تركت حالة العمال قليلا وما هم عليه من الكذب وعدم الوفاء والاهمال والفقير  
واتهاز القرص وسوء معاملة عملائهم سواء في التجارة والمدادة والتنجيد وصنع الأحذية  
حيث تجد أسوأ أخلق واردا السلوك ورجعت بنظرك الى جهود بعض المصريين الاغنياء  
في انقاذ بني وطنهم دهشت حقاً . واليك مأساة صنع الطرايش في مصر فانه عند ما نشبت  
حرب البلقان الأولى وصمم المصريون على مقاطعة الطرايش النمساوية ولبس المرحوم محمد فرید  
بك طاقية من الصوف الابيض من صنع شمال افريقيا ودخل على حسين رشدي باشا قابله الباشا  
المذكور بالسخرية وقال له « سلامة عقلك يا فرید بك ! » ونالت منه جرائد الاحتلال اذ ذاك  
حتى لم يقو الرجل على الاستمرار واضمحلت حركة المقاطعة شيئاً فشيئاً . فرأى اسماعيل باشا  
عاصم وهو أحد أبناء الاعيان الاغنياء ان القرصة سانحة لايجاد صناعة رائجة في النظر المصري  
فتقدم بشجاعة وشمم ورنل جزءاً كبيراً من ثروته في تأسيس مصنع للطرايش في بلدة قها ،  
وقد رأينا هذا المصنع فاذا هو لا يقل عن مصانع اوروبا في شئ وقد أوجد الطربوش المصري  
الوطني حقيقة واستخدم عمالا من المصريين وأوجد حركة نشاط لم يسبق لها مثيل في تجارة  
الصوف وصناعة الاصباغ . وكانت ظروف الحرب ملائمة لانتقاع ورود الطرايش من اوروبا  
وكل أعمى وجاهل وأحق يرى بعينيه عماه أو جهله أو حماقته ان صناعة كهمه لا بد أن تنجح  
في مصر أعظم نجاح لأن كل مصري يلبس الطربوش ولو كان متوسط عدد الالبسين في مصر  
خمسة أو ستة ملايين وأحدهم يشتري طربوشين في كل عام فلا أقل من صنع اثني عشر مليون



طربوش وكان من الممكن تصدير مثلها على الاقل أضعفها للاقطار الشرقية العربية كسوريا والعراق وشمال افريقيا والهند وبعض ممالك افريقيا الوسطى والشرقية .

وقد سار العمل في طريق النجاح واستثمرنا خيراً ، وكانت فاتحة لا يستهان بها  
فماذا جرى ؟

كنت تذهب الى الطرايشي المصري وتطلب اليه أن يصنع لك طربوشا وطنيا من وارد قها . فيقتنعك ذلك المأفون اللثيم بان طربوش قها رديء ولا يعيش وقابل للتجارة بسرعة ، فاذا ألححت زاد في لجاجة ، وان لم تباشر صنع الطربوش بشخصك فهو يغشك ويدس عليك طربوشا آخر وارد ايطاليا ماركة الفسلة أو طربوش انجلينزي وارد موروم ، وكنت اذا بحثت في علة هذه المحاربة الدينية . تجد ان ربح الطربوش المصري يقل عن ربح الطربوش الأجنبي لمصلحة الطرايشي قرشا أو قرشين ، ولأن وسطاء النمسا وايطاليا كانوا يرشون الطرايشي ليطعن في الطربوش الوطني وينفر منه العميل ، وهذا نوع من الدعاية التجارية وربما يبيع الطرايشي المصري ذمته ببضع ابرات ويجارب الطربوش الوطني حتي قضى على سمعته في السوق .

ليس هذا فحسب بل ان الحكومة المصرية التي كانت تشتري عشرات الالوف من الطرايشي للجيش المصري ، اعرضت عنه تحت تأثير الضغط الأجنبي وهكذا تضافرت الظروف السيئة على المشروع حتى دب ديبب اليأس الى قلب صاحب المصنع بعد ان كان أدخل من ضروب التحسين على الطربوش ما جعله يضارع طربوش النسر .

وفجأ قوبدون انذار سابق قرأنا ان اسماعيل عاصم باشا باع مصنع قها لأرباب مصانع الطرايشي بالنمسا وان هؤلاء جاءوا الى المصنع وخرّبوه واتفقوا عدده واغلقوا أبوابه بعد أن دفعوا ثمنه . وقد ذاع في تلك الايام ان شريكا سوريا هو الذي أتم تلك الصفقة غدرًا مقابل مبلغ من المال وذاع غير ذلك . وأنا لا أعلم مقدارها من الصحة ولكنني عذرت الباشا في ذلك الحين ولم أر على مسلكه غبارًا . فهذا رجل كاد يخرب نفسه في سبيل خدمتهم وهم

يخذلونه كأن يدينه وبينهم ثاراً قديماً . وهكذا خرج ذلك البطل القدير من ميدان المزاومة الأوروبية مكسوراً مهيبض الجناح والفضل في ذلك راجع الى أبناء وطنه وملته وعما لهم .

والآن وبمناسبة المعرض الزراعى (فبراير سنة ١٩٣٨) قام فريق من الرقعاء يلبنون دعوة تشجيع الصناعات الوطنية (مرحى ١ مرحى ١١) ويطوفون وعلى رؤوسهم الفارغة طاقية من اللباد مصبوغة بالفتاء الحمراء ، ويعرضونها للبيع بخمسة قروش ، وهى لاتساوى نصف قرش ، ويلومون أرباب رؤوس الاموال من المصريين لانهم لا يريدون ان يؤسسوا مصنعاً للطرايش ليعيدوا تمثيل الفاجعة الأولى ، والادخل من هذا كله فى باب العجب ان الطرايشي الذى عرض على هذه القذارة وشكالي من الاغنياء كان يحارب الطربوش الوطني ويروج للطربوش الايطالي والنمسوى

## ٤

وإذا اتجهت قليلا شطر القرية المصرية وجدتها خرابا يبابا فان بضعة مساكن من الطين لا يدخلها النور ولا الهواء وما عرف ساكنوها النظافة قط يمر بها مجرى من الماء الآسن العكر ، المملوء بالديدان وجراثيم البلهارسيا والتيفوئيد . محاطة باكوام من الطين مملوءة بميكروب الانكاستوما ، وفى كل ناحية مستنقع يمرح فيه بعوض الملاريا والدواب تعيش جنباً الى جنب بجوار صاحبها ، والروث يمزج بالغذاء وأعين الأطفال قلما تنجو من العمى والرمد الحبيبي . هذه صورة صادقة للوسط الذى يعيش فيه الفلاح المصرى الذى يخرج خيرات مصر من قطن وقمح وقصب وحبوب وفاكهة وحالة المسجد والكتاب مما يرثى له . ودوار العمدة نفسه مهما بلغ من الغنى لا يختلف كثيراً عن هذا الوصف . فكانت نتيجة ظهور المدن وتراكم الثروة الزراعية ان الاعيان والاعنياء يهجرون ذلك المجيم الذى لا تستطيع فيه أن تشرب قطرة ماء نظيفة ، الى المدن والعواصم حيث يبنون القصور أو يشترونها ويتزوجون من النساء « البيض السمان » ويركبون السيارات الفخمة ويلبسون الثياب الحديثة ويحصلون على الرتب والاوزمة من رتبة ميرميران الرفيعة الشأن ( وكانت فى اليهود

السابقة تباع نهياراً جهاراً بتيمة معلومة) ثم يغشون المجالس ولا يلبثون أن يتعودوا شرب الخمر ولعب التمار فيطلقون بلادهم رويداً رويداً وإذا فنى المال الموروث والمدخر انقلبوا الى مياسرة الرهون فيرهنون أراضيهم في المصارف التي تعاملهم بالربح المركب ومن تلك اللحظة يصبغون نهبا للوسطاء والمرابين ومصاريق العقود والمحاكم ويعجزون عن تسديد الاقساط ثم ينقرضون واحداً فواحداً وهذه مأساة تتكرر عاما فعاما وشهراً فشهرأ. وتباع تلك الاطيان الخصبية بأبخس الاثمان في المحكمة المختلطة .

وقد خربت القرى وضعفت الزراعة وفسدت الاخلاق وأخذ صغار الفلاحين يقدون سادتهم من كبار الملاك وأخذوا يزايون أراضيهم التي ورثوها من آبلهم وأجدادهم فأصبحت القرى وقدامتصت دماؤها وجفت عروقها خربة منجحة حتى العدم . فكانت تلك المهجرة من الريف أفضع من الهجوم الأجنبي وقد جرت الفلاجين الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبدانا وقتلت روح استقلال الفلاح حتى سلبته جميع قوته وعرقلت الأسباب والوسائل التي تمنحى بها أقواتنا وثورتنا وقد قضت القضاء المبرم على حياة الزراعة والريف .

وان هذه الحال التي وصفتها عن خبرة في مصر حيث أرى وأسمع ، هي بعينها الشائعة في كل أنحاء الشرق العربي فقد وصفها كتاب المنود عن الهند أمثال المستربوز وموكرجي ووصفها الثعالبي في كتاب تونس الشهيذة وهي الحادثة في سوريا والعراق وفي كل قطر حط الاوروبي فيه رحاله .

## ١٥

لقد بدأ النزاع بين الشرق والغرب قديماً فقد هاجم الفرس أتيكا ثم أحرقت أثينا في ٤٨٠ ق . م وتمكن الأثينيون من صد الفرس في موقعة سلامين . ولما ظهر الاسكندر المقدوني أراد أن يثار لقومه بفتح الشرق ومهاجة الفرس في وطنهم فهزّمهم في موقعة جرانىكا ٣٣٤ ق . م . ثم هزم دارا في ايسوس في ٣٣٣ . ثم سقطت بابل وسوس ورسوبوليس في يد الاسكندر فاهلكها ثم فتح الهند وقهر الملك بورس

وهلك ذو القرنين في صيف ٣٢٣ قبل المسيح في حدود الثلاثين بعد أن قضى على مملكة الفرس وفتح مصر والعراق والهند .

ومؤرخو الافرنج في هذا الزمان يعدونه أول حياة المدينة الاور وبية لانه صد هجمات الشرق عن الغرب ورد غز والشرقيين في نحورهم واحتل بلادهم وأحرقها وغلب ملوكهم وقهرهم . ولولاه ولولا تمستو كليس لسكان الغرب قد وقع ضحية للبرابرة الشرقيين .

يزعم المهر كيرت ريزلر في كتاب ألفه في تفسير عظمه انجلترا الاستعمارية انها «مدينة لحسن حظها في التأليف بين النظريات والمصالح» وهو يقصد بذلك الى أن الانجليز يوقنون بين المثل العليا في المعتقدات والأخلاق وبين منافعهم ، ويجدون من سياستهم وكتابهم فربقاً قادراً على التأويل والتخريج والاجتهاد، بحيث يعملون النظريات والمبادئ منطبقة على كل زمان ومكان ، وهم في ذلك ينتفعون بمر وثنها وسهولة تمثيلها مع الحوادث فيخضعون للتقلبات السياسية ، وهم أبدأ يعتمدون في أعمالهم على آراء يتمسكون بها ، هي في الظاهر خلاصة مقنعة للعقول المتوسطة التي هي عقول الكثرة من الناس ، ويرى المدرك حقيقتها ويفطن إلى مواطن الضعف فيها فيها جمها ويهدمها ولكنها تبقى في حدود المعقول حتى

يفهم أصحابها وهم من ذكرنا من الساسة والخطباء ورجال الصحف وغيرهم من الكتاب أنها أصبحت غير صالحة فيغيرونها ، ويلبسونها ثوباً جديداً فتبدو للعيان مقبولة معقولة حتى يطول عهدها فتخلق فيجددون كسوتها بثوب جديد ، يعنى أن السياسة الاستعمارية الانجليزية ترتكز دائماً على سند يبرر العمل السيامي أو العمل الحربى ؛ وأظهر مثال على ذلك فكرة الاستعمار لخير الانسانية ، وادعاء بعضهم بأن فى أعناقهم أمانة يؤدونها للجنس البشرى وهي مأمورية التمدين والتحرير ، فان تضاءت تلك الفكرة زعموا بعد حين أنهم يتكبدون مشقة الفتوح والاستعمار لحماية الضعيف من القوى بين الأمم أو مناصرة العدل فى أمة واحدة أو حماية عرش أمير أو سلطان أو انصاف المظلومين من القلة ، فلا يدخل الانجليز مملكة ولا يفتحون بلداً الا وهم مسلحون « بوجه حق » فوجه الحق الذي يطولونه بطلاء القانون يكون صورة محدثة لفكرة الاستعمار

هذا ما فهمناه من نظرية كيرت ريزلر فى تفسير نظرية الخطر الاستعمارى ، الذى صحب الفكرة الامبراطورية من عهد الملكة اليزاباطا الى يومنا هذا ، وفى الحق أن بعض الحوادث تزيد نظرية الرجل ، فان عظمة انجلترا بدأت بانتصارها البحرى على أسطول الارمادا الأسبانية ثم انتصارها على فرنسا فى حروب أمريكا فى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر ، وهى الحروب المعروفة فى التاريخ باسم « الحرب الهندية » نسبة الى هنود أمريكا الحمر . بدأت كارثة عليهم الى أن تولى أمرهم ويليام بيت الكبير « إيرل شاتام » فأرسل إلى كندا القائد ولف وزوده بالمال والسلاح فاندحر أمامه القائد مونتكام الفرنسى فى موقعة كويك ، وأرغمت فرنسا على النزول عن جميع أملاكها فى أمريكا الشمالية ومن ذلك التاريخ ( حوالى ١٧٦٠ ) أخذ نجم انجلترا فى الصعود ، ولم يتزعزع مركزها بعده الامرتين الاولى عند ظهور نابوليون والثانية فى الحرب العظمى لدى حدوث الانقلاب الروسى وسقوط عرش رومانوف لان السوفيت زعموا أنهم جاءوا للانسانية بفكرة جديدة . فى المرة الاولى خشيت انجلترا جانب نابوليون لأنه كان يحمل الى الشرق رسالة الثورة الفرنسية بمبادئ

الحرية والائلاء والمساواة ، وهذا أعظم مما كانت انجلترا تنوى التلويح به لمستعمراتها فلم تكن انجلترا ترهب نابوليون لاجل جنوده وأسلحته وشجاعته واقدامه وعلو كعبه في القيادة ومساعدة الاقدار اياه في المواقع يقدر ما كنت تخشى دعايته التي من دأبها تنبيه الأمم الغفلة وايقاظها من سبات الاجيال المتركمة ، والانجليز أبدأً يحشون الرجل الافذاذ ، لأنهم يحملون آراء وأفكاراً ، والافكار تعمل بأقوى مما يعمل الجيش العرمرم ، لان الجيش قد يصمد وقد يفنى ولكن الفكرة تحيا وتسير ، والفكرة السائرة أخطر من الجيش الفاتح ، لانها تغزو ولا تقعد شيئاً من قوتها بل تريح رجالاً وأقواماً وتنمو كما سارت . لهذا وحده جمعت انجلترا كل قواها ووجهتها لمحاربة نابوليون — لا نابوليون القائد البطل الطموح ، طالب المجد والملك العريض ؛ ولكن بونابرت ابن الثورة ، وريبب حقوق الانسان

ولكن هل صدق كيرت ريزلر في تعليقه عظمة انجلترا الاستعمارية بحسن الحظ وقدرة الانجليز على سياسة الامم المغلوبة وحبهم للسيادة على الشعوب التي تستهدف للوقوع تحت نيرهم ؟ نعم صدق ولكن ليس هذا كل التفسير ، فقد أخذ الانجليز يقلدون الثورة الفرنسية ، فينا دون أنى ذهبوا بالحرية ، وقد يحررون أفراداً معدودين وهم أثناء ذلك يطؤون أقواماً في ثنايا الامبراطورية ، وقد يعتقون الرقيق من ربقة العبودية المحقونة ، ثم يقيدونه غداة عتقه بانظمة اقتصادية وسياسية أشد في حقيقتها من سلاسل رقه الاول

يدعى مؤرخ ألماني اسمه ويلهلم ديبلوس درس الحياة الانجليزية في انجلترا والمستعمرات أن حظ المستعمرات الانجليزية أفضل من حظ سواها وأن رعايا انجلترا أسعد حالا وأوفر نصيباً من العلم والحرية والميسرة من عداهم من رعايا فرنسا وهولاندا وبلجيكا والمانيا وايطاليا والبورترغال ، وبنى على هذا « نظرية أخف الضررين » التي تنتهى بتفضيل انجلترا في الاستعمار على سواها وهي نظرية جارحة مؤلمة فوق كونها فاسدة ، فقد يلقاك أحد الخوارج من الشرقيين فيقول لك « الحق أحق بأن يتبع يا أخي ! ان حكم الانجليز أفضل من حكم غيرهم . . تصور انك خاضع لدولة كذا أو كذا ، أفكنت تقدر على كيت وكيت

من النعم المعنوية والمادية ، التي أنت متمتع بها ؟ .. هؤلاء الخوارج الذين في قلوبهم مرض وفي بصائرهم زيغ ، يفرضون أولاً وقبل كل شيء ، أن الشرقي محكوم بالفطرة ومملوك بإرادة أزرية محتومة ، فخير له أن يحمده حظه على نعمة الاستعمار الانجليزي الذي هو أفضل من غيره . ونحن لا نجادل هؤلاء لان فساد حججهم ظاهر والدافع لهم على لبس مسوح المبشر معلوم لنا ولكم . ولكننا نجادل المير ويلهم ديبلوس الذي يمدح الاستعمار البريطاني لانه أقل ضرراً من غيره ، فقد غاب عن ذهنه أن المستعمرات الانجليزية أنواع منها ما هو خاص بأجناس سكسونية أو أوروبية مثل كندا واستراليا ونيوزيلندا وهذه سلكت انجلترا معها مسلك المساومة واللاينة والمحاسنة بعد ما كابدت من ثورة أمريكا ( الولايات المتحدة ) التي دارت رحى حروبها من ١٧٧٥ الى ١٧٨٣ والنوع الثاني مستعمرات شعوبها تنتمي الى أجناس ومعتقدات أخرى كالهند وسيلان وزنجبار وأفريقيا الشرقية وغينا وهذه الأمم تعاملها انجلترا معاملة خاصة في سياستها وتعليمها وحكومتها ، قد لا تختلف كثيراً عن معاملة هولاندا لاهل جاوه وفرنسا لاهل الجزائر ومراكش ؛ وأن الذي يوغر صدر المؤرخ المنصف على الممالك الاوربية في مستعمراتها هو حكمها لشعوب تخالف جنسها ومعتقداتها فلو أن هولاندا حكمت شعباً أوروبياً هل كانت تسلك في معاملته مسلكها في معاملة أهل جاوا والهند الشرقية ؟ وهل مسلك فرنسا في الازراس واللورين ( مهما صرخ المطالبون بالاستقلال ) يقرب في شيء من معاملة فرنسا لاهل الجزائر أو أهل سنجال ؟ طبعاً لا ! إذن أفضلية الحكم البريطاني ان كانت هناك أفضلية ظاهرة فهي في مستعمرات أوروبية بالجنس والفطرة ، دها هي إيرلاندا الجزيرة الزمردية التي لا تبعد عن لندن إلا بضعة أميال لم تتل استقلالها الذاتي الا بشق الأنفس وبعد أن خربت مدائنها العامرة وفي عطاء رجالها وقاست في الحروب الاهلية ما لا يزال ذكره حاضراً في أذهاننا

ولعل المر ويلهم ديبلوس لم ينس قانون الاصلاح الذي أدخلته انجلترا على مستعمراتها في سنة ١٨٣٢ بعد أن رأت تغير الأحوال في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، فقد

أرغم ساستها على اعطاء الاستقلال الداخلى أو الحكم الذاتى لكندا و استراليا و نيوزيلاندا وجعلوا لكل من هؤلاء دستوراً وبرلماناً ووزارة مسئولة أمام النواب (وهذا هو الشيء الذى يريد الانجليز اعطاءه للهند الآن) بعد ان أعطوه لاستراليا واخواتها بمائة سنة ، والهند تأباه وليست فكرة الاستقلال الذاتى حديثه العهد ، انما ترجع الى أوائل القرن التاسع عشر واليك نصاً يؤيدنا من خطبة أحد الوزراء الانجليز سير ويليام مولزورث فى سنة ١٨٥٠ قال :

« يجب علينا أن ننظر الى مستعمراتنا ، كأجزاء من الامبراطورية ، يسكنها رجال ينبغى أن يتمتعوا فى أوطانهم بما يتمتع به كل انجليزى فى انجلترا ، وما دام هؤلاء المستعمرون لا يتدخلون فى ادارة شؤوننا المحلية ، كذلك لا يجوز لنا أن نتدخل فى ادارة شؤونهم المحلية ، ان لنا الحق فى الاحتفاظ بادارة شؤون الامبراطورية العامة ، لأن هذا الاحتفاظ ضرورى لصيانة الوحدة الامبراطورية ولأننا أغنى وأقوى جزء فى الامبراطورية وعلينا أن نتفق على المطالب العامة ، وان صح للبرلمان البريطانى أن يستأثر بالسلطة الامبراطورية ، فأرى من دواعى قوة الامبراطورية أن يكون فى برلماننا ممثلون للمستعمرات ، فتشعر بأنها والشعب الانجليزى كل لا يتجزأ » اه كلام الوزير الانجليزى من خطبة فى أثناء القراءة الثانية لقانون حكومة استراليا ١٨ فبراير سنة ١٨٨٥ ألقاها فى البرلمان الانجليزى

هكذا كانت الفكرة الاستعمارية فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولعل النبذة التى اقتبسناها من خطبة سير مولزورث أبلغ وصف للنظرية الاستعمارية الانجليزية فى عهدها وهى طبعاً فكرة متناهية فى الحرية فى ظاهرها ولكنها تنطوى على الخوف من انقلاب المستعمرات كما انقلبت الولايات المتحدة

وأعجب تطبيق لنظرية مولزورث انتخاب أعضاء ايرلنديين للبرلمان الانجليزى ، باعتبار ايرلندا جزءاً لا يتجزأ من المملكة ، مع أن الارلنديين الوطنيين كانوا يابون ذلك وما زالوا يابونه حتى صار لهم برلمان خاص بهم فى عاصمة بلادهم .



وكان من رجال السياسة الانجليز آخرون يبغضون الاستعمار ويجاهرون بذلك ومنهم ريشارد كوبدن زعيم الفرقة الحرة في منشستر ومن أقواله المأثورة ان أسعد يوم في تاريخ انجلترا هو اليوم الذى لا يكون لها فيه فدان أرض في آسيا ، كما كانت عظمى أمانته أن تقطع كل علاقة سياسية بين انجلترا وكندا في أسرع فرصة ممكنة.

وربما سارت انجلترا في طريق وسط بين نظرية مولزورث ونظرية كوبدن فيخف ضغطها عن خلق الله في الشرق والغرب ، لو لم تحدث حروب اوروبا في سنة ١٨٧٠ فقد ظهرت المانيا بوطنيتها وحر بيتها وأمباطورتها ورغبتها في التوسع وظهر بيسمارك ومولتكبه والملقة الأولى من سلسلة هوهنزرن الرهيبية وأيقنت انجلترا ان فرنسا لن تغتفر مذلتها ولن تنسى ثأرها ، وأن الشعوب الأخرى ستستيقظ ثم تنهض ، وان صليل السيوف وصدى أصوات المدافع سوف يتجددان بعد حين في اوروبا وغيرها ورأت تدخل بعض الممالك الاوربية في المحيط الهادى فخشيت استراليا ونيوزيلاندا على استقلالهما فأرغمت انجلترا من جديد على تعديل خطتها الاستعمارية بإشراك المستعمرات المستقلة في شؤون سياسة الامبراطورية وخافت عاقبة الحروب المفاجئة فنبتت فكرة « المواصلات الامبراطورية » وكان البخار حديث العهد . وكذلك أسلاك البرق فحسنت استعمالها وأتقنت كل اختراع من شأنه تقريب البعيد وتسهيل شقة الأسمفار ليكون ذلك لها عوناً لدى نقل الجنود والذخيرة من أدنى الامبراطورية الى أقصاها ، وقد مضى على نظرية مولزورث ثلاثون عاماً ، وحل محله غلادستون زعيم الأحرار في النصف الأخير من القرن التاسع عشر فتوطد حب الامبراطورية في قلوب الانجليز وصار مبدأ ثابتاً لدى الأحرار والمحافظين على السواء فألقى غلادستون في ١٧ مارس سنة ١٨٨٠ خطبته الشهيرة في ادنبرج التي قال منها :

«أعتقد أننا جميعاً متحدون في تعلقنا بالملكة العظيمة التي ننتمى اليها ولتلك الامبراطورية الكبرى التي وضعت أمانة في أعناقنا، وما هي الا أمانة وتكليف من العناية الآلهية كأعظم وأخص ما كلف به فريق من الجنس البشرى ، وكما أذكر تلك الأمانة وذلك

التكليف أشعرا بأن الألفاظ تعوزني وان الكلام عاجز عن التعبير عما يخالج نفسي، لا أستطيع أن أصارحك بما أعتقده من نبل الميراث العظيم الذي كان من نصيبنا ولا عن قداسة الواجب علينا في الاحتفاظ به .

«وان تسمح نفسي بالتثزل به الى مستوى الجدل السياسي لأنه جزء من كياني بل من لحمي ودمي ومن قلبي وروحي ، ولأجل بلوغ هذه الغاية عملت دائماً طول شبانتي ورجولتي وأكثر من ذلك ، الى أن شابت كل شعرة في رأسي وفي هذه العقيدة وهذا القيام المقدس حيث ، وبهذه العقيدة وهذا القيام المقدس سوف أقضي بينكم ! » اه . نقلا عن جريدة التيمس في ١٨ مارس سنة ١٨٨٠

انك لا تسمع وزيراً يتكلم ، ولكنك تسمع كاهناً أو واعظاً يبشر وهو مقتنع أعظم اقتناع ، بل مؤمن الايمان كله ، رجل خالط حب المستعمرات لحمه ودمه ومالك قلبه وروحه وهو يعتقد ان مأمورية الاستعمار ليست عملاً سياسياً ينطوي على مصالح عادية . بل انه أمانة وتكليف سماوي ، كما كان يعتقد ملوك فرنسا وانجلترا أنهم انما يكمون الشعب « باسم الله وارا دته » وكما كان يعتقد امبراطرة الصين أنهم أبناء السماء ، ومن هو الذي يتكلم ؟ هو غلادستون رئيس أحرار انجلترا العظيم ، الذي رسم بهذه الخطبة خطة الاستعمار لالحزب فقط بل لجميع الاحزاب السياسية من محافظين وأحرار وغيرهم ، كما أثبتت لنا الحوادث

## ٢

كان كثيرون من الشرقيين يبنون صروح الآمال على تغيير الحكومة الانجليزية وانتقالها من أيدي المحافظين الى أيدي الاحرار ، باعتقاد ان انتساب الاحرار الى المعنى الذي تتوق اليه أنفسهم يمتد حتماً الى مبادئهم في السياسة الخارجية وتطبيق نظريات الحرية في معاملة الشعوب المغلوبة أو الأمم المحكومة ، وهم معذورون في ذلك لأن كلمة الاحرار وما يشتق منها من الألفاظ والمعاني تغرى الرجل البسيط ، وغاب عن ذهنهم ان التفريق بين المحافظين والاحرار يرجع الى طريقة الحكم الداخلية في بلاد الانجليز نفسها ولا يمتد الى

خارج حدود الجزر البريطانية ، وها نحن قد أثبتنا نبذة من خطبة مستر ايورت غلادستون زعيم الاحرار في القرن التاسع عشر ، وان كان ينقصنا الدليل بعدها فاليك ما حدث في سنة ١٩٠٥ عند ما انتقل الحكم من يد بلفور المحافظ وابن اخت سالزبري ورييب بيت سيسيل الى يد سير هنري كامبل بانرمان زعيم الاحرار في أوائل اقرن العشرين ، فقد تنفس كثير من في الشرق ، وظنوا ان نظام الحكم سيتحور تبعاً لتغيير الدولة ، فأسلم بانرمان زمام وزارة الخارجية الى ادوارد جرای الشهير الذي كانت له في توطيد أركان الاستعمار والسياسة الامبريالية مواقف مشهورة وكلمات جوامع لانزال ترن في آذاننا وكان ادوارد جرای من أصفي الاحرار مبدأ وأقدر ساستهم على تسيير دفة الامور ، وما زال حاكماً بأمره في الشؤون الخارجية حتى أعلن الحرب على المانيا وسائر الحرب العظمى حتى شبت عن الطوق وشارفت على دورها الاخير فأصيب بالسكهم ، وأمسى كفيفاً فتخلى عن العمل لسواه ، وطالما صرح سير جرای ( وقد صار الآن لورداً ) بأن سياسة انجلترا الخارجية لا تتغير ، ومسلحها نحو الممالك المحكومة لا يتحول ، وان مصالح الامبراطورية خارجة عن حومة المنازعات البرلمانية وكان صادقاً ، ولم يقل الا الحق ، فان انجلترا في عهد الاحرار لم تخسر شبراً من أملاكها لاراء البحار ولا أمامها ، بل كسبت بفعلهم مستعمرات جديدة في افريقيا وآسيا ، وآراء سير جرای مشروحة بما فيه الكفاية في مذكراته التي نشرت أخيراً ونقلت الى اللغة العربية وقد نسج علي منواله أحد زعماء الاحرار الانجليز في التصريح بالخطة السياسية وهو سير هير برت صمويل المندوب السامي السابق في فلسطين فقد ألف كتاباً ذا شأن عنوانه « سياسة الاحرار » أو الليبراليزم ، قدم له لورد اسكويث زعيم الاحرار التتوي بفضل طويل فشرح سير هير برت نظرية الاستعمار البريطاني في عهد الحكومات الحرة ، وحدد مسؤولية الاحرار في موضوع الامبراطورية في الصفحتين ٣٤٣ و ٣٤٤ قال ما ترجمته :

« اذا صح أن مبدأ الامبريالزم ينطوى على العزم المؤكد والحزم الصحيح في الدفاع عن الامبراطورية التي نملكها وعلى عاطفة الاتحاد بيننا وبين المستعمرين الانجليز ؛ والرغبة

الشديدة في تقدم الامبراطورية بدون الحاق اذى بالغير وتنمية التجارة البريطانية دون العمل على خراب الشعوب المحكومة ، واستمرار السلطة البريطانية والنفوذ الامبراطورى مع تمهيد الطريق للتوسع في حريات الأجناس الوطنية ( كذا ) وعدم السعي في مهاجمة جيراننا والكف عن المغازي والفتوحات في سبيل امتلاك اراضى جديدة الا اذا زادت منافع تلك المغازي حتما عن مضارها ( كذا ) مع اتقاء سفك الدماء ما أمكن ، واذا كانت الامبريالزم مدفوعة بالتحمس الشريف الذى يقبل النقد في سبيل الاصلاح ، اذا صح ان الامبريالزم ينطوى على ذلك إذن وجب علينا أن نصرح بدون مخاطرة ولا خوف من الانكار أن حزب الاحرار الانجليزي هو حزب أمبريالست استعماري »

وهربرت صمويل مؤلفاً ، يعد في نظري ، خليفة لغلادستون سياسياً وخطيباً ، فقد تقدم لوضع أساس للعبداء الحزبي في غير تردد ولا تلوذ ، وعندنا ان كتابه يعد نهراً لكل سياسى شرقي يريد الوقوف على سياسة الانجليز الاستعمارية فهو يؤكد ان الامبريالزم والليبرالزم مبدأ واحد وانهما ينطويان على القواعد الآتية :

أولاً — شدة اليقين في الدفاع عن المستعمرات .

ثانياً — عاطفة الارتباط والتوحيد بين الاحرار والمستعمرين ( أى المقيمين في

المستعمرات )

ثالثاً — العمل على تقديم الامبراطورية بدون الاضرار بالغير على قدر الامكان ،

والمقصود بالغير هنا الأمم المغلوبة أو المحكومة من الأجناس الأجنبية

رابعاً — التوسع في التجارة الانجليزية وايجاد أسواق لها بدون اهلاك متاجر

الأمم المحكومة

خامساً — عدم المساس بحقوق الجيران من الدول الاوروبية لاقاء الحروب التي

تؤدى الى زعزعة أركان الامبراطورية

سادساً — اتقاء الفتوحات التي فيها اهراق الدماء وتكبذ المتاعب ، الا اذا كان في تلك الفتوح نفع مؤكد

سابعاً — استعداد الاحرار والامبريا لست لقبول كل رأى فيه نصيحة الاصلاح يساعد على تقوية الامبراطورية وخلصها من الشوائب وأوجه الضعف

## ٣

إذن وجب علينا وعلى كل شرقي أن ينزع من فكره معونة الاحرار في أي ظرف سياسي ولهذا لانعجب ولا ندهش اذا علمنا ان لويد جورج زعيم الاحرار الحالى وقف عتبة كؤوداً في سبيل أي اتفاق أو معاهدة تنطوي على شيء من الخير للبلاد المغلوبة ، وليس صحيحاً في نظري ان الدافع له وجود رؤوس الاموال للممولين الاحرار في أي بقعة من بقاع الارض كالسودان أوغياها فان رؤوس الاموال وان كانت ذات شأن عظيم في نظر أربابها ولكن الاحتفاظ بها ليس المحرك الاول وانما المحرك الاول هو تلك المبادئ السبعة التي شرحها صمويل في كتاب منشور

لأن الانجليز دائماً يخضعون التدبير المالى والاقتصادى للمصلحة السياسية ، لان السياسة أساس والمال بناء يشاد على الاساس ، والى هذه الفكرة كان يرمى جوزيف تشمبرلين في سياسته «الحماية الجمركية» فكان يقصد بذلك الى شد أو اصر أجزاء الامبراطورية الى بعضها بعضاً بالاتحاد الجمركى ، تقليداً لخطة بيسمارك الذى أنشأ الاتحاد الاقتصادى بين ممالك المانيا المختلفة قبل أن يعلن اتحادها السياسى ، وعلى خطوات تشمبرلين سار ليفيف من سياسة الانجليز الذين اتخذوا مجلة « المائدة المستديرة » لساناً لحالم . .

بيد أن الحكم الذاتى الذى تمتعت به المستعمرات الانجليزية في كندا واستراليا ونيوزيلاندا خلق في أنفس أهاليها عاطفة وطنية وفى سنة ١٩٠٠ اتحدت الولايات الاسترالية على هيئة ولايات متحدة فارغمت انجلترا على قبول الفكرة خوفاً من النتائج التى قد تترتب على مقاومتها ، وكان بين سياسة الانجليز رجال ينظرون الى المستقبل فأذاعوا فكرة المؤتمر

الاستعماري في ١٨٩٧ ودعوا الى لندن رؤساء وزارات المستعمرات التي تحكم ذاتها وقد ظهر للبيان أن سياسة الاستعمار ستلبس ثوباً جديداً يتفق مع تغير الزمن ، وقضوا عشر سنوات في تمهيد السبيل لقبول التطور الجديد وفي سنة ١٩٠٧ اجتمع المؤتمر الاستعماري الثاني في لندن وقرر المجتمعون عقد المؤتمر مرة في كل أربع سنين وبدلوا اسم المؤتمر الاستعماري فصار المؤتمر الامبراطوري وان الحكومات التي تشترك فيه ( كندا واستراليا ونيوزيلاندا ) صارت تدعي دومنيون لامستعمرات وان رئيس المؤتمر يبقى دائماً رئيس وزارة انجلترا لا وزير المستعمرات وذلك لأن كلمة مستعمرة أصبحت منبوذة ومذلة لمن تطلق عليهم فسا على الانجليز الا أن يبدلوها بغيرها لانهم خبيرون بعلم النفس ويعلمون أثر الألفاظ في العقول ، وهذا يذكرنا بما كان يقوله سير فالتين شيرول من ان بعض الشعوب المحكومة تقنع باللفظ دون المعنى ، بيد أن هذه الألفاظ وان كانت في ذهن واضعيها قليلة الأثر الا أنها تنشى ، على الرغم منهم حالات نفسية جديدة وأوضاعاً قانونية لم تكن في الحسبان .

بيد أن السيامي الانجليزي لا يكثر لذلك اكثرائه للواقع ، ففي سنة ١٨٨٥ تطوع جنود من استراليا وكندا للحرب في السودان وفي سنة ١٩٠٠ تطوع جنود استراليون في حرب البوكسر بالصين ، وفي حرب البوير اشترك الاستراليون والكنديون مع الانجليز ، وأخذ رجال السياسة الانجليزية يقنعون أصحاب الدومنيون بأن الدفاع عن سلامة أوطانهم ليس محصوراً في شواطئهم ولكنه يمتد الى وراء البحار فحياتهم واستقلالهم تابعان لقوة إنجلترا بأساطيلها وجيوشها ، وما دامت « الأم الرؤوم » في عز وسؤدد فهم في أمان واطمئنان ، فنتج عن ذلك أن مجلس أركان الحرب الانجليزي انسم نطاقه فصار في سنة ١٩٠٧ مجلس أركان حرب الامبراطورية ( وهو عين موعد اجتماع المؤتمر الامبراطوري الثاني وقبيل الحرب العظمي بسبع سنوات )

فجمع مجلس الحرب الأعلى لفيها من الضباط من جميع أركان الامبراطورية ودرهم تدريجياً منسفاً علي وتيرة واحدة ، وطاف كتشنر بعد ذلك ببضع سنين فزار استراليا

ونوزيلاندا وأسس مدرسة للضباط وأوعز الى حكومة الاتحاد الاسترالى بتشريع المراتب العسكرية الاجبارى واقتضت أثرها نيوزيلاندا وجنوب أفريقيا ، فاستفادت إنجلترا من كل ما تقدم وقوف الملايين من الرجال في سائر انحاء الامبراطورية على قدم الاستعداد للحرب فلما كانت سنة ١٩١٤ أرسلت الدومينيون مليون رجل للبيدان وأتفق عليهم ٨٦٢ مليوناً من الجنيهاً الانجليزية أي أن الجندي الامبراطورى الواحد تكلف أثناء الحرب ما يقرب من تسعمائة جنيه - فلما بذلت الدومينيون هذا المال وهذا العدد العديد من الرجال رأيت أن لها حق الاشتراك في ادارة شؤون الحرب وفي تلك السياسة الخارجية الامبراطورية التي أدت الى اشتعال نيرانها ، ولم يكن هذا التطور الا نتيجة محتمة لتغيير كلمة مستعمرة بكلمة دومينيون - وخلقوا في لندن مجلس وزراء امبراطورى مكوناً من رؤساء وزارات الدومينيون أعضاء يرؤسهم رئيس الوزارة الانجليزية

وانبني على ذلك ان وزراء الدومينيون جلسوا في مؤتمر الصالح بفرساي ووقعوا على المعاهدة بأسمائهم وصفاتهم ولما تألفت عصبة الامم دخلت كل دومينيون بشخصيتها مستقلة عن سواها ، وما فتئت وزارة إنجلترا منذ سنة ١٩١٩ تستشير حكومات الدومينيون في كل أمر ذي شأن ، واتسع نطاق الحكم الذاتى حتى وسع تعيين سفير كندى للولايات المتحدة بعد ان كان سفير إنجلترا يمثل كندا وسواها لدى البيت الأبيض وفي سنة ١٩٢٥ انشقت وزارة المستعمرات فصارت وزارتين واحدة للدومينيون وثانية للمستعمرات (١)

وبهذا نصل إلى أن تطبيق مبادئ الحرية والمساواة على المستعمرات التي يقطنها البيض قد نجحت وأثمرت وأتخذت إنجلترا من ورطة الحرب الكبرى وشدت أزرها في مؤتمر الصلح وفي عصبة الامم ، ففي كندا امتزج العنصران الفرنسى والانجليزى حتى صارا شعباً واحداً وكان سير ويلفريد لورييه الفرنسى الجنس أعظم سياسى كندى وحل محلاً متميزاً

(١) وفي سنة ١٩٣١ صدر قانون وستمنستر الذى غير كيان الدولة البريطانية وتكلمنا عنه مطولاً في غير هذا المكان .





## ١٦

لقد لفتت الفرس أنظار العالم المتحضر ، ولا سيما أهل الشرق في العصر الحديث ،  
 للمرة الاولى في أوائل القرن العشرين عند ما منح الشاه الدستور لبلاده في سنة ١٩٠٧ ثم  
 استخلف ولده محمد علي واستحلفه أن يحافظ على تلك الامانة للأمة .

ولما كانت للفرس علاقة عظمى بتاريخ الاسلام منذ نشأته الاولى الى الآن فقد  
 أثرنا أن ننظر قليلا في تاريخ تلك البلاد معتمدين على جملة مراجع منها ما كتبه ما كسمولر  
 المستشرق الالماني وهير ودوت المؤرخ اليوناني والبارون جوينو المؤرخ الفرنسي صاحب  
 كتاب الفلسفة والاديان في آسيا الوسطى ومادونه الكاتب الاديب والشاعر الفاضل ميرزا  
 رفيع مشكي والاستاذ العالم المغفور له ادوارد براون مؤلف كتاب « عام بين الفرس »

هاجرت القبائل الآرية التي كانت نازلة قبل التاريخ حول « البامير » فنزح  
 أكثرها الى أطراف الهند ويران وكانت أكثر القبائل النازحة الى ايران نفوذاً وقوة قبيلة  
 پارسيان فقد نزلت في جنوب ايران في القسم الذي يسمى الآن فارس أو پارس واتخذت  
 مدينة « استخر » مستقراً لها وعاصمة سلطانها . وجاء الميديون فانتشروا في الغرب والشمال  
 الغربي لايران واتخذوا مدينة هاکاماتانا وهي المعروفة الآن باسم « همدان » عاصمة لملكهم .  
 وانتشرت قبائل أخرى على شواطئ بحر الخزر ، ثم باختر وبلخ ثم افغانستان وخوارزم وما  
 عداها وسموا انفسهم اريان واتخذوا لهذه الممالك اسم ايريانا ومن ذلك يأتي اسمها الآن وهو  
 « ايران » واسم أهلها ايرانيان .

وقد بدأ نفوذ پارسيان يقوى على من عداهم من مجاوريهم منذ سنة ٥٥٠ ق . م .  
 حتى ان ملكهم كورش الاكبر تمكن من اجتياح بلاد الميديين فخلع سلطانهم استياع

وأسس سلطنة هخامنشى .

وقد انتشرت الديانة الزردشتية بين البارسيين أكثر من غيرهم وقد عالجننا الزردشتية بإيجاز في صفحتي ٥١ و ٥٢ من هذا الكتاب وأحدث المعلومات تدل على ان زردشت كان من أهل آزر بيجان وان وفاته وقعت في أيام اجتياح البارسيين لبلاد الميديين وقد انتشر مذهبه في بلخ عند ما دخل كشتاسب في دينه ومن بلخ انتشر هذا الدين في جميع أنحاء ايران وخصوصاً فارس في عهد السلاطين الهخامنشيين . واذن تكون كلمة پارسي التي تطلق على الفرس المهاجرين الى الهند ( ومعظمهم في بمباي ) ليس معناها زردشتي وأما كلمة مجوس الشائعة فأصلها بافارسية « مغ » ومعناها الحرفي أو اللغوي « حارس النار المقدسة » وهي تطلق على المبشرين بالدين الزردشتي ، فليس البارسي مجوسياً واذا قلنا سلمان الفارسي أو البارسي فليس معناها المجوسي بل معناها سلمان الذي أصله من پارس أى من تلك القبيلة التي نزلت الى جنوب ايران عند رحلة القبائل التي ذكرناها آنفاً

أما كلمة عجم فقد أطلقتها العرب على كل أجنبي عرفوه ولما كان احتكاكهم بالفرس أكثر من احتكاكهم بغيرهم من الاحاب فقد أطلقت كلمة عجم على الفرس مجازاً من قبيل اطلاق اسم السكل على الجزء . ولا تزال كلمة العجمة معناها في العربية الابهام أو الغرابة أو البعد عن العربية وأهل افرس لا يحبون أن يوصفوا بأنهم أعجم .

وكانت عرب الجاهلية مقسمة قبائل متنافرة متباغضة فتمكنت الدول القوية من استعمار بعض بلاد العرب فكان لليونان والرومان والفرس نصيب من بلاد العرب بالاستعمار والاستغلال والاذلال . وكانت دولة الاسرة تسوم بعض قبائلهم سوء العذاب فيما جاوزها من شرقي الجزيرة وشمالها وجنوبها . وما زالت الحال كذلك حتي جاء محمد بن عبد الله ﷺ فالتصف العرب لا تمسهم وانتقموا ثم انتصروا في يوم ذي قار ويوم القادسية .

ولسكن العرب والفرس كانوا اعقل من أن يتطاحنوا أو يتباغضوا بعد انتصار الاسلام على دولة الاسرة فحصل بينهم التآخي والامتزاج والمحبة واستفاد الفرس من سلاطة العرب

ونفوذهم ودينهم وآدابهم الجديدة ومعتمد الذي جاء بالتوحيد وقضى على الوثنية الشمطاء كما استفاد العرب من حضارة الفرس وتدينهم وتنظيم جيوشهم ودواوينهم وأنظمة حياتهم ومؤسساتهم . وبقوة الاسلام العجيبة امتزجت الامتان وصارتا أمة واحدة وكان لابناء فارس أوفر نصيب في خدمة الدولة الفتية وكان لهم القدر المعلى في ترقية الحضارة الاسلامية والآداب العربية بنفس اللغة العربية ومنهم ظهر الأئمة في التفسير والحديث والفقہ والمغة

ومن العجيب أن دين الاسلام على بساطته وقلة تكاليفه وسهولة ماآخذه وحدائه عهده قد تغلب على جميع العقائد السابقة له وبالاخص على المجوسية التي كان يدين بها أهل فارس وهي العقيدة التي جاءهم بها نبيهم زردشت في كتابه المكتوب بالذهب في اثني عشر ألف مجلد على ما قاله المسعودي مبالغاً ، وهو كتاب البستاه الذي يسميه ياقوت البستاق باضافة القاف في محل الجيم . وهذا الكتاب هو المعروف عند الافرنج باسم Avesta . ومن الطبيعي أن بعض هؤلاء المجوس استمروا متشبثين بدينهم فهاجروا الى الهند وأقاموا بومباي كما قدمنا ويبلغ عددهم الآن نحو مائة ألف ومنهم كثيرون من المجاهدين في سبيل الهند

## ٢

وان كان الشعب الفارسي حديث العهد بالنهوض في الجيل الحاضر فقد كان من أوائل الشعوب التي تحفزت للنهوض فقد تواطأ الروس في عهد القيصرية والانجليز على اقتسام تلك البلاد الايرانية وقد وقع بمض رجالها الرسميين معاهدة لوندرة التي تقر هذا الاقسام غير ارادة البلاد وبدون علمها فهبت الأمة من رقتها وقامت قومة الأسد الرئبال ( الذي هو شعارها في علمها ) فاستجمعت صفوفها ووحدت جهودها وتفضت للمعاهدة ومزقتها ارباباً وبذلك تفضت عن نفسها غبار العار وعادت الى الحياة وضربت المثل لغيرها من أم الشرق

كان ناصر الدين شاه امبراطورا لفارس وقد تولى في ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ . ومات رغم أنه في سنة ١٣١٦ هـ . وقد قاسى أهل ايران في عهد هذا الملك كل أنواع الظلم والاستبداد وكان كثير السياحة في أوروبا ولكن تلك السياحات بدلاً من أن تدله على طرق الخير

والحضارة لبلاده كانت تزيد اكبأباً على الشهوات وبغضاً في رعيته تلك الرعية التي كانت تدفع من أموالها ومن دماؤها ما كلف ينقسه الشاه عن سعة على شهواته وأغراضه في تلك الرحلات . وكان الشاه الذي يكثر من الرحلات الى بلاد أوروبا ويمتتع ، يمتع شباب الامة الايرانية من السفر في سبيل العلم أو التجارة أو التنور ولما لمح بريق الذكاء والنبوغ في بعض رجل الفرس عمد الى القضاء عليهم بالنفي والسجن والقتل ليقضى على زهرة البلاد وهم أمثال ميرزا تقي خان أمير كبير وهو الذي شادبذ كره الاستاذ أدوار بر وان في رسالة تاريخ الدستور الايراني ( ١٩٠٩ ) والسيد جمال الدين الاسدآبادي المشهور بالافغاني وميرزا حسين خان سباهسالار وغيرهم .

ولما قلت مصادر المال ونضب معينها وصار الشاه في احتياج واضطرار أخذ يتاجر بحقوق أمة فباع للبارون يوليوس روتر في سنة ١٨٨٩ حق تأسيس بنك شاهاني ايراني وحق اصدار البنك نوت باسم الدولة ، وباعه حق استخراج المعادن من جميع المناجم الايرانية وحق انشاء سكة حديدية بين طهران وأهواز . وأسرف الشاه في منح الامتيازات وبيع حقوق البلاد وقد تشجع المستر تالبوت فأخذ احتكار التبأك في مارس سنة ١٨٩٠ لمدة خمسين سنة بشروط بخسة تعود كلها على المحتكر وعلى جلالة الشاه . فهاج الشعب وثار وتكاتف الاحرار على مقاومة ذلك الشاه المبذر المسرف المتهاون في حقوق الامة

وتقدم لفيف من الاحرار والعقلاء بالنصح والرجاء للشاه للعدول عن التفريط في حقوق البلاد وعلى رأسهم الوزير الوطني العظيم أمين الدولة فلم يسمع الشاه لهم نصحاً ولم يرع لهم جانباً بل أخذ يعتقل الزعماء ويضطهدهم ويسجنهم ومنهم ميرزا محمد رضا كرمانى وكان من شيعة السيد جمال الدين الافغاني . وبدأت المدن بالقيام فهاجت تبريز ثم أصفهان وشيراز ويزد وأرسل حجة الاسلام المرحوم المبرور الحاج ميرزا حسن شيرازى المجتهد الأعظم الى الشاه كتابا فيه مافيه من التحذير وأن اعطاء الامتيازات وبيع حقوق الامة للأجانب من الامور التي بحرمها الدين وتآباها الشرائع والقوانين واشتد سخطهم وازداد هياجهم

ولما يش المصلحون والاحرار من اصلاح الشاه أفتى حجة الاسلام الحاج ميرزا حسن شيرازى فتواه الشهيرة بتحريم التبناك وقد أصدرها من مقره وهى « سر من رأى » فأجاب الايرانيون جميعهم دعوة المجتهد الأعظم وفى طرفه عين أطاعوا أمره ولبوا نداءه ولم يترددوا لحظة على شدة تعلقهم بالتبناك وشغفهم الشديد بتدخينه فى النار حيلة على عاداتهم المعروفة والتي سرت من بلادهم الى جميع العالم ، والنارجيلة بتبناكها فى ايران كالبيبة فى بلاد الانجليز والسيجارة فى مصر والشبى عند الأتراك . فتخيل ان استغف كاتنبري يصدر أمرألى جميع الانجليز بالتخلي عن تدخين البيبة ، فيتركونها جميعا فى طرفه عين وهكذا حصل فى ايران ، فان مخازن التبناك اقفلت أبوابها وأبى البائعون بيعه وامتنع الطالبون والمستهلكون عن شرائه . وعمد كل مدخن الى نارجيلته فهشمها والى ما عنده من التبناك فنبذه قصياً (راجع مقال ميرزا رفيع مشكى فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢٣ الهرام) وفى جميع البيوت والاكواخ وحتى فى قصر الشاه نفسه لم تكن ترى مدخناً واحداً أميراً كان أو حقيراً . حتى ان الشاه نفسه طلب صباح اليوم التالى للفتوى التى صدرت بالتحريم وهو فى مجلس من وزرائه نار جيلته فتقدم اليه رئيس الخدم مندهشاً معترفاً وقال للشاه :

« لقد صدرت يا مولاي فتوى حجه الاسلام بالتحريم فلم نبق فى التصور الملكية

نارجيلة ولا تبناك !!

الشاه : (بغضب) وهل استأذنت مولاك قبل الاقدام على ذلك ؟

رئيس الخدم . ( بشجاعة وسكون) لقد أمرالشرع ! فلاحاجة بنا لاستئذان السلطان !

وفى أواخر ديسمبر سنة ١٨٩١ أذرت الامة حكومة الشاه بضرورة الغاء امتياز التبناك والافيقع بالاجانب أعظم ضرر . ولجأت الحكومة لسائر وسائل الحيلة والقوة والتهديد وايداء الزعماء فلم تقلح ، وتهدد الشاه بنفسه مقام المجتهد الأعظم فلم يزد المجتهد الا تمسكا بفتواه وفى أوائل يناير سنة ١٨٩٢ أذعن الشاه وحكومته لرغبة الامة وتم الاتفاق بين الشاه وشركة الاحتكار على بطلان الامتياز الممنوح للمستمر تالبوت فكانت صدمة مؤلمة

## لنفوذ الانجليزي في ايران

انذ كان في حادثة احتكار التبناك الايراني درس نافع عظيم لاورر باذات المظالم الشعبية التي اطلقت لنفسها العنان في الشرق تسلب خيراته وتتهب اطايبه وتدس بين أهله أسباب الشقاق والفراق والنفاق لتمكن من نصب شبانها ولتنظر بالصيد وتبشش بالفريسة والشرق عنها غافل لاه بصغار الامور .

نعم لقد كاف بطلان امتياز التبناك أهل ايران الشيء الكثير من النفوس والاموال ودفعت البلاد لشركة الاحتكار ( تالبوت وشركائه ) نصف مليون جنيه تعويضاً ولكنهم مع ذلك كسبوا الحياة التي دبت في نفوسهم وهياتهم للنهضة العظيمة التي قاموا بها في سبيل حريتهم .

## ٣

وقد حكم ناصر الدين ( ياله من تهكم ! ) بلاد ايران خمسين عاماً وقضى نخبه رغم انفة في ختام الخمسين عاماً وهو على وشك الاحتفال بمرور نصف قرن على عهده . وان السلطان الذي يحكم الامة خمسين عاماً لا ينصف فيها مظلوماً ولا يزر ظالماً وتشبه عليه الامور فلا يطلب لها ايضاحاً ولا يعمل تحقيقاً جدير بأن يخلد ذكره في التاريخ باللوم والتقريع وقد اعدم ميرزا رضا في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣١٤ هـ . وكان أعظم المقاومين لحكم ناصر الدين شاه وكذلك كان من زعماء الامة في ذلك العهد الحاج شيخ هادي نجم ابادي وميرزا ملكم خان الذي أسس جريدة قانون ومنهم الشيخ أحمد روهي كرمانى وميرزا اقاخان كرمانى وميرزا تقي خان وهؤلاء مع من ذكرنا هم الابطال الاجماد الذين هياوا الامة الايرانية للنهضة الحديثة وربما كان أعظمهم شأنًا المرحوم ميرزا تقي خان أمير كبير فقد كان عصامياً وصل بجده واجتهاده واخلاصه في العمل الى أعظم المناصب فقد كان من عامة الشعب وارتقى الى الصدارة العظمى ، أو ان الصدارة العظمى قد صدرت اليه فأنخذ من منصبه اداة لتحرير الامة لا لانتهاك حرمتها فأنشأ فيها المدارس الكثيرة وأسس داراً للفنون ونظم الجنود ورتب الاحكام وأظهر غيره خالصة على مصالح الشعب جعلت الشاه ناصر الدين يحنق

عليه وكان جزاءه على اخلاصه لوطنه أن يقتل في حمام « فين » بكاشان ولما وصل خبر قتله الى قيصر الروس استبشر وقال « لقد مات أكبر أعدائنا ، وذهبت أشد العقبات من سبيلنا » .

وقد حكم مظفر الدين اثني عشرة سنة من ١٨٩٦ الى ١٩٠٨ بعد أن حكم أبوه خمسين عاماً . وكان عهد ناصر الدين معاصراً لعهد الملكة فيكتوريا كما كان عهد مظفر الدين محاذياً لعهد الملك ادوارد السابع تقريباً . ولكن عهد فيكتوريا كان عهد حرية واصلاح ورخاء ومجد وعظمة لدولتها وأمتها على عكس عهد ناصر الدين الذي كان عهد ظلم واستبداد وضييق وتعذيب واضطهاد وفتنة وانحطاط واستغلال فلما جاء مظفر الدين حاول أن يحكم كأبيه ولكن الامة كانت قد تنبتهت فما زالت تطالب بحقوقها حتى نالت بعضها في سنة ١٩٠٧ واعلان الدستور وتأسيس البرلمان ولما أدركته الوفاة احضر ولده محمد علي وأخذ عليه العهود والمواثيق ( فبراير سنة ١٩٠٨ ) بأن يحتفظ بالدستور والبرلمان ولكن محمد علي كان رضيع الاستبداد الروسي فوعد أباه وعداً كاذباً ولما مات أبوه نقض عهده وهدم البرلمان بالقنايل ومزق الدستور الايراني وشتمت شمل أعضائه وطرد الاحرار واعتقل من اعتقل وقتل من قتل . ولم يطل عهده فطرد من وطنه والتجأ الى الاتراك ثم الى الروس ، وتولى ولده بعده ولكن عهد هذا الاخير لم يطل كعهد أبيه وعزل وطرد من وطنه وتولى الملك الشاه الحالمى جلالة پهلوى . ومن غرائب المصادفات ان محمد علي عاش الي أن رأى زوال دولة القياصرة الروس وانهم صاروا مظلومهم وتحكم جماعة من العامة والدهماء في الدولة . وكان القياصرة أعظم سند له . وكذلك لم يطل عهد ولده في الحياة وقد لقي حتفه في باريس وهو آخر أسرة كشر التي حكمت بلاد الفرس جملة أجيال . وكانوا جميعاً ملوكاً محبين لانفسهم يفضلون مصالحهم على مصالح الشعب ويبدرون في أموال الامة على شهواتهم وغاياتهم التفتة الوضيعة . وتعد بلاد فارس الآن من أقوى ممالك الشرق الاسلامية المستقلة . وربما كان اتحادها مع تركيا والعراق وافغانستان مما يحيي الآمال بوجود جبهة شرقية قوية في غرب آسيا قد تسترجع المجد القديم وتقاوم غوائل الاستعمار . ولكن يجب عليهم قبل ذلك حسن التقام وتوحيد الثقافة والمقاصد . وتوجيه الهمم الى مثل أعلى واحد وهو احياء الشرق وانتشاله من وهدة السقوط والانحلال .

## ١٧

١

لم تقف محاربة الانجليز للهند عند حد الاستعمار والاستثمار والتملك ، وغرس بذور الشقاق لتكون لها السيادة على تلك البلاد العظيمة التي أثبت العلم الحديث أنها من أصل آري وان شعوب اور وبا كلها تفرعت من القبائل التي نزلت منها في القرون الماضية ، بل انهم لجأوا في محاربتنا وقتلنا من ضمنها الى كل سلاح . فانه عند ما قامت حركة غاندي ، منذ سبع أو ثمانى سنين ، وظهر في الهند كتاب وشعراء وعلماء اشتهروا في الغرب وصارت لهم مكانة مثل تاغور الذي نال جائزة نوبل والسير بوز الذي نبع في العلوم الطبيعية واخترع أداة أثبتت بها حياة النبات وخفوق قلبه ( ١٩٢٦ ) ، وانتشر الهنود في اور وبا وامريكا يدافعون عن قضيتهم وينشرون ظلامتهم ايجسونا سمعهم في نظر العالم المتحضر ، وألف بعض كتاب الانجليز كتباً في صالح الهنود مثل سير هنرى كوتون ( كتاب الهند الجديدة ) ، ونشر الهنود كتباً قيمة مثل كتاب حرب الاستقلال عن ثورة ١٨٥٧ ( تأليف سافاركار وطبع لندن سنة ١٩١٠ ) ولما كانت أعمال المؤتمر الوطنى منذ ١٩٠١ و١٩٠٢ قد بهرت ساسة الانجليز وأقنعتهم برجاحة عقول الهنود وكفايتهم للاستقلال ( راجع وصف مستر سوينى للمؤتمر الوطنى الذي عقد في أحمد آباد ) رأى الانجليز أن يلجأوا الى السلاح الذى نفعهم في الحرب العظمى وفي كل أدوار هجومهم على الشرق فاستأجروا سيدة اسمها كاترين مايو امريكية الوطن انجليزية الاصل وسهلوا لها كل الوسائل ونقلوها الى الهند حيث فتحوها لها كل باب مغلق ورفعوا أمامها كل ستار فألفت كتاب « امنا الهند » وقد ظهرت الطبعة الاولى في يوليو سنة ١٩٢٧ وطبع بعد ذلك خمس عشرة طبعة آخرها سنة ١٩٣٠ وقد صادف نجاحاً لم يسبق له مثيل ، لأن المرأة الكاتبة حشدت في هذا الكتاب من القطائع والقبائح ما لم يحشد مثله من قبل في عشرة



كتب ، فصورت الهند في أفضع صورة من حيث المعتقدات والأدب والحياة ، ووصفت الزواج المبكر وقذارة الوالدات واحراق الجثث وتعذيب الأراامل وأذاعت أموراً عن العادات السرية لا يخطر ببال انسان أن المرأة تكتبها أو تعرضها على قرائها كاعلان بعض الباعة عن عقاقير مقوية في العلاقات الجنسية « اثنان وثلاثون عموداً من القوة تصلب عودك المتداعى ، واعد اليك قوة الغرام ثمنها روبية واحدة »

وروت أن الهندي ابن اثلاثين يبدو في جلد الشيخ الذي جاوز الستين لشدة افراطه في علاقه الزواج ، وغايتها من وراء ذلك أن تصور الشعب الهندي المطالب بالاستقلال في صورة الشعب المنحل المضمحل الذي ذهب رجولته في سبيل شهواته البهيمية وادعت أن حكومة بنجاب وحدها حاکت لإحدى عشرة صحيفة يومية لنشرها مثل هذه الاعلانات . وفات السيدة كاترين مايو أن الدكتور ماري ستوبز الانجليزية نشرت كتاباً بلغتها في لندن في بحث المسائل الخفية من الحياة الزوجية وقد طبع هذا الكتاب أكثر من سبعين مرة من سنة ١٩١٧ الى يومنا هذا ، وفعله في أذهان قارئيه أكثر من فعل الحبوب التي تشير اليها كاترين . ولم يقلل وجود هذا الكتاب وما يدعو اليه من الفسوق والتحريض على الشهوات من رجولة الشعب الانجليزي الذي اشتهر عن بعض رجاله في المستعمرات أمور يندي لها الجبين . وتدعي كاترين مايو أن أكبر البراهمة يبغضون اصلاح المرأة ويقولون « ان الزوج للبنات البرهمية أعظم وأصدق وأعز من كل المصلحين الاجتماعيين في العالم » ص ٤٣ كتاب امنا الهند

فكان الرجال ليسوا وحدهم المتردين في هوة الشهوة بل ان النساء أيضاً أكثر ميلا من الرجال الى التردى في تلك الهوة . وادعت أن في كل جيل تموت ٢٠٠٠ ر ٣٠٠٠ امرأة من آلام الوضع والولادات العسرة لصغر سن الزوجات الفتيات .

## ٢

ووصفت في ص ٥١ أن في مقاطعة مدراس ينذر الوالدون أطفالهم للمعبود ، تقرّباً الى الآلهة وزلفى ، فاذا ولدت إحدى الامهات بنتاً سلمتها الى سدنة الهيكل فتناولها النساء الخادومات للآله بتعليم الرقص والغناء حتى اذا ترعرعت وبلغت ست سنين أو سبعماً يراها الكهنة صالحة للرجال فيتمكثون منها وفاء للنذر وباسم الآلهة كالى أو الرب فشنو ويطلق على مثل هذه البنت اسم ديفاداسيس أو « عاهر الارباب » وان الاطفال الصغار قد تفشت بينهم الامراض السرية المزمنة والمادة . وأن الرجل الذى بلغ الخمسين من عمره يجد من اللائق أن تزف اليه بنت الخمس أو الست ولا يرى هو ولا أهلها فى ذلك غضاضة ( ٥٧ )

وروت عن طبيبة انجليزية أن المرأة الهندية تبقى حياتها فى حال سخول عقلى ، لأنها دائماً مصابة بأحد الأذواء السرية ومنهوكة القوى من تكرر العلاقة الجنسية التى يمارسها زوجها ثلاث أو أربع مرات فى اليوم الواحد ( ص ٦١ )

وقد نقلت كاترين مايفى فى ص ٦٣ مقالة بقلم المهاتما غاندى نشرها فى مجلة « الهند الفتاة » ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦ ص ٣٤٩ ضد الزواج المبكر . ونسبت أن غاندى قال فى ختام هذه المقالة ان الذنب فيما وصلت اليه حالة الهند الاجتماعية واقع على رأس الحكم الانجليزى لأن « الرجل والمرأة فى الهند كانا من خمسين عاماً أقوى وأصح وأطول عمراً مما هما عليه الآن » . وعادة الانجليز فى المستعمرات أن يعملوا جهدهم فى إضعاف الشعوب المحكومة خلقياً وعقلياً لتدوم سيادتهم فى حين أنهم فى بلادهم وبين الانجليز العائشين فى المستعمرات يشرعون التشريع الذى يحفظ صحتهم وينمي قواهم العقلية ويبطل أعمارهم ، وليست حرب الافيون التى شنت غارتها على الصين لامتناع أهلها عن تعاطى ذلك المخدر القاتل ببعيدة وقد سميت حرب غوردون لأن الجنرال شارل غوردون كان قائد تلك الحملة المشؤومة ، وهو نفسه الذى لقي حتفه بعد ذلك ببضع سنين فى الخرطوم على أيدي الدراويش .

وادعت فى ( ص ٧١ ) أن الهنود كانوا يثدون بناتهم فقد ادعت أن أحد المهرجات قال لرجل انجليزى « صاحب ! أنت تعرف عادتنا ، كانت البنات تولد حقاً ولكن منذ

جيل مضى لم يكن مسموحاً لهم بالبقاء على قيد الحياة « . . وأكدت مايو في ص ٧١ أن هذه العادة لا تزال سائدة في أنحاء كثيرة من الهند وقلت ، والعهد عليها ، في تحليل إحراق الارامل عند البراهمة ، وهي العادة التي أبطها الانجليز ، ان رجلا هندياً اعترف للمؤلفة بأن الأزواج بسيتون معاملة الزوجات الى درجة أنهم يخشون على حياتهم من القتل غيلة بدس السم في الطعام ، فسئوا سنة إحراق الأرملة ، حتى اذا فكرت في قتل زوجها تعلم أنها ان تعيش بعده طرفة عين فتحجم عن الجريمة !! » وقررت أنها رأت في بعض السجنون نساء مسجونات بتهمة قتل أزواجهن ، ونسيت ما نشره صحف الاخبار في اوروبا وامريكا كل صباح ومساء عن ألوف النسوة اللواتي يتآمرن مع عشاقهن على قتل أزواجهن بالسم ، اذا أعوزهن المسدس ولم يضمن صدور الحكم بالبراءة من محاكم نيويورك ولندن وباريس وقالت إن الاحصاء الرسمي الأخير الصادر في سنة ١٩٢٥ أثبت أن في الهند ٨٣٨ ر ٨٣٤ ر ٢٦ أرملة أي ضعف سكان القطر المصري من ذكور ونساء وصغار وكبار ومرضى وأصحاء !!

## ٣

أما وصف عملية الوضع ، اذا جاء للمرأة الهندية المخاض الذي لطخت به كاترين مايو كتابها في الصفحات ٩٠ وما بعدها فما يحمر له وجه الانسانية خجلاً ، وتظهر فيه رغبة المؤلفة في التشنيع والفضيحة ، ولا يقصد منه إصلاح البتة. ولو افترضنا صحة بعض ماجاء فيه لأن البنود يعتبرون كل ماله مساس بلوضع نجس، فمذا صنعت الاداره الانجليزية في هاتين المائتي سنة التي دامت خلالها السلطة البريطانية في الهند وأبن التمدين والحضارة ، والخدمة الانسانية وهل يعقل أن وضعاً يدوم خمسة أو ستة أيام وأن الداية ( وهذا اسم القابلة باللغة الهندية ) تمزق رحم الأم إرباباً لتخرج الطفل حياً أو ميتاً ( ص ٩٣ ) بحيث يسمى الوضع أبشع وأفظع وأنجع من الموت نفسه ثم أن المؤلفة لا تنجبل بعد ذلك إذ تذكر أن نباح الهند مطرد ومستمر ، وأن الشعب في مجبوحته من العيش وسعة من الرزق . ثم تعود فتنتقد نظام الحجاب

« بوردا » وتدعى بعد أن تكلمت عن « نجاح الهند المطرد وسعادة شعبيها » أن الدكتور لانكستر ذكر ارتفاع نسبة الوفيات في النساء من السل الرئوي ارتفاعاً ذا خطورة . وان انتشار ذلك الداء الوييل راجع الى عادة الحجاب « بوردا » وأن نسبة الوفاة السنوية تتراوح بين تسعمائة ألف ومليون شخص يموتون مساناة بداء الصدر ( تقرير الدكتور انزرو وبلفور وكتاب صحة الامبراطورية ص ٢٨٦ سنة ١٩٢٤ )

وبمناسبة ذكر الدكتور بلفور اقول أن الطبيب المذكور انتدب لفحص صحة سكان القطر المصري في سنة ١٩٢٠ أو ١٩٢١ ( بوصف كونهم من رعايا الامبراطورية البريطانية ) وقدم تقريراً وافياً فيه أبشع بيان عن حالة القطر الصحية وذكره سيرفالتين شيروول في مقالاته ، وكتبه ، ولعله محفوظ بين ثنايا « الدفترخانات » في مصلحة الصحة ، ولم ينفذ منه شيء لأن السلطة القاهرة تمنع الأعمال التي تعود على هذه البلاد بشيء من الخير .

ولعل الانجليز يرسلون البعثات من هذا القبيل ، لا لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج من شؤون الأمم التي بليت بحكمهم ، ولكن ليستشهدوا بانحطاطنا وتأخرنا وانتشار الامراض في شعوبنا ، عند مطالبتنا بحقوقنا ، وليظهروا أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعفاء والمهوكين الغير صالحين للحياة . ولذا ترى كاترين مايو تغترف اعترافاً من تقارير أطباء الانجليز وطبيباتهم وقد قالت ان النساء اللواتي لا يرين الطريق منذ زواجهن الى يوم وفاتهن يتراوحن في الهند بين ١١ مليون و ١٧ مليون وثلاثمائة ألف نفس قد قضى عليهن بالسجن المؤبد بحكم العادات والزواج ( ١١٦ )

## ٤

واننا نؤيد صحة هذه النظرية ، نظرية الاستشهاد بالاحصاءات الصحية والطبية ضد الحركة الوطنية بما جاء في كتاب مايو نفسه فقد جاء في ص ١١٧ « ان مقاطعة بنجال هي مقر الهياج السياسي الشديد ، ومحط العداوة المريرة بين الهنود والانجليز وتعد هذه الولاية مصدر الفوضيين وصناع القنابل ومنبت القتلة الذين يقدمون على القتل السياسي وهم قدوة

أصحاب الفلاقل ونموذج لناشري أعلام الفتنة . وقد دلت مباحثي على أن أهل مقاطعة بنغال هم أشد الناس رغبة في الافراط الجنسي ( كيف علمت ذلك هذه المرأة !!! ) وقد لاحظ رجال الطب ورجال المباحث الجنائية العلاقة المثينة بين تلك الميول الشهوانية ، وبين تركيب العقول المشوهة التي تقترف الجرائم السياسية فإن انهماك القوى البدنية والمعنوية في الشهوات البهيمية يحدث ظمأ للدماء ورغبة في التعويض عن الحكمة المفقودة بالجرائم وإهراق الدماء ، وترى بنغال كذلك مركز التمسك الجديد بعادة الحجاب فترى المنازل في حالة الموت والعدم فلا يجد الشبان المتهبون غيرة علي وطنهم مجالاً لتصرف مواهبهم الاجتماعية ، ويجمع ذلك الى المبادئ الاوروبية التي أساءوا هضمها فينتج الاجرام السياسي « اه كلام كاترين مايو وليس لنا كلام على هذه النبذة ، والقارى وحده يرى المجهود الشديد الذي بذلته تلك المرأة لترد الاعمال السياسية واثورات القومية التي ظهرت في الهند الى الهياج التناسلي وهذا أغرب تعديل قرأناه في حياتنا ، فهل كان كل الايرلنديين المطالبين بالحكم الذاتي والفرنسيين في عهد الثورة والانجليز لدى محاكمة شارل الاول ، والروس في الفتنة البلشفية والبولونيون والايطاليون وأهل الولايات المتحدة في حرب الاستقلال والاستقلال عند أخذ الدستور والصينيون في حركة الجمهورية وقد قام كلهم بأضعاف ما قام به الهنود ، هل كان كل هؤلاء مفرطين في العلاقة الجنسية ، وهل كانت كل نساءهم الأوربيات محجبات وبيوتهم مائتة ، لا تكفيهم ومبادؤهم التي تعلموها أو التي اكتشفوها ببصائرهم القوية ، كانت كلها مهضومة هضماً سيئاً ؟؟

ألا ان البنسكنوت الانجليزى يفعل أكثر من ذلك في مثل هذه المرأة .

هذا قايل من كثير مما جاء في كتاب كاترين مايو ، وأنت ترى أن سادتها الانجليز سواء أكانوا في دوننج ستريت أم في سكونلانديارد لم ينفقوا أموالهم عبثاً ولم يضيعوها على باب كاترين مايو ، بل استوفوا ثمنهم وأخذوا « بحقهم حلفاً » وزيادة ، وجاء كتاب كاترين مايو في وقته فنشرت منه مئات ألوف النسخ في القارات الخمس فكان أشبع صورة ترسم للهند ،

وأفزع دعاية تزداع ضدها في الوقت الذي قامت فيه قيامتها الكبرى .

وقد ألف كثيرون من الهنود والانجليز أنفسهم كتباً قيمة في الرد عليه وتفنيده ما جاء به وكان في مقدمة الذين ردوا عليها الهياتاما موهانداس كرمشند غندي نفسه ، وقد عاب عليها أنها شوهدت النبذ التي اقتبستها من كتبه ومقالاته ، ولامها على أنها طعنته من خلقه وهو راقد في سجنه في ص ٣٨٧ إذ نسبت اليه أنه وقد أصيب بالزائدة الدودية طلب أن يعمل له العملية طبيب انجليزى لا طبيب هندي ، في حين أنه قد ذمّر مقالا انتقد فيه الطب الغربى فكانت عدم ثقته بالطباء من أبناء وطنه أكبر دليل على عدم صدقه في نظر كآرين مايو .

وقد كذبتها غاندى في مواطن كثيرة منها ادعاؤها أنها طلبت اليه أن يبعث معها رسالة الى أمريكا فقال لها « أرسل الى أمريكا صوت هذا الغزل ! » ومنها ادعاؤها حدوث هتاف عظيم للبرنس دى غال في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٢ ابان الثورة الهندية الاولى

## ١٨

١

في ٤ يناير سنة ١٩٣١ توفى الى رحمة الله المغفور له مولانا محمد على الزعيم الهندي الشهير وأحد أبطال الاستقلال العالمي في العصر الحاضر وكانت وفاته في منتصف الساعة العاشرة من صباح الاحد ٤ يناير وقد وصفته برقية روتر من لندن «بأنه المندوب الهندي المسلم الى المؤتمر الهندي العام وأحد الأخوين على المشهورين ، وقد اشتركا اشتراكاً وثيقاً مع غاندي في حركة عدم التعاون الأولى في الهند ولكنه عارض حركة العصيان المدني الحالية وسينقل جثمانه الى الهند . ولكن جثمانه دفن بالمسجد الاقصي بيت المقدس .

وكان محمد على زعيماً لثمانين مليوناً من المسلمين فسكان لنعيه مآثم عام في جميع أنحاء الشرق عامة والعالم الاسلامي خاصة وأرسل غاندي الى أخيه يعزیه من سجنه ببرقية هذا نصها : مصابكم مصابنا » ويجب علينا أن ننوه بالفرق العظيم بينه وبين أخيه .

وقد جاهد هذا البطل الراحل في سبيل جميع الشعوب المظلومة فناضل عن الهند وعن تركيا وعن فلسطين وعن كل أمة مسلمة أو شرقية واقعة تحت نير الظلم الاجنبي وقد وصفه بعض عارفيه بأنه ، كان أخطب مسلم في الدنيا باللغة الانجليزية وهو يعد من أكبر علماء المسلمين وأزهدهم وأطهرهم يداً وأعفهم نفساً

وقد سافر الى مؤتمر لندن وهو مريض وحالته الصحية سيئة ، ونهاه أطباؤه عن السفر وأندروه بالخطر ، فلم يكثرث وشد رحاله وأخذ معه أخاه وأهله في انتظار الموت . ولما وصل لنعيه الى فلسطين أعلن خبره على المنائر والمآذن في جميع مساجدها وأقيمت عليه صلاة الغائب وفي بومباي قررت المدينة وقف دولاب العمل وأغلقت مخازن التجارة وقد وافقت

وفاته مضى ثمانية أشهر على سجن غاندى فأغلق خمسون مصنعاً من مصانع الفطن يعمل فيها  
مئة ألف عامل

وكان لنعى الزعيم الراحل في مصر أثر لا يقل عن أثره في فلسطين ، لان الرجل  
كان مغروفاً للعالم الاسلامي والشرق كله وكان متصلاً بجميع أركان الحركة القومية في العالم  
ويادر المجلس الفلسطيني الاعلى الذي يرأسه السيد أمين الحسيني مفتي القدس  
الى تمزية أهل الفقيده ودعوتهم الى قبول دفنه في المسجد الأقصى ، فليت تلك الدعوة .  
وكان لهذا القبول أجمل أثر في العالم الاسلامي . فان وجود حيمان الفقيده في فلسطين وفي  
احدى البعثين الطاهرتين المقدستين للاسلام رابطة بين مسلمي الهند وبين مسلمي العرب  
لا تزول ولا تنضم عروتها وتوثيق للصدقة بين المؤمنين .

وهي فكرة سياسية بدیعة جاءت بها قريحة السيد أمين الحسيني نابغة فلسطين  
ورافع لوائها . وقد خدمت الشرق العربي أجل خدمة . وهي أكبر دليل على تمام الاتحاد  
والألفة بين المسلمين في أنحاء العالم ، وقد قال شوكت على لبعض المعزين العبارة الآتية :

« لقد أحببنا العرب من صميم أفئدتنا ، وقد عزمنا على أن نعطيهم أخا لا يرقد بينهم »

وانها في الوقت نفسه عاطفة تكريم جليلة للفقيده فانه طبعاً كان يجد مرقداً كريماً  
في وطنه وكان قبره يكون كعبة للقاصدين من مقدريه من المسلمين والهندوس ، ولكن  
مشواه في جوار المسجد الأقصى احدى الكعبتين ومهبط الوحي حيث قبة الصخرة وحيث  
مر ببط البراق الذي دافع عنه في حياته ، لأمر ينطوى على أجمل الرموز وأساها . وقد وفق  
السيد المفتي في إيجاد الفكرة وتنفيذها كما وفق الى المسكان الجميل الذي جادت به أسرة  
الخطيب من أوقافها

وقد فطن فحول اليهود الى خطورة هذه الفكرة فاحتجوا واعترضوا وأرسلوا بقرقيات  
المقاومة الى سادتهم الانجليز الذين أعطوهم وعد بلفور ، ثم رأوا أن صوتهم قد غرق في



الزوجة ؛ ولم يعد مسموعاً فأرأوا أن يتقهقروا وهم يتقنون التقهقر عند اللزوم ، فلزموا الصمت أولاً ثم أخذوا يرسلون برسائل التعزية لمولاه شوكت علي ، عملاً بالمثل المنسوب للأتراك « اليد التي لا تملك قطعها قبلها »

وهكذا مثلوا أيضاً في هذه الفاجعة الاسلامية دوراً دينياً لا يصدر عن قوم يريدون المسائلة .

## ٣

وقد كان تاريخ حياة محمد علي وأخيه شوكت . . . الله في أجله تاريخ كل مجاهد مستنير في الشرق المستعمر المغلوب على أمره فان الشاب الشرقي يولد وينمو فيتعلم ويتقطن فيرى الولايات المنصبة على وطنه ويرى الهوة التي تفصل بينه وبين أصدقائه من قومه المائتين لاعدائه ، فيقاطعهم ويناصبونه العدا ، ثم اذا كبر شأنه ناوأته الساطة الأجنبية وضيق عليه الخناق فاذا سنحت الفرصة شنقته أو فقته من وطنه أو سجنته وهذا أضعف العذاب فيقضي الاعوام في غيابة السجن معتل الصحة أو مشرفاً على الهلاك ، وأهله وبنو قومه الذين يدافع عنهم لا يمر كون ساكناً في سبيل خلاصه الى أن يموت فيذهب من هذا العالم بعد أن ذاق مرارة العيش ولم تسكتحل عينه برؤية وطنه في ببحوحة الحرية أو في هناء الاستقلال . هذه حوادث تتكرر منذ نهض هذا الشرق البائس تتكرر في جميع أنحاء سواء في ذلك الشرق العربي أو التركي الاسلامي أو الوثني . ولكن كان نصيب المسلمين من البلاء والعذاب أعظم لان بلوهم مزدوجة فالزعيم الاسلامي أو المصلح الاسلامي يجاهد جهاداً ضد أعداء وطنه وآخر ضد أعداء دينه .

وهكذا كانت حياة المرحوم محمد علي الذي قضى وهو لا يزال كهلاً في العقد الخامس من عمره ولا يزال أقرانه في أكسفورد على قيد الحياة وعلى أم ما يكون من الصحة والعافية ولكن جهاده هو أضناه وأضعفه وحياة السجن سبع سنين أدنت أجله .

أما ترجمته فهو من أكبر السلالات الاسلامية في الهند ذات التاريخ الحافل بالمفاخر

وقد ولد في ولاية رامبور و كان أبوه يومئذ يشغل وظيفة عالية في الحكومة ؛ وذلك في ١٨٧٨  
 فقد مات اذن في الثانية والخمسين من عمره . وقد توفي والده وهو طفل فكفلته أمه التي  
 كانوا يسمونها « أم الهنود » لأنها أنجبت ولدين اشتركا في خدمة الاسلام والهند أعظم خدمة  
 وكانت تخطب في الجماهير وتحثهم على النهضة وكلما سجن أحد ولديها أو كلاهما معاً فرحت  
 وشجعتهما وجعلتهما نموذجاً وقوة لغيرهما من أبناء الهند ، ويلوح لى أنني قرأت في إحدى  
 الصحف خبر اعتقالها حينئذ وتهديد السلطة لها في اذن اشتداد الثورة ، ولما ماتت الأم منذ  
 بضع سنين كان لوفاتها رنة أسمى في جميع أنحاء الهند ورثيت من جميع الخطباء ورجال السياسة  
 في شتى المحافل والمجامع اعترافاً بفضلها وفضل ولديها على الهند والعالم الاسلامي .

وكانت الأم امرأة فاضلة ورعة ويرجع الفضل اليها فيما شب عليه الفقيه الشهيد من  
 الورع والتقوى والغيرة الدينية والوطنية .

وعند ما شب كانت كلبية عليجرا قد ظهرت في الوجود فالتحق بها وأتم دروسه  
 الثانوية في معاهدها ثم صنع كما يصنع أعيان الهنود فشد رحاله الى ا كسفورد لتمام دراسته  
 الانجليزية على النمط السكسوني وقد روي مولانا شوكت على في خطبة القاها في شهر رمضان  
 في جمعية الشبان المسلمين أنه بدأ أن عاد هو من ا كسفورد وكان يكفل أخاه محمداً أرسله الى  
 ا كسفورد ليتم علومه ، ثم التحق بلنكولنز اين حيث يتخرج رجال القانون وعاد حائزاً لأعلى  
 الدرجات في الأدب والتاريخ .

ومن تهكم القدر أنه التحق بخدمة الحكومة في الهند فقلد منصباً رفيعاً في ولاية بارودا  
 أعظم ولايات الهند الوثنية وأغناها وأرقاها وقد أحبه راجاه بارودا وقر به وفضله على الوزراء  
 الوثنيين وصارت الحكمة كلمة محمد على والرأى له الى أن حدث خلاف بينه وبين الراجا  
 فاستقال وأنشأ الصحف وكان كاتباً قديراً باللغة الانجليزية فكتب المقالات الضافية في  
 عدة صحف وأسس جريدة الرفيق « كومراد » فنالت من النجاح ما لم تنله جريدة قبلها .  
 وكانت غايته الشريفة بادية من خلال سطورره وكان شعاره التوفيق بين طوائف

الهندوس والحكومة والاهالي .

وقد صادف وقت جهاده وقت جهاد المرحوم مصطفى كامل وكانت بينهما مكاتبات اطلعت على بعضها بين المرحوم مصطفى كامل في سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ وكان يرسل مكاتيب التشجيع والمحبة الى البطل المصري ولا سيما عقيب عودته من لندن بعد دفاعه المجيد في حادثة دنشواي . وكانت جريدة الكومراند ترد اللواء وتنقل عنها مقالات كثيرة في تلك الفترة .

### ٣

وفي سنة ١٩٠٦ ألفت الجامعة الاسلامية المذكورة في الهند ويرجع الفضل في الشهرة التي نالتها الجامعة الاسلامية لصيانة مصالح المسلمين الى حمة المرحوم محمد علي وجهوده . كما أنه ساعد في انشاء مسجد كونبور وأسس جمعية الهلال الاحمر لاعانة منكوبي حروب البلقان وقام بأعمال كثيرة أخرى في الاصلاح مما جعله محبوباً ومعروفاً في العالم الاسلامي بأسره وكان دائماً على العمل في ترقية شؤون المسلمين بعد أن أدرك بثاقب فكره ان طائفته كانت متلكئة في الرقي العصري فحضى يعمل بلا لال في سبيل انهاضها واذكاء نار الحماسة الوطنية في قلوب بنينا .

وعند ما نشبت الحرب العظمى شعر مسلمو الهند بتنازع الولاء في نفوسهم ووقعوا بين عاملين فكانوا من جهة يشعرون بأنهم مرتبطون بالخلافة في تركيا ويشعرون من الجهة الأخرى بأن الواجب يقضى عليهم بأن يعترفوا بسيادة انجلترا واعانتها في الحرب والانضمام الى صفها في مقاتلة دولة الاسلام الكبرى وأخيراً اضطروا اضطراراً للانضمام الى انجلترا ولكن الصحف الاستعمارية كالمورنج بوست والتيمس اندفعت في القذف في تركيا ووصف الاتراك بأنهم مطايا الالمان ، وخدمهم فرأى محمد علي أن تلك الحملة لاتطاق وأنها ليست من الانصاف في شئ فأنبرى للمنتقدين بقلم من نار وأخذ يحرض المسلمين على عدم محاربة الاتراك جهاراً فصدورت جريدة الكومراند وجريدة « هواداراه » واعتقل محمد علي نفسه في شهر مايوسنة

١٩١٥ لاعتباره خطراً على الامن ، ولم يستطيعوا أن يوجهوا اليه تهمة الخيانة أو المروق من الوطنية وقد سار أخوه شوكت على على خطته قاعتلوه هو أيضاً وقد بقيا فى السجن من مايو سنة ١٩١٥ الى عيد الميلاد سنة ١٩١٩ أى بعد الهدنة بعام وشهر

ولما وضعت الحرب الكبرى أو زارها وظهر الحلفاء بمظهر عدم الوفاء بوعودهم اشتد -خط المسلمين فى الهند وعظم تبرمهم بالحالة وزادت تقمة محمد على على الانجليز فاتفق هو والزعيم غاندى وشرع فى نشر الدعوة للخلافة الاسلامية فى طول البلاد وعرضها وسافر فى سنة ١٩٢٠ الى لندن من أجل النزاع الذى شجر فى سبيل الخلافة ولما رأى أن لاخير يرجى للاسلام من الانجليز قفل راجعا وانضم الى حزب غاندى وطاف البلاد يدعو السكان الى عدم المعاونة فاعتقته السلطة الانجليزية فى سنة ١٩٢١ وبقي فى السجن سدين يقاسى أشد الآلام لأن الحكومة فى هذه المرة وجهت اليه تهمة تحريض الجيش الهندى على العصيان وأخلى سبيله فى سنة ١٩٢٣ . وكان اعتقاله هذه المرة أثناء سياحته مع المهاتما غاندى فى نيزجاباتام فى جنوب الهند وحوكم فى كراشي وكانت المحاكمة ضجة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الهند وكان أخوه معه فى المحاكمة والحكم . ونحن ننوه بفضل شوكت أثناء اخلاصه .

ولم تكن المدة التى قضها فى السجن الا تزيد تمسكا بمبادئه الوطنية . وبعد خروجه من السجن اتخذت الحركة الوطنية شكل المجلس الوطنى وخطت خطوة كبيرة فى سبيل التقدم وفى هذه الآونة طلب بعضهم اليه أن يرأس مجلس الامة فى دلهى فادرك بفضته مبلغ التطور مدة اعتقاله فاجتنب خطأ العثور وقاد النهضة الوطنية بهمة وحكمة فسارت فى سبيل النجاح . وفى العام التالى رأس مجلس الامة الذى عقد فى كوكندا للمرة الثانية وقبلت جميع الاحزاب خطابه وأجمع الكل على ان خطبته كانت من أبلغ الخطب وأشدها تأثيراً فى شؤون الهند السياسية ومنذ ذلك اليوم بات محمد على الحميم الصديق والحكيم المرشد لغاندى وأعاد اصدار جريدة كومراد وهامدا رادفى دلهى فكنا شعلة الايمان الوطنى ومثال الحمية المتوقدة

## ٤

وكان في المباحث الخاصة بالتاريخ والاقتصاد والاجتماع فرداً متوحداً وأنداده نادرون وليس في البلاد من يفوقه في رجاحة العقل ولين العريكة وحسن السياسة وكان يعرف الناس وشؤون الحياة حق المعرفة ولذلك وجد السبيل الى قلوب الرجال في القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا

وقد ساءت صحته في السنتين الاخيرتين من عمره فاعتزل السياسة وخفت صوته الى أن ذكرت أسماء المدعوين الى المؤتمر الهندي فورد اسمه في طليعة المندوبين . وكان هو يشعر بالمرض بل بالموت وقد أخذ يسير نحوه حيثما وأنزله أطباءه واصدقائه بالخطر ولكنه لم يبال بحياته في سبيل خدمة وطنه فسافر وربما كان يشعر بأنه لن يعود الى وطنه حياً .

ولما افتتح المؤتمر جلسته التهيدبة ألقى للرحوم محمد علي خطابا هاج النفوس ولس أعماق الافئدة فطلب استقلال بلاده بعبارة مؤثرة وقال « اننى لسوء حظى لن أعود الى الهند المستقلة ، ولعلنى أموت قبل أن أرى حرية بلادى ولعلكم تخطون لي قبراً في بلادكم »

وقد صدق ظنه وصحت نبوته . وكانت أعماله في المؤتمر ختام حياته وتاج جهاده

ومن البديهي ان رجلاً مثله عاش عهداً طويلاً في بلاد الحرية أصبح لا يرضى العيش في غير آفاق الاستقلال وهو اذ كان يعمل لخلاص وطنه من الاستعمار الاوروي لم ينس اخوانه المسلمين في الهند بل جعل خلاص بلاده واسعاد طائفته وكفالة حقوقها أمراً متلازمين في جهاده الدائم المستمر ، على أن الذين اختاروا أخيراً أن يثوى مثواه الاخير في القدس وهم السيد أمين الحسيني واخوانه أعضاء المجلس الأعلى انما نفذوا ارادة الله الذي أراد أن يكرمه بهذا الجوار الطاهر في تلك البقعة المباركة ، كما نفذوا ارادته لأنه كان من أنصار الوحدة العربية الاسلامية وكأنت كل أمانيه وآماله أن يجتمع العالم لاسلامي والعالم العربي على قلب رجل واحد ، وقد هب العالمان العربي والاسلامي لتشجيع جنازته الى مقره الاخير وهما لا يصنعان أكثر من انهما يوفيانه بعض الجزاء على ما بذل في حياته من جهود أكبر من أن يوفيا جزاء ثم هما بعد ذلك يجتمعان على قبر رجل كان يعمل لأن يجتمع العالمان العربي

والاسلامي في صعيد واحد .

وقد وصل جثمان المرحوم محمد على الى بورت سعيد صباح الاربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٣١ ( ٢ رمضان ١٣٤٩ ) في الساعة السادسة صباحا ومعه اخوه وزوجته وابنته وابن أخيه . وقد انزل الجثمان في السادسة صباحا بمسعى بعض رجال الطرق المشهورين وساء مصر كلها ان النعش نقل الى المسجد وشيع من المسجد تشييعاً حكومياً محضاً في الساعة العاشرة صباحاً في رمضان ، وقبل أن يستيقظ أهل بورت سعيد الذين لم يتمكنوا من الاشتراك في تشييع الجنازة ، ولم يكن هناك ما يدعو الى السرعة لأن النعش وصل الى المحطة في الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء وبقي بها الى مساء الخميس ٢١ يناير حيث نقل في القطار الى القدس وكان يمكن تأجيل التشييع الى ظهر اليوم أو بعد الظهر بساعة ولكن هكذا شاء المتحالفون على عدم اشراك الشعب المصرى في تشييع جنازة الفقيد الراحل .

وقد رويت عن السيد عبدالعزيز الثعالبي الزعيم التونسي الشهير في خطبة رثائه في ظهر الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٣١ بالمسجد الاقصى نبذة من تاريخ حياته كما شهد بها بنفسه قال :  
« كنت نزيراً عليه أيام اقامتي في دهلي سنة ١٩٢٥ وكان يعالج بياض نهاره وهزيعاً من الليل بالكتابة والخطابة والتفاهم مع الاحزاب وملاقاته الزعماء ومحادثه رجال الهند وأقطابها ولكن كان له عمل آخر لا يشغله عنه شاغل في المربع الاخير من الليل هو تركية القلب وتصفية الروح فقد كان ينتطح للتهجد وقراءة القرآن حتى مطامع الشمس ثم يعود الى استئناف عمله وهكذا دواليك » وختم الثعالبي رثاءه بقوله :

« ان محمد على كان عظيماً بكل ما في هذه الكلمة من معاني ، وسر عظمته كان في عقيدته وفي ايمانه واخلاصه . لقد مات الرجل الذي وضع أساس تحرير الشرق ولكن هذا لا يعنى أن العمل الذي بدأ فيه سوف يتوقف : ان الممول على الاخلاص ! لم تكن مواهبه في ذكائه وخطابته وعلمه واسكنها كانت على الاخص في ايمانه ويقينه واخلاصه .

ولا يقل فضل شوكت على عن فضل أخيه فقد كان مربيه وصديقه وقد خطب في

جمعية الشبان المسلمين ٣٠ يناير سنة ١٩٣١ باللغة الانجليزية فذكر فتوح الاسلام وهمة العرب ونهضة الشرق ثم قال « انني ربيت أخي ثم صرت له تلميذاً . وكنا نعيش في بداية أمرنا كإيدش الانجليز نحلق لحانا وشواربنا ونلبس الثياب الأجنبية ونشترك في الالعاب السكسونية ونتقمها وقد بنينا داراً على الطراز الانجليزى وأثنائها على الطريقة البريطانية وأخذنا نستقبل أضيافنا من الاجانب فكانوا يأكلون طعامنا ويشربون شرابنا ويطنون في شعبنا أمامنا ثم يحتمروننا في قلوبهم . فلما بان لنا الحقيقة خلعنا ثيابهم وأرخينا لحانا لتكون احتجاجاً على الظلم الأجنبي ورضينا بالثياب الوطنية التي تستر أجسامنا وتقينا البرد ، وهي أقل في مظهرها من الثياب الافرنجية الفاخرة ولكنها صنع أيدينا وبضاعتنا التي نتخرجها . ومنذ صار لنا هذا المظهر الاسلامي الشرقى أخذ الانجليز ينظرون الينا بعين الاحترام والاعتبار ويعتبروننا أشخاصاً تمثل الاسلام والشرق فكفوا عن احتقارنا ، ونحن كففنا عن مظاهر الثروة ورضينا بالكفاف والزهد في العيش » .

ومن أغرب ما حدث انه في صبيحة القاء هذه الخطبة البريئة انبرت سيدة سورية تنتمي الى العقيدة المارونية في احدي الصحف السورية الموالية لفرنسا في الشرق تنقذ وترعى وتزبد وادعت باطلا ان خطبة شوكت على تبنى وجوب مقاطعة كل فكرة جديدة وكل أسلوب مستحدث والاكتفاء بما خلفه الماضي من الافكار والاساليب ووسائل المعيشة ولم تكن تلك الآنة أوالسيدة قد حضرت الاجتماع أو سمعت الخطاب الذي ألقاه مولانا شوكت على ولم تكن قراءته في الصحف لتدلها على حقيقة أفكاره . ولكنها كانت آلة في يد أعداء الشرق والاسلام الذين أوعزوا اليها أن تهاجم شوكت على وتمهيمه باطلا بأنه يدعو الى الرجعية والقهقري وينشر فكرة المقاطعة والرجوع الى الماضي واحتقار اوربا ومدنيتها . وهذه شنشة عرفناها من أخزم

وفي الحق ان تلك الكاتبة المسترزقة وسادتها وأسائنتها ، ليس لهم دخل في شؤون الاسلام كما اننا لا دخل لنا في شؤون الموارنة أو الكنائس والسكنها سلاطة واسفاف وغدر

فبیت تظهر بوادره كما سنحت من المصلحين سائحة فهؤلاء القوم الذين آوهم الاسلام وفرش لهم وأنا مهم وأسعدهم في كنفه ، يفتأون يحاربونه بكل سلاح ولا ينجحون أن يسخروا صديانهم ونساءهم لمناوانه . ومما يدل على جبل تلك الكتابة وتعصبها وعدم فهمها الخطابين اللذين ألقاهما الثعالبي وشوكت على في ذلك الاجتماع انها خاطت بين الخطابين خلطاً مدهشاً .

فقد كان موضوع الثعالبي « انتشار الاسلام بغير حرب ولا سلاح » وكانت خطبة شوكت على شكراً للذين احتفلوا به وعزوه في أخيه . فسرده الثعالبي وقائع تاريخية تؤيد نظريته وهي نظرية جاء بها كثيرون من المؤرخين الأفرنج في كتبهم مثل G. H. Wells وستودارد ومؤلف تاريخ عبد الحميد وغيرهم . وكلام شوكت خاص بتاريخ أخيه وأعماله في الهند ومع هذا التباين العظيم في الموضوعين ومع حضور مئات من العلماء والادباء لدى القاء الخطابين المختلئين فان السيدة الكتابة المارونية الملة والمتعصبة النزعة قالت في استهلال مقالتها :

« ومع أن خطاب الاستاذ الثعالبي كما نشرته الصحف في وصف الاجتماع الذي أقامته جمعية الشبان المسلمين أوفر إسهاباً ، فانه في الجوهر وفي طائفة غير يسيرة من التفاصيل متوافق وخطاب مولانا شوكت على فحمدنا للاستاذ الثعالبي بيانه عن روح السلم والسماحة في الاسلام كما حمدنا لكل من الزعيمين الكبيرين محبتهما لهذا الشرق العظيم ورغبتهما في إنهاضه وتحريره وإسعاده باستعادة مجده السالف » .

ولكن هذه مقدمة ، ولين مدخل ، واستدراج للقارئ ليتناول السم المدسوس ، في الدسم ، وهذه طريقة تنبيء بحسن القصد ، وسلامة النية والتجرد عن الهوى ولكن وراءها الغدر والنكابة وايقار صدر اوروبا والسلطات الحاكمة في الشرق على هذين الزعيمين فانها بعد أن نهبت الى أنهما زعيان يرميان الى انهاض الشرق ، حذرت اوروبا منهما لأنهما رجعيان ومتعصبان يقولان بمقاطعة اوروبا في أفكارها وبضائنها قالت :

« وقد استوقفنا من خطابي الزعيمين القول الواحد الذي يعني وجوب مقاطعة كل فكرة جديدة وكل أسلوب مستحدث والاكتفاء بما خلفه الماضي من الأفكار والاساليب



«وسائل المعيشة»

واستمرت على هذه الغمة تنسج خيوطها وحبائنها للوقية والفتنة ، وهذا من أشنع أنواع التجسس والاختلاق والبلاغ الكاذب والنميمة التي يجب على كل عاقل أن يتبينها قبل أن يأخذ بها أو يصدقها . عملاً بنصوص القرآن وأحكام القوانين .

وفي يوم الاربعاء ٢ فبراير سنة ١٩٣١ ألقى مولانا شوكت على خطاباً على نخبة فاضلة من سيدات القاهرة فقال انه مدين بكل ما هو فيه من حب الاسلام والشهرة المكتسبة هو وأخوه لامرأة وهي أميما التي كونتهما وثقتهما ولم تكن متعلمة ولكنها سيدة علمها الزمن وكان لها عقل راجح وصدر رحب فعلمت ولديها حب دينهما وأهلهم وكل ما قاما به من جهاد في سبيل الاسلام والمسلمين انما هو ثمرة لهذا الغرس الذي غرسته أميما في نفسيهما وكان محمد على عمره سنة واحدة عند ماتوفي والده وكان عمر الخطيب ( شوكت ) سبع سنين وكانت تركته أييها مستغرقة بالديون ، فقلبه مغمم بالحب لأمه العظيمة التي جاءت كي لا تتبع أرضها الرهونة وباعت كل ما كانت تملك حتى رببتها هذه التربية التي نشأ عليها ومن أجلها هو يقدس للمرأة ويعمل كل ما يمكنه في خدمتها إكراماً لأمه .

ثم تكلم عن حجاب المرأة الهندية وهو المسمى بنظام الپوردا ( ولعله مأخوذ من كلمة بردة أى ثوب ) فقال ان سببه فتوح الموغول فأصبح الپوردا محكومين بعد أن كانوا حاكمين فاضطر المسلمون الى حجب النساء وقاية لمن من التعدى والأذى . وان الذي ساعد والدته على تربيته وتربية أخيه وأخواتها الأربع انما هو الحجاب لأنها اقتصدت ولم تر بذخ السيدات ولم تتأثر بأفكارهن بالعدوى فكان ذلك معيناً لها على الانصراف الى تكوين أسرتهن بالطريقة المجدية النافعة وان أول واجب على المرأة المسلمة أن تكون الأسرة تكويناً يخرج الناشئة على جميع الأخلاق الفاضلة .

ثم قال :

اننا وقفنا مكتوفي الأيدي والروح الاسلامي يضعف شيئاً فشيئاً وخصوم الاسلام

يعملون على هدمه والاستيلاء على مقدساته ومحاريب المسلمين في دينهم وأعز شيء عليهم وإن الأخطار التي تحوط جميع الأمم الإسلامية اليوم يجب التفكير الجدى في وسائل صدها ودفعها عنها .

«لا ينبغي أن نبكى إذا أخذ وطننا منا مادنا نصرف أوقاتنا في التافه من الشؤون ونضن على الله ببعض أوقاتنا .

«لا نريد أن نتصوف ولا أن نتكشف ولكن نلبس زينة الله ونتمتع برزقه في حدود الضرورة ولكن علينا أن نعطي أرواحنا قسطاً من التربية والتهذيب النفسى كما أعطيناها من الملاذ والشهوات» .

## ٥

ولم يكد المرحوم محمد على تجف دموع الباكين عليه حتى أطلق سراح غاندى ، وتوفى المرحوم متولال نهر وأحد عطاء الهنود وقد خرج من السجن الى القبر وانتهى مؤتمر لندن ، والتقى غاندى بلورد اروين الحاكم العام فى الهند واتفقا فى النهاية على منهاج الهدنة ووقف الحرب السياسية ريثما تم خطة الاتفاق النهائى التى تنيل الهند أمانها المقدسة . وربما كان هذا من المصادفات ، ولكن من العجيب حدوثها عقب وفاة الزعيم الراحل . فقد صدق من قال ان دماء الشهداء تغذى شجرة الحرية . وهذا الشهيد قد سقط فى ميدان الوغى يدافع عن وطنه وعن دينه وعن الشرق أجمع وقد تحقق بعد موته أمله الذى كان يسعى إليه طول حياته وكاد يتحقق عن قريب باذن الله .

ان الذى حدث وظهر فيما يتعلق باخواننا الهنود المسلمين أمر على أعظم جانب من الخطورة . وقد سبب دهشتنا وغير مجرى أفكارنا . انه من المبالغة أن نقول اننا واقفون على أحوال المسلمين فى الهند . وكل ما يمكننا أن نقول به هو ماظهر لنا من نهضتهم بسبب إنشاء كلية عليكده التى أسسها سيد احمد خان الزعيم الهندي المسلم وكنت جريدة المؤيد تدعو للاكتتاب لتلك الكلية وقد جمعت مبالغ لا بأس بها من كرام المصريين . وفى ظنى أن فكرة

الوطنية أو الاستعمار لم تكن هي الحافز لنا في ذلك العهد على مد يد المعونة لتلك السكاية . بل كان الحافز لنا هو الرابطة الدينية بين المسلمين الهنود وبين المصريين . وأخذ بعض الهنود المسلمين المتعلمين لاسيا الذين ختموا دراستهم في بلاد الانجليمز يرون بالقطر المصرى فيلقون إكراماً وعناية واحتراماً من رجالنا العموميين ومن هؤلاء ضياء الدين احمد الذى مر بمصر فى سنة ١٩٠٧ وغيره . وكان بعض العظماء أمثال أبو الكلام والسهروردى وسير شافعى وبعض رجال حيدر آباد الدكن يرون بمصر فيكرمون على اعتبار أنهم مسلمون . ولم تكرم مصر هندياً وثنياً على اعتبار أنه وطنى قبل برمشاور لال المحامى الهندوكى البنغالى الذى زار مصر فى سنة ١٩٠٨ وكان من أهل النبوغ والفضيلة والاخلاص لوطنه وللشرق .

ولم يكن جميع المصريين قاطبة ماعداً أفراداً يعدون على أصابع اليد الواحدة يعملون أى شىء عن الحركة الهندية قبل سنة ١٩٠٩ عند ما اتصل بعضهم ببعض زعماء الهنود الذين كانوا يجاهدون فى سبيل وطنهم فى أوروبا أمثال كريشنا قارما بلندن وباريس ومدام كاما باريس وجنيف وسافاركار بلندن وباريس . وهارديل وشاتوپا دايا .

وكانت الهند مرموقة بعين الاحتقار فى الشرق ، ولا سيما فى القرن التاسع عشر . فكانوا يضربون الأمثال بمدلتها للانجاييز وكان بعض المصريين يظنون أن الانجاييز يسرجون الهنود ويتخذونهم مطايا . وينذرون بعضهم بحظ سى لا يقل عن حظ الهنود . وقد تحققنا من صدق هذه الأقوال الى حد ما وان كان فيها بعض المبالغة فان الانجاييز حقيقة يسيئون الى الهنود فى بلادهم ويهينونهم كماهى عادة كل فاتح أجنبي قليل العدد فى البلاد المفتوحة فهو يستعين على قلته بالقسوة والارهاب . ولكن يظهر أن الهنود الذين سافروا الى أوروبا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وتلقوا العلوم الحديثة فى انجلترا والمانيا وأمريكا تمكنوا من استرجاع مكانتهم فى أوطانهم ، ويرجع الفضل فى النهضة الأخوية الى بضعة رجال من الهندوس والمسلمين . والى قسط من الحرية أرغمت انجلترا على اعطائه للهنود فكانوا يجمعون فى كل عام مؤتمرهم الوطنى . وكانوا ينشرون فى بلادهم وفى الخارج جرائد

ومجلات متطرفة في الحرية ساعدت على تشجيع الهنود وهدم صروح الاوهام القديمة التي كانت قائمة في وجوههم . وربما كانت اعظم رجال النهضة الحديثة قبل « جاندهي » الاستاذ المرحوم تيلاك الزعيم الهندي الشهير الذي حوكم في سنة ١٩٠٦ وحكم عليه بالسجن ست سنوات . وهو يعد بحق مؤسس حركة سواراج أو الاستقلال التي قامت في الهند في الثلاثين سنة الاخيرة . . ومن المسلمين سير شافعي الذي توفي اليوم<sup>(١)</sup>

## ٦

وأخبار النهضة الهندية الحديثة تهمنا في مجموعها كما يهمنا أمر المسلمين في تلك البلاد فانهم يبلغون ثمانين مليوناً . وقد رأينا منهم في العهد الاخير عدداً وفيراً وكلما حادنا أحدهم أبهم الأمر علينا لكثرة ما نراه من التناقض في مقاصدهم ولكن يمكننا الاستنتاج بالاجال أن معظم المسلمين الهنود جهال كغيرهم من المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وان المتعلمين منهم أقلية . والذين يتعلمون منهم يتمايزون على غيرهم وتظهر كفايتهم ونبوغهم بدرجة مدهشة . وليس كل المسلمين في الهند من أصول عربية أو تبرية أو موغولية أو فارسية بل معظمهم من الهنود الاصليين الذين انتحلوا الاسلام عند دخول المسلمين فاتحين الى بلادهم وربما كان الكثيرون منهم من الطبقات المتصيبة أو القليلة المجد والتي وجدت في الاسلام حرية واخاء ومساواة وضماناً لحقوق الضعيف والمظلوم فاتخذته درعاً ضد اضطهاد البراهمة غير أن هؤلاء المسلمين مهما كانت أصولهم فقد احتفظوا بكثير من شجاعتهم وسلطتهم الأديية ؛ حتى ترى بعضهم يقول مفاخراً :

« نحن فاتحون ونحن حكام ، ونعرف وسائل الحكم والسلطة والسيادة في هذه البلاد ، وهذا وجه خوف الهندوك منا فهم يخشون جانبنا لأننا سادة البلاد » وكان أعظم المصرحين بهذه السخافة السياسية الرجل المدعو شوكت علي . الذي ثبت لنا كما ثبت لكل شرقي متصل بالحياة العامة أنه يعمل للاستعمار ويخدم الدول الأجنبية في بلاده وقد اتخذ

(١) لم يلبث أن يعود الى الهند من مؤتمر المائدة حتى مات بذات الرثة .

الاسلام والخلافة ستاراً يعمل وراءه لمصلحته الشخصية . لأنه لو سلمنا جدلاً بصحة هذه النظرية وبصدق قولهم بأنهم سادة البلاد وحكامها ، فقد آن لهم أن يتنزلوا عن هذه الدعوى ويتخلوا عنها لمصلحة الوطن وهي أعظم من مصلحة فئة من فئاته أو طائفة من طوائفه . فإن العالم المتحضر يسير في طريق المساواة لا في طريق الاستبداد ، وإن هذه الدعوى الباطلة ، لا تقيد مطلقاً الآن لأن المسلمين أقلية والهندوك يزيدون على ثمانية مليون فأين يذهب سبعون أو ثمانون مليوناً في بحر هذه الأغلبية ، فضلاً عن أن الهندك متعلمون ومنورون ومنهم الشعراء والفلاسفة ورجال السياسة والاقتصاد والقانون . وقيام حرب بين الطائفتين الآن مستحيلة ولو قامت فأنها تدور دائرتها على المسلمين لا محالة . ثانياً إن المسلمين بالاستمرار على اذاعة هذه النعرة السخيفة يعطون للانجليز سلاحاً قوياً جداً يتقربون به لدى الهندوس ويهددونهم به بعد أن يعيروهم بالتفريق الكائن بينهم وبين المسلمين . والهندوس أنفسهم إذا سمعوا ذلك القول تأخذهم العزة ويغضون المسلمين ويضمرّون لهم السوء . ولا يأمنون جانبهم مطلقاً وقد يعملون على أذاهم بكل الوسائل إما بنزع ملكية أراضيهم أو بأذلالهم أو بنوايتهم ليعودوا الى حظيرة الوثنية وقد حدث شئ من هذا فعلاً . وهذا نفس ما ترغبه انجلترا لانه عين الشقاق الذي يمكنها من السيادة . والحكم المطلق في الهند . فنحن وإن لم يكن لنا أن نلقى على الهند درساً إلا أننا نرى وجوب الاتحاد بين طوائف البلاد الشرقية جميعاً حيال العدو الاجنبي . ويسوّنا عزلة المسلمين عن غاندى .

وقد قابلنا كثيرين من الهنود المسلمين وغيرهم في طريقهم الى مؤتمر المائدة المستديرة ، وقبلنا غاندى ومن معه من الابطال والزعماء والقادة والشعراء والفلاسفة . وحادثناهم فكانوا جميعاً متفقين فيما بينهم على تمام الوفاق مع المسلمين . وقد رأينا من شوكت على بعد أن جمعنا بينه وبين غاندى وتعانقا على ظهر الباخرة « راجپوتانا » تقوراً وتكبهاً ظنناه في أول الأمر هموساً بالعظمة ، فإذا به تعلقاً بحكم الانجليز الذي كان شوكت على يدافع عنه بحياته حتى في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس في ديسمبر سنة ١٩٣١ .

وقد سرنا أن رأينا أفضل عناصر الاسلام منضمة الى غاندى ولم يمكنوا الانجليز من أن يقولوا لهم « اتفقوا فيما بينكم أولاً ثم تعالوا الينا لتفتقوا معنا » .

### V

وقد قابلنا من المسلمين الهنود شباناً متعلمين في طريقهم الى لندن وهم من تلاميذ كلية عليجره التي أسسها السيد أحمد خان وحادثناهم على انفراد فاذا بعضهم متمسك بالفكرة الاسلامية وحيثه في ذلك أن الهنادك قد اضطهدوا المسلمين جملة قرون وقاطعوهم واعتبرهم وهم من الانجاس تقريباً والذين لا تجوز معاشرتهم وقد تعطلت مصالح المسلمين في البلاد وزاد جهلهم وصاروا في بلادهم أذلاء ، وكان الهندوس يبغضونهم بظن أنهم معادون للوطنية الهندية . فلما ظهر نوابغ من المسلمين ومن الهنادك تمكن الفريقان من جمع الكلمة ولم تشمل الفريقين . وأخذ الجميع يعملون للمصلحة المتحدة في الهند وانجلترا وعلى رأسهم المغفور له سير أمير على الذي ألف كتباً جلية في تاريخ الاسلام والشريعة والحضارة الاسلامية . ومن فضلائهم المرحوم أبو الكلام وسير إقبال وسير شافعى وظفر على خان وعباس طييجى

ومن لقيناهم في العهد الأخير محمد علي چناه وهو محام هندي مسلم متعلم ذكي وسياسي محنك ويكاد يكون انجليزى النزعة في هياته وحديثه وعاداته ولكنه وطني مخلص وهو شديد الحذر سى الظن برجال السياسة في الشرق والغرب ولكنه يتلهب غيره على بلاده وهو قليل العلم بأحوال الشرق والاسلام وان كان قد انقطع لدرس المسألة الهندية . وهذا الرجل وضع منهاجاً مؤلفاً من أربع عشرة نقطة ( تند كرنا بأربع عشرة نقطة وضعها ويلسون منذ أربع عشرة سنة ) ومعظمها خاص بحقوق الانتخاب وامتيازات المسلمين في الولايات التي يكثر عددهم فيها . ومن أرائه التي تلقيناها عنه مباشرة في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣١ ان المسلمين والهنادك لا يجوز لهم أن يذهبوا الى مؤتمر المائدة المستديرة قبل أن يتفقوا فيما بينهم وهو قليل الثقة بغاندى ويتهمه بأنه يخدم طبقته وهي طبقة أرباب المتاجر الصغيرة . ولا يظن أن الهند تنال استقلالاً على يديه لانه لا بس « لآنجوتيه » أى سراويل قصيرة ، اشارة الى

الزى الذى اتخذه غاندى أما محمد على جناه نفسه فهو يلبس الملابس الافرنجية والقبعة الانجليزية ويدخن الجحشة على طريقة السكسون وهو يقدر ما حصل عليه الهنود من الانجليز حتى الآن بثلاث حقوقهم وينتظر الحصول على الثلثين الباقين . وقد علمنا أن محمد على جناه أشبه الناس فى السياسة بالاحرار الدستوريين وهو زعيم له أنصار من طبقة المتنورين وهو طبعاً يرفض زعامة شوكت على وأمثاله لانه يعتبر نفسه أرقى منه عقلاً وعلماً ولا يقل عنه اخلاصاً واتساقاً للاسلام . وهذا النوع من الرجال نحترمه وتقدره قدره ولكن ينفع وطنه بعد حصوله على الاستقلال المنشود أما الآن فانه يثير الشكوك وقد يخيب الآمال لأنه محام حريص أكثر منه زعيماً وطنياً . وامله مساوم أكثر من سياسياً . وقد قيل لنا انه خطيب قدير بلغته وهو يجيد الانجليزية . ولكن ليس بالدرجة التى يجيدها سير محمد اقبال الذى سموه بحق شاعر الهنود المسلمين وفيلسوفهم . فانه يمثل نوعاً آخر من الرجال فهو كهل فى منتصف العقد السادس أسمر اللون حسن التقاطيع سليم القلب صادق النظر ، مملوء بالعواطف الكريمة والآمال العالية وقد تلقى علومه فى ألمانيا وفى انجلترا واشتغل بالمحاماة والادب والفلسفة فى بلده لاهور . وهذا الرجل كان صديقاً حميماً لمحمد على المتوفى فى العام الماضى ( ١٩٣١ ) وكان على ما ظهر لنا لا يجب أن يتحد محمد على مع غاندى ، ولا يزال يجاهر بهذا الرأى لاعتبارات طويلة وجيبة فى نظره . ولكنه لا يرفض الاتحاد معه ولا يأبى العمل فى كنفه . ولكن له وجهة نظر قد تختلف عن وجهة نظر غاندى . ويهمني قبل كل شىء ان أقول انه ليس من نوع شوكت على وليس على مبادئه ولا علاقة بينهما فى شىء . وقد قال لنا « لقد كان من سوء الحظ أن سافرنا من انجلترا الى مصر على مركب واحد » . وقد رأيناه فى أثناء اقامته القصيرة فى مصر يتهرب من مقابلة الرجل ويحسن التخلص من فرصة الاجتماع به ويصرح بأنه ليس على رأيه فى شىء . وقد نزل فى مكان غير الذى نزل به شوكت على وسافر بمفرده الى القدس لحضور المؤتمر ولم ينضم الى الرجل المذكور فى فكرة أورأى . وعندنا ان اقبال من نوع تاغور الشاعر الفيلسوف وهو مسلم بمعنى الكلمة ولعله من سلالة الفاتحين

وهو أديب في اللسان الفارسي الذي يتقنه اتقانه للغة الهندوستاني والاوردي ، والانجلايزي والالمانى ، وهو عظيم الأمل في نهضة الاسلام ومستقبله وظهوره بمدنيته وبجده كما كان في سالف الزمان . وهو يرفض الوطنية الجنسية والفكرة القومية ويعتبر الاسلام رابطة ووطننا وجامعة أقوى من كل تلك الروابط . ويقول ان اور وبا أفسدت الشرق بأن أدخلت عليه فكرة الوطنية بالقومية أو بالانتساب الى بقعة معينة . فان الشرق يجمعه الروابط الروحية والدينية أكثر من الروابط الاخرى . وقد صرح لنا انه عند ما أراد محمد على الانضمام الى غاندى سنة ١٩٢٢ أو ١٩٢٣ زاره في لاهور و عرض عليه الفكرة فعارضها اقبال وقدم حججه علي رفضها . ولكن محمد على أصر عليها .

وبعد حين عاد محمد على اليه وهو مريض قبيل سفره الى مؤتمر المائدة المستديرة (١٩٣١) وقال لاقبال انه آسف على انه خالف رأيه وقد رأي خطأه بالاختبار ، ولكنه يري نفسه مضطراً للسفر الى لندن . حيث لقي منيته . وقال اقبال عن نفسه انه لم يكن سياسياً ولم يكن مشتغلاً بالسياسة وكان يعيش دائماً بعيداً عن الاوساط السياسية وهو يحب أن يخدم قومه بالفكر والكتب والفلسفة والشعر . وله نظريات جديدة في تجديد التفكير في الاسلام ، وفي استنباط أساليب حديثة في الفقه والحديث وعلم الكلام وفتح باب الاجتهاد لأنه عدو للجمود . ويعتقد ان القرآن ينطوى على كل شئ يؤدي الى تقدم المسلمين ونهوضهم . ويجاهر بأن الاسلام خدم للمدنية والانسانية والعلوم الحديثة . فهو زعيم اسلامي أو مفكر اسلامي من طبقة أرقى من طبقة سيد أمير على المؤرخ ، لأن اقبال ينظر الي الاسلام باعتباره كائناً حياً قابلاً للتطور والتحول نحو التقدم والاصلاح والنهوض بعد الركود والحياة بعد طول الرقاد والمرض . وربما كان هذا النوع من الرجال لا يكثر كثيراً للحياة السياسية العملية ، لأنه ليس رجل كفاح فهو لا يجارح الانجليز جهاً ولا يشهر في وجوههم سلاحاً ، ويكفي دلالة على ذلك انه يحمل لقباً من ألقاب شرفهم ، ولكن هذا اللقب في اعتقادي لا يقدم ولا يؤخر ولا يقلل من وطنية الرجل فان كثيرين من الزعماء في الشرق باشاوات دون أن يكون لتلك الباشوية أولية ميرانية



شأن في أخلاقهم أو في تقليل وطنيتهم . بيد اننا بعد أن عاشرنا اقبال وأحببناه واحترمناه ، لا يسمعنا الا الأسف على أن لا يكون لرجل مثله في خدمة بلاده نصيب أكبر . ولعل سياحته الاخيرة في الغرب والشرق تساعده قليلا على الخلاص من موقفه الحالي . ومن أمثاله ذو الفقار على خان وجاودري ظفر الله خان وشفاعت احمد خان وسردار سليمان قاسم الحاج ميتا وغيرهم ومن الرجال الذين رأيناهم شفيق داوودي وهو محام هندي مسلم وشاعر وهو شبيخ اسيب ولكنه محتفظ بقوة الشباب وحرارته وحياته وقد كان في اجتماعنا به في نفس الوقت الذي التقينا فيه بمحمد علي چناه تناقض غريب بين ذلك الشيخ الصريح الوطني المخلص الصادق النزعة المتمسك بلزي الشرقي في وقار واحتشام المعايير بالثقة في مستقبل الاسلام الواضح الحديث الجلي الرأي . وبين الكهل النحيف الجاف المتفرنج الذي أخذ يساوم محادثه المصري (وهو دكتور فضل) وينظر اليه شزراً ولا ييوح له بكلمة الا اذا استدرجه في عشر كلمات . ولكن شفيق داوودي من نوع أصدق معدناً وأرقى جوهرأ وهو من مندوبي الشعب وقد اشتغل بالحركة الوطنية منضماً الى جمعيات الخلافة التي تأسست وتطورت واندثرت ثم بعث ولكنها تمثل دائماً فكرة واحدة وهي وجود دولة اسلامية قوية ينضوي تحم لوانها جميع شعوب الاسلام . وهي فكرة سليمة في ذاتها وليس عليها غبار ولكن الذي يضعفها ويؤذيها هو دسائس المستغلين بها وفتنتهم أمثال شوكت على الذي تلون وتلوى واتخذ جملة صور وأشكال في بضعة أشهر . فقد كان أول ما رأيناه في تشييع جنازة أخيه محمد علي ودفنه فقد كان وطنياً هزدياً مخلصاً يقول بقول أخيه الذي انضم الى مطالب غندي الى آخر لحظة من حياته . وسافر من الشرق ونحن نعمتده زعيماً عظيماً ومازلنا على اعتقادنا حتي عاد من الهند في صيف عام ١٩٣١ يقصد مؤتمر الدائرة المستديرة فكان أول ما سمعناه منه من الخط من شأن غاندي والتقليل من مكانته في الهند واوروبا فدهشنا من ذلك وحذر من التصريح بهذا الرأي ثم ظهر الرجل بمظهر المصالح والموفق بين الاحزاب المصرية فقبول في بعض الاوساط بالاستهزاء والاحتقار فعذرناه وأعيد له النصيح . وجمعنا بينه وبين غاندي على ظهر الباخرة

فظهر اخلاص غاندى وان كان غاندى ما كراً وماهراً في اخفاء ما يبطن فيجب على الاقل أن تنتهز فرصة ظهوره بالاخلاص لنا والعمل على الانحاد . ولكن شوكت على كان يضمير الغل ولما سافر الى انجلترا لم يسمع له صوت في المؤتمر سوى صوت الدسيسة والترييق ولا غرابة فقد كان هو وبعض المندوبين الآخرين ضيوفاً على حكومة دوننج ستريت ونزلاء سنت جيمس . ولما عاد من المؤتمر بعد فشله ، كان من الفرحين بهذا الفشل ومن الباهين بأنه كان من أدواته فشله وظهر في القدس بمظهر الدساس صاحب الفتن فحارب الاتحاد ونصر الانتداب والاستعمار وتلاعب بالافكار وتظاهر بجملة ألوان وعند اللزوم بكى بكاء مرأً مثل النساء ووصف المعارضين بأنهم أعظم الشرفاء وخالف أصدقاءه في كثير من الأمور وانتهت الحال باكتشاف حقيقته وتسجيل فضيحته . والرجل في ظاهره أشبه الناس بصورة سائنا كلوز أونويل وهو الشخص الخيالي الذي يمثل الشيخ الذي يأتي للاطفال بالهدايا في عيد الميلاد . ومن سوء حظ الهندان شوكت على اوسائنا كلوز الهندي سيعود اليها في عيد الميلاد يحمل في جعبته بدلاً من الهدايا بضع مصائب وفتن وحيل دنيئة تؤدي الى اذلال الهند واعتقال الزعماء وضبعة آمال تلك الامة العظيمة . وقد لعب الرجل دوراً مخزياً وهو دور الخاطب أو الخاطبة بين أميرين من حيد راباد وأميرتين من سلالة عثمانية وقال بمضهم انه يرمى بذلك الى تجهيز سلالة جديدة تتولى الخلافة الاسلامية تحت اشراف سادته الانجليز لاحقق الله له أملاً ولا أسعده برؤية هذا البلاء . وترى هذا الرجل الغريب الاطوار يحيط نفسه في حله وترحاله « بريظه وزنبايظه » من الاعلان عن نفسه في الصحف ونشر الاشاعات الكاذبة عن حركاته وسكنااته كأن يقول انه سيقابل الملوك والامراء والوزراء والبابا وشيخ الاسلام ومصطفى كمال واخليفة المعزول في سياحة واحدة كما يصنع سائح انجليزى في زيارة الآثار !! وشوكت لا يبالي بالتناقض في خطظه ولا بالشخصيات التي يجمع بينها في رحلة واحدة . ونحن نمحو هنا كل ما أثبتاه في هذا الكتاب من الثناء عليه مما كتبناه عنه عقيب وفاة أخيه فقد كنا كغيرنا نحسن الظن به ، ولكن هذا الظن الحسن لم تطل مدته وقد أبقينا ما كتبناه في فترة

أخذنا به ليكون حجة عليه وعلى أمثاله في تقلبهم وتلاعبهم . وقد أشاع بعد عودته من القدس كعادته ان سيقابل « فلان وعلان وترتان » وانه ذاهب الى بلاد الين تلبية لدعوة الامام يحيى خليفة الين<sup>(١)</sup> ، ولعله ذاهب لينقل اخبار الرجل الى أعدائه ، أو ليحاول بلف « الزيود » كعادته في بلاد الشرق والاسلام . ولكن أهل الين أحرص وأقل من أن يدخل مثل هذا المهرج المهوش في « زوارقهم » وهم الذين لم تنظف عليهم حيل الانجليز والروس والظليان . واذا كان أهل الهند المسلمون لم ينخدعوا بهذا الرجل بعد ظهور حقيقة أمره وبرأوا الى شعوب الارض منه في جرائمهم وصحفهم وعلى منابرهم واعلنوا انهم كانوا يطلقون عليه لقب أسد الاسلام ، ولكنهم نزعوا عنه هذه الصفة وخلعوه بعد أن رأوا منه ما رأوا .

وحقيقة الامر تلخص في كلمتين وهي ان محمد على كان هو الرجل الصحيح العقل والقلب السليم التفكير الصادق النظر وانه كان الروح المحرك وكان شوكت على بمثابة الشبح له فمات الروح وبقي الجسم أو الشبح ، والاشباح عادة تكون دميمة ومزعجة . والموت تقاد على كفه . وقد اختار الافضل وترك الجمعاع والدوشن فلاحول ولا قوة الا بالله ! ولا يجوز لنا أن نسيء الظن بمسلمي الهند لأجل شوكت على أو عشرة من السخفاء أمثاله

(١) وقد نفذ هذا البرنامج في الوقت الذي اعتقل فيه غاندى وغيره من الزعماء ( ٤ يناير سنة

١٩٣٢ ) وعين شفيع داوودى سكرتير اللجنة الوطنية الاسلامية فانظر الفرق بينه وبينهم !

## ١٩

١

لايزال البحث دائراً بين لفيف من العلماء على أسباب الانشقاق الهائل بين الترك والعرب ، وهو الانشقاق الذي أدى الى زوال ملكهما معاً ، ويمكن منبها أعداءهما حتى قضيا على البقية الباقية من دول الاسلام .

وقد رأيت وجهة النظر التركية منصبة على تحطئة العرب ، وكل ما قالوه في هذا الباب صحيح ، وأيدته الحوادث التاريخية المصاحبة للثورة العربية واللاحقة للحرب العظمى وافتراس الخلفاء للدولة العثمانية ، وقد ندم العرب أنفسهم ولكن لا نفع في ندم بعد فوات الفرصة ، وفاز من امراء العرب من فاز بالعروش والنواصب ، وضحى بأمام بأسرها .

أما وجهة نظر العرب المنصفين في قضية الترك فهي أن الحركة التورانية كانت سبب البلاء . وأصلها أنه بعد الدستور العثماني ظهر في القسطنطينية احمد أغا ييف التركستاني ( وهو الآن يعيش في موسكو ) ومعه لفيف من أبناء وطنه في أواسط آسيا مثل تركستان الغربية وغيرها وكانت تحت حكم الروس ولا تزال ور بما كان معه حميد الله صبحي وكانوا يعيشون في الاستانة قبل إعلان الدستور ولكن في الخفاء ، أو ان استبداد عبد الحميد لم يسمح لهم باظهار ما تسكنه نفوسهم . فلما أعلن الدستور تشجعوا واتصلوا بالاتحاديين جهراً وأقنعوا زعماءهم أمثال الرحومين محمد طلعت واحمد جمال ودكتور ناظم وهيب باشا وآخرين بان في آسيا شعباً يتجاوز عدده أربعين مليوناً يتون كلهم الى الأتراك بأواصر القرابة والجنس والدين واللغة ، وتربطهم بالترك رابطتنا التاريخ والماضى ، وأن هذا الشعب متعطش الى الانضمام الى تركيا ، التي يجب أن يكون مستقبلها في آسيا ، بعد الذي رأته من تمر اوربا وتألبها وتهجمها على أملاكها ، ولا سيما يعد ظهور الدستور فن تعميمه في تلك البلاد الشرقية الاسلامية كقيل

بأن يخلق في وسط آسيا دولة اسلامية من أقوى دول العالم ، لاقتل بأساً عن اليابان في الشرق الأقصى ، ويظهر أن اغايف ومن معه كانوا مطلعين على فتنة العرب ، وما يبطنه بعض هؤلاء للترك ، لاسيما وأن ثورة البن كانت لا تزال مشتعلة وان كان قد مضى على قدح زنادها ثلاث سنين . فلتقت هذه الدعوة ارتياحاً في نفوس الاتحاديين وقبلوها وخلقت في أذهانهم سراباً جيلاً وحاملاً لذيذاً لو تحقق كان بمثابة تجديد للدولة العثمانية في صورتها الاولى ، ولاسيما أن العالم كان قد تخلص نوعاً من رابطة الدين ، وأخذ يسير حثيثاً في طريق الجنسيات . وأن الحق يقضى علينا بالقول بأن انور باشا رحمه الله لم تكن له يد في هذه الحركة ولم يمل اليها لأنه وبعض اخوانه كانوا يفضلون الرابطة الاسلامية ويرون إنعاش الاسلام واحياءه ، بغض الطرف عن الجنس والقومية ، وكان انور ومن علي شاكته من أبطال الاسلام وحماته يعرضون على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ويرفضون أي نوع من أنواع العصبية ماعدا عصبيةهم الاسلامية لأن المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلموه عن جنسه وشعبه . وهذه كانت معقولة انور في سنة ١٩٠٨ ، ولكن سير الحوادث كان أقوى من العقائد وقد لقي انور رحمه الله حتفه وهو يقاتل مستبسل في بلاد تركستان ( اغسطس سنة ١٩٢٢ ) فاستشهد في سبيل الفكرة التي لم يوافق عليها قبل ذلك بأربع سنين كإسيأتى الكلام على ذلك في موضعه .

ويظهر أن احمد اغايف كان على نصيب من علم تاريخ الشعوب وأصول الأجناس البشرية فأدخل في روع الاتحاديين أن الشعوب ( الاورال الطايك ) أو الجنس الطوراني لايشتمل على الترك العثمانيين في اوروبا والاناضول ، بل انه يشتمل أيضاً على التركمان والتتر والتوقاس ، وتطرف بعضهم فصار ينادى بأن المجر والفرنلنديين وولايات البلطيك والبلغار وأهل سيبريا والموغول والمنشوس كلهم أقارب واخوان أو أبناء عمومة وانهم أقرب الى الترك القاعين بأمر الدولة من العرب الذين يشقون عليهم اعصا الطاعة ويخلقون القلاقل والفتن .

على أن التحقيق العلمي لم يكن له مجال أبعد من هذا ، وكان يكفي التلويح بهذا

الخطاير ليعتقد الأتراك بأن ما بينهم وبين الشعوب الآتفة الذكر من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية وما هي عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية كاف لأن يحملها على الاعتقاد بأنها متحدرة من أصل واحد .

## ٢

فلما استتب الأمر للاتحاديين بدأوا يفكرون في تنفيذ الخطة فاتفق أمرهم على انفراد مائتي ضابط من أمهر رجال الجيش وأعلمهم وأشجعهم وكفومهم بالسفر الى تلك الأقطار النائية تحت ستار المشيخة والأساتذة والدرأوش فأقتنوا التخفي وساروا الى أواسط آسيا حيث انتشروا واتصلوا بالمدارس الأولية يعلمون الأطفال ويثبون فيهم روح الرابطة الطورانية في سر وخفاء . وكنت الحكومة العثمانية التي اتخذت لهذا الأمر ما يحتاج اليه من الخيطة والحذر ، قد حفظت حقوق هؤلاء الضباط في الترقى والرتبات ، حتى لا يضيع عليهم الوقت الذي يصرفونه في غاية الامبراطورية السامية .

وقد أقام هؤلاء الضباط المعلمون نحو سنتين لقوا فيها أكثر مما كانوا ينتظرون من حسن الاستعداد وكال القبول ولسوا بأيديهم علامة النجاح التي تبشر بتحقيق هذا الحلم الجميل . ويظهر أنه في أثناء تلك المدة أخذ الكتاب الأتراك في العاصمة ممن اقتنعوا بصحة الرأي يدعون اليه بالكتب والمقالات حتى بالانشيد والقصص . ولما كان أمر كهذا لا يمكن أن يبقى سرا مكتوماً على رجل الخفية والجواسيس الروس وغيرهم فقد اشتتموا رائحة الخبر بما حرك شكوك حكومة بطرسبرج ، فأوفدت عالماً مسلماً تترياً ، ووكلت اليه تحقيق الأمر في الاستانة فسافر اليها محاطاً بمظاهر الصلاح والتقوي ، وأظهر من ضروب الوطنية التترية والطورانية ما جعل زعماء الاتحاديين يتصلون به ويأمنون جانبه ويفضون اليه بحقيقة الأمر ، وقد طالت إقامته عاماً .

وعند ما عزم علي الرحيل زودوه بالمال والكتب وأطلعوه على أسماء الضباط ومهمتهم وفوضوا اليه معونتهم عن طريق العلماء والطلاب . فوعدهم خيراً وعاد محملاً بالخيرات

والخطط ، ولكن لا يشد أزر الطورانية ، إنما ليوح بالأمرار كلها لساته الروس الذين أرسلوه وكانوا يدفعون إليه المرتب . فانظر الي خيانة عالم شرق لوطنه واخوانه !

ولم يمض على وصوله شهر حتى صدر أمر الحكومة الروسية بالقبض على جميع الضباط الأتراك المتخفين ونفيهم من آسيا الوسطى وردهم الى تركية اوروبا . وكان قد مضى عليهم في آسيا ستان أو ثلاث ولكنهم عند ما وصلوا الى الاستانة في يوليو سنة ١٩١١ وتقلوا الى الاتحاديين أخبار رحلتهم واقامتهم في التركستان وسمرقند وطاشكند وبخارى وخيوه ، كانت الفكرة الطورانية قد بلغت أشدها وقد ساعدتها كتب البجائة المستشرق أرهنيوس فامباري المجري الذي هو في طليعة علماء الجنسيات في العالم ولعل انتسابه الى الشعب المجري هو الذي جعله يعطف هذا العطف العظيم البادي في كتبه ومقالاته على الشرق والترك والاسلام ، ولم يكن ليون كوهين الكاتب الفرنسي ليقبل عنه سعياً في نشر الفكرة الطورانية ولكن غايته كانت علمية محضة .

علي أن بعض الباحثين يرى أن الفكرة التي كان رسولها احمد أغايف وعصبته لم تكن وليدة فرد من الأفراد ، ولم تكن اوروبية النشأة إنما كانت ترجع الى الشعب التتري نفسه الذي تذكر ماضيه الحافل بأخبار الفتح والغزو ، والاستيلاء على الممالك ورأي نفسه في أواخر القرن التاسع عشر رازحاً تحت قهر الروس واستبدادهم وتعصبهم فنهضوا نهضة جنسية وأظهروا من الذكاء والفتنة ما كان كفيلاً بحفظ كياناتهم السياسي ، الى أن جاءت الثورة الروسية الأولى في سنة ١٩٠٥ فظهرت نهضتهم واعتزت ، ولما كانوا يبلغون في ذلك الحين نحو خمسة وثلاثين مليوناً فقد اشتمل مجالس الدوما الأول في روسيا على عدد كبير منهم كانوا في جهادهم السياسي عصبه متحدة فعالبوا الصعاب بغاية البذل في الذكاء والدهاء والحكمة حتى غدا الرأي العام الروسي على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقلل من عدد النواب المسلمين التتر كما يقل بذلك نفوذهم في دور الحياة الدستورية الجديدة .

فاذا نظرت الى أن البرلمان الروسي سابق للبرلمان التركي بأربع أو خمس سنين ،

وأن التتر، ومسلمي روسيا والقزيم كان منهم مهذبون وكتاب وسياسيون أمثال المرحوم اسماعيل  
عضبر نسكي الذي زار مصر حوالى سنة ١٩٠٤ أو سنة ١٩٠٥ واسحق عياض بك المنفي والمقيم  
ببرلين. دركت أن الحركة الطورانية كانت حركة محتمة الحدوث وانها كانت ذات شعبتين  
الأولى في الشرق ومركزها تركستان و بطرسبرج والثانية في الغرب ومركزها في الاستانة .  
وان احمد أغايف لم يكن الا رسول الطورانية الشرقية الى الطورانية الاوروية وقد وجدوا  
غير قامباري وكوهين رجلا منهم يعد كاتب الحركة غير مدافع هو يوسف اقشورة وأعلى المسلم  
التتري مؤلف «الأظمة السياسية الثلاثة» وهو يد بحدى الكتاب الاتباعى في هذا الموضوع .  
وما ناله يوسف اقشورة اوغلى بكتابه، نال أكثر منه أغايف بجريدة تورك يوردي أو  
الوطن التركى التى كانت منتشرة في جميع أنحاء العالم الطورانى .

## ٣

وكان في هذه الفترة تياران عظيمان يتنازعان الدولة العثمانية الأول تيار الجامعة  
الاسلامية الذى كان بطله الأ كبر عبد الحميد الثانى ، وكان هذا التيار يقتضى انضمام العرب  
واخلاصهم وهذا التيار قد ضعف وتلاشى بسقوط عبد الحميد وبتألب العرب واتفاقهم مع  
أعداء الترك من وراء ظهورهم ولم يبق الا التيار الطه رانى الذى كان يرتكن أولاً الى الجنسية  
وهي نظرية حديثة ملائمة للزمان والتطور ، وثانياً الى الدين لأن كل الطورانيين الحايين  
مسلمون ، ولا نأبه مطلقاً لما شاع وملاً الأسماع من اتهام الاتراك بعبادة الدب الأبيض  
ورجوعهم الى الوثنية أو عبادة الفتيش . وان كان الدب الأبيض قد ذكر في بعض كتابات  
هؤلاء الدعاة فلهذا ذكر بمثابة توتيم ، كما يذكر الر رومان الذئبة التى أرضعت التوأمين روميوس  
ورينوس ، وليس في هذه الذكرى عبادة أو تقديس . ولا يزال بعض قبائل العرب ينتسبون  
الى « صقر » و « كلاب » ولا يطعن هذا في دينهم ولكنه بقايا من عادة اتخاذ كل قبيل  
لشعار من فصائل الميوان .

واننى على يقين من أن خرافة الدب الأبيض كانت دسيسة لاضفاف شأن الطورانية



في نظر العالم وإهاجة الرأي العام الاسلامي ضدهم . فن طلعت وجبال وناظم وضياء كوك  
آلب وشكري بك لم يكونوا وثنين ، كما أن انور الذي كان متمسكاً بدينه كان يعتقد أن  
أتراك آسيا الذين كانوا يحنون الى أتراك اوروبا ويعقدون آمالهم على أهل صطامبول إنما  
يحنون اليهم لكونهم مسلمين لا لكونهم أتراكاً فلو كان أتراك اوروبا وثنين ما عرفهم أتراك  
آسيا ولا سألو عنهم . وقد دل علماء تركستان على صدق إيمانهم بأعمالهم .

صحيح أن الاتراك أخذوا في صبغ كل شيء بالصبغة التركية ، وكانوا يضررون أنهم  
إذا تقوا بأترك آسيا يستطيعون استرداد قوتهم في العالم ، وربما كان ذلك يكون في  
مصلحة العالم الاسلامي كله . ولكن العرب ومن ورائهم الاوربيون المستعمرون والسوريون  
المسيحيون المتوطنون في باريس والقاهرة وبعضهم باعوا أنفسهم وضائرتهم للأجانب ، لم  
يمهلهم ، وانتهزوا هذه الفرصة لاشغال نار الفتنة ، فكان رجال أمثال جورج سمته وأيوب  
ثابت ويوسف هاني وشكري غاتم وندره مطران ونجيب عازوري وغيرهم حلقة اتصال بين  
اوروبا المستعمرة وبين العرب البسطاء سواء في الحجاز والجزيرة العربية وفي سوريا وفلسطين  
وهاجوهم فعلا على الاتراك بكتب وصحف ومجلات ومؤتمرات .

وكنتم في الاستانة في شتاء سنة ١٩١٠ وأوائل سنة ١٩١١ وقد رأيت بوادر هذه  
الحركة ولقيت بعض زعماء العرب مثل شفيق المؤيد وعبد الحميد الزهراوي وكانوا إذ ذاك  
أعضاء في مجلس الأعيان العثماني ، وحوطهم ليف من عرب الاستانة وطلاب العلم في المدارس  
العليا وهم من العرب ، وقد رووا لي أخباراً كثيرة عن اضطهاد الترك للعرب في الدواوين  
والمدارس والصحافة وغيرها .

وقد روي لي بعد ذلك أحد ائمة المصلين على ادخال تلك الحركة ومن عاشوا في  
الاستانة في سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ ولم يكن ينقطع عن التردد عليها وكان على اتصال دائم  
بالاتحاديين ولا سيما المرحومين طلعت وأنور ، أن كوك الپ السالف الذكر كان كردياً وكان  
داعية الى الجماعة الكردية وألف كتباً في النحو والصرف الكرديين ورسم خطة للوحدة

الكرديية ولكنه انقلب في عشية وضحاها الى الحركة الطورانية وسايرها ودعا اليها وألف فيها شعراً ونثراً . وأخذ شبان الأترك لاسم الضباط ينبرون أسماءهم ويبدلونهم من الأعلام العربية الى أعلام أسبوية تترية مثل الب وجنكيز ، وتيمور وأخذ ولاية الأمور يتخلصون من الألفاظ العربية في لغتهم

وألف عبيد الله افندي النائب في البرلمان العثماني كتاب « قوم جديد » دعا فيه الى تقديس أسماء طلعت وأنور وجمال وناظم واحلاها محل محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى في القبة الكبرى بمسجد اچا صوفيا ، وأخذ الترك يضطهدون العرب الذين يشغلون المناصب في الدولة فيضعون أمام كل عربي حرف « ع » وينتهزون الفرصة الأولى لفصله من خدمة الدولة باقصائه الى أطراف المملكة أو الى قلب الاناضول ليحلوا محله موظفاً تركياً يكون أكثر ائتمناً على أصرار الدولة . وسرت هذه الحركة الى الجيش فزعموا أنه بعد أن كانت الفرق تنهض صباحاً على أذان المؤذن والوضوء فالصلاة الاسلامية ، أخذوا به قظونهم بأجراس لينشدوا نشيد الدب الأبيض . وقد أخذ شبان الأترك يتقربون الى الارمن واليهود والأروام ، ويحتقرون العرب ويتعدون عنهم كذلك كانت حال العرب نحوهم . وقد سمعت هذه الشكاوي بأذنى من بعض طلاب العرب في المدارس الحربية ومكتب الحقوق والطب

## ٤

وكان العرب المقيمون في الاستانة قد غضبوا لهذا ، مع أن أقرابهم واخوانهم في الحجاز وسوريا واليمن هم أصل هذا البلاء ، فاجتمعوا وأقروا فيما بينهم جمعية العهد العربية السرية ليناوضوا بها جمعيات الوطن التركي والجنسية الطورانية التي تألفت في الاستانة . وحسبوا أن العالم العربي في العراق وجزيرة العرب وسوريا وشمال افريقيا يبلغ نحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين مليوناً وهم أغلبية بالنسبة الى أترك اوروبا ، وان كانوا مغبونين في التمثيل السياسي لأنهم مع كثرتهم في الحقيقة لا تمثلهم في البرلمان التركي الاقلية ، لأن الأترك احتفظوا لأنفسهم بالأغلبية .

وهذه حقيقة لا ريب فيها ، ولكن العرب تجاهلوا المقصود منها وهو أن الترك كانوا حتى هذه الساعة هم العنصر الغالب في الدولة فيجب أن يكون الحكم في أيديهم ، ولا يكون ذلك إلا بكثرتهم في المجلس وتشكيل الوزارة منهم مع تمثيل العرب بوزيرين أو ثلاثة . وكان يمكنهم أن ينتظروا حتى يطمئن النظام الدستوري في البلاد ويطلبوا بالتدريج تعميم حق الانتخاب وتعديل قانونه بحيث يكفلون السكينة البرلمانية على عراسين . ولكنهم تعجلوا واتخذوا من خطة الأتراك التي كانت عبارة عن وسيلة من وسائل الدفاع عن السكينة التركي سبباً للمعاداة والشغب .

ومما يؤسف له أن رجلاً من أعظم رجال العرب في الجيش العثماني ومن أشهر قواد تركيا ، الذين أحلهم الأتراك أعلى محل كانت لهم اليد في تلك الجمعية التي ضمت إلى صدرها كثيرين من جهلاء العرب ودعاهم ممن لم يكن لهم في السياسة نظر قريب ولا بعيد .

وقد اشتعلت نيران الفتنة بفضل هذه الجمعية في المدارس ، حتى كان الطلاب الترك ينشدون الأغاني في مدح جنكيزخان وتيمورلنك . فيجيبهم الطلبة العرب بذكر صلاح الدين وخالد بن الوليد والزبير بن العوام وطارق بن زياد والعبادة السبعة . ومن تلك الأغاني ما نثبته لا للاستشهاد ببلاغته وجماله ولكن للدلل على الروح التي أوحى به ، ما نظمه سليم الجزائرى ، الذي ثبتت تهمته بالانضمام إلى أعداء الدولة قبل الحرب العظمى وفي أثنائها ، الاغنية الآتية بعنوان « أم عربية تناجى طفلتها » قال :

لندم هذه البنية	تنمو وتغدو صبيه
أزفها شجاعاً	فلا ترى مسية
تلدن كل همام	من فارس مقدم
يمزق الطعام	بهمة عربية
تلدن كل «عزيز»	يجود بالنفيس
يدق هام خسيس	بشجاعة وجية

يشعل نار الحرب      لدق عنق الكلاب  
ونيل عز العرب      من أمة تركية

ومما ساعد على اشتعال النار بين العرب والترك الاتحاديين انه لما تألف حزب الائتلاف وهو حزب تركي ينازع الاتحاديين السلطة حياً في المناصب ورئيسه الكولونيل صدقي بك ( ويعيش الآن في رومانيا ) أفضى الائتلافيون بأمرار الاتحاديين للعرب وأطلعوهم على خططهم نكائية في الاتحاديين وحباً بالانتقام منهم

وفي تلك الظروف السيئة المشؤومة أعلنت الحرب البلقانية وهي الهجوم الصليبي الأخير على الدولة العثمانية . وقد كانت أسباب هذه الحرب خافية على المعاصرين ، وظنوها جاءت مصادفة ، والحقيقة أنها كانت مدبرة من جهتين كما أثبتته مباحث المؤرخين الأتلي روسيا التي شعرت بقوة الحركة الطورانية وخشيت عاقبتها لأن الاتراك كانوا يشيعون أنه لن تقوم للوحدة الطورانية قائمة الا بزوال الدولة الروسية فضلا عن اتجاه نظر الاتراك الى أواسط آسيا مع وجود وحدة الاصل واللغة والجنس والدين ، كان خطراً دائماً يهدد الروس وهم يرون في التستر المسلمين والتركيستان من قوة الشكيمة وحدة الازهان ، وقوة الارادة والشجاعة الفطرية ما يجسم الوهم ويجعل حالتهم بمثابة « الخطر التتري » فدفعت بأذنانها وخراطيمها المسمومة وهي دول البلقان الى مناوشة الاتراك ومحاربتهم ليشغلوا بملسكهم في أوروبا عن الحلم المؤمل في آسيا . والجهة الثانية كانت ساسة انجلترا وفرنسا ، فلمهم يطربون لهذه الحرب ويشجعونها لا من حيث أنها تضعف الاتراك وقد تذهب بريحهم بل لأنها تقعد المانيا حليفاً قوياً يخشون منازلته في ميدان الحرب الكبرى التي أمست في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ أمراً مؤكداً . وهكذا كانت حرب البلقان نتيجة هاتين المؤامرتين الأوربيتين . وكانت تركيا لا تزال ضعيفة من فتنة البين بحيث لم تستطع في ١٩١١ أن تظهر بمظهر الحرب ضد ايطاليا عند اعتدائها على طرابلس الغرب وهي احدى الولايات التركية التي اغتصبتها ايطاليا

وكانت نتيجة تلك الحروب البلقانية ان خرج الترك من أوروبا وتخلص ظلمهم عن تلك الديار حتى أدركه مدينتهم المقدسة المحبوبة ، واذا رأوا ذلك أخذوا يحصرون أمالمهم في آسيا . وكانت الدعوة الطورانية قد اشتد ساعدها وظهرت قوتها وأراد الاتراك أن يضموا اليها فكرة الجماعة الاسلامية ، ولكن العرب كانوا قد خرجوا من أيديهم . فلما جاءت الحرب العظمى انضمت تركيا الى دول الوسط وتنورت للحلفاء الذين كانوا يحكمون أعظم عدد من المسلمين والعرب في العالم ، لأهم أي الحلفاء الاعداء الفطريون للدولة العثمانية ولدول الشرق الاسلامي .

قلنا ان الترك لم يستطيعوا استنفار العرب لان العرب خرجوا من أيديهم للعوامل التي فصلناها آنفاً . وان العرب كانوا في نفس العاصمة العثمانية يجتمعون ويتآمرون ليفصلوا ويمزقوا أجزاء الدولة العثمانية مملكة مملكة بحجة اللامركزية وهي فكرة في ظاهرها عادلة وفي حقيقتها خبيثة ضارة لأنها تؤدي حتما الى الانفصال والتزريق لاسيا بعد أن ظهرت نيات العرب الذين كانوا يسلمون لحام أمة الغامرين والافاقين من السوريين المسيحيين والمسلمين الذين كانوا يعيشون كالأقاعي في باريس والقاهرة ولقينا بعضهم أحياء وعلمنا أن رؤوس بعضهم قد طارت عن أكتافهم ولا يزال بعضهم على قيد الحياة ! وقد وصف لنا أحد ثقاة المؤرخين المسلمين أنه في سنة ١٩١٣ كان في الاستانة فدعى الى اجتماع في ادارة جريدة الحضارة التي كان ينشئها عبد الحميد الزهراوي واتخذ لها داراً في عمارة بجادة نوري عثمانية امام نادي الاتحاد والترقي . فوجد بالاجتماع عشرين شخصاً من خيرة رجال العرب في الاستانة وكلهم من رجال البرلمان والجيش والبحرية والعلماء . ومعظمهم من سوريا وكان هؤلاء السادة قد اجتمعوا لينظروا في الوسيلة التي يطلبون بها وضع بلادهم تحت حكم فرنسا فاعترض عليهم أحد الحاضرين وبين لهم ما في ذلك العمل من الخيانة لأنفسهم ولدولتهم . وأن فرنسا اذا دخلت بلادهم لآترحمهم وتاريخ استعمارها حافل

بالمظالم والمغارم وظاهر كالشمس في أفريقيا وآسيا فانبرى له بعضهم واتهمه بالجهل وعدم الحضارة ، و كان في مقدمة المعترضين عليه الزهراوي ، الذي كان سليم النية وجاهلا بالامور السياسية وكان ظاهره يخدع ويفر ، ولم يكن يصلح لأكثر من كتابة مقال في تاريخ الاسلام على الطريقة القديمة لانه لم يكن يعرف لغة أجنبية ولم يكن له اطلاع على العلوم الحديثة ، وقد راح ضحية استسلامه لعمون وسمنه ومطران وغيرهم من الخونة .

فلما أخذ المعترض يشرح بعض مظالم فرنسا ويتهم المجتمعين بالغفلة والغرور انبرى له قبطان في البحرية العثمانية وهو سوري الأصل اسمه « سالم الغلبان » وقال له « كم قبضت من طلعت أمس ؟ » يتهمه بالرشوة والتجسس وبيع الذمة ، وكان هذا دأبا للشركيين لا يثق بعضهم ببعض ويسبون الظن بأفاضلهم ولا يحسبون أحداً يخلص لله لأنهم خلو من فضيلة الاخلاص وأسهل شئ لديهم اتهام الناصح أو المخالف للرأى بالخيانة والرشوة ! فسكت الناصح ، وانسحب . وقد شاءت الأقدار أن يلقى المعترض ذلك القبطان بعد عشر سنين في أشد حالات الشقاء في شرق الاردن يستجدي بعد أن ملك الفرنسيون بلاده وطرده منها ، وكان بالأمس قبطانا في البحر ، وكان يمكن أن يكون أميرالا لو أنه أخلص لدولته .

وكان بعض المجتمعين مواليا للترك ، ويدفع مشروع التنازل عن الوطن بكل ما أوتي من قوة ولكن التيار كان جارفاً فاستدرجهم الى مؤتمر باريس الذي عقد في تلك السنة نفسها برئاسة عبد الحميد الزهراوي الذي لم يكن الا صورة ، يخفون مقاصدهم السيئة وراء عمامته وجبته ولحيته الحمراء رجه الله وغفر له .

وكانت الروح المحركة لهذا المؤتمر هم شكري غانم وچوج سمنه ويوسف هاني وأيوب ثابت وشفيق المؤيد وندره مطران وخليل زينييه ومنهم من وقع على الضبطة التي عثر بها جمال باشا في سوريا وفيها يطالبون حكم فرنسا في الشام وبناء عليها شفق بعضهم ولم تصل يده الى الآخرين ولا أشك في أن بعض الذين حضروا هذا المؤتمر كانوا مخلصين للترك مثل المرحوم مختار بيهم وغيره ولكنهم قلة .

وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر في الصحف وفي كتاب خاص .

ولكن المسيو باريتودي لا روكا أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية أفضى في سنة ١٩٢٠ بحقيقة أعمال هذا المؤتمر التي كانت جارية وراء الستار فقد قال « انما طلب السوريون الاحرار ( كذا ) عقد المؤتمر في باريس لوضع سوريا تحت الحكم الفرنسي ( كذا ) وطلبوا التصريح بذلك ، طلبنا منهم أن تكون جميع قراراتهم من صورة مزدوجة واحدة منهما ترسل الى وزارة خارجية إنجلترا والاخرى ترسل الى كي دي أورساي مقر وزارة الخارجية الفرنسية . وقد طلبوا الحماية الفرنسية رسمياً . وان طلب السوريين حكم فرنسا لم يكن نتيجة الحرب العظمى ولا ثمره المعاهدات السرية ولا معاهدة سايكس بيكو ، بل كان قديماً جداً » اه كلا دي لاروكا . أما الذين ذهبوا ضحية بريئة وشنقوا ظملاً على يد جمال باشا فهم شكري العسيلي وعبد الوهاب الانجليزى وعبد الغني الفرنسي ولارابع لهم .

وكان حنق الفرنسيين على الانجليز بعد الحرب بالغاً لانهم أضعوا عليهم أبار الموصل وكليكية ، ولم يعطوهم سوى سوريا ولبنان مع أن سوريا ولبنان ، على حد قولهم كانت مضمونة لهم من قبل الحرب فكأنهم لم يربحوا شيئاً . وان حقدهم على فيصل لا يزول مطلقاً لأن الانجليز اتخذوه وسيلة للمساومة فدخل دمشق في سنة ١٩٢٠ بوصف كونه قائداً خاضعاً للقائد النبي فعقد المؤتمر السوري وأعلن استقلال سوريا ونودي به ملكاً عليها . وعين رضا الركابي حاكماً للبلاد الداخلية . فكأنهم ذلك العمل ثمناً غالباً لانهم حشدوا جيشاً قوامه ١٠٠ ألف عسكري وهاجوا دمشق بثلاثيه وحارب فيصل حرباً صورية في موقعة ميسلون ، الشهيرة باستسلامه ، حيث مات يوسف العظمة وزير حربه شهيداً وقبض على بقية الوزراء وحوكوا وحكم عليهم بالسجن المؤبد في جزيرة أرواد ومنهم الدكتور عبدالرحمن شهبندر الذي كان وزيراً للخارجية في تلك الحكومة الخيالية التي لم تدم أكثر من بضعة أشهر .

وقد روينا في مكان آخر من هذا الكتاب ما كان من شأن فيصل الذي سافر

الى أوروبا وعاد بعد سنتين ملكاً على العراق .

ولو رجعنا الى حقائق الامور والاستنتاج لرأينا أن الاتراك كانوا معذورين في القيام بالحركة الطورانية لأنها مغربية ومطابقة للحقائق التاريخية ، ولا يلامون على أنهم أرادوا انماش جنسهم واتخاذ اخوانهم في آسيا . ولكن العرب لم يكن لهم عنبر في فتنهم لاسيما وان الدافع لهم عليها كانت مطامع الاجانب المستعمرين الذين كانوا ينصبون الحبال لدول الاسلام . ولم يكن خافياً على زعماء العرب ان فرنسا وانجلترا وروسيا كانت متربصة للدولة ، وكانت تتربق الفرص للبطش بها ولم يكن رجالها ووسطاؤها وجواسيسها بالغافلين . وقد نبه العرب الى حقيقة الحال بعض الأفاضل أمثال الامير شكيب ارسلان الذي كان عضواً للمبعوثان ، وكان على اطلاع مستمر بدخائل السياسة الاوربية وقد أنذرهم بأن الفتنة العربية ستؤدي الى القضاء على الدولة العثمانية . وكان الاتراك لا يألون جهداً في بذل النصيح لخواصهم العرب بعد أن اطلعوا على مقاصدهم والترك قوم في غاية الذكاء والفتنة وكانوا يعلمون « خائنة العين وما تخفي الصدور » ولكنهم كانوا في السياسة مشربين بالرجة ويأبون الغدر ويكرهون الخون . .

وكانت كل تلك الحوادث قد سممت عقول العرب وجملتهم طامعاً طيباً لنار الحلفاء فلما نادى الحسين بالثورة لباه كل عربي في انحاء البلاد والتفوا حوله لأنهم كانوا يتلمسون علماً ينضمون تحته . وانحطاً الذي ارتكبه العرب أكبر من انحطاً الذي ارتكبه الاتراك وكانت نتيجة ضياع دولة العثمانيين وضياع الممالك العربية وفقد استقلالها وتحطيم آمال العرب وخضوعهم للحكم الأجنبي . وبعضهم يظهر ون الندم بعد الاوان وبعضهم فاز بشمرة الخيانة .

عند ما انتهت الحرب العظمى ، وظهرت حقيقة وعود الحلفاء الذين كانوا « يدافعون عن المدنية والحضارة من وحشية الالمان ، وانهم سينهون هذه الحرب بلا ضم ولا غرامة » . وأراد الانجليز القضاء على البقية الباقية من الدولة العثمانية باقتسام البلاد العربية المتفق على ابتلاعها من عشرين عاماً ، سقطت سوريا في أيديهم في أول الامر بغير حرب ولا ضرب لأن سوريا كانت خالية من وسائل الدفاع ولأن بعض أهاليها ساعدوا الحلفاء على احتلالها وكان الناس متوربين من الترك بفعل الدعاية الاستعمارية والنعرة العربية ، ومخدوعين ببيان الحلفاء



ووعودهم وخطب ويلسون وتقاطعه الاربع عشرة وكان الحلفاء فوق هذا مسلحين ولهم قوة عسكرية عظيمة.

## ٦

وقد ثبت لكل ذي عينين ان العرب هم الذين جروا الخراب على الدولة العثمانية ولم يكن دخولها الحرب في صفوف دول الوسط هو السبب لأنها دخلت الحرب مرغمة وقد اختارت أخف الضررين لتدفع عن نفسها عادية الحلفاء الذين كانوا متآمرين عليها وقد بلغ من فجور هذه الدول المتحالفة انها جندت جيوشا من المسلمين في شمال افريقيا والهند وغيرها قبل اعلان الثورة العربية ، لمحاربة تركيا دولة الاسلام العظمي ولم تترك الجيوش ولم تنشر علم العصيان لأنها كانت مقهورة بحكم الأنظمة العسكرية القاسية . ومما يميز قلب كل مخلص شرقي ان هذه الامم المتعسة التي اشترك جنودها في محاربة الالمان والترك بعد أن رأت ما رأت من انتصار الحلفاء ونكثهم بالوعود وخيانتهم للعهود قام منهم فريق ( وكان بعضه في جريدة عربية ) يطالب الحلفاء بالحساب ، ويقولون لهم نحن ساعدناكم في الحرب وضحينا بمئات الالوف في سبيل قضيتكم فادفعوا لنا الثمن وهو حرية بلادنا ، وكان الحلفاء يضحكون من تقديم هذه الفاتورة التي لم تكن في الحسبان لأنهم يعلمون علم اليقين ان تلك الجيوش الشرقية لم تحارب في صفوفهم مختارة ، ولكنها أرادت أن تستخرج نتيجة حسنة من عملية مشؤومة . . فلم يعيروها أقل النفات وعاملوا الناطقين بهذا القول معاملة الخادم الذي يقول لمولاه « كافتني اليوم فاني أحسنت الكنس والرش ولم أسرق من ثمن اللحم والبقول ! »

وكانت هذه النظرية هي التي حاول الاختفاء وراءها حسين رشدي طوبوزاده رئيس وزراء مصر السابق ، فإنه كان يدافع عن نفسه بأنه اتقوى أن يمد الانجليز بالمال ( ٣ مليون ) والرجال ( فرقة العمال مليون رجل ) ليطلب لهم في نهاية الحرب بالحساب !!! وتفصيل هذا التاريخ معلوم ولا يحتاج الى تطويل ، وقد حكم التاريخ على الرجل حكمه في حياته وقبيل أن يموت بأسابيع فلتني بمض ثمرات ثقتته بالحلفاء قبل أن ينطوى في لحده .

على ان الانجليز لم تتف بهم تلك الحجج الواهية فانهم بعد أن احتلوا سوريا كلها الى ولاية اطنه سلموا لبنان وكليكية وساحل سوريا لفرنسا ، وسلموا دمشق وشرقي الاردن وحلب لفیصل وقبعوا هم في فلسطين والاراضي المقدسة ثم نشروا منشورهم الشهير في أواخر اكتوبر سنة ١٩١٨ عن اقامة الحكومات الوطنية وتعيين القضاء العادل ، وانصاف الرعايا في البلاد «المخطوفة» حديثا. ولم يكن هذا المنشور الذي قابله العرب بالفرح وبالخيبة الا مقدمة لمشروع التمزيق والتشتيت والتفريق أو عملية التشریح التي اتواها الملقاء .

فان الانجليز فصلوا فلسطين عن سوريا وأنشأوا حكومة صهيونية فيها . فلما احتج العرب من مساهمين ونصارى على هذا العمل قال الانجليز : اننا لا تفعل أكثر من الوفاء بوعد بلفور الشهير الذي وعد بتأسيس وطن قومي لليهود ودهش الناس لأن الانجليز الذين اعطوا لمصر مائة وعديبالجلاء لم ينفذوها وكانت كلها صادرة عنهم أعظم من بلفور وفي مقدمتهم الملكة فيكتوريا وغلادستون وسالسبورى وغيرهم . ويرجع بعضها الى سنة ١٨٨٢ ولم ينقطع سيل تلك الوعود طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وكان الحزب الوطنى لا يفتأ كل عام يذكر الانجليز بوعودهم ، حتى في أيام رئیسه الاخير الاستاذ محمد حافظ رمضان وقد أفنا ذلك الا كيشه الذي يكاد يكون مطبوعا وينتهى دائما بالمحققات ، مما كان يضحك بعض الساسة السفهاء وصغار العقول ! ولكن الانجليز بروا بوعد بلفور لوفاء ولا صدقا ولكن لأن وراءه السادة اليهود خزنة المال وسدنة الاله بعالم العظيم !

## ٧

أما الفرنسيون ففصلوا لبنان عن سوريا وجعلوها حكومة مسيحية ودمشورها في الكنيسة الكاثوليكية في بيروت وهم أنفسهم الذين يباهون بفصل الدولة عن الكنيسة من سنة ١٩٠٤ ويباهون بأن دولتهم لادينية (لا ييك ! ) ثم تناولوا كليكية وأعدوها وطناً قوميا للارمن . وكان الامير فيصل يحكم دمشق وحلب وشرقي الأردن ولم يكن لهذه الحكومة الفيصلية في أول أمرها لون معروف فكانت تارة تعد تابعة للحجاز وان فيصل يستمد سلطة

الملك من أبيه الحسين زعيم العرب والمنتقد الأعظم وتارة يحسبوننها مستقلة لا تصدر الا عن ارادته و ارادة الشعب السوري وطوراً كانوا يعتبرونها تمت بحبل دقيق الى الفيلد مارشال اللبني (الذي مر بمصر اليوم في طريقه الى بورما) رئيس فيصل الأعظم بحسب نظام الجيوش .

ولكن هذا النظام لم يكن يرضى الفرنسيين فكانوا يتشاجرون ويعر بدون ويتنازرون بالالقباب في حظيرة الصلح تحت سمع ويلسون وبصره . فاخترع ويلسون فكرة الاستفتاء وتألقت لجنة امريكية برياسة مستر كرين سفير امريكا سابقا في الصين ، فلما سار في سوريا ووقف على حقيقة الحال بنفسه قال لزعماهم « ان الانتداب لابد منه على كل حال لمساعدتكم مؤقتا على انعاش البلاد » .

وقد جرى في سوريا بعد ذلك مارويناه في موضع آخر . أما العراق فلم يمالئ أهله الانجليز بل أخذوه عنوة بالحرب والقتال . وكان العراق دائماً مشهوراً برجال أشداء أقوياء يفضلون الاستقلال على الحياة . ومنذ تولى الملك فيصل عرشه ، ظنوا أن وجوده يكون سبباً في تهدئة الخواطر واستسلام البلاد ، فكان الامر على غير ما يظنون . فقد تولاه أربعة من المندوبين الساميين أولهم برسي كوكس فالجنرال كليتون فالسير هنري دو بن فالسير فرنسيس همفريز . وكانت روح الادارة الانجليزية متمصصة في جسد الأنسة بيل الى أن ماتت . وقد خرج أحدهؤلاء الأربعة لأنه كان شديداً لا يطاق فاستغاث منه أكبر مقام في البلاد وخير الانجليز بين بقاءه وبين استمرار دو بن فارضوه بعزله . واستمرت الوزارات في العراق تقوم وتسقط وكل زعيم يدخل الوزارة يفقد ثقة الشعب فينزوي بحيث أصبح عدد المستوزرين يربو على عدد الموظفين العاديين . ولكن كان بين العراقيين رجلا احتفظوا بكرامتهم داخل الوزارة وخارجها مثل ياسين باشا الهاشمي .

وفي كل حين تقوم في العراق حركة وخلاف فتؤلف وزارة جديدة ويعتقل بعض الاشخاص ، وتقتل بعض صحف . الى أن شرعوا في الغاء الانتداب وانضمام العراق الى جمعية الامم ، وان تحل محل الانتداب معاهدة تحفظ مصالح الانجليز ، وقد احتوت هذه المعاهدة

على شروط أقصى من شروط الانتداب وتجعل القول والفعل في العراق للمستعمرين الذين رضوا بنظام الاحتلال العسكري ، ورأوا انه أفضل نظام .

وقامت في سوريا ثورة ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وتخرت منها ، ونشئت شمل الدروز ، ومنح الدستور وعقد البرلمان ، ثم حلوه ، ونصبوا حكومة وطنية ترجع الى المندوب السامي في كل الامور فليست سورية دولة لها ملك أورئيس ولكنها ولاية تابعة لفرنسا مباشرة يحكمها حاكم حربي تارة مثل غورو وفيجان وطوراً حاكم ملكي وهو الموسيو بونسو . وهذه الحكومة الوطنية قد قدمت صبغتها شيئاً فشيئاً وأصبحت خاضعة للحاكم في كل الامور .

اما فلسطين فيحكمها حاكم انجليزي يكون تارة يهودياً وطوراً مسيحياً ويكون النفوذ طورا لليهود وطوراً للوزاة الخارجية الانجليزية . فتقوم الثورات واقتل العرب واليهود ثم يسود السكون مؤقتاً خوفاً من السلطة الحاكمة . ولكن تحت الرماد ناراً لا تنطفئ ويفكر الانجليز والفرنسيون في جعل امراء على تلك الممالك فينصبون ملكاً على سوريا وآخر على فلسطين ولعله الامير عبدالله بن الحسين ، ولكن الفرنسيين يخشون من هذا النظام لأنهم رأوا عواقبه في عهد فيصل ويخشون مناواته لهم تحت ضغط الرأي العام .

أما عرب الجزيرة فقد أتينا على موجز أحوالهم . ففهم الامام يحيى القوى باستقلاله وإيمانه وجيشه ، والامير ابن سعود ملك الجزيرة بأسرها ، ماعدا الجنوب وهذان لا ينضجان في قدر واحد ولا يتنزل أحدهما الآخر عن حق من حقوقه ، والجزيرة وان كانت هادئة في الظاهر الا ان ثورة فيصل الدويش دلت على ان المستعمرين يملكون خيوط الفتنة ويمكنهم في أي وقت شاءوا أن يشعلوا نارها ويحطموها أعظم قوة فيها بما لهم ورجالهم . وهم يطلبون ثمناً للهدوء تنفيذ رغباتهم بمثل الحلف العربي ، الذي يريدونه حماية اسككهم الحديدية وأنايبهم

هذه هي حالة الامم العربية التي شقت عصا الطاعة على الاتراك من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩١٨ فكانت سبباً في اضعافها وتمكين أعدائها منها فذهبت وذهب معها كل ما كان للعرب من استقلال وسلطان

## ٢٠

١

وقد آن لنا أن نبحت في الأسباب التي أدت إلى انحلال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الذي هو آخر الخلفاء العثمانيين ، واننا مع احترامنا للسلطان رشاد الذي حدثت الحرب العظمى في عهده أو السلطان وحيد الدين أو عبد الحميد أو غيرهما لا نعرف غير عبد الحميد خليفة ، لأنه كان الملك المطلق المستبد الذي حكم الدولة أكثر من خمسة وثلاثين عاما بفكره وارادته محكما عقله ومنفذاً سياسته في السلم والحرب . وفي عهده حدثت أعظم حوادث التاريخ العثماني في دوره الأخير . أما بعد عزله في سنة ١٩٠٩ فقد بدأ للأتراك عهد جديد هو عهد الدستور والبرلمان وسيادة الاحزاب وقد دام هذا العهد الى سنة ١٩١٤ عند ما أعلنت الحرب ، وفي فترة الحرب تغير العالم ومنه تركيا .

فكان سلاطين آل عثمان الذين جاءوا بعد عبد الحميد اشباحاً وخيالات الى أن محاصرتي كمال آية الخلافة وأسس جمهورية أتقرا .

ولد عبد الحميد في سنة ١٨٤٢ وتولى عرش الخلافة في سنة ١٨٧٦ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وخلع في ابريل سنة ١٩٠٩ فكان حكمه ثلاثا وثلاثين سنة ، وقد حدثت في عهده حوادث ذات شأن عظيم في تاريخ الشرق والغرب فقد شهد في شبابه وقبل تولى الملك ثورة الهند ( ١٨٥٧ ) والحرب الاهلية الامريكية والحرب النمساوية الالمانية وحرب السبعين وفتح قنال السويس وحكم ديزرائيلي وعند ما تولى بدأت الحوادث بفتنة بلغاريا وحرب الصرب وعهد الدستور الأول الذي دعا اليه مدحت باشا وحروب روسيا وتسليم بلغنا وموقعة شنوفا التي أسرف فيها ستون ألف جندي ومعاهدة سان استفانو وضياع قبرص واستقلال بلغاريا والروماني الشرقية وثورة عرابي وضياع تونس وضياع مصر وحروب السودان

وظهور المهدي وحوادث كريت وأرمينيا وحروب اليونان ونهضة اليابان وهزيمة الترك في  
فتنة اليمن وحرب البوير ثم الثورة الاتحادية فالدستور فالثورة الرجعية فلعلزل والنفي الى  
سالونيك . حيث شهد ضياع طرابلس وحروب البلقان والحرب الكبرى وهو أسير .

وانها في الحق لصحيفة ملائمة بالحوادث التي لا تزال آثارها في العالم الى الآن  
وقد مضي على زوال ملكه أكثر من عشرين عاماً

فلنبحثن إذن في الاسباب التي أدت الى ضياع هذا الملك ، وانسلاخ أجزاء الدولة  
العثمانية الجزء بعد الجزء في مدي ثلاثين أو أربعين عاماً مع أنها اقتضت لتأسيسها أربع مائة عام  
فكانها هدمت في عشر الزمن الذي تأسست فيه .

فما هو هذا الداء الذي أزم من وتأصل ، وفشا في عروق دولة الاسلام واستفحل ، وما هي  
تلك العلة التي انبسطت في بدنها وسرت في دهبها وامتدت في شرايينها وتشعبت في أعصابها  
وصارت لا يرجى لها برء ولا علاج حتى أخذوا يمثلون تركيباً بالرجل المريض !

ولقد زعم البعض أن الدولة العثمانية قد هرمت وشاخت وخارت قواها وانحلت  
عزائمها كالدولة الرومانية في أواخر أيامها . وترى أنصار هذا الرأي قد كانوا استسلموا للحنوط  
ويشعروا من رحمة الله وحياسة دولتهم وأخذوا ينهبون الأموال ليدخروها وقاية لهم وأهلهم من  
الفاقة بعد انحلال الدولة ومن هؤلاء أحد الباشاوات بلغ العزة كلها في عهد عبد الحميد ولكنه  
كان للدرهم والدينار عابداً ، فلما دق ناقوس الدولة فر على باخرة أجنبية الى مصر وتقل معه  
أمواله أو أنها سبقتة الى ضفاف النيل فاشتري القصور والضياع وعاش أمداً ممتعاً ثم قضى  
كالكلب المدلل في فراش من حرير على سرير من ذهب وشيعته النفوس بلعنات ! وغير  
هذا الوغد الذي كان يعمل على ظاهر يده من الوشم آثار تاريخ حياته الأولى في وديان  
سوريا وبلدانها كثير من الباشاوات والامراء والشيوخ قد انتظروا النهاية ليفوزوا  
بالاسلاب ، وقد نهبوا فعلاً أموال المسلمين فكانت الدولة العثمانية في نظرهم بمثابة بيت أصابه  
الحريق فثال حوله الشطار من كل حدب لذهب ما احتواه من أثاث ومتاع والسعيد من

من اختطف شيئاً قبل أن تلتهمه النيران كأهل يومية لدي خرابها . وقد فر هؤلاء بعد أن أفرغوا وسعهم في الاغتيال ، وساعدوا على تعجيل ساعة الاضمحلال .

## ٢

ويرى فريق آخر أن السبب فيما وقع للدولة العثمانية هو تحزب أعدائها عليها وتمالؤهم على اضطهادها ومع تكويينها من عناصر متباينة تفتأ تتنافر ميلا الى الاتفكك وكلما شغبت تلك العناصر ساعدتها الاعداء ومدوا لها أيدي المعونة والمناصرة ، بحيث لو كانت تركيا في مكان بريطانيا العظمى ما جلدت على احتمال ما تحمله ولا صبرت لمعاونة ماتعانيه

وقال فريق ثالث أن سبب سقوط الدولة العثمانية هو سيادة الفرد الذي يكون بشخصه ضعيفاً لأنه فرد ولكنه يتسلط على الملايين من النفوس فيجور ويظلم ويسلب ويهتك وهم إذا هلون لا يقدر على الملايين . وإذا تكرر مثال هذا الحكم كان ذلك سبباً في امتصاص دماء الدولة فلا تقدر على اليقظة من رقدتها وهذا الذي حدث في تركيا وعند ما أن الاوان لانهاضها كان معين قوتها قد نضب وجاءت الحرب العظمى على البقية الباقية

وان الناظر في تاريخ الدولة أثناء تلك الحقبة ليسألن نفسه « أين القادة الذين فتحوا الممالك بفاتح السيف ووضعوا على أعدائهم أفعال الصغار والهوان ؟ وأين الساسة الذين ضبطوا تلك الممالك بحكمتهم ودهائهم ؟

كيف انصلت رومانيا واستقل الصرب وزال الجبل الاسود وذهب الروم ايلي الشرقى وانصمت بلغاريا وضاعت قبرص وبانت تونس وطرابلس وانساخت بوسنة وهرسك وانتطعت باطوم وخرجت قارص وأردهان وانحلت تساليا وولت مصر وضاعت تركية أورربا وجزائر البحر وخطفت العراق ، والموصل وطارت بلاد العرب وانسلت سوريا وفلسطين ووقعت زيلع وطاحت مصوع وهجر السودان ؟ دع عنك ممدونيا وكريت وأرمينيا وساموس وعشرات أخرى من أجزاء الدولة التي تناثرت في مدى أربعين عاماً . كما تناثرت أوراق الشجر لدى حلول فصل الخريف .

فأول ما نراه في حياة عبد الحميد انفراده بالملك واستبداده بالا مر وسجنه أخاه مراد ثلاثين عاماً في قصر أوسراى جراغان وانتشار الدعوى بأنه مجنون مع أن أمراض العقل لا تصل بأصحابها إلى سن الكهولة أو الشيخوخة وقد اعتقل مراد في سنة ١٨٧٦ وتوفي في سنة ١٩٠٤ إلى رحمة الله وقد أحاط عبد الحميد نفسه بفرقتين من المملتين والجواسيس والخصيان ومشايخ الطرق ، وجعل نفسه نبهاً لتزاجهم على الخطوة اريه ، بل جعل من قصره ميداناً لحروبهم في سبيل الحصول على المال والنياشين والمناصب . فصارت هذه الطغمة مصنعا للتجسس والتضليل والاختلاق فطاف حول عرش عبد الحميد زمرة مختلفة الاجناس والانواع من نزاع الآفاق وقد تمكنوا بحيلهم ودهائمهم من كسب ثقة السلطان فصار يركن اليهم فشغلوه بالخوف على حياته ، وأبعدوا عن عرشه كل مخلص أمين وكل شهيم صادق وصار كل واحد منهم يتجسس على غيره حتى تجسس الولد على أبيه والوالد على ابنه . وأخذوا يقلبون الحقائق للسلطان ويحسنون له القبيح ويقبحون له الحسن وقد صاغوا له أكثر من عشرين لقباً من ألقاب العظمة والابهة والمجد حتى ما يكاد يشعر بمشاركته للقدرة الربانية أعظمها « ظل الله على الأرض » وألقها « غياث الأئمة وغيوث الدائم » !!

## ٣

كانت الدولة العثمانية في سنة ١٨٧٦ من أجل الدول قدراً وأعزها شأنًا وأبعدها صيتاً وأرفعها صوتاً . وكانت أساطيلها في الدرجة التالية للدولة الفرنسية في ترتيب قوى الدول البحرية وكان سكان الدولة يزيدون على سكان بريطانيا العظمى في وقتنا الحاضر ( ٤٢ مليوناً ) فكان من رعاياها في أوروبا ١٠ مليون وفي آسيا ١٤ ، ٥ مليون وفي أفريقيا ١١ ، ٥ مليون وكانت لها رومانيا والصرب وعدد سكانهما ٦ مليون . وقد ضاع من سكان الدولة العثمانية أكثر من اثنين وثلاثين مليوناً ، ولا يتجاوز عدد الأتراك الآن أكثر من تسعة أوعشرة ملايين .

كانت فتنة البلغار قامت دول أور وبتطلب الإصلاح فوعدت الدولة بتعميم الإصلاح



في أنحاء البلاد وصدر فرمان السلطان بتشكيل البرلمان العثماني الأول . وأراد مدحت باشا تنفيذ هذا الوعد فعمل لذلك بكل قوته وقد اجتمع مجلس المبعوثان العثماني الاول في ١٩ مارس سنة ١٨٧٧) وعين أجد رفيق باشا رئيساً له وكان سفيراً لفرنسا في بلاط نابليون الثالث ، وكان متعلماً ولكنه كان متغطراً مستبداً وقد شهد دكتور واشبورن مدير كلية روبرت الامريكية انه حضر احدى الجلسات حيث نهض أحد الأعضاء وكان معهما وأخذ يتكلم في موضوع يهمه فقاطعه الرئيس أجد رفيق قائلاً «سوس اشيك» أي «اخرس يا حمار !» فسقط الرجل على مقعده كانه مصعوق (ص ٥١ تاريخ عبد الحميد تأليف سيرادوين بيرس طبع لندن سنة ١٩١٧ ونفى مدحت باشا لانه صاحب فكرة الدستور ، وخسرت الدولة حرب روسيا لان السلطان كان يدبرها من السراي وقد فعل ذلك أيضاً في حرب تركيا واليونان ١٨٩٧ ، ولكن اليونان لا تعدل روسيا في القوة والسلاح والشجاعة . ويقال ان كثيراً من الحركات العسكرية التي كانت تصدر الأوامر بها من يديز الى ساحة القتال في حرب الروس كان مبنياً على التنجيم وضرب الرمل والاحلام وقد قاست الجنود العثمانية ما يفتت الالكباد ويذيب القلوب لعدم الاستعداد في ما كلها وملبسها وعلاج جرحها ودفن قتلاها وفي هذا الوقت والعساكر الذين يدافعون عن الاسلام والدولة على ما وصفنا من الشقاء والجوع والضعف كان السلطان يأكل في آنية من الذهب ويغسل يديه في طست من الذهب الابريز ولما عقد مؤتمر الصلح أرسلت الدولة العثمانية لتمثيلها في المؤتمر رجلاً يونانياً مثل صاحب السعادة فينزيلوس ومن وطنه اسمه اسكندر باشا قره تيودوري وقد كان نصيب اليونان من اسلاب الدولة تساليا وايبير مع انه لم يكن لها عضو في المؤتمر ولم تسكن لها يد في الحرب . ولكن الدول كافات وطن اسكندر تيودوري على تساهله في حقوق تركيا . وقد عقد هذا المؤتمر في باريس واشترطت فرنسا للاشتراك فيه أن لا يبحث فيه في مصير مصر وسوريا وبيت المقدس ( مما دل الانجليز ان الفرنسيين كانوا يبيتون لتلك الجهات كما أن ايطاليا كانت تضمير السوء لطارابلس) فبادرت انجلترا بوضع يدها على مصر كما هو معلوم وانتهى المؤتمر على استماتل

الممالك التي كانت تحت الدولة وانفصال بلادها عنها وعاد نائب السلطنة الرومي بنصفها وترك  
النصف الآخر علي المائدة الخضراء ... ياخسارة !!

وقد تنبه عبد الحميد بعد هذه الصدمة التي أصابته في بداية ملكه فلختر أن  
ينتخب للدولة وزيراً من الخارج فوقع اختياره على خير الدين باشا التونسي وأصله شركسي  
ولد في أوائل القرن التاسع عشر وجاء تونس صغيراً وتقرّب من الباي أحمد فعلمه وتقلّب في  
مناصب عدة وسافر لفرنسا وتقلّد وزارة البحرية في ١٨٥٥ وتقلّد الوزارة الكبرى بعد أن  
ألف كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . فلما استقدمه السلطان عبد الحميد في  
سنة ١٨٧٨ بعد حرب الروس أقبل على الاستانة ، وكان الباي قد عزله وغضب عليه ومنعه  
الاختلاط بالناس فلما قبله السلطان عبد الحميد استحلفه علي القرآن والحديث أن لا يدخل  
في مؤامرة على ذات السلطان ، وحلف له جلالاته أنه لا يعزله . وتولى الصدارة العظمى والدولة  
في غاية الاضطراب فوضع التقارير للاصلاح فلم يتفق عمله مع رجال الماين وهم رجال البلاط  
الملكي العثماني وهم من وصفناهم من الجواسيس والدساسين والمناقين ومشايخ الطرق  
والخصيان والخنثين والقواد الذين يكونون أسودا في الحرب ونعاما في السراي . لم يتفق طبعاً  
خير الدين مع هؤلاء الخطافين ولم يطل عهده أكثر من عام فاستقال في سنة ١٨٧٩ ولسكنه  
أقام في الاستانة ولم يدارحها وعينه السلطان في مجلس الاعيان وأكرمه الى أن مات في سنة  
١٨٩٠ وهو في الثمانين من عمره . وهنا يروي المرحوم ابراهيم بك المويلحي قصة لأعلم مكانها  
من الحقيقة ولكن أذكرها ، قال في ص ١١٣ من كتاب ما هنالك « كان أول أعمال خير  
الدين باشا الانتقام من الصادق باي والى تونس ، فساعد (خير الدين) على عزل اسماعيل باشا  
خديوي مصر ، وبعث الى سيده الباي يهدده بأن ستكون له تلك العاقبة قريباً فاسرع الصادق  
باي بالالتجاء الى الحكومة الفرنسية ليأمن على نفسه شر مملوكه الذي صار مالكا ووجدت  
فرنسا فرصة لاسكات الدولة عن تونس بتسليم مدحت باشا لها حين التجأ الى قنصلها في أزمير  
واشتغلت الدولة بمحاكمة مدحت وأصحابه واشتغلت فرنسا بادخال تونس تحت حمايتها فنجح

الفريقان». وقد كرر المويدي هذه الرواية في ص ٥١ حيث قال :

«أرادت الدولة أن تقبض على مدحت باشا وهو وال على أزمير فهرب الى قنصل فرنسا فطالبته الدولة فتوقفت فرنسا في تسليمه وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المحادثات على أن فرنسا تسلمه بالشمال وتستلم تونس باليمين وتم الامر واشترت الدولة رجلا بمملكة . ولما قرب الفرنسيون من تونس صاح الباي وبعث بالرسائل والرسول يستنجد الدولة فما أصغى اليه مصغ « اه . كلام المرحوم ابراهيم المويدي .

وقد كان هذا الفساد كله نتيجة حكم الفرد واستبداده بالأمر فكان تعظيم شخصه وخوفه على ذاته ومحافظته على كرامته من الاوهام واستسلامه للجواسيس واعتماده على الخفيان والمشايخ لانه نشأ بين الاولين وكان يستعين بما للآخرين من مسابح واحجية وتمائم وأوراد لحفظ شخصه من كل مكره وللوقوف على أمور الغيب وحوادث المستقبل . وهكذا ضاع ملك عظيم ضحية الرقاعة والتخريف والبله وعدم الايمان بالله الذي يجعل الانسان متكلا عليه .

أين هذا من عدل أمراء الاسلام العادلين ، الذين كانوا يعملون على سعادة أممهم وطاعة الله وأعلاء كلمة الايمان والتوحيد ونشر لواء الحضارة الاسلامية !

لقد سرى الجبن والخوف الى النفوس وصار النطق بالالفاظ جريمة يعاقب عليها بالاعدام والنفي . فمثلا أحرقوا كتاب الطريقة المحمدية للنابلسي لان فيه حديث « الأئمة من قرئش » وصادروا كل كتاب فيه آية الجهاد أو آية (الذين كفروا) خوف أن تجارهم أوروبا على هذا ونقيت كلمة « المللة » والدولة ولم تبق الا الذات الشاهانية ونقيت من أحد القواميس كلمة « سيف » لأنها قد تنبه الارمن للحرب ولا يقولون جمهورية أمريكا بل مجتمعة أمريكا ولاولى عهد روسيا ، واستنطق أحد المشددين المصريين لانه تغنى بقصيدة منها أنت « المراد » خوفا من الاشارة الى الامير مراد المسجون . دع عنك الفاظ العدل والظلم والانصاف فانها من المحرمات . وعند صلاة الجمعة أو حفلة السلامك أمر الخطيب أن يتجنب في خطبته كل آية وكل حديث فيه ترغيب في العدل أو تنفير من الظلم أو ايماء الى موعظة من مهمي عن

منكر أو أمر بمعروف ولا يدور في الخطبة الاحديث واحد اختاروه لبعده عن كل تأويل وهو «ان الله جميل يحب الجمال» فاذا جاء عيد الاضحى استبدلوه بقوله (سمنوا ضحاياكم) وهكذا صار القصد الحقيقي من السلطنة والدولة والخلافة والامامة والجيوش والمعاقل والحصون والرتب والنياشين هو حفظ ذات السلطان !!!

ومن نوادر خير الدين باشا بل من الحوادث التي أدت الى استقالته أنه استؤذن عليه يوماً لبهرام آغا أقوى خصى في عهد عبد الحميد وكان في ذلك الوقت باشمصاحب ، ولما دخل عليه قدم اليه قائمة بأسماء أشخاص يوظفهم وآخرين يزيد في مرتباتهم فقال له الصدر الأعظم خير الدين باشا : مالك وهذا يوصيف ؟ قف حيث وقفتك وظيفتك بباب الحرم ولا تدخل في شغل غيرك !

ولما خرج بهرام آغا سأل عن معنى « وصيف » فقيل له معناه في تونس الخويدم فامتلاً أهاب الآغا الخصى على الصدر الأعظم حقداً .

ودخل عليه عقب هذا السيد احمد أسعد ومعه قائمة كالأولى فسأله عن وظيفته فقال : «وكيل الفراشة الشريفة» فقال له أيها الشيخ وظيفتك هي أن تدعو لجلالة السلطان فخرج من عنده يعرض على ناجذيه لطلب الانتقام منه ولما رأى خير الدين باشا أن لا قدرة له على مقاومة أهل اللابيين استعفى من الصدارة كما تقدم وثبت له كما ثبت لكل محب لخير الدولة العثمانية أنها شاخت ودب الفساد اليها من رأسها كما هي العادة في الممالك والدول وعند الترك مثل شهير قديم وهو قولهم السائر « الشجرة تنفسد من رأسها ، ويعتورها الفناء من قمها » وقد صبح هذا المثل وصدق في تطبيقه على دولتهم .

فاذا كان القصد الحقيقي في السلطنة العثمانية قد انقلب الى أن الغاية من الدولة والخلافة والامامة والجيوش والمعاقل والحصون هو حفظ ذات السلطان فكيف ترجى حياة لهم بل أين هذا من عمر بن الخطاب الذي أنزل رضى الله عنه نفسه في كثير من الأحوال منزلة واحد من أفراد الأمة ليبنى صرح المجد للاسلام وليقتنع الاجنبي بعظمته ، فقد كان

يخرج بنفسه لما جاءه الخبر بنزول رستم الى القادسية فيستخبر الركبان كل يوم عن أهل القادسية منذ حين يصبح الى انتصاف النهار ثم يرجع الى أهله وكأنه قد تسلم أخبار البريد أو قرأ التلغرافات لو كان من أهل هذا الزمان .

فلما جاء البشير بالفتح لقيه عمر كما يلقي الركبان من قبل فسأله فأخبره فجعل يقول يا عبد الله حدثني فيقول هزم الله العدو ! وعمر يحث معه ويسأله وهو راجل والبشير يسير على ناقته ! فلما دخل المدينة اذا الناس يسلامون عليه باسمه بامر المؤمنين ويهنئونه . فنزل الرجل وقال : هلا أخبرتني يا أمير المؤمنين، رحمك الله وجعل عمر يعتذر له قائلا « لا عليك يا ابن أخي لا عليك يا ابن أخي ! »

## ٢١

يلجأ المستعمرون دائماً الى الوسائل الفعالة في البلاد التي يرمون للاستيلاء عليها . فهم يجذبون الشعوب باحياء عاداتها القديمة أو بالضرب على الأوتار الحساسة في نفوسها وليس الحلف العربي بدعة تخيلها الاجانب ، انما هو احياء لعادة قديمة يريدون أن يتخذوا منها سلاحاً .

فقد ألف العرب في الجاهلية حلوفاً شتى لحفظ التوازن بين القبائل وذود القوى عن الضعيف ، وأشهرها وأقربها حلف الفضول وقد وصفه الخنعمي قال :

« كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به ، وأشرفه ، وكان أول من تكلم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي ابن وائل وكان ذا قوة بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدي الأحناف عبد الدار ومخزوماً وجح وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوه على العاصي بن وائل وانتهروه .

فلما رأى الزبيدي الشر ، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، وصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته	يبطن مكة نأبي الدار والثغر
ومحرم أشعث لم يتض عمرته	يالرجال وبن الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته	ولا حرام ثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال ما لهذا مترك ! فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام قياماً فتعاقدوا

وتعاهدوا بالله ليكون يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه، ما بل بحر صوفة ومارسا حراء وثبير مكنهم، وعلى التأسى في المعاش، ثم مشوا الى العاصى بن وائل فنتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه وقال الزبير :

حلفت لنعقدن حافقاً عليهم      وإن كنا جميعاً أهل دار  
نسميه الفضول وإن عقدنا      يعز به الغريب لدي الجوار  
ويعلم من حوالى البيت انا      أباة الضيم نمنع كل عار

فيظهر من ذلك أصل الحلوف العربية انها كانت أنظمة عرفية غايتها إنصاف المظلوم من الظالم وحماية الغريب المساوب من الوطنى السالب . أما الحلف العربى الذى ظهر فى السنين الأخيرة فلم تكن غايته الا خدمة السياسة الأجنبية ، ولم نسمع بحلف تكون لردغارة الاجنبى الفاتح أو لحماية الوطن من اعتداء صارخ ، إذ العرب لا يتحدثون ضد الأجنبى ولكنهم يالثونه للقضاء على أنفسهم . فهم يأبون الحلف حيث يجب الحلف ويسعون اليه حيث يكون ضد مصلحتهم .

وكان الملك حسين قبل أن يفقد عرشه فى مكة ، ينادى بحلف عربى ، بل بالغ فى فى الأمر فنشد الوحدة العربية . ولكن الواقفين على بواطن الأمور يعلمون أن دعوته لم تعد حد التنى ، ولم يكن الحسين يعنى ما يقول لأنه يعلم أنه مهنا نادى فلن يتعد ذناؤه آذان الحجاز وشرق الاردن وفلسطين وان كانت المملككتان الأخيرتان تحت الحماية الانجليزية . أما العراق فهو حتماً أجنبى عنه وعن دعوته . فالوحدة العربية التى نادى بها الحسين قبيل هجوم ابن سعود عليه كانت خيالاً لا نراها ان لم نضم عامة أمراء الجزيرة فلاتعد وحدة . واجتماع كتهم فى عهد الحسين كان محالاً ، لأن اليمن لا يعترف له بنفوذ وابن سعود يتحضر للهجوم عليه والقضاء على ملكه ، وامارة العسير فى حكم الادارسة واقعة تحت نفوذ الانجليز ، وأمراء البحرين وامام عمان ومسقط وشط العرب وكل السلاطين الذين على الخليج الفارسى كسلطان لجج والامير خزعل وغيرهم لا يلبون هذا النداء لأنهم لامصلحة لهم فى الحلف وهم

يطيعون أوامر الفصل البريطاني ومعظمهم الماه الغني أو المرتب الذي يتقاضاه عن المسائل السياسية فكيف يوجد حلف عربي أو وحدة عربية وكل الممالك التي يؤلف منها خاضعة لحكم الأجنبي ومغلوقة على أمرها . وكل حلف لا يدخله الامام يحجب لا يعد حلفاً . وبعد زوال الملك حسين كل حلف لا يدخله ابن سعود والامام يحجب لا يعد حلفاً واذارأي صغار السلاطين والأمرء في الشرق والجنوب الشرقى كبار الجزيرة يأتلغون فهم لاشك يقلدونهم وينضمون اليهم وكان الملك حسين في الفترة التي دعا اليها للحلف العربي يبغض ابن سعود ويخشاه يخشاه لأن ابن سعود كان يهاجم شرق الاردن وقد هزم الأ مير عبد الله في وقعتين ، ويهدد فلسطين ، والحسين يعرف قوته وبأسه ، وكان يبغضه لأنه رأى أنه رجل المستقبل في الجزيرة بعد أن خاب هو في سياسته وحر به وبعد أن جر الخراب على العرب والاتراك معاً . فكانت دعوته الى الحلف العربي بمثابة الخدعة لنفسه والايهام لغيره بأنه لا يزال الزعيم المقدي والمنقذ المرتقب . فذهبت صيحته صرخة في واد .

## ٢

لما توفي الحسين بن علي ملك الحجاز السابق ؛ وخليفة المسلمين لبضعة أيام ، وسجين قبرص تحت إمرة صديقه ستورز ، وطابق مرض الموت الذي لجأ أثناءه الى عمان التي يحكمها ولده عبد الله ويزوره فيها المللكان فيصل وعلي والأ مير زيد ، لما توفي المذكور في يونيو سنة ١٩٣١ ودفنوه في قبر في بيت المقدس ( كأن دفن المشهورين من المسلمين صار خطة تقتدى أو «مودة» تتبع بعد دفن المغفور له محمد علي الهندي) أخذ كتاب العرب وغيرهم يتبارون في الكتابة عن الرجل كما دتهم ليقول كل منهم كلمته . فأجمع كلهم على أن الرجل كان حسن النية في ثورته ، ولكن الحظ خانه ورجال السياسة من الحلفاء خدعوه وضحكوا على لحيته . ولكنه لم يخدع مجاناً بل خدع مقابل بضعة ملايين من الجنيهات وصلت الى يده ويد قومه والمحاربين من أتباعه والجواسيس والخونة وغيرهم ممن التفوا حوله في ظروف الحرب الحرجة وهم أشبه الأشياء بالطيور الجارحة التي تحوم حول الرميم والجيف . ( انظر كتاب الثورة في الصحراء تأليف لورنس طبع لندن سنة ١٩٢٧ وهو جيز الكتاب « عمد الحكمة » ) .



وقد جمعنا مجالس شتى برجال ممن عرفوا الحسين وعاشروه واختلطوا به وساعدوه في عمله أو نصحوه في أثناء قيامته وحذروه من المستقبل القريب والبعيد فكان الوصف الذي ظفر به من معظمهم هو العناد وشدة المراس في أفكاره التي تبتت في ذهنه المر بوض ، والاعتداد بالنفس الى درجة بعيدة جداً .

وكان يظن نفسه أعظم الناس طراً ، وأقدرهم في مواطن السياسة والتدبير والحرب وان الانجليز وغيرهم لا يقدرن على خداعه ونسب اليه أحد القربن منه أنه قال أثناء الحرب « ان الحلفاء الآن محتاجون الينا أشد الاحتياج فيجب علينا أن نستغل احتياجهم بأقصى ما نستطيع من وسائل الاستغلال ، لأنهم سيأتى يوم يستغنون هم فيه عنا ، وحينئذ يلفظوننا لفظ النواة » . رواها الريحاني وارسلان والخطيب .

ولكن هذا الرجل لم يكن يعلم ان الحلفاء وغيرهم من الاوربيين ولا سيما الدولة التي استخدمته في الثورة تتخذ كل الأمور عدتها وهي تدفع له المال وتبسط يدها لعلها يخذلها أو مضحوك عليها ولكن على أنها تستأجره وتستخدمه هو ومن معه ومن يمى اليه بعلاقة وقد دفعت بسخاء حتى ان لورنس قال لبعض أخصائه أن الثورة العربية كلفت خزانة الحلفاء سبعة ملايين من الجنيهات ( وكان يقول من الفارس الخيال يقصد الجنيه الانجليزى ) . حتى اذا جاء اليوم الذي يحتج فيه الحسين أو غير الحسين عليهم بنقض العهود وخلف الوعود ردوه بأن العرب كانوا مأجورين وقد أخذوا أجرهم وزيادة . وماذا يهمهم أن الحسين يبايع بالخلافة في عمان أو في غير عمان اذا كانوا يعلمون أن العاقبة لهم ولمن يدونه بأموالهم وأسلحتهم .

ان مسألة الخلافة كان لها خطرها وشأنها بعد أن طرد كمال باشا الخليفة والاسرة السلطانية من تركيا . قال محدثي وقد ظن الحسين ان الفرصة سانحة لجلوسه على عرش الحلفاء فجاء عمان في يوم من أيام يناير سنة ١٩٢٤ وكان استقباله فخماً جداً وصار العرب يهتمون له باسم المنقذ الأعظم وصاحب النهضة وألقوا على مسامحة الخطب والقصاصد . فرد عليهم بكلمة وجيزة جاء فيها قوله :

« أنا لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد الأقبل بالتجزئة ولا بالانتدابات ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهد التي قطعتها للعرب، إذ رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي اطلبه فإني أرفض المعاهدة كلها ولا أوقع المعاهدة إلا بعد أخذ رأي الأمة . إني عامل دائماً في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام للاقطار العربية كلها في الحجاز وسورية والعراق ونجد ! »

وبعد الولائم والمآدب التي حضرها كبار الانجليز وهم الذين سمعوا الخطبة ، بويع الحسين بالخلافة ونودي به خليفة على المسلمين وأميراً للمؤمنين ، وكانت هذه المبايعة في نظر رجال السياسة « بحوة الموت » التي تسبق الوفاة بتليل ! ! ثم عاد الملك الى مكة وقد صار خليفة المسلمين ! !

وكان الانجليز يعمون مدى هذه المبايعة ، وقد علموا من عناد الحسين وتشبهه ببعض الامور التافهة ما علموا فاعدوا ابن سعود لمحاربه . فعقد في غرة ذي القعدة من السنة ١٣٤٣ ( مؤتمراً صورياً في الرياض تباحثوا فيه في ضرورة الذهاب الى مكة لأداء فريضة الحج ، وأفتى علماء الوهابيين ومنهم سعد بن عتيق بجوب الحج وخطب ابن سعود خطبة من خطبه البدوية ، وقال سلطان بن بجاد « اذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة ! »

ومما جاء في أقوال ابن سعود :

« ان شريف مكة هو الوارث من أسلافه بغضنا وكلما دنوت منه تباعد عنا اي ورب الكعبة ! لا أرى الاستمرار في خطة لانعزز حقوقنا ومصالحنا ! »  
فهتف الجميع « توكلنا على الله ! الى الحجاز ! الى الحجاز ! »

فاذن لفظ الانجليز عرب الحجاز وماك الحجاز والمنقذ الأعظم لفظ النواة وحركوا عليه الاخوان بعد أن رأوا تشبهه وعناده وحرصه ( بعد فوات الاوان وضياع الفرصة ) على الاستقلال والكرامة . ولكن السلطان عبدالعزيز لغرض حربي أمر بغز والشرق العربي قبل الزحف على الحجاز . واتخذ عبدالعزيز ذريعة لذلك تغريم قبيلة بني فطحر ٢٠٠ ألف ليرة

تضميننا لسلامة التجارة والتجار بين نجد وسوريا ولم تكترث حكومة عمان لهذا الحكم فلجأ ابن سعود الى القوة وسار بجيش لمحاربتها .

وقعت معركة بين النجديين وعرب الاردن وكان بيك باشا القائد الانجليزى لجند الامير عبد الله فارس الطيارات والسيارات على افريقيين ! وكان الملك حسين في تلك اللحظة راقداً بمكة متوسداً وسادة الخلافة العظمى مطعش البال واثقاً مما أضمره الايم وهو يدبج المقالات لجريدة القبلة ويذكر « كذلات حكومة بريطانيا ويشكر حسيانها الرقيقة » ولكنه في الوقت نفسه لا يتنازل عن حقوق العرب ولا يوقع المعاهدة !!

### ٣

وفي هذه اللحظة نفسها التي كان يحلم فيها الحسين بخلافة العباسيين والسيادة على سائر المسلمين في أنحاء الارض كان جيش من الوهابيين مؤلف من ١٥ لواء يزحف على الطائف . وقد هزم جيش الحسين أولاً في الحوية ، ثم سار الامير على الذي صار فيما بعد ملكاً الى الطائف ثم خرج منها وفي ٧ سبتمبر ١٩٢٤ دخل الوهابيون الطائف فاتحين وذلك بعد مبايعة الحسين بالخلافة بثمانية أشهر وقد أتى بعض الوهابيين الحفاة العراة السلايين النهائيين القساة من ضروب الفتك والقتل والخطف في مدينة الطائف أموراً بشعة ولا غرابة فهم يعتبرون المسلمين من غير الوهابيين أعداء لهم ألداء وترى الوهابي يفضل المسيحي واليهودي على العربي السني ويقولون ان المسلمين الذين لم توهبوا « انهم لا يزالون في الجاهلية » فهم يعتبرون الاسلام على حاله الحاضرة جاهلية بالنسبة لعقيدتهم . ولذا فقد انتقموا من أهل الطائف شر انتقام ونحن نعتد ان دماء القتلى واقعة على رأس الحكومة الحسينية فقد نقي الحسين مستقلاً تسع سنوات واستولي على القناطر المنقطرة من الذهب وهو مع ذلك لم يعمل عملاً صالحاً لوقاية هذه الاسر والبيوت المظلمة في مدن الحجاز ، وكان فعله وفعل أولاده في أوائل الثورة المنحوسة انهم أهلكوا المدينة والطائف لانهما كانتا في أيدي الترك ، وحل بنسأهم وأولادهم وبايعان البلاد ما حل والآن جاء دور الانتقام فترى سلطان بن بجاد وخالده ابن منصور أمير الخرمة وهما من قواد الاخوان يمثلون الدور الذي مثله فيصل وعلى وعبد الله

في سنة ١٩١٧ . فكانت ساعة الهول والفتنة فان بعض الوهابيين الذين ادعوا الايمان كانوا يدخلون البيوت بعد تأمين أصحابها ثم يقتلونهم وينهبونها ولم يفرق هؤلاء الاوغاد بين عربي وأجنبي فامتدت أيديهم بالقتل والنهب الى الهند والجاويين وقد أظهر الملك عبدالعزيز أسفه فامر بتأليف لجنة للتعويض على الضحايا . وقد قتلوا الشيخ الزواوي مفتي الشافعية وروى شاهد عيان انه رأى بعض الوهابيين يقتلون امرأة وطفلها وهي تحتضنه . وقتلوا أولاد الشيبى سادن الكعبة انتقاماً من أبيهم الشيخ عبدالقادر .

وقد اضطر الشيبى أن يمثل دوراً محزناً لينجو من القتل فقد قبضوا عليه وهو أعزل واستلوا سيوفهم لقتله فبكي فقال أحدهم

« وليس تبكي يا تسافر ؟ »

أى ولماذا تبكي يا كافر ؟

أجاب الشيخ « أبكي والله من شدة الفرح لأنى قضيت حياتى كلها في الشرك والكفر ولم يشأ الله أن أموت الا مؤمناً . وهداً لله أكبر ! لا اله الا الله » فتركوه ولما دخل سلطان بن بجاد الطائف طرد الناس من بيوتهم وساقهم الى حديقة شبرا وحبسهم ثلاثة أيام وبعد أن نهب منازلهم وكنوزهم وأسلحتهم أطلق سراحهم !!

وقد حاول الحسين وولده على استرجاع الطائف ومقاومة الاخوان فهزم جيشهما فى « الهدى » فى أواخر سبتمبر سنة ٢٤ ومن العجب أن كثيرين من عرب الحجاز واسمهم المتدينة بالنسبة الى الاخوان وكثيرين من جنود الجيش العربى قد شقوا عصا الطاعة على الحسين وأهله وانضموا الى الوهابيين وذلك فراراً من الظلم والاستبداد وضيق العقل وسخافة الاراء . ولم يكن هؤلاء اللاجئون المساكين ليلتمسوا الرحمة من أعدائهم الا لعلمهم بأن الظلم أشد من العداوة وتحمل لؤم الحاكم القومى أقسى على النفس من ذل التسليم للفاتح الأجنبي . ولعنة الله على أهل اللؤم وأهل الظلم أجمعين .

## ٢

ومما يدل على عقلية الحسين انه كان يعتقد ان في امكانه طرد ابن سعود من الطائف ومن الحجاز ، وطالما قال ان ابن سعود أمير من الدرجة الخامسة بين امراء العرب . وفي الوقت الذي كان الحسين يرتب درجات الامراء الذين انتصروا عليه وعلى جيشه اجتمع لقيف عظيم من الاعيان والاشراف والتجار واللاجئين من المدن المأخوذة ( ٣ اكتوبر ١٩٢٤ ) وطلبوا من الحسين أن يتنازل عن الملك لولده على ، ودارت بين الحزب الوطني الذي تألف في جده وبين الحسين مراسلات مضحكة مدارها رغبة الحسين عن تعيين على خلفاً له ولكنه في ٢٥ ربيع اول ١٣٤٣ قبل وفي اليوم التالي ببيع على ورجع الى مكة وفي ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٤ وصلت الى جدة القافلة الحسينية التي تحمل أمتعة الخليفة المخلوع والملك المعزول والمنقذ الذي نفر شعبه من انقاذه وفيها عشرون جلا تحمل أربعين صفيحة من صفائح البترول مملوءة ذهباً أي حوالي ١٦٠ مائة وستين ألف جنيه .

وأقام الحسين أسبوعاً في جده إلى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٢٤ ( سبع سنوات بالدقة بعد تسلمه كتاب مكاهون ) وفي تلك الليلة نزل الى البحر هو وحرمه وعبيده وكان نزوله الى الميخت الذي اشتراه واطلق عليه اسم الرقتين ، وكان يعده حتماً لهذه السفرة الاخيرة .

يدعى الكثيرون من المؤرخين وكتاب الصحف ان سقوط الحسين يرجع الى أسباب سياسية أهمها رفضه المعاهدة الانجليزية التي استمرت المفاوضات بشأنها ثلاث سنوات . والحقيقة أن الحسين قبل في الساعة الأخيرة أي في الايام التي تخللت الاستيلاء على الطائف ومعركة الهدى ، أن يفاوض الحكومة الانجليزية في تعديل مطالبه فجاء وفد من مكة الى وكيل إنجلترا في جده ولكنهم ردوه خائباً لأنه سبق السيف العدل ، أو الصيف ضيعت اللبن . وكانت جريدة التيمس تتشفي في المنقذ الأعظم وتقول بأنه لو وقع المعاهدة لأتقذته من ابن سعود ، وهذا صحيح وان كان أنصار الوهابي يدعون ان ذلك كان مستحيلاً بعد سقوط الطائف والهدى .

كان الحسين يحترم امراء العرب وقد جعلهم درجات . وكان يظهر في السياسة غير ما يبطن دائماً وهو يظن ان هذا منتهى الحذق والمهارة .

وكان شديد الاعتداد بنفسه ويعتبر شخصه أعظم شخص في العالم، وكان يزعم أن الحلفاء ينفذون خطته الحربية التي يضعها في جريدة القبلة وان آراءه وحى منزل وان تفسيره لبعض آيات القرآن أصح من تفاسير كبار الأئمة كالزمخشري والطبري والرازي وانه يستطيع بديوانه الخصاص (مخلوان) أن ينقذ العالم العربي ويؤسس الدولة الشريفة كما يستطيع (بالقبو) أن يقتص من جميع أعدائه . والقبو أحد سجون القرون الوسطى أعاده الرجل الى الوجود وأخذ يسجن فيه من يشاء لمدة غير محدودة ولأسباب مجهولة ولغاية لا يعلمها الا الله وهو - أشبه بلباستيل في وسط مكة ! كان الرجل مغروراً وكانت حاشيته تساعد على الغرور بالمدح والنفاق . وقد اجتمعت في حاشيته الاضداد ظلم الرعية وظلم نفسها وظلم العرب والاسلام ، وظلم كل من في حكومتهم الا المنافقين والمختلسين الذين سرقوا أمواله وأموال الامة وقد أقصى الرجل كل الرجال الصادقين المخلصين وأبغضهم وكرههم وكاد بهم ببعضهم قتلا وانتقاما وبحسن نية كان يقرب الخونة واللصوص والفاستدين فخرجوا من جده قبل خروجه وبعده وفي حقائبهم بعض ما نهبوه ، وقد سلبه أحدهم عشرات الالوف أخذها باسم شراء السلاح فاشترى بها في مصر ضياعاً وقصوراً . وكان موظف آخر مقرب منه نهب سبعين أو ثمانين ألف جنيه وابتنى بها قصوراً واشترى أطياناً وهو يعيش الآن عيشة الملوك وكان له جلة وكلاء في مصر وغيرها فاختلسوا عشرات الالوف ، وهكذا تبدد معظم المال الذي ناله الحسين سواء من الانجليز ابان الثورة أم من الحجاج المساكين الذين كانوا يدفعون الضرائب على كل شئ وحتى صفيحة الماء بيعت لهم في بعض الاحيان . بجنيه انجليزى ذهب ومن هؤلاء الذين سلبوا ونهبوا غير الكاتب البليغ والخطيب الفصيح والتاجر المذاق ، ترى حامل ختم الوكالة الحجازية وتاجر الغنم وقيم المطوفين . ومما سره الجمال والشقادف كل هذا النهب والسلب والظلم والحسين يقول لمن يطلب منه المعونة « لا الا أيها التجيب المال يفسد الرجل » !

يرجح العارفون ان الحسين وصل الى يده من مال إنجلترا أثناء الثورة العربية مليون و ٢٠٠ ألف ليرة . ويقول بعضهم تقلا عن لورنس أن الحملة كلها تكفت سبعة ملايين وكان

المسلمون في الهند وعددهم نحو أربعين مليوناً أى يعدلون سكان إنجلترا أو فرنسا يبدلون كل جهدهم لاقتاذ البلاد المقدسة من الظلم فأفوا لجنة الخلافة وجعلوا على رأسها شوكت على (الذى زار مصر في أوائل سنة ١٩٣١) وأرسل شوكت على الى الحجاز بالبرقية الآتية

« ان مسلمي الهند لا يوافقون على بقاء الشريف حسين ولا أبنائه في الحجاز وان حكومة الحجاز يجب أن تكون ديموقراطية حرة خاضعة لرأي العالم الاسلامى . وان جمعية الخلافة لا تعترف بامارة الشريف على »

وكان الاخوان الوهابيون قد دخلوا مكة في ١٧ ربيع أول ١٣٤٣ بغير حرب ولا ضرب .

وكان ابن سعود فى أول الامر يدعى انه لا يريد أن يملك الحجاز انما يريد أن يحتفظ به للعالم الاسلامى !!

فقال فى برقية الى على « انتم تعلمون أن الحجاز للعالم الاسلامى فلا ميزة لطائفة من المسلمين على طائفة أخرى »

وكتب للسيد أمين الحسيني الذي توسط لديه فى الصلح بينه وبين الملك على « انا نرغب فى وجود ادارة فى الحجاز تكفل حقوق جميع المسلمين بوجه المساواة وتضمن راحة الحجاج وتزيل عنهم المظالم كلها »  
وكتب ابن سعود يقول فى هذا المعنى :

« يجب اخلاء الحجاز من اولاد الحسين وانتظار حكم العالم الاسلامى الذى له الحق فى امر الاماكن المقدسة وطريقة ادارتها » .

وأخيراً فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ أرسل ابن سعود الى الشريف على بما يأتى .

« اخلوا الحجاز وانتظروا حكم العالم الاسلامي فن اختاركم أو اختار غيركم فنحن  
تقبل حكمه بكل ارتياح »

والعالم الاسلامي كان ضائعاً بين جمعية الخلافة في الهند والحزب الوطني في الحجاز  
و بين سلطان نجد و بين الحسين وأولاده . ولعله رحمه الله كان مظلوماً .

وقد اتخذ اسم العالم الاسلامي ستاراً لكل من أراد الكذب أو الدس أو الخداعة .  
وكل منهم يعلم أن العالم الاسلامي شيء خيالي لأنه ليس له قوة مادية تنفذ حكمه أو تحمي  
ذماره . حتى ان ابن سعود عرض في النهاية انه يترك الحكم « للعالم الاسلامي » في اختيار  
من يتولى الملك في الحجاز . فوارجتا للعالم الاسلامي والحسين لأنهما كانا ضحية .

## ٥

ولا تغفل من أسباب انقلاب الانجليز على الحسين غير ما تقدم من أحوال ضعفه  
وذهاب اهميته ، وانتهاء الحلفاء من مآربهم سبباً مهماً جداً وهو أنه في تلك الفترة كان له  
سفير أهوج في رومه وهو من أسرة سورية في مصر القاهرة قيل ان الحسين منحهم أحد  
ألقاب الشرف ، وكان هذا السفير محبباً للفخفة وهو على أكبر نصيب من الحماقة والطيش  
والتسرع في الأمور ، لأنه لا يعلم من أسرار السياسة شيئاً . وناهيك بمن يكون ذا مال وحسب  
ولقب ويرضى أن يكون ممثلاً سياسياً للحسين في عواصم اور و بية ودوها للأسف لا تكترث  
للحسين ولم ترسل اليه سفيراً .

هذا السفير الأهوج ، سافر الى روسيا في سنة ١٩٢٤ واتصل بحكومة السوفيت  
وطلب منها تعيين سفير لها في بلاد الحجاز وادعى أنه هو سفير الحسين الي حكومة موسكو ،  
فاختار الشيوعيون رجلاً مسلماً منهم وبعثوه سفيراً الى مكة ، فاجتمع بالمسلمين في المؤتمر الذي  
عقد سنة ١٩٢٤ وأخذ يوزع عليهم منشورات شيوعية ، فاعتاض الانجليز من ذلك أكثر  
من أي شيء آخر وصمموا على القضاء على الحسين بعد أن ظهر لهم منه هذا الخرق . وربما  
خدع الحسين وأوهمه سفيره السوري أن استقباله لهذا الروسي الشيوعي المسلم يهدد الانجليز



ويرعبهم ويخيفهم فيرتدعوا ويخشوا عاقبة الاتفاق بين روسيا و « الخلافة العربية » .  
ولأجل هذا قابله الحسين بمقابلة رسمية ، مقابلة الخلفاء السفراء فكانت النتيجة أن  
الإنجليز زفقوا على ما يضره الحسين وعلموا بمقدار حقه عايمهم ، ورأوا أنه يلعب بالنار ، فتركوه  
حتى يحرق أنامله وأيديه وأوعزوا الى ابن سعود أن يتم إشعال النار حتى تصل الى جبة الرجل  
وعمامته فلما اتصلت وعلا طبها فر من كانوا أول مشعلها ولم يفروا خفافاً بل فروا ثقلاً بما  
سلبوه ونهبوه من مكان الحريق . وجاء ابن سعود رئيس فرقة المظافنة « الإنجليز نجدية » فأطفأ  
ما استطاع اطفأه وأنقذ ما استطاع انقاذه . . باسم العالم الاسلامي أولاً ثم باسمه ثانياً .

وفي ربيع الثاني خطب ابن سعود قائلاً :

« ان مكة للمسلمين كافة وسنجتمع هناك بوفود ( العالم الاسلامي ) فنتبادل وإياهم  
الرأي ، وسيكون الحجاز مفتوحاً لكل من يريد عمل الخير من الأفراد والجماعات ! »

وفي أوائل ديسمبر سنة ١٩٢٤ دخل ابن سعود مكة فجاء بعض أعيانها وبادروا  
الى يده يريدون تقبيلها فمنعهم قائلاً « المصافحة من عادات العرب ، أما عادة التقبيل فقد جاءتنا  
من الاجانب ونحن لانقبلها » ثم خطب خطبة قصيرة جاء فيها

« كان من أحب الأمور عندي أن يقيم الحسين بن علي شرع الله فاجيئه مع الوافدين  
أحب على يده ( أقبالها ) وأساعده في جميع الأمور . . . »

وبعد ذلك بيومين اجتمع علماء نجد الوهايون بعلماء مكة . فأقر علماء مكة للمسائل  
الجوهرية في المذهب الحنبلي الوهابي وقبلوها وفي اليوم نفسه أقر ابن سعود ما كان لعلماء مكة  
من الرتبات والمنح والوظائف . فأنت تربي سياسة « شيلني وأشيلك » معروفة ومعمولاً بها  
حتى في مكة المكرمة بين الوهابيين والسنين فعلماء مكة الذين كانوا يعتبرون أهل نجد الوهابيين  
كفاراً قد أقروا عقيدتهم عند دخول هؤلاء الوهابيين عاصمة ملكهم . فكافأهم ابن سعود  
بإقرار أرزاقهم في منشور جاء فيه :

« كل من كان من العلماء فى هذه الديار من موظفى الحرم الشريف أو المطوفين  
 ذا راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل ان لم نرده . وكل من له حق ثابت فى بيت مال  
 المسلمين أعطيناه حقه » اه

فلجزاء من جنس العمل ، أنتم يا علماء مكة تؤمنون بعقيدتنا ، ونحن نترر أرزاقكم  
 ونزيدها وتفتح لكم باب بيت مال المسلمين على مصراعيه .

وانتهى الأمر باستيلاء ابن سعود على الحجاز وخطب خطبة طويلة جاء منها :  
 « لم يفسد المالك الا الملوک وأحفادهم وخدامهم والعلماء المملقون وأعدائهم ومتى اتفق الامراء  
 والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه فيمنح الأمير المنح والعلماء يدلسون ضاعت حقوق الناس  
 وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى » اه . عن كتاب ملوك العرب للريحاني .

قبل ان مرظفًا كبيراً من موظفى حكومة الحجاز مرض فى أوائل سنة ١٩٣١ مرضاً  
 خطيراً ونقل بسببه الى مصر ، فلما توهم أن أجله قد دنا أوصى طبيبه الخاص بأن يباغ ملك  
 الحجاز وصيته الأخيرة وهى تحذيره من ثلاثة أمور الافراط فى شراء السيارات ، وافتاء  
 دسائس فيلبى وسماع نصيحة عبد الله بن حسن شيخ الاسلام فى مكة وهو سليل صاحب المذهب  
 الوهابى . ولكن الموظف الكبير نجما من خطر الموت وأبل بعد دائه وسافر الى مقر عمله .  
 ولم يكن يستطيع أن يمنع إذاعة وصيته التى تناقلتها الألسن .

فقد روى كل من عرف الملك الوهابى أنه يشتري السيارات بالئات ويقتنيها هو  
 وأولاده بالعشرات تقطع المسافات البعيدة بين الحجاز والرياض ( عاصمة نجد ) فى سباق  
 يتكرر كل يوم ، وهى من أفخر السيارات فاذا أدركها العطب أهملت ولم تجد من يصلحها  
 فتمسى هياكل حديدية لا تصلح للبيع والشراء وقبل ان عدد السيارات التى أصابها التلف على  
 هذه الصورة يزيد على سبعمائة أما فيلبى فلم يصلنا من أخباره ما يدل على إخلاصه وصدق  
 إسلامه ، غير أننا قرأنا فى جريدة التيمس مقالة بعنوان « أربعة أيام فى مكة » تكلم فيها  
 فيلبى كما يتكلم السائح الأجنبي فى بلاد شرقية ، وكنا نشعر ونحن نناولها أنها فصل من

فصول كتبه عن جزيرة العرب فقد وصف أيام العيد في مكة وهو يقول :

« وهكذا أتاحت لي الأقدار أن أشهد أعظم منظر انساني من ناحية غرابته في حياتي ... وما هو ؟ هو اجتماع القتبان حيال القصر في مساء أول أيام العيد ومعهم طبولهم فيقرعونها ويرقصون ويعنون بنغمت واحدة لا اختلاف بينها لا تبعث على الطرب ولا على الشجى ، ثم يطل عليهم الملك من نوافذ قصره ثم تصلهم الجوائز والمنح .

« ثم أخذوا يرقصون بالسيف حتى نضحت جباههم بالعرق الغزير .

« وبمجرد انتهائهم من رقصتهم نهض الملك عبد العزيز بن سعود واقفاً وطرح عباءته عن كتفيه ثم مد يده فأمسك بها أقرب سيف اليه وأخذ يلوح به كما يفعل الأبطال فوق رؤوس هؤلاء الراقصين . وتقدم الملك بعدها الى الامام خطوتين وطفق يرقص بهارة عجيبة فتارة على أطراف أخمصية وطوراً ناكصاً على عقبه وأخرى متشاداً الى أعلا . . . وهكذا كانت حركات الرجل الذي قام بتكوين امبراطورية مترامية الأطراف لم يشترك معه فرد أو دولة في انشائها . . . » اه . ونحن نعجب لدهشة فيلبي من عادات العرب .

وقد علقت لإحدى الصحف العربية على هذا المقال بقولها « وهل هذا كل ما أفاده

المسلمون من إسلام مستر فيلبي ؟ ؟ . . . »

وقد روى للصحف خبير بشؤون الحجاز أن ابن السعود يجمع في كل عام مليونين من الجنهيات وينقلها في خزائن الى الرياض ولا يستبق بمكة مالا، وهو يعامل الحجاز معاملة الارض الأجنبية المفتوحة ، ويتقاضى الضرائب من أهلها ومن الحجيج على السواء . أما دعوى ترك حكومة الحجاز للعالم الاسلامي فكانت لتخدير الأعصاب وتطمين المتحمسين والمتهوسين الذين يخافون على الأراضى المقدسة ، ولكن بعد أن استتب له الأمر فيها ودعا الى مؤتمر سنة ١٩٢٦ الذي كان مؤتمراً صورياً فقد ضرب بوعوده عرض الحائط وأخذ يعامل الحجاز كما أسلفت معاملة المستعمرة والبلد المفتوح ومن الحق أن نقول إن الأمن مستتب والنظام سائد ، والجرائم معدومة لاسيما جرائم قطع الطريق والنهب والسلب ، ولكن ذلك تم

لمصلحة الحاكم نفسه فانه ان لم يستتب الأمن لا يحضر الحجاج الى الحجاز ولا يدفعون الضرائب والأموال التي يستخلص منها الفاتح الوهابي مليونين من الليرات وقد ضربنا صفحاً عما صنعه الوهابيون من الفظائع عند الفتح لاسيما هدم الآثار النبوية مثل البيت الذي ولد فيه النبي وبيوت الخلفاء الراشدين بحجة أن في وجودهم تمجيداً لذويهم يكاد يكون عبادة . مع أن الأمم المتحضرة تحتفظ بكل آثارها القديمة وان كانت تخالف معتقداتها وذلك احتراماً لقيمتها التاريخية . وقد قرأنا وسمعنا من سوء معاملة الوهابيين المتوحشين للحجاج المصريين اذا رأوهم يتبركون ببعض الآثار أو يقرأون الفاتحة لأحد الصحابة ، ويضربونهم اذا رأوهم يدخلون وحدثت معارك دموية بين حرس المحمل وبين الجيش الوهابي وأصيب كثير من الجنود المصرية ومن الحجاج أيضاً واتقطع المحمل والكسوة من سنة ١٩٢٦ الى هذه السنة على الرغم من أن عبد العزيز أرسل ابنه فيصل يستأخي من ربه في عيئيه فقبول في مصر مقابلة الأسياب والخلفاء وذلك بعد الاعتداء على المحمل بالضرب والقتل . فانظر الى كرم المصريين وحلمهم وتسامحهم التي تسكاد تكون ضعفاً وحلماً وشفواً في غير موضعها فنحن لانستقيم للاجانب والاوروبيين فقط بل تمتد استنامتنا وضعفنا الى عرب الصحراء . . . فلا حول ولا قوة الا بالله . ولكن أهل مصر قد جبلوا على مكارم الأخلاق فلعل هذا يقدر حق قدره من أمم الشرق والغرب .

## ٢٢

١

كانت أحكام العصور المظلمة عادت الى الحجاز بتصاب الشريف س . بن ل .  
 حاكماً على الحجاز . عاد البطح على البطن والجلد على القفا بسيور الجلد المصفور وسياط الخيزران  
 ويوجد تحت القصر مرداب اسمه « القبو الدامس » لأن البشر يدمسون فيه أحياء وهذا  
 القبو الدامس أو القبر الرهيب عبارة عن جحر مظلم تحت قصر أمير بالحجاز ليس فيه كوة  
 للهواء أو منفذ للنور وأرضه ملائنة بالتراب الذي تتولد فيه الجرذان والعقارب وهو سجن  
 المتهمين من رعايا الأمير بغير تحديد لوقت أو لحكم كأنه جزء من حصن الباستيل وليس هذا  
 القبر معداً للصمصوم والجناة من قطاع الطريق وقتلة الحجيج ، فان هؤلاء خاصة المنفذ وحاشيته  
 وأقرب الناس اليه وانما القبر أو الدامس جعل لمن ينبس بكلمة أو تصعد من صدره زفرة حزن  
 أو أسى على العرب والاسلام . وقد يضع فيه خصومه من الاعيان أو التجار الاغنياء الذين  
 يحاول مصهم فيرفضون بعذر العدم أو الحاجة .

فاذا ألقى باثنين في الدامس فلا يستطيع أحدهما ان يرى وجه الآخر لشدة الظلام  
 ولا يستطيع من يدخل الدامس ان يبقى بشيابه بل يضطر لخلع ماعليه ويتجرد من ثوبه لشدة  
 الحر لأن الدامس لا يتخلله الهواء وفي الدامس سلاسل وأغلال تصلح لتقييد السفن ويقيدها  
 الأشخاص . والحمد لله على أن هذا المنكان قد بطل استعماله .

وكانت هناك فوق ذلك أداة للعذاب اسمها الخشبية وهي عمود ممدود فوق الارض من  
 الجدار الي الجدار به عدة ثقوب وطريقة التعذيب بها أن توضع رجلا المعضب في ثقبين من  
 تلك الثقوب على مسافة مترين أو مترين ونصف ويبقى الرجل ملقي على هذه الحالة على أرض  
 ترح فيها الجرذان والحشرات فتتمزق أعصابه ويوقع على نفسه ويتخبط في فضلاته .

و بعد مدة مفررة يخرج المعذب ويضرب بالسياط وأعصاب البقر الى أن يشرف  
المتهم على عالم الموت والشهادة وكثيرون يموتون وآخرون تتعطل أعضاؤهم :

وقد نشرت هذا الوصف جريدة « بور و بودور » التي تصدر في جاوه بقلم محمد  
الهاشمي التونسي عدد ٤ سنه أولى الصادر في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٠ وقال المحرر :

« نحن نكتب هذا وننشره في عصر النبيل نفسه وأهل مكة منتشرون في كل  
مكان فمن ارتاب فليتحقق منهم وأهل مكة أدري بشعابها »

وقيل ان بعض أولاد النبيل كانوا أجروا في دولة ش أحكام الجلد القاسي وتقدمت  
بذلك شكوى الى وزارة الخارجية الفرنسية ورياسة الوزراء لأنهما تاملان الحضارة الانسانية

انتقد الشاعر الأندلسي ضخامة الألقاب بقوله :

« ألقاب سلطنة في غير موضعها »

ومع هذا فقد كانت الأندلس من أغنى بلاد الارض في المياه والزراع والمعادن  
والحيوان والمنتوج وكانت ملائمة بالناس وعامرة بالمباني الفخمة وآهلة بالعلماء .

فأذ عساه يقول لو بعث اليوم في بلاد العرب الصحراء الجرداء وهي واد غير ذي زرع  
وفيها النفود والربع الخالي والوديان السحيقة والجبال الشاهقة التي لانبات فيها ولا نبع ماء وسمع  
في مكة صاحب الجلالة . . . (وقد صار بعضهم في سنة ١٩٢٤ خليفة المسلمين وأمير المؤمنين  
وحامي حمى الدين ) وفي حضر موت صاحب العظمة القصبية وصاحب الشوكة الكثيرة  
وفي الكويت صاحب المهابة الصباحية وفي نجد صاحب الجلالة . . . وفي سوريا صاحب  
الراية . . . ( قبل زوالها وما يوم حليلة بسر ) وفي اليمن صاحب الامامة اليمنية وحامي  
الشرية الزيدية ؟ ؟

## ٢

كان أبو بكر وعمر وعثمان يدين لهم الشرق والغرب ولم يرد في التاريخ لاحد منهم مثل هذه الالقاب ولم تكن لهم مواكب ولا جفافل ولا حاشية ولا خاصة ولا معية ولا فيالق من الجند تسير في ركابهم امامهم ووراءهم بل كان التراب فراشهم والسماء غطاءهم . ولم يكونوا أهل طمع ولا جشع في المال ولم يكن لاحدهم جريدة تنشر له قراراً مثل القرار الآتي :

« أصدر معالي نائب رياسة النظار الجليلة قراراً يقضي بأخذ خمسة قروش على كل حمار يسافر بين جده ومكة ثلاثة منها ترجع الى البلدية واثنان الى مرجع آخر »

كان الشريف ل. ن. يعلن انه قام لتطهير بيت الله من طغمة الطورانيين المارقة في الوقت الذي كان يقبل فيه رسل الانجليز في الحرم المكي متنكرين بلباس البدو وشفيعهم ومطهرهم هو ما يحملونه له معهم من الاصفر الرنان حسبما صرح به بنفسه في كتابه الى نائب ملك انجلترا بمصر وقد لقب الكولونيل ر. . ب لقب أمير من امراء الاشراف وسلمه الخنجر المرصع الذي لا يحمله الا أهل البيت . وأصبح ر. . عربياً وشريفاً على مذهب ن بن ج .

أما الجندي التركي الذي شهد له العالم كله بطهارة الذليل والنزاهة فيقول عنه ابن ج هذا انه عدو للانسانية وللأديان ويقبض ن على عذارى الجنود وحليلات الضباط وعقاتهم الذين تسلسلوا ٦٠٠ سنة يحمون مكة . وسكانها اسرى في أيدي العساكر الاجنبية تحمّلهم الى مصر .

أليس أعمال النبيل ن داعية الى أن يكفر الاتراك بمكة وساكنيها من وقت الخليفة الى يومنا هذا ! وقد بما قال ابن الاثير ج ٦ ص ٢١١ « العربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » وقد بالغ في الاهانة بما لا نوافق عليه .

وقال الله « الاعراب أشد كفراً وثمافاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » قال أحد الكتاب « فكيف اذا لم نطرح كسرة بل طرحنا أكدا سا من الذهب الوهاج ؟ »

وروى عن الشيخ على القانص الهندي انه قال :

« العربي في حضرموت لو أعطيته مجاً وأمرته بقتل نفس مؤمنة ماتأخر »

وقال الشيخ سالم بن سمدن نهبان (نحن العرب لم تحكنا دولة أجنبية ، اذا صاحبنا أفرنجي تكبرنا على أصحابنا فاذا ملكتنا حكومة أجنبية يوما ما فلاشك في اننا سنكفر )  
وقال آخر خبير : ( لو طلبت الحكومة الانجليزية من بعض العرب أن يتنصروا للبرهان على صداقتهم لها ماتأخروا عن اعتناق الصليب ) وهذه مبالغة تدل على القسوة في الحكم .  
ولاجل هذا اعطي أحد أمراء مكة للكولونيل ر ماذونية واسعة وتوكيلا مفوضا بحيث يمضى بالنيابة عنه كل ماشاء من العهود والاتفاقات حتى كأنه الامير بنفسه في الوقت الذي يخفى فيه الحاكم كل شئ حتى على أولاده

\*\*\*

بعد أن حدث النفور بين المرحوم بجلالة الملك حسين بن علي والانجليز ، كتب كاتب في التيمس في مايو سنة ١٩٢١ يقول ماتهريه

« ان القيام الذي حصل ضد الاتراك لم يكن وقوعه بصورة عامة من جميع العرب بل وقع من جانب الشريف حسين وبالرغم من كون الامة العربية تتألف من خمس حكومات فانه ليس فيها أضعف ولا أصغر من حكومة الحجاز التي تحولت الى حكمدارية ومع ان أمير نجد ساعد الحلفاء في الحرب العامة فننا لاننكر أن الحركة بدأت من الحجاز . وكما أن شريف مكة حسين باشا صار حكمداراً على الحجاز فقد رشح أولاده لامارات عربية متعددة ولو رجعنا الى مطالب عائلة الشريف حسين لوجدنا أن هنالك أشرفاً أسمى منهم حسباً ونسباً وأعرق منهم مجداً وفخاراً وانهم أليق وأحق بامارة مكة من حسين وأولاده وانما أولاد الشريف حسين يرتكنون في مطالبهم على المساعداات التي قاموا بها للحلفاء في أثناء الحرب .  
« ان العراق لا يستطيع أن تسمع باسم شريف مكة وأولاده وليس لأحدهم قبول حسن هناك . ويجب موافقة الامم قبل ترشيح الامراء لها ، وكذلك سوريا فلها لا تنقاد



ولا تدعن لاوامر مكة أما نجد فإن ساحة شاسعة متراوية الاطراف تلتف حول أميرها  
ان أمير نجد من أشد الناس بغضاً لشريف مكة أو حكمدار الحجاز وذلك لمطامع  
الحسين وحرصه وتفانيه في تضحية كل شئ لمنافعه الذاتية ولأنه أصبح في منتهى الانتقاد  
في نظر العرب بل في نظر العالم الاسلامي كله .

وفضلاً عن ذلك فإن الامام يحيى منقطعة بينهما العلائق للسبب الذي يبغضه لأجله  
العالم الاسلامي كله .

وكذلك الادريسي لم يقبل أن يذفق معه بوجه من الوجوه . والسنوسي يزى أن  
الخليفة لا يمكن حصرها في أشرف مكة وقل مثل ذلك عن عبدالله أمير حائل  
وعلى ذلك فتأسيس الوحدة العربية لايتأتى تحقيقه الآن . ولذلك فلا أنسب أن  
تبقى الامة العربية على حالها لنوفر على أنفسنا مبالغ طائلة يقتضيها خيال أرباب الاحلام ونحن  
في حاجة الى تلك النفقات التي لا طائل تحتها « اه كازم التيمس . وهذه عادة الانجليز اذا  
فرغوا من الانفعاغ من حاكم أو أمير شرقي قلبوا له ظهر المجن .

## ٣

نشر شريف مكة في عدد ٤٤٧ من جريدة القبلة استغاثة بالمسلمين من الحلفاء جاء فيها  
« يا بني الامة الخالدة !

أما وقد اخلف الحلفاء وعودهم لكم وداسوا عهدكم ومزقوا مواثيقهم التي عقدوها  
مع أيكم ومنهضكم الاكبر ( ! ! ) فلم يبق لكم سبيل غير المفاداة والاستماتة في رد عاديات  
الظلم والشر عنكم وعن بقاعكم المقدسة .

ثم أخذ يصف الحلفاء بأنهم « الفرنجة الغدارين »

ثم قال « فأما ميتة تغسل المار وتمحو النل وإما فوز يؤيد الحق »

« اقتحموا نيران الغاصبين أطفالا ونساء وشيوخاً وشباناً وعجائز . »

« أظنتم أن الافرنج يصدقون في وعودهم لكم ؟ لا والله فلا تأخذوا أنفسكم !  
 « خافوا نهب منازلكم وتدنيس معابدكم وانتهاك أعراضكم ، اقضوا ما بقي من هذه  
 الحياة في الثار » اه ماجاء في الاستغاثة ، وقد رد عليها مؤرخ شرقي بقوله :

« ولنا الحق في أن نضحك من هذه الدعوة الى الجهاد بعد فوات الوقت وبعد ان  
 بلع الحجاز ما بلع من الذهب حتى تخم وسدت لهاته سداً بالاصفر الزنان ، فلما جفت يد  
 الحلفاء أخذ بعضهم يستنفر العرب ويقدمهم ضحية رجالاً ونساء وأطفالاً تحقيقاً لمطامع  
 الوادي . ويحفظ بنفسه ويدعى أن الافرنج الغدارين تنتصوا عهود العرب مع أن العرب  
 لم يتعاهدوا معهم على شئ وهكذا يكون خبث السياسة المتلوية كالافاعي

« ترجع مطامع الانجليز في بلاد العرب الى عهد غارة نابوليون على مصر وسوريا .  
 ولسكنها لم تدخل في طور العمل الا بعد ظهور نفوذ الخلافة العظمى بين مسلمي الهند إبان  
 ثورة ١٨٥٧ والانجليز الذين اتخذوا مسقط وبوشير مركزاً لحركات توسعهم في شرق  
 الجزيرة وشرعوا للتوسع في جنوبها اتخذوا احتلالهم لمصر قاعدة لحركاتهم ودسائسهم في  
 سوريا والحجاز .

« وقد وقفوا في الزمن الاخير لايجاد زمرة من الخونة بمصر من أهل سوريا ولبنان  
 وفريق من المصريين رغماً عن رفعة مرا كزهم في الهيئة الاجتماعية ورغم ما يتظاهرون به  
 من العلم والفضل والغيرة على الاسلام وأهله وقد باعوا ذمهم للانجليز واشتروا الآخرة بالدنيا  
 وانقطعوا لسكيد الدولة العثمانية خصوصاً وللاسلام عموماً ، بتوهين آخر حصونه .

« وقد حاول أولئك الاوغاد تأسيس روابطهم مع الامير عون الرفيق فعاجلته المثية  
 فالتفتوا نحو حسين بن علي وابن سعود . ان الاحتفالات التي كانت تقام في مصر لعبد الله  
 بك عند مروره المتوالي بمصر أظهرت خطتهم وكرروا المساعي مع الامير علي باشا فانتهرهم  
 وحاولوا التودد الى الامام يحيى فلم تخف عليه حقيقتهم ثم اتصلوا بالادريسي وأسرة النقيب

في بغداد وخرزل الذي كان يقابل غورست كما جاء مصر وكذلك أسفار اسماعيل حسن وعزت الجندی وحسن صبرى وحسن حماده واتباع الشيخ على يوسف ورجل آخر صحفى سورى مسلم من رجال الدين كل ذلك صار سراً مذاعاً . وخطب محيى الدين بك متصرف عسير ومسألة الشيخ أحمد الهزازى وكذلك الخبايرت بواسطة عارف القوم بمصر وعبد الرحمن قنصل الانجليز بجده .

« والتقارير المرفوعة بواسطة الباشا الذى كان باعية الخديوية وقياسات في حقه قصيدة « البال » وسياحات المحامي الشرعي الذى توفى وارسل بعض سكان قرية اليوسفية بقنا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فصدرها معروف كما ان خطبة عبد الله وطعنه في الدولة امام ضباط « امدين » لمخالفتها المانيا دون انجلترا فقد خرقت الستار الرقيق وجاء طلب الامير من وهيب باشا قبيل سفره أن تعلن الدولة اتصال الحجاز عنها تماماً الا في العلاقة الدينية فأفصح عن الغرض المقصود . » اه . كلام المؤرخ الشرقى

## ٤

نشرت جريدة المستقبل الباريزية في عدد ١١٦ الصادر في ١٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ برقية أرسلها المرحوم جلالة الملك حسين بن على الى پوانكاريه رئيس الجمهورية هذا نصها .

« الى فخامة الموسيوريمون پوانكاريه رئيس الجمهورية بالالبزه .

اتبيننا في هذا اليوم السعيد ، الذى تعده الامة من أيامها التاريخية بارسال تهنئتنا اليكم بمناسبة استيلاء جيشكم على دمشق . وانه انظر كل مساعى فيخامتكم ومساعى شعبكم النبيل بالنجاح ، وهو من ثم بشارة لاقترب النصر النهائى أي انتصار العدل وحقوق الامم وضمانها من خرق حرمتها ومن كل اعتداء عليها في المستقبل » الحسين الأول

وفي نوفمبر سنة ١٩٢٠ أى بعد ارسال هذه البرقية بسنتين و بضعة أيام أرسل المرحوم الحسين بن على ملك الحجاز نفسه كتابين الى خديوى مصر السابق عباس حلمى الثانى والى سلطان

تركيا يحتاج فيهما على أعمال فرنسا في سوريا وينسب اليها انها تعمل في سوريا عملاً عادائياً للدين المسلمين ويطالب بجلاء جنودها عن عاصمة الامويين .

ولم ننس من الذي قدم منوريا هدية لفرنسا ، وفلسطين والعراق هدية لانجلترا والفضل للجنيهات الانجليزية التي كان ينفقها بعضهم بمكة بنفسه وبواسطة صنائعه لتمزيق أجزاء الاسلام والدولة العثمانية فكيف يعترف الحسين أمس بأن فرنسا فتحت سوريا واليوم يطلب الجلاء عنها فأين ثمرة الفتح وأين ثمن الدماء الاوروبية التي اريقت في سبيله ؟ هل كان يظن الشريف ان دماء الحلفاء رخيصة مثل دماء العرب والشرقيين ؟

أليس الانجائز والفرنسيون هم الذين كان للرحوم الحسين يصفهم بأنهم « حلفاؤنا الكرام المحاربون لنصرة الحق والانسانية » ثم يصفهم بأنهم أعداء يستأجرون الناس لمصالحهم ، أفلم يستأجروا جيوشاً وقوادماً من العرب من قبل ؟

هل كان يظن أن فرنسا تتخلص من الترك لتتشارك مع البدو الحفاة ، أم انها تفتح بلاد الشرق لتسلمها لقمه سائغة للحسين بن علي ، وأقاربه وأعوانه ؟

كان الحسين ينتقد سياسة الاتراك الذين عاشوا في اوربا ٧٠٠ سنة وهم في درس مستمر لاعوص مشا كلها السياسية ويدولليان في جريدة القبلة التي كان يحررها أنه سياسي محنك ، فكيف خدع لوعود انجلترا وكيف لعبوا به بأسهل الطرق وأهونها فسارع الى الخلاص من الترك الذين تربى في حجورهم سابحاً في بحر من نعمه الله عشرات السنين هو وأولاده وأحفاده وكل أهل بيته ؟

قال مؤرخ شرقي « نحن الشرقيين يصح في حق بعضنا قول الشاعر :

غذيت بدرها ونشأت معها فن أنباك ان أبك ذيب

وما أشبه بعض العرب في ثورتهم على آل عثمان ، بالزبير بن العوام في ثورته على عبد الملك بن مروان . فعطل الفتح الاسلامي وأورث الدولة جراحاً وقروحاً فبأ بسخط من

الناس وغضب من الله وكان جزاءه أن سجل التاريخ اسمه باحرف من عار وفضيحة  
 كان زعيم عربي يقول في منشوراته « لانترك كياننا الديني والقومي العوبة في أيدي  
 الاتحاديين وقد يسر الله للبلاد نهضتها وأخذت استقلالها واستقلت فعلا وانصلت عن  
 البلاد التي لم تزل تثن تحت ساطة للتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما بكل معاني الاستقلال  
 لانشوبه شائبة مداخله أجنبية ولا تحكم خارجي جاعلة غايتها ومبادئها نصره دين الاسلام  
 والسعي لاعلاء شأن المسلمين » .

ولكن نتيجة هذا المنشور وقوع بلاد الاسلام في أيدي الاستعمار الأجنبي فتربع  
 جورو في دمشق وهربرت صموئيل في اورشليم وغيرها في العراق وشرقي الأردن في حين  
 استقلت أرمينيا وعشرات الامم الاوروبية . كان بعض الناس مخدوعا في النبيل ش  
 وأعماله ووظن أنه مخلص في ثورته وأنه حقيقة يغار على الاسلام والمسلمين وكان بعضهم يظن  
 انه ضعيف العقل والتدبير وأن من حوله يطيعونه خوفاً واحتراماً. ولكن كان رأى الكثيرين انه  
 لم « يثر » ولم « ينهض » ولم ينفذ الاحبا بالمال ولا مور أخرى لاعلاقة لها بالدين والوطن .  
 فقد جاء في عدد ٣٩١ من جريدة ط التي يكتبها بنفسه نص خطاب وجهه ش الى  
 نائب حكومة ك بمصر صرح فيه بأنه لم يتم بالفتنة الا إرضاء لحكومة ك وتنفيذاً  
 لخطتها الحربية . (فان كان ولا بد من التعديل ، فلا لى سوى الاعتزال والانسحاب ، ولا  
 اشتبه في مجد دولتكم ، وانها لا ترتاب في انى وأولادي أصدقاءها الذين لا تغيرهم الطوارئ  
 والاهواء نم تبينوا البلاد التي تستحسن اقامتنا فيها بالسفر اليها في أول فرصة ، وان رأت ذلك  
 ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقضى بتأجيله الى ختامها فحقوق الوفاء والجميل يفرض  
 علينا الثبات ) .

قيام النبيل ش واقامته في مكة لم يكونا حرصاً على حمي الدين كما زعم في منشوراته  
 للمسلمين بل كان مقابلة للجميل الجنيهاً التي قدمت اليه كقال هو نفسه في فقرة اخرى من  
 كتابه السابق :

« والا باقى المواد فانا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها شكراً يملأ الخافقين خصوصاً أمر الاعانات » .

وليس للحرمين أو غير الحرمين حرمة فى نظر بعض حكام مكة من العرب فقد سمعنا وقرأنا الوف المرات ما ارتكبه هؤلاء فى الحرمين وما سفكوه من دماء واقترفوه من آثام راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨ وراجع كل صفحة تقريباً من تاريخ الجبرتى .

فالقول بأن أى رجل منهم كان مخدوعاً أو انه كان فى نوبة عصبية، أو انه كان نائماً يحلم ثم أفاق كل هذه أعذار باطلة لا يبيدونها الا جاهل بالمقائيق لا يحق له أن يتكلم، أو شريك فى الجريمة .

## ٢٣

١

ان شعب العراق شعب مسلم شرقي ، وهو قريب الشبه الى المصريين من حيث الأخلاق ولكن فيه علماء وأدباء من أهل المسكنة السامية في العالم الاسلامي

بيد أن حب الرخاء والترف الذي اشتهر به الأغنياء والسادة في عهد الدولة العباسية لا يزال سائداً في بعض البيوت والاسر وربما كانت حياة أهل بغداد التي وصفت في الفصص لم تكن كلها من صنع الخيال ، وبعض مظاهر تلك الحياة ما زالت في العراق ، ولم يكن العهد التركي ليزيل آثارها ، وانما كان ذلك العهد من مسببات قوتها ولكن معظم أهل العراق فيما عدا المدن هم من القبائل العربية ذات العصبية وهذه القبائل لا تزال قوية الشكيمة ذات شجاعة واقدام في الحرب وكثيرون منهم على الفطرة من حيث أخلاق العرب وكرم أخلاقهم ونخوتهم (قتل أحد افراد أسرة السعدون رجلاً بسبب زواج شرعي) (١)

وربما كانت حياتهم العقلية كذلك على الفطرة فان الحكم العثماني لم يعمل شيئاً في سبيل تعليم هذا الشعب الذي كان يبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ، وكانت بلاده ووديانه مقر مدنتين من أعظم مدن العالم وهما المدنية البابلية الاشورية والمدنية الاسلامية. بل تركه الأتراك يسير سيراً حثيثاً في سبيل الخراب ولم يفتحوا به مدارس ولا معاهد للعلم ولم يصلحوا من أموره شيئاً . وكانوا يحتقرون العرب ويحاربون اللغة العربية ويرسلون الى البلاد ولاية من الترك دأبهم اذلال العربي مهما بلغت مكانته وكان في البلاد علماء أعلام

(١) ادعى القاتل أن المرحوم الصانع بك الذي بنى بيت السعدون من قبيلة أفل قبيلة السعدون وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم بأمر ملك العراق

أمثال آل بيت الأوسي يصح أن يتولوا القضاء فلم يعيروهم التفاتاً وأرسلوا اليهم قاضياً تركيا ليقضى بينهم بما يعلم وهو أقل مما يعلم هؤلاء العلماء من أهل البلاد وكان من بينهم رجال يصلحون للاستعمال ، ولكن الترك لم يعينوا منهم والياً . وقد سرى علي العراق ما سرى على جميع أجزاء الدولة العثمانية من الاهمال والتأخر . فكانت البلاد مقضياً عليها حتماً ان تقع في يد الأجنبي (راجع كتاب ولاية بغداد تأليف نجيب شيحة بالفرنسية طبع مصر ١٩٠٨) بيد أن هؤلاء العراقيين حاربوا في سبيل استقلالهم وحررتهم حروبا شهدت لهم بعلو الكعب وسمو الأخلاق وحب الوطن والشجاعة الفاتحة .

ومما يكتب بهداد المسرة ، ان الأتراك أهملوا استثمار البلاد لمصالحهم أنفسهم أو لمصلحة أهلها . فان بلاد العراق من أغنى بلاد العالم وثروتها مزدوجة فمن حيث الزراعة يوجد بها ستون مليون فدان من الأراضي الصالحة للزراعة ، وقد أهملت جميعها ماعدا بضعة آلاف من الأفدنة . ولما جاء الاتحاديون شرعوا في الإصلاح الاقتصادي فكفوا سيدهم ويليهم ويلكوكس ببحث مشروعات الري في العراق . فأقام هناك عاماً وبعض عام وعرض عليهم مشروع اصلاح واسع النطاق يقتضي خمسة عشر مليوناً من الجنيهات ليعيد العراق الى حالته الأولى ولكن خزائن الأتراك كانت شبه خالية ثم انهم لم يرغبوا في تحسين حال العراق ليجعلوا منه مقر دولة اسلامية جديدة ربما تزاخم بئروتها وقوتها ، فانفقوا مليوناً واحداً تمكن ويلكوكس بواسطته من تصليح مليون فدان وقد علمت من بعض العارفين أنه قبض المبلغ قبيل اعلان الحرب الكبرى ، والأراضي الزراعية في غاية القوة لانه قد مضى عليها أكثر من سبعة قرون بغير زرع فتجددت قوتها وأصبحت في حكم البكر حتى ان القمح والشعير قد تعلو سنباهلها على الفرس والفراس وهناك ثروة أخرى منحها الطبيعة للعراق وهي الزيت أو البترول ومنه يخرج البنزين وغاز الاستصباح وغيرهما من العناصر النافعة للصناعة وشهرة آبار الموصل قد طبقت الخافقين وهذه الثروة العظيمة كانت في زمن الترك وكانوا يرونها بأعينهم لأن البترول طافح على الأرض وقد كون بركا وبحيرات فلا يمكن



أن تخفى رؤيته على أحد . وفيه ثروة تقدر بملايين الملايين من الجنيهات مما كان يعود على الدولة العثمانية كلها بخير لاحد له ، ومع ذلك فانهم لم يوجهوا أقل عناية نحو استثمار تلك المنابع الطبيعية العظيمة الى أن جاء الأجنبي بخيله ورجله ووضع يده على تلك الآبار واستغلها وسلمها الى شركة تجارية أجنبية ومدوا الأنايب من بغداد الى حيفا لينقل البترول بسهولة عظيمة من منابعه الى شاطئ البحر فالباخرة النقالة :

وفي العراق معادن أخرى لا تحصى وكلها مصادر ثروة طائلة وقد روي لي ثقة

أن بها مناجم الفحم لم تفتح

هذه بلاد العراق التي باع الجهل ببعض أهلها الى درجة أنهم منشقون على أنفسهم سنيين وشيعة وبعضهم لا يزالون بحالة وحشية يفسكون دماء أنفسهم وقيمون المآتم في سبيل تشيعهم لامر قد مضى واتقضى عليه ألف وأربعمائة عام ولا تزال في تلك المملكة مدن مقدسة هي كربلاء ومدفن الحسين والنجف ومدفن الامام علي والكاظمية ومدفن الحسن . وتجري في تلك المدن أمور تشبه ما كان يجري في الهياكل الوثنية وقد اتصف رجال الشيعة بأخلاق غريبة لا تتفق مع الشرع ولا غيره في شيء وهم يعالونها بأنها « تقية » ينجون بها من كيد السنيين وهو وهم باطل لا حقيقة له وكل هذه تقاليد وثنية دخلت على الاسلام ودسائس سياسية اتخذ الاسلام ستاراً لها تتم دعوة أبي مسلم الخراساني للعباسيين فلما نال العباسيون مأربهم تخلوا عن شيعتهم وقتلواهم .

ولكن القوم تركوا الجوهر وتمسكوا بهذا العرض الذي كان سبباً في هلاكهم لأن

العباسيين لم يستطيعوا إلا أن يبقوا على السنة .

وفي العراق غير المسلمين نحو مائة ألف كلداني يقومون على الصناعات الدقيقة

مثل الصياغة والحياكة والنجارة والنقش في المعادن وما إليها وهم بقايا الكلدانيين الاصليين ولكنهم نصارى ولا يزالون يشبهون في مجموع خلقهم وجوه أجدادهم الأولين وان كان

بين العراقيين أنفسهم كثير ولا يزالون محتفظين بتلك السحنة القديمة

وقد كان هذا دأب الأتراك في جميع أملاكهم العربية ، فانهم لم يحصنوها ولم يعدوا لها جيشاً ولم يعلموا أهاليها ولم يحترموهم وكانهم كانوا تاركها ليعتدى عليها أجنبي فاتح .

وقد شهد الكثيرون من العقلاء الذين زاروا الاستانة احتقار الترك للعرب ، وازدراءهم بهم وعدم عنايتهم بتحسين حالتهم في بلادهم . مما هاج سحق العرب في جميع أنحاء السلطنة وروى لي ثقة من الشبان الذين عاشوا في تركيا وفي المانيا قبيل الحرب العظمى وفي أثنائها أن شبان العرب الذين كانوا في المدارس العليا الألمانية موفدين بعثات على نفقة الحكومة العثمانية كانوا يحسدون المصريين على احتلال الانجليز بلادهم ويتمنون أن يحكم الانجليز بلادهم هم كالعراق وسوريا . والغريب أنه لم يخطر بالهم أن يستقلوا في أوطانهم بل كانت غاية آمالهم أن يحكمهم شعب أوروبي راق مثل انجلترا وسبب ذلك ظلم الأتراك لهم في أوطانهم وتركهم بغير تعليم ولا حضارة . وكانوا يعجبون من حب المصريين للترك وتعلقهم بهم ، ويدهشون لأن المصريين يريدون الاستقلال والخلاص من الحكم الانجليزي ولم ينكر محذني أن الأتراك كلهم لم يكونوا سواء في كره العرب واضطهادهم بل كان منهم رجال يحبون الشعوب الشرقية كلها على السواء مثل أنور فانه كان ينظر الى الجنس دون العصبية كان يحب كل شرقي . وكان الألمان لا يثقون بالاجانب ولم يقبلوا أجنبياً واحداً في جيوشهم . ولكن الشرقيين من غفلتهم يثقون بكل أجنبي

يبد أن الشرقيين الذين يولون الأجنبي ثقتهم ، يكرهون بعضهم بعضاً وهم أبداً

متقاطعون متدابرون

وقد وقفت على حقيقة الحال في المانيا وتركيا أثناء الحرب وما كان للمصريين والشرقيين سواء كانوا سراة أو سواداً من الخمازي والفضائح ما يحرق الا كباد ويلين من هوله الجهاد . فقد كانت بين الشرقيين معارك وحروب في سبيل النفوذ والمال ولم يكن

سلاحها الا الدسائس التي اشتغل بها لفيف من الاذكياء الذين وقفوا فطنتهم ودهاءهم على الحاق الأذى بأوطانهم . وكان بعضهم يتجسس للجانب وينقل اليهم أبناء بني وطنه وبما كس أعمالهم ليعكسها ، وقد اضطهدوا كل مخلص وحرصوا عليه أولى الشأن فكان نصيبه الطرد والنفي حتى مات بعض الزعماء جوعاً ، واضطر بعضهم للاقتراض وسجن البعض في سبيل القوت ، وكان البعض يغتال المال المرسل للطلاب ويشتري لاهله مصوغاً وحلياً ولنفسه كساء من الفرو وما اليه ، ويدخر الأموال ويتقلد المناصب وأصدقائه وأحبابه وأبناء وطنه من المجاهدين يتضورون جوعاً ويشكون ألم الفقر والمسغبة .

وكان بعض هؤلاء الاذكياء المجرمين يستعملون ذكاءهم كما تستعمل المعاول للهدم والتخريب ولم يستعملوه للبناء والتعمير وكان المشاهد لتلك المناظر يدهش لحصولها ويحاول البحث عن أسبابها فلا يهديه العقل الى أكثر من أنها ثمرة الحسد والطمع وميل غريزي الى الخيانة والندر والنيمة وقد تأصلت تلك الرذائل في النفوس فلم يكن من السهل اقتلاعها بل ان هؤلاء الاشخاص لم يكن يحلو لهم عيش بدونها كأنها عنصرهم الذي خلقوا منه وبه يعيشون . وقد كانت نتيجة ذلك ما رأينا من خيبة الجميع الا واحداً تمكن بالخيالة من الوصول الى مكانة عالية ولم يكن بلوغه اياها الا بالدسائس والفتن ثم ظهر خلقه الفطري فهو

## ٢

تعود الانجليز أنهم اذا حكموا بلاداً شرقية، قلبوا عليها صنوف المحاكم من عمالهم الحربيين والملكيين بين قاس ولين ، وفظ وظريف ومتكبر ومتواضع فيصيح أحدهم أغلاط الآخر ويستغفر الخلف للسلف ، والامم المظلومة المغلوبة على أمرها تاعن الجميع .

ولم تكن العراق لتشد عن هذه القاعدة فقد عينوا لها ويلسون الذي عرف بالشدّة وقوة الشكيمة والرياء ، حتى يبطش بها في الفترة الأولى بعد أن يعجم عودها .

ثم رموها بپرسی كو كس وهو داهية البحرين . الذي جاس خلال تلك الأقطار وعرف لغة القوم ولهجاتهم ووقف على تاريخ أمرهم ودسائس الحكومات المختلفة من عجم

وعرب وقد عينته وزارة الخارجية بعد أن أدركت أن الثورة قد ضعفت ودخلت العراق الجريحة الغضوب في دور الاستكانة والاستسلام ، وهي فترة لم يعد يصلح لها ويلسون رجل الشدة والاصطدام وبعبارة أخرى جاء برسى كوكس في الوقت الذي بدأ الانجليز فيه يشتغلون بتأليف الوزارات القومية أي المكونة من رجال من أهل العراق يعملون بأوامر الاحتلال أو قل الانتداب وهو الاسم الأخير الذي وضعوه للاستعمار وبعد ان كان ويلسون يدعو شيخ الشريعة للمفاوضة وهي إحدى طرق التسوية في الثورات التي تعد نوعاً من الحرب طلب كوكس من مشايخ العشائر أن يبلغوا ما في اذهانهم من سوء التفاهم الى أقرب حاكم سياسي في ناحيتهم .

وشتان بين الحالتين ولذا يري بعض المؤرخين لقضية العراق أن الثوار وعلى رأسهم شيخ الشريعة قد فرطوا في الفرصة التي منحهم اياها ويلسون والحقيقة ان شيخ الشريعة لم يفرط في شيء لأن ويلسون لم يكن أشد اخلاصاً من كوكس ، غير أن شيخ الشريعة أحسن في التمسك بموقف الكرامة والشمم .

وعلى كل فن الثورة كانت قد قطعت شوطها فسلم معظم زعماء العرب بعد هذا المنشور الذي نشره كوكس في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ . ومن بقي من الثوار استعملت معه بريطانيا سياسة الطيارات . ومن كان يسلم تلمزه بتقديم السلاح والذخيرة ولا غرابة فان انجلترا فقدت أوفياً مؤلفة من ضباطها وجنودها الانجليز والهنود بين قتلى وجرحى واسرى ومفقودين . وكان العرب يعاملون الاسرى والجرحى بغاية الشفقة والحنان .

كان الملك فيصل قد خرج من سوريا بعد موقعة ميلسون أو أثناءها طاعة لأمر الحلفاء وهو مبعوض من الفرنسيين ومحبوب من الانجليز أو على الأقل الانجليز يفضون عنه الطرف ويتمنون بقاءه في سوريا وان كانوا في الظاهر قد اشتركوا مع فرنسا في التصريح باعتبار قرارات مؤتمر دمشق باطالة ولكن السياسة الانجليزية كعادتها تعمل بوجهين فكانت وزارة الخوجية تمالي فرنسا في عدم الاعتراف بصحة اختيار فيصل ملكاً على سوريا وبعض

كبار السياسة البيطانيين يعززون الى نوري السعيد باشا الذي أوفده فيصل ليحس نبض السياسة الاوربية ان انجلترا تعطف على حكومة دمشق وتنوي أن تمد لها يد المساعدة وليس على هذا القول غبار بعد أن عرقت انجلترا بعض الأمراء وعجبت عوده وعرفته هادئاً وديعاً مطيعاً بان تلك الثورة التي كان بطلها لورنس وكان مثل هذا الامير بلاريب يكون سداً منيعاً بمملكته بين انجلترا وبين مطامع فرنسا في الشرق

فلما برح فيصل دمشق على ما فصلناه في بضعة أماكن من هذا الكتاب كان معه لغيف من حاشيته من أهل العراق وأهل سوريا وبعضهم لا يزال معه حتى الآن (١٩٣١) ولكنهم في تلك الساعة كانوا الباشوات جعفر العسكري ونوري السعيد وعبد الرحمن شهبندر وساطع المصري وهو الذي ذكرنا خبر سفره الى الاستانة بخصوص مسألة الحلف العربي في ربيع سنة ١٩٣١ . وسافر فيصل الى ايطاليا وسويسرا ولندن وتفاوض مع حكومتها في أمر توليه عرش العراق مادامت مغامرة دمشق لم تفلح ، ولا بد أن لورنس وأنصار لورنس لا سيما شيرشيل الذي كان يعول على لورنس كل التعويل وجورج لويد وهو صديق الاثنين قد بذلوا قصارى جهدهم في ابلاغ فيصل غاية ما يتمنى بعد اساءة كمنصو اليه ، فان هذا الرجل رفض مقابلة فيصل واعتبره عدواً وخارجاً على حكومة الجمهورية .

ولكن هذه « اثلة » أو السكايك من الانجليز الشبان الاستعماريين يعتبرون فيصلاً رجلهم الذي ساعدهم في ثورة العرب فلا يجوز أن يتخلوا عنه ، وهم يعلمون أن انجلترا قد تقضت عهدها لأبيه المنفذ الاعظم ، وضربت ان في رأس تشجانها ، فيكفي تقض العهود وضياع حلم دولة العرب المستقلة من حدود البحرين الى المحيط الاطمنطى وقد أسفر هذا الحلم عن كونه سراًياً .

## ٣

وكانت الاسرة الشريفة قد اقتسمت ممالك العالم العربي . وكان الامير عبد الله يتمنى عرش العباسيين ويطمع أن يجلس في موضع الرشيد والمأمون وقد قويت الفكرة في رأسه بعد أن قنع فيصل بالشام . ولكن بعد زوال ملك الشام من يد الاسرة تغير المركز نوعاً ما فهل يليق تزاحم الاخيرين على عرش العراق ؟

ولا سيما أن الملك حسين يحب الأمير عبد الله ويفضله ويثق به ويكثر من استشارته ، ولهذا كان من واجبات النوري السعيد باشا أن يكتب من مصر الى حسين صاحب القبلة والنهضة بما جرى في لندن وأن يطلب موافقته وموافقة الأمير عبد الله علي قبول فيصل عرش العراق . لأن فيصلاً وهو يعلم حلم أخيه ومكانة أخيه عند أبيهما صرح بأنه ليس في إمكانه أن يتقلد تاج المملكة العراقية ما لم يقترن ذلك بموافقة أبيه وأخيه .

ولما اطمأن نوري باشا من هذه الجهة أو كاد سافر الى بغداد ليقوم بدعاية واسعة النطاق لمصلحة الأمير أو الملك فيصل الذي صار في نظر القوم موالياً للحلفاء بحيث يولونه أو يتولى من قبلهم الامارة أو الملك الذي يرغبون ( جادى الاولى سنة ١٣٣٩ )

وفي تلك المدة عقد في لندن مؤتمر اسمه مؤتمر شرق الأردن أرسل اليه فيصل احتجاجاً باسم أبيه وأسرته وطلب فيه من الحلفاء أن يبروا بوعودهم وذكرهم بأن أباه خاض الحرب تنفيذاً للوعود والعهود ولكن حلول عصر السلام خيب آمال العرب تخديباً لم ينق مثله سواهم من الحلفاء وان العرب لم ينالوا الاستقلال بل « أضاعوا ما كان لهم من الوحدة النسبية لما كانوا تابعين للاستانة وليس بين الاعتبارات الصحيحة ما يسوغ التفريق بين الولايات

العربية » . . . وقد أصاب فيصل حفظه الله كبد الحقيقة ودل على سمو الادراك

والمذكرة التي اقتطفنا منها هذه النبذة كتبت في الظاهر باسم العرب والوحدة العربية ووعود الحلفاء لهم ، ولكن حقيقتها ترمي الى ترويح الدعوة عند الحلفاء لمصلحة الحكم

والمبادرة بتعيين ملك على العراق فهو أقل مما يمكن أن يرضي به العرب بعد أن خابت آمالهم وأقل من زرع وفاء ويقبل . وقد نالت المذكورة بغيثها وكانت ذات أثر بليغ في سير المداولات في القضية العراقية بصفة خاصة وهذه المذكورة تعد في نظرنا عملاً سياسياً . وفقاً لمصلحة الملك فيصل وثله كمثل من يقول « أنت وعدتني بألف دينار وقصر وحديقة وكذا من الجياد وأن ترد لي أملاكى المغتصبة وكذا وكذا والآآن وقد نكثت بوعدك وحنثت في يمينك فلا أقل من أن تعطيني القصر أو الحديقة » هذا كلام ووجهه ولا يمكن لمغتصب مهما كان سيئ النية قاسي القلب أن يمهله لأجل هذا عقد مؤتمر خطير في القاهرة في اذار سنة ١٩٢١ ونحن نذكر أن شرشيل عندما وصل مصر أنزلوه في محطة شبرا وأدخلوه القاهرة خفية خوفاً عليه من الانزعاج بالمظاهرات وكان شرشيل وزيراً للمستعمرات في تلك السنة وكان مستشاره المقرب اليه لورنس صديق فيصل الحميم الذي صاحبه في ثورة العرب وهو يعرفه معرفة جيدة ويحبه منذ التقياً في سنة ١٩١٦ على ما وصفناه في مكان آخر من هذا الكتاب وقد استدعي سير برسي كوكس وجعفر باشا العسكري وياسون افندي أحد وزراء العراق اليهود وميس جرتروود بيل افعي العراق العانس وجنرال اتكنسون وآخرين ، وعقد هذا المؤتمر في فندق سميراميس وطرحت فيه مسألة العراق على بساط البحث وهو المؤتمر الذي ذكره دكتور شهبندر في إحدى مقالاته على لورنس في مجلة المقتطف وقال ان لورنس خدعه وأظهر له في أثناءه غير ما يبطن . وقد تم في هذا المؤتمر مشروع عريك فيصل على العراق واعلان العفو الشامل ونفي السيد طالب النقيب لأنه كان يطالب بالعرش أو يدعى أنه أحق من في العراق بالسيادة . وكان الانجليز والعرب يخشون دسائسه ولكن هذا العفو الشامل لم يكن يشمل أمثال الشيخ ضاري الذي أمر ولده خميس وأتباعه بقتل الكولونيل ليتشمان .

وكان طالب النقيب قد أفسد على نفسه باتصاله بسير ويلسون اتصالاً أظهر اتفاقه مع الانجليز على وطنه وقد نفي النقيب من العراق الى الهند واوروبا . أما الشيخ ضاري الذي استثنى من العفو العام هو وولده خميس وسليمان وسرب واسلوبى ولدا مجباس ودهان بن

فرحان وكلهم من عشيرة الزوبع وتهمتهم قتل ليتشمان أو التجريض على قتله ، فلم يقع منهم في قبضة الحكومة سوى الشيخ ضاري فقد فر من العراق وجعلت الحكومة مكافأة كبيرة لمن يقبض عليه فتعقبه ارمني صاحب سيارة وصار يتقرب اليه ويدعى الاخلاص له وينقله من مكان الي مكان الى أن ركب معه يوماً فساق به الى بغداد وسلمه وقبض المكافأة ، وبذلك أضاف صفحة جديدة لسجل أعمال بني جلده الارمن الذين جبات نفوسهم على الغدر والخيانة وامتزجت دماؤهم باللؤم والدناءة وكرهية الاسلام والعرب والترك . وعاقبهم الله على ذلك بتبديد دولتهم ونشئت ملكهم وصاروا كاليهودي التائه في أنحاء العالم يرجون من أقيح الأعمال وأدنسها وأحطها ويزحون في أعماق السجون لاقترافيهم أنواع الجرائم التي نزه القلم عنها وكان الدور الذي مثله في تركيا ومصر وسوريا ولبنان وبلاد القرس يدل على صدق فراسة السلطان عبد الحميد في طباعهم

وقد وصل الشيخ ضاري الى بغداد وهو في مرض الموت ولكن الأطباء الانجليز الشرعيين أصحاب الذمم الطاهرة قرروا قدرته على احتمال المحاكمة وفعلا حاكموه وحكموا عليه بالاعدام . وكان يوم تشييع جنازته يوماً خطيراً في بغداد .

وجاءت الصحف بوصف المظاهرات التي لازمت المشهد والأناشيد التي كانت تنشد واسمها « هوسه » وفيها بعض عبارات الوعيد للندن ، وهو وعيد لا يتلوه لحسن الحظ تنفيذاً فإين بغداد من لندن ؟!

ومما يلاحظ في هذه المسألة أن الانجليز تعودوا أن يتساهلوا في اسداء العفو الشامل عقيب الثورات في البلاد المحتلة أو المعتصبة ولكنهم لا يتساهلون في توقيع القصاص على من قتلوا فعلاً ضباطاً أو موظفين انجليز مهما كلفهم ذلك من استمرار الخصومة أو الاشتهار بالقسوة . وقد شاهدنا ذلك في حوادث ديروط في مصر سنة ١٩١٩ وفي العراق بشأن الشيخ ضاري الذي حرض على قتل ليتشمان وفي قضية جميل وحيد دبونى المتهمين بقتل بارلو وستيوارد في قل عفر وقاسم المهدي وبسبوس بن محابوس وغيرهم وكلهم متهمون بقتل ضباط



انجليز وثبتت عليهم التهمة . أما الأفراد الذين كانت لهم علاقة بتهم سياسية أخرى وكانوا معتقلين أو منفين فإن الانجليز شملوهم بعفو عام .

وحدث كذلك في الهند في سنة ١٩٣١ فان الصلح الذي تم بين لورد اروين وبين غاندي كاد تنفصم عروته لتنفيذ الانجليز عقوبة الاعدام في بهجت سنغ وآخر لثبوت تهمة قتل بعض ضباط الانجليز عليهما ولم يكن أحد في العالم يعرف مقدار بهجت سنغ في الهند حتى نفذ الحكم فيه فدوت التاخرافات بذكره وبوصف الهياج الذي حدث في الهند عقيب ذلك ونصوص الخطب العنيفة التي أقيمت ضد اروين وغاندي . وأندرا أحد الزعماء بأن جو التفاهم قد تعكر بين الهنود والانجليز الى الأبد وان تعود المياه الى مجاريها . وأقيمت مآتم وحفلات دينية وقومية في سائر أنحاء الهند تكريماً لذكري بهجت سنغ ولكن الزوبعة مرت في النهاية .

وهذه المسألة تدل على أن الانجليز بقدرون حياتهم حق قدرها ويجعلون لشخص البريطاني شأنًا فوق كل شأن . وعندهم أن من اعتدى على انجليزى من الشعوب المحكومة لا بد أن يعاقب بما يستحقه .

## ٤

نرجع الى ما كنا بصدده بخصوص العراق فنقول في الوقت الذي نفى فيه طالب النقيب من العراق عاد الأمير فيصل من إنجلترا ومر بمصر فأقام في القاهرة أياماً ثم سافر الى الحجاز وكان وجوده في مصر جزءاً من الخطة المرسومة فيها أذيع أولاً تفكير « العراق » في ترشيح الأمير لعرش بغداد وكان الأمير اذا سئل في ذلك ارتسمت على فمه ابتسامة ذات معنى ، وأجاب أن بلوغه ذلك العرش يرجع الى ارادة الله ومشئئة الشعب العراقي ، وان كلمة بريطانيا العظمى تقيدها . وكل هذا صحيح وكأنه كلام حكيم ماهر ينبيء بالمستقبل القريب وكانت الخطوة الثانية انتقاله الى الحجاز فوصل الى وطنه وركب المهجين من جدة الى مكة ليخدم بين يدي والده واجب الاحترام والطاعة البنوية فنسى الولد غضب والده واستيقظت في صدر

صاحب الجلالة الهاشمية عواطف الرحمة والحنان وأخذ بعض الاصدقاء والساسة العراقيين يطلبون بالبرق من الحسين أن يختار أحد أولاده لعرش العراق ومن هؤلاء محمد مهدي صدر الدين وناجي السويدي والباچه چي وزين الدين . ومما هو جدير بالذكر أن كلا من جمعية العهد والحرس انضمت في هذا الطلب وقد وقع اختيار الحسين على نجله فيصل مع أن روح عبد الله كان معلقاً بالعراق ، وذلك في عهد الأحلام العذبة ، أحلام الدولة العربية العظمي واقتسام تراث الدولة العثمانية بين الملك حسين وأولاده الأربعة .

فغادر فيصل الميجاز محفوظاً بوفد من أهل العراق كأنه عرس يزف الى عروس فيؤنسه في طريقه ليف من الأهل والخلان فاخترت شيرشيل ذلك الوقت المناسب والتي خطاباً ذا شأن في البرلمان عن العراق ومستقبله وهذا الخطاب خليط من الأسف على التفريط في الاستبداد بالعراق وحكمه حكماً مطلقاً بواسطة حاكم عام ، وتبرير لهذا التفريط بما سبق وقطعته إنجلترا للعرب من العهود والوعود وفي الفقرة الأولى ترى روح شيرشيل الاستعمارية ثم روح لورنس وتأثيره واعترافه باضطرار إنجلترا حيال ثورة ١٩٢٠ الى تنصيب حاكم عربي على البلاد ، وأراد أن يطمئن قلوب الذين يظنون فيصلاً كغيره من أمراء الشرق وحكامه الاترك فقال « من المحال السماح بعودة العراق أو أي قطر من الأقطار المحررة الي سلطان الحكم السابق » .

وأراد شيرشيل أن يرد علي بعض ساسة العراق الذين كانوا يدعون الى الحكم الجمهوري في العراق مثل المرحوم توفيق بك خال ناجي الأصيل ، الذي لقي حتفه بصورة غامضة ولم يكشف القناع عن قاتله حتي هذه الساعة وان كان بعضهم يهمس باسمه أحياناً في أذن من يأتئنه ، فقد كان توفيق بك المذكور يدعو الى الحكم الجمهوري ويدعي بأن الملك فيصل وأعضاء البيت الشريفي غرباء عن العراق ولا حق لهم في الجلوس على عرش بغداد وكان المرحوم من أهل الذكاء والفضة وكاد يصل الى تحقيق غايته لولا اغتياله الذي مازال كما قلت سراً غامضاً ، الا عند القلة من الواقفين على دخائل الأمور . ولما كانت هذه الدعوة قد

بلغت مسامع الانجليز وكادوا يتأثرون بها فقد ذكرها تشرشيل في خطابه السابق ذكره حيث قال :

« وليعلم كل واحد جلياً أن درجة رقى العراق تجعله غير صالح لانشاء جمهورية كما أن حكومة جلالة لا يمكن أن تتساهل فتقبل حاكماً تركياً »

ومن الغريب أنك ترى في خطبة تشرشيل بغير مجهر ، جرائم الحلف العربي الذي ظهرت الدعوة اليه في سنة ١٩٣١ قبل ذلك بعشر سنين فقد قال .

« ان اتباع سياسة شريفية في العراق وفي عبر الاردن يؤثر حتماً في علاقتنا بامراء العرب الآخرين . وكل مساعدة ودية نسديها لبعضهم تحتم عليهم مسالة جيرانهم .

« ونذكر في هذا الصدد أن جلالة الملك حسين قد افصح مؤخراً عن رغبته في فتح باب المفاوضات مع ابن سعود فنرجو أنهما يتوصلان بذلك الى اتفاق دائم بينهما ولا مشاحة أننا نرغب في توطيد عرى الصداقة مع كلا الزعيمين » .

والغريب أن المستر تشرشيل لم يصف الأمير فيصل بصفة الملك ، بل كان من أول الخطاب الى آخره يعبر عنه بالحاكم ( جريدة العراق عدد ١٢ شوال ١٣٣٩ )

ودخل فيصل بعد عيد الفطر من سنة ١٣٣٩ بعشرين يوماً فاستقبلته استقبال الفاتحين وألقى الزهاوى ، شاعر السير برسي كوكس وغيره من الحكماء قصيدة بليغة مطلعها  
عج العراق مرحباً بك أيها الملك الجليل

وعلى الرغم من قول تشرشيل « وليس في النية إكراه الشعب على قبول حاكم مخصوص . وستطلق الحرية التامة في البحث والافصاح عن الرأي في أمر انتخاب الحاكم »  
وتعقيب سير برسي كوكس عليه بقوله :

« ان حكومة جلالة الملك ترغب في أن تبين بوضوح كما سبق وتبين تكراراً بأن ليس لها قصد أو رغبة ما في إكراه الشعب على قبول حاكم معين بل الامر بالعكس فلها ترغيب في

وجود الحرية التامة في الاختيار وابداء الرأي ! !

وكان الرأي في العراق منقسماً فبعضهم يرغب في الجمهورية وبعضهم يرغب في حكم العراق بواسطة إنجلترا مباشرة وتطرف بعض أصحاب هذا الرأي فاقترح تعيين كوكس ملكاً عليهم .

وقال بعضهم بتعيين حاكم تركي تحت اشراف إنجلترا .

وكان السيد النقيب يري نفسه أجدر الناس بتولى الحكم

أما عن الرأي الجمهوري فقد رأينا صاحبه يقتل اغتيالاً والوزير الإنجليزي يصرح بأن العراق لا تصلح لهذا النظام

وعن حكم إنجلترا المباشر قال تشريل

« نعم بحركة حديثة العهد ترمي الى طلب الاستمرار على الحكم البريطاني مباشرة . وجل هذا التغيير في موقف الشعب دليل ناصع على ثقته بالسيريرسي كوكس ولكن لا أمل لنا أن تتمكن من الاستمرار على حمل التبعة مباشرة »

أما السيد النقيب فقد أفسد على نفسه فقد حاول نشر الدعوة لنفسه في العراق ثم أدب وأدب لبعض رجال الصحافة من الإنجليز وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين و رؤساء العشار وبعد أن دارت الكؤوس وقف خطيباً فقال مامعناه :

« ان في دار الانتداب من لانجهم ، لانهم يتدخلون في شؤون الامة التي لها الحق ولها وحدها أن تؤمر أو تملك عليها من تشاء وقد صرحت حكومة الانتداب بأنها ستحترم ارادة الشعب العراقي ونحن نحترمها اذا فعلت ... أما اذا أخلفت فها هنا عليها .. ونظر اذ ذاك الى رؤساء العشار ... عشرون ألف بندقية » .

وبعد الأدبة ، دعت اللادي كوكس طالب النقيب للشاي وعند خروجه اركبوه سيارة سابتت الريح حتى خرجت به عن حدود العراق وبات النقيب منفياً .

ولما كان تعيين أمير تركي غير ممكن لخالفته لتقاليد بريطانيا فأصبحت الامة العراقية المطلقة الحرية نظرياً في اختيار من نشاء من الحكام مقيدة بانتخاب الامير فيصل بعد أن سدت في وجهها أبواب من عداه لاسيما وان تشرشيل وكوكس بعد أن وعدا خفية بأنه اذا تم انتخاب فيصل تعتقد حكومة جلالة الملك أن الشعب العراقي يكون قد وصل بذلك الى حل ينطوى على أكبر الآمال في مستقبل سعيد لهذه البلاد . وهذا ما نتمناه للعراق وجلالته

٥

وكان تتويجه في ٢٣ اغسطس ١٩٢١ وبلغت نسبة منتخبيه على حسب ما قاله سير كوكس ٩٦ في المائة من السكان .

وخطب الملك خطاباً بليغاً واطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة وسار موكب الملك الجديد الى بلاطه وأرسل اليه الملك جورج برقية بالتهنئة وللمرة الأولى ورد ذكر الغز التاريخي الذي لا يزال معقداً من سنة ١٩٢١ الى ١٩٣١ ولا يعلم الا الله متى يحل الأ وهو المعاهدة :

« واني لو اتفق بأن المعاهدة التي ستعقد بيننا قريباً ستمكنني من توثيق عرى المحالفة التي ارتبطنا بها أيام الحرب المظلمة ، من القيام بتعهدي المقدس بافتتاح عهد سلام وإقبال مجيد للعراق »

وأجاب الملك فيصل على هذه البرقية بثلاثها وجاء في برقيته هو أيضاً، ولا شك أن البرقيتين كانتا معلومتين لدى وزارة الخارجية الانجليزية

« لا أشك بأن المعاهدة التي ستعقد قريباً بيننا ستؤكد صلات التحالف التي شيدتها في ميادين الحرب الضروس دماء الانجليز والعرب وستكون مؤسسة على دعائم لا تتزلزل والشعب في حماسه والامة في ابتهاجها والصحف في اندفاعها والملك فيصل في فرحه ببلوغ أمنيته بعد سفره من سور يا فلم يدرك أحد أهمية هاتين البرقيتين ولعلمهم أدركوا ولم يكثرنوا . وظنوا

أن الانتداب قد زال والاستقلال التام قد أعلن . ولكن وزارة الخارجية في لندن لم تكن هائلة الاعصاب عند تبادل الرسائل ولم تخطئ في تقديرها لدي اختيار زمان الارسال ومكانه . لقد ارتبط الملكان والحكومتان . والملك فيصل يعلم مكانة إنجلترا وقوتها وبعد مراميها وهو يعلم بأمر من وبرضا من حلت مسألة عرش العراق

ولا يزال لغز المعاهدة معقداً لا يرجح له حل

ففي السنة الأولى من الحكم الفيصلي بدأت المفاوضات لعقد المعاهدة وأرسلت إنجلترا الميجور يونج فحضر الى بغداد وفي أثناء المفاوضات التي هدت مرات عدة بالانقطاع هجم بعض رعايا ابن سعود من « الاخوان » . على بعض عشائر العراق في أبو الغار وقتلت ونهبت كثيراً وانتهت هذه الحادثة باستقالة خمسة من وزراء العراق وتمكن سير كوكس من تنفيذ خطته وحل مسألة الحدود وفقاً لسياسته بمؤتمر المحمرة ثم أخذت العراق تفكر في تأليف حزب سياسي وطلبت ذلك من الحكومة فطالبتها ثم سمحت لها بتأسيس الحزب الوطني العراقي وغايته المحافظة على استقلال العراق ثم تأسس حزب النهضة والحزب الحر . وتقدم الحزب الوطني الى الملك بمطالب ثلاثة أولها الكف عن التدخل الانجليزي في ادارة الحكومة وتأليف وزارة حرة وتأجيل المفاوضات والمعاهدة الى ما بعد تأليف المجلس التأسيسي .

وأوفد جلالة فيصل الاستاذ فهمي المدرس كبير أمنائه يشرف على سماع الخطبة الوطنية . وكان الجمع حافلاً والزحام شديداً والتي الشيخ مهدي البصير خطبة الحزب الوطني وفيها المطالبة بتعيين وزارة حرة وعقد المجلس التأسيسي والوفاء للعراق بعهود الملك فيصل وكلام إنجلترا . . وفي أثناء الزحام والخطاب جاء سير كوكس للتهنئة فتعذر عليه المرور وسط الزحام ، ولذعه أحد العوام بكلمة جارحة اعتبرها المندوب السامي صادرة من الاجتماع كله وموجهة الى حكومته في ذلك اليوم السعيد وهو ذكرى عيد التتويج وطلب اقالة الاستاذ فهمي المدرس لشبهة انه مسؤول عن هذا الهياج .

وذهب ذلك الرجل الفاضل ضحية هذا الحادث مع انه لم يفعل أكثر من طاعة أمر

مولاه بحضور الاجتماع وسماع الخطاب ولم تكن له يد في الاجتماع ولا في الكلمة المؤهلة التي  
جرحت عواطف سيريرسى كوكس .

وعقيب ذلك مرض الملك فيصل بلزائدة الدودية واعتكف وتولى سيرير كوكس  
حكم العراق بالارهاب فنفى وطرد من شاء من الزعماء وصادر الاحزاب السياسية وشاع أن  
عرش العراق قد بات خالياً بعد العملية الجراحية وتلا ذلك تعطيل بعض الصحف الحرة  
والنصب على أصحابها ونفي بعض الخطباء والرجال العموميين الى جزيرة هنجام القاحلة في الخليج  
الفارسي ثم افرج عنهم بعد بضعة أشهر وبعد أن وقعوا على قسم باتباع سياسة الملك فيصل  
ماعد الشيخ مهدي البصير الذي تردد وكان آخر من وقع وقد وصف توقيعه بأنه «لطخ صورة  
العهد بامضائه وهاجر هنجام»

## ٦

وهذه الحادثة السياسية التي انتهت بفشل القائمين بها تبين سياسة الانجليز في  
الشرق الاسلامي وغير الاسلامي أفضل بيان . فانه بعد اثورة المساحة التي تركوها تأخذ  
شوطها ، حتى فنيت قوتها وشالت كفتها حيال ازدياد قوة الانجليز ورجحان كفتهم - حولوا  
الحاكم العام الذي عاصر الثورة وأتوا بما لم آخر هو السير كوكس وهو رجل قضى خمساً  
وأربعين عاماً من عمره في الخليج الفارسي وجزيرة العرب والبصرة وبعض ناحيات العراق  
ويفهم العربية ويعرف معقولية البلاد وأهلها وله اتصال بالاعيان والاذكياء والزعماء ورؤساء  
العشائر وهذا الرجل يكاد يكون ملك العراق قد عرض عليه فأبى ، ولكنه نصح للانجليز أن  
يجعلوا عليه ملكاً عربياً ، وهو يظهر اللين تارة والشدة طوراً ، وقد وعد أهل العراق باسم  
حكومته بالحرية والاستقلال ، والمجلس التأسيسي والبرلمان والشعب العراقي يصدق ، ويؤمن  
حتى ظنوا أن الانتداب قد زال ، وان الاستقلال قد حل ولكن الوعود لم تنجز فالفوا  
الاحزاب وكتبوا في الصحف وعقدوا الاجتماعات - صمامة الامان - فلما زاد الغليان أظهر  
سيرير كوكس يده القائمة واختفى الملك بفعل الزائدة الدودية ، واستقالت الوزارة وأعلن كوكس

انه انقرد للأسف بحكم العراق . لو غيرنا الاسماء والتواريخ لانطبقت هذه الخطة بعينها على أى بلد وأى قطر من أقطار الشرق . فانه بعد الثورة المسلحة تتطلع الامة للعمل السياسى فتؤلف الاحزاب وتنشئ الصحف وتكتب المقالات وتدفع الاحتجاجات فتند انجلترا يدها يهدوء وهي جالسة على « شيزلونج » وتغلق باب الاحزاب وتعطل الصحف وتلتقط بعض الرجال لتسجنهم أو تنفيهم ولا تعيدهم الا بعد أخذ العهود والوعود بان لا يعودوا الى ما كانوا عليه من المطالبة بالوفاء . . . ويستريح دماغ انجلترا بعد ذلك بضع سنين ، فاذا عادت الحركة من جديد عادت ومدت يدها ، وهكذا .

وفي تلك الفترة أى بعد هدوء عاصفة الاحزاب قام احمد باشا الصانع وعبد اللطيف باشا المنديل وناجى بك السويدي بطلب انفصال ولاية البصرة عن ولايتى الموصل وبغداد والهاق البصرة بالهند وقدموا بذلك مذكرة للسير كوكس .

والانجليز ينظرون من زمن طويل الى البصرة بعين الشراهة والاعتصاب لأنها رأس الخليج الفارسي ورأس العراق وقد فصلنا أهمية الخليج الفارسي في نظر السياسة الانجليزية ولهم فيها تاريخ حافل بالدسائس ولم يستميلوا جانب خزعل ومبارك الصباح الا لأجل الاستيلاء على البصرة . وكانت الفكرة تجول في صدر تشرشل فشار اليها في خطبة البرلمان التى جعلها مفتاحا لسياسة انجلترا في العراق قبيل تتويج فيصل بأيم حيث قال « وكذلك قد طلب البعض فصل البصرة عن العراق ووضعها تحت ادارة بريطانيا تامة ولا نرى ان هذا الامر أيضاً ممكن لأنه يخالف مصلحة الحكومة الوطنية اجالا »

وكانت هذه الحركة الانفصالية بلا ريب حركة تهديدية أوعزت بها دار الانتداب لتخويف أحرار العراق ، كما ان هجوم الوهابيين كان المقصود به ارهاب القبائل العراقية من الاخوان ، ولكن هذين الحادثين لم يفتا في عضد العراقيين المطالبين بالاستقلال والغاء الانتداب .

وقد أمضيت المعاهدة في ١٠ تشرين ١٩٣٢ والمعاهدة يمكن تلخيصها في كلمتين وهما



«ان انجلترا تمد حكومة العراق بالمال والسلاح والمساعدة الفنية والنصيحة الحسنة في الادارة .  
وفي مقابل ذلك تقبل العراق نصيحة انجلترا وتطيع أوامرها» وبعبارة أخرى تستقل العراق  
عن كل دولة في العالم ماعدا انجلترا ، وهذه بعبارة كانت سياسة الاحتلال في مصر .

والذان وقعا على المعاهدة هما سيرزكريا كوكس المتمد السامي وسير عبد الرحمن  
النجيب رئيس وزراء العراق وهي في ثمانية عشر بنداً

وصدر الامر بالانتخابات ووضع قانون مجلس التأسيس الذي تألف من مائة نائب  
ودعت الحكومة أهالي العراق لتقيد أسمائهم في دفاتر الانتخاب فقام علماء النجف والكاظمية  
وفتوا بمقاطعة الانتخابات وعلتوا دخول الانتخابات على شروط منها الغاء الحكم العرفي  
واطلاق حرية الاجتماع والنشر وعقد الجمعيات السياسية . فلما تدعرت الحكومة لهذه الشروط  
وكذلك لم تقبل الامة على الانتخاب . وضاعت الحكومة ذرعا بالحال فاستقالت وزارة النقيب  
وتألفت وزارة عبد المحسن السعدون فنشر هذا الوزير منهاج وزارته وهو منهاج حر . ولكن  
قول الوزارة كان أكثر من فعالها فاستمرت حركة المقاطعة لاسيما وان الحكومة لم تسحب  
المستشارين الثمانيين من الالوية ولم تستدعهم الى بغداد فسنت الحكومة نظام التفتيش الاداري  
ولكن هذا لم يغير شيئاً من نظام الادارة في الالوية

ثم حدد زمن المعاهدة بدلا من عشرين سنة كمنص البند ١٨ ، بدخول العراق  
في عصبة الامم ( ٣ ايار سنة ١٩٢٣ ) أو على أثر انتهاء أربع سنين تبدأ من تاريخ ابرام  
الصلح مع تركيا وأخذت الحكومة تستعطف رؤساء المشائري في دخول الانتخاب فأبوا  
فنفقت بعضهم

وفي ربيع سنة ١٩٢٤ أيقنت الحكومة الانجليزية ان سيرزكريا قد أتى غاية جهده  
وانه وان لم يوفق في نهاية الامر الى ما كان يظن انه ناجح فيه فقد كفاه فخراً انه ألف حكومة  
مؤقتة ونصب امهد على العراق ملك ، وعقد المعاهدة بين الحكومتين . .

وحل محله دويس وهو أضيّق من ناب عن الانجليز في العراق عطنا ، وقد ضايق كل من احتك به من الملك فنازلا .

أما أهل العراق فقد اكرموا زكريا كوكس عند سفره كعادتهم وأهدوا اليه تمثالاً لمئارة السيدة زبيدة من الذهب الخالص ونخلة من الفضة عليها تسعة عذوق من الذهب اشارة الى السنوات التسع التي عالج أثناءها شؤون العراق

أما دويس فقد خدم هو أيضاً في الهند من سنة ١٨٩٦ وتقل بين ميسور ويران وسيدستان وبلوخستان وهيرات

## V

وفي عهد دويس انشقت الاحزاب على بعضها ودخل بعضها في الانتخاب وتنحى البعض الآخر ومن قاطعوه الحزب الحر العراقي ، وفي تلك الفترة ، وبيننا تذييع وزارة السعدون عزمها على تعيين موعد لانتخاب النواب فاجأتها أزمة قضت بسقوطها ولعلها أسباب مالية ، وحل جعفر العسكري محل السعدون ونشر جعفر باشا برنامجها ولكنه تقليدي ، ويصعب تنفيذه ولم توفق الوزارة الى تنفيذ أكثر من أربعة شروط أهمها تنفيذ المعاهدة الانجليزية العراقية فيما يختص بالموظفين الانجليز بالعراق وانتخاب أعضاء مجلس التأسيس والاتفاقية العسكرية والاتفاقية العدلية المتعلقة بحقوق رعايا الدول الأجنبية

## ٢٢

١

خفق العلم العثماني على بلاد العراق من أواسط القرن الحادي عشر الهجري ( حوالى ١٠٥٠ هـ ) منذ استردها السلطان مراد الرابع من دولة العجم ومازال خافقاً من أعلى الوصل شمالاً الى الخليج الفارسى جنوباً ثلاثة قرون حتى أنزلته يد الحلفاء المحاربين للدولة والجنود المرتزقة الذين أعانوهم من عرب الجزيرة وغيرهم .

وفي خلال تلك الاعوام الثلثانة حكم الأتراك بلاد العراق تارة حكماً عسكرياً وطوراً حكماً مدنياً وكان من حسن حظ البلاد ان استعمل عليها مدحت باشا ، ولولا اصلاح هذا الرجل ما كان في البلاد شىء يذكر فقد أنبت جاعة من المنورين في بغداد الذين يعدون خيرة الاصلاح والحياة القومية .

لقد شقي العراق من عهد العباسيين الاخير ، ومضى عليه أكثر من سبعة قرون في انحطاط وخراب ولم يستطع الأتراك في اثلاثة قرون الاخيرة أن يعيدوا اليه مجده أوحياته لاسباب يطول شرحها ولكنه بلا ريب أكثر بلاد الاسلام تماسكا واخلاق أهله أقل اخلاق أهل الشرق الاسلامى تدهوراً . فيه ضعف وملاينة وتساهل في الحقوق ولكن ليس فيه جبن ونفاق وخيانة على الصورة الخزية التي نراها في بلاد الشرق الاخرى ، وذلك لأن عصبية العرب وحياة القبائل وتضامن الطبقات لانزال مصدرراً لقوته امام الاجنبي . نعم فيه انشقاق الشيعة والسنة ، وفيه مبدأ « التقية » المذموم ، ولكن الشيعيين أظهروا أنفسهم على أكبر نصيب من الشجاعة وحب الوطن والاخلاص له وقد انضموا الى أهل السنة في النزاع القومى وقاموا بنصيب وافر من الكفاح الوطنى . وكانوا أشبه الناس في نهضة العراق بالدرروز في ثورة سوريا من حيث الثبات والتمسك بالمبادئ ، وكان منهم زعماء يكادون يقودون الحركة بأسرها وقد

ضحوا بكل شئ في سبيل نصرة القضية العراقية .

وللأسف كانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها ، وهذا من علامات الانحلال ، نهياً بين العنصرين العربي والتركي وقد ظهر هذا الانقسام في جميع أنحاءها . وقد شهدت هذا الانقسام على أشده في سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١١ في الاستانة . فكان العربي يريد أن يزاحم التركي على مناصب الحكم ، ويريد التركي أن يسيطر على الجيش والسياسة والادارة ويكون العنصر السائد على جميع العناصر التي تتكون منها السلطنة .

وكان شبان الترك لا يحترمون العرب وأول من لفت الانظار لهذا الامر ع . ع بك المصري ( وهو الآن مقيم بأحد بلاد القطر المصري ) فقد وصفه الاتحاديون بأنه مصدر الفكرة العربية في الجيش . وكان ع بك ذا مكانة سامية بين العرب والتركي ولكنه كان بعد ظهور الدستور العثماني يبث فكرة الثورة واشعال نارها في جزيرة العرب وغايتها انشاء دولة عربية في مكة يقلد صولجانها وتاجها للاسرة الشريفة ( الحسين بن علي وأولاده ) وذلك لمقاومة فكرة الاتحاديين التي ترمي لسيادة العنصر التركي في أنحاء الدولة وأسس العرب بارشاد ع بك جمعية الاخاء العربي في سنة ١٣٢٦ وكانت جمعية رسمية سياسة ، ولكن كان وراءها جمعيات سرية كثيرة

وهذه الجمعية لم تقم بعمل يذكر للدولة ولا لأعضائها ولكنها حلت وأعدم رئيسها الصوري شفيق بك المؤيد الذي رأيناه في الاستانة سنة ١٩١٠ وكان من أعضاء مجلس الاعيان وتألقت بعدها الجمعية القحطانية في ١٩٠٩ وترأسها حمادة باشا وهاتان الجمعيتان اللتان ربما كانتا حسنتي النية نحو الدولة قد سببتا ظهور جمعيات أخرى أثبتت خيانتها ومنها حزب اللامركزية الادارية العثماني وانتشر منهاج هذا الحزب في الأقطار العربية بسرعة البرق وذلك بفعل الدعاية الاستعمارية لأن بعض هؤلاء الأعضاء الذين ادعوا حب العرب واحياء مجد العرب كانوا جميعاً متصلين بالسلطات الانجليزية في الشرق وفي اوروبا .

فقد قامت في البصرة جمعية على هذا النمط تحت رئاسة طالب النقيب بك وهو



العثمانية فانهم لم يطالبوا فقط بحكم ذاتي لا مركزي للعرب بل طالبوا بمثله لكل العناصر التي تتألف منها الدولة فقد جاء في المادة الثانية :

« القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية »

ولما كان المريب يكاد يقول خذوني ، وكانت هذه الطغمة تعلم أن الحزب مظهر كاذب لأعمال سرية خطيرة فقد جاء في المادة الثانية ما يعني تهمة لم يوجهها اليهم أحد غير ضائرتهم :

« ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه ما يعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد ( ١٢ ) لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي الا اذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية »

وكان ع . بك قد أسس جمعية العهد التي تعد أكبر حزب عربي عسكري ألفه ضباط العرب في الجيش العثماني لاصلاح أحوال العرب السياسية والاجتماعية وع . بك مؤسس هذا الحزب بطل من أبطال الجيش العثماني ويسمى بطل برقة وقد أبلى بلاءً حسناً في متدونيا والباينا وبلاد البلغار وفي طرابلس حيث انتصر في ١٦ يوليو سنة ١٩١١ في موقعة « كان » ولما عاد الى طرابلس اعتقلوه برهة قصيرة وذلك في سنة ١٩١٤ وحاكموه عسكرياً ثم أفرج عنه بناء على وساطة الخديوي عباس وتدخل سفير إنجلترا في الاستانة كراماً للأسرة ع . بك وقد آتموه بالرغبة في تأسيس دولة عربية في طرابلس يتولى هو سيادتها .

وقد أذيعت عبارات كثيرة في أثناء الاعتقال والمحاكمة كانت يشتم منها التحامل لأنه يحوم حولها ولكن لم تثبت على الرجل تهمة معينة كما هي عادة الزعماء أهل الذكاء والحذر فقد قيل عنه ان فكرته تناقض المصلحة العثمانية فقد سعى وهو في طرابلس الغرب في بث

الفكرة العربية بين الأهلين وفي انشاء دولة عربية مستقلة يتولى ادارة شؤونها وكاد ينجح لولا معارضة بعض ضباط الترك . وقيل انه اجتمع بالاطالين أثناء الحرب ( حرب طرابلس ) اجتماعاً مهماً ولكن لم يعرف أحد ما دار في هذا الاجتماع من الكلام وقيل انه عدواً لأنور ولتركيها وقيل انه اتفق مع الامام يحيى على ضم اليمن الى مصر وكان يسمى وهو في بنغازي الى تنفيذ هذه الفكرة وجعل بنغازي واليمن دولة عربية واحدة . وقال آخر ان الايطاليين دفعوا له مالا كبيراً وانه انصل بمخديوي مصر واتفق معه على خطة لمصلحة الطليان وقيل انه احتفظ بثلاثين ألف ليرة من أموال الحكومة سلمها اليه أنور باشا وقد حكم على ع . بك بالاعدام ولم يثبت مطلقاً أنه اختلس مالا أو خان الوطن لمصلحة الطليان ولكن أنور رحمه الله أظهر شهماً في قبول وساطة إنجلترا والخديوي في حق صديقه القديم فأطلق سراحه وعاد اليك الى مصر ولما قامت الثورة العربية في الحجاز في سنة ١٩١٧ تولى قيادة جيوشها وقتاً قصيراً وسافر الى بلاد الافغان وبلاد الفرس وحاول تنظيم الجيوش هناك ولكن اقامته لم تطل وعاد الى مصر وبقي مدة طويلة في راحة واعتزال الى أن اختير لرئاسة عمل مفيد وليس ع . ي . بك ضابطاً شجاعاً حاذقاً فقط بل هو من ذوي الرؤوس المدبرة في السياسة فقد أسس جمعية العهد كما أسلنا وجعلها جمعية سرية وغايتها السعي وراء الاستقلال الداخلي للبلاد العربية على أن تكون متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا . وهو يرى ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية في ملوك العثمانيين والاحتفاظ بالقسطنطينية .

وكان حزب الامركزية مصادقاً لحزب العهد ، ثم حصل بينهما شقاق وسبب ذلك قبول عبد الحميد الزهراوي منصبه بمجلس الأعيان بعد أن أنذره ع . بك برفضه وقد وصف اليك صديقه الزهراوي باحدي خلائن البله والسداجة أو الخيانة . والاولى في نظرنا أصح وذلك لأن الزهراوي ومن كانوا على شاكلته قبلوا اصلاحات نافهة لا تكفل سوى المنافع الذاتية لأشخاصهم .

وكان الترك في أثناء انعقاد المؤتمر العربي بباريس قد استدرجوا الزهراوي واستمالوه

وصالحوه فقبل وعودهم وعاد الى الاستانة ( بعد أن تورط مع فرنسا وانجلترا ) وقبل المنصب المشار اليه . فأغضب الناحيتين . وكان هذا محض بله وسخف منه لأنه رحمه الله لم يكن سياسياً ولا منكرأ .

وكان في مصر رفيق العظم وأحد أصحاب المجالات الدينية الاسلامية وهو سوري مسلم وكان في البصرة طالب النقيب مطالباً بالاصلاح على شاكلة هؤلاء وله علاقة متينة بقنصل انجلترا في البصرة فسهل في سنة ١٩١٩ لقنصل المحمرة الانجليزي وقنصل بندر بوشهر الانجليزي التوغل سراً بين الفاو والسيدليان ووضع خريطة لسياحتهما وأراد أن يسمح لضباط انجليز بمثلها في « قرمه على » فلم يفلح .

وكان كل فريق من هؤلاء المطالبين بالاصلاح واللامركزية والثورة العربية سواء كانوا في مصر أو في سوريا أو في بغداد أو في البصرة يظهر بمظاهر تخالف الحقيقة فان بذخهم واسرافهم كانا يدلان على اتصالمهم بمصادر غنية تنفق الذهب جزاراً ومن غير حساب . فكنت ترى بعض هؤلاء من القيمين في مصر يقتنون الأملاك وليس لهم مصادر ثروة معروفة وتراعى أبداً يعملون في الخفاء وفي غموض يشبه أحوال المتآمرين وهم أبداً في انتقال بين ممالك الشرق وتراعى اذا كتبوا لم يقصدوا الا الدفاع عن فكرة الاستعمار ولكنهم يحاولون اخفاء فكرتهم . ولم يتصلوا بأحد من ذوى النفوذ والجاه الا وابتزوا منه الأموال باسم الدين أو باسم الاصلاح . وكان أحدهم وهو المقيم في البصرة يكثر من الاجتماع بخزعل ومبارك الصباح وهما ثعبانان من ثعابين الشرق العتيقة السامة وقد قضى أحدهما بعد أن لدغ الاسلام وكان على وشك أن يقضى عليه ابن سعود وقد تربى في حجره ، في خبر يطول شرحه ، ولا يزال الثاني أسيراً في قبضة الفرس . وكافاز الترك في استدرج الزهراوي لقاء منصب مجلس الأعيان كذلك فازوا بفضل دهاء المغفور له المرحوم طلعت باشا في اسكات طالب النقيب فأعلن في ٧ ربيع أول سنة ١٣٣٢ « أنه تنازل عن مطالبته بالاصلاح وصرنا مع الحكومة السنية العثمانية كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا الأبدية ونسعى في المحافظة على وحدتنا العثمانية بكل قوانا حتى لا يبقى منا فرد واحد ... »



## ٣

ولما أعلنت الحرب العظمى كان طالب النقيب أول من فر من السلطة العسكرية  
العثمانية فحج وقصد نجداً ثم نفي الى الهند .

ولما اشتعلت نار الحرب بالعراق احتلت انجلترا البصرة بمعونة مبارك الصباح وخزعل  
وخيانتهما التي لا شك فيها ، ولكنهما هزمت في موقعة الايوان وسلمت كوت الامارة ووقع  
تونزند أسيراً في يد الجيوش العثمانية ، وقد ألف كتاباً ضخماً في خواطره في حوادث تلك  
الحرب ، وقد حاول فيها تبرير مسلكه الحربى واتباعه قواعد الحرب الفنية مقتدياً بأراء  
ناپولايون ولدندورف والكتاب مترجم الى العربية ومطبوع في بغداد ، وقد مات تونزند بعد  
ذلك ، قبل من شدة الحزن والندم ، ولأم المخطئ المبل . وفي ١١ أذار ١٩١٧ سقطت بغداد  
في أيدي الجنرال مود الذى ذهب ضحية مروءته لانه دعى الى خيمة أحد شيوخ القبائل ،  
وحذر وه من شرب القهوة لانتشار الوباء فعز عليه أن يأبى كرامة العربى ، وشرب قهوته وهو  
يعلم أن فيها الموت الزؤام ، ومرض ومات فعلا بعد ذلك ببضعة أيام فأقاموا له فى عاصمة  
العباسيين تمثالاً !! وقد اتبع مود بعد دخول بغداد ما اتبعه كل غزاة الانجليز من تخدير  
الاعصاب فشر منشوراً مثل الذى نشره الجنرال ولزلي الانجائيزي الذى دخل مصر فكلاهما  
جاء البلاد منقذاً محرراً لاغازيا ولا فاتحاً وما ذلك الا ليأمنوا عاقبة هياج الشعب المغلوب حتى  
اذا بردت تلك الهمة وأطفئت نار النخوة التي تتاجج في صدور الشعب المغلوب ، أظهر وا  
لنا ان كانوا جاءوا منقذين ومحررين أم غزاة وفاتحين وسالبين ومغتصبين أم أصدقاء كرماء  
وحلفاء يستحقون المصافاة والوفاء .

عمل مود عمله ، وحل محله ويلسون الذى أراد تنفيذ فكرة المجالس البلدية وهو  
أشبه الناس بلورد دوفرين الذى جاء مصر بعد موقعة التل الكبير مباشرة ووضع دستوراً  
يقوم على ايجاد المجالس البلدية ومجاس شورى القوانين والجمعية العمومية . ولكن مود الذى  
كان قائداً مجدوداً في الحرب لم يكن هو الآخر الا منقذاً لحظة مرسومة فانه أخذ يذكر أهل  
العراق بمظالم الانراك ( إحننا في ايه والا في ايه ؟ ) فذكرهم بهولاً كوالذى هزم الدولة

العباسية وخرّب القصور والمدائق والحقول وقتل الناس وأغرق الكتب ( تلميح الى أن اجدوا الله علي أننا لم نفعل فعله ) وذكر لهم وعود مدحت بالاصلاح وعجزه عن الوفاء وبشر العراق بالارتباط بدولة جلالة جورج الخامس ولم ينس في هذا المنشور أن يذكر جلالة الحسين بن علي الذي طرد الترك والامان من الجزيرة

وان بريطانيا العظمي مصممة هي وحافاؤها العظام على أن لا يذهب ما قاساه هؤلاء الاعراب الشرفاء هباءً منثوراً ...

وقد جاءت حوادث التاريخ الاحتمة بما يدل على مكنة هذا الوعد من الصدق والوفاء أو ضدهما .

ولم يقصر الانجليز في ايهاام العراق بما أوهموا به كل الممالك العربية من أنهم والحلفاء يحاربون لتحرير الشعوب المستضعفة وتشجيع تلك الامم التي كانت تحكمها تركيا بالظلم والاستبداد في انشاء حكومات وادارات وطنية في كل من سوريا والعراق . وفي الاقطار العربية التي يسعى الحلفاء في تحريرها والاعتراف بهذه الاقطار بمجرد تأسيس حكوماتها تأسيساً فعلياً . ( راجع جريدة العرب عدد ١٤٠ )

وبدأ الانجليز يحكمون العراق بموظفين مملوكين جعلوا البلاد على عادتهم ميدانا للتجارب الحكومية لأنهم لا يعرفون الشعب الذي قد رطم أن يحكموه ويستفيدون يوماً فيوماً أموراً جديدة ومثل ذلك حدث في الهند وفي مصر وفي السودان فالانجليز يعتقدون أن الفرد منهم قادر على كل شئٍ وقليل من التعليمات وكثير من الاختبار الشخصي يكفيا به لحكم العالم وذلك بفضل الغرور والسكبرياء وفكرة الترفع عن الشعوب المحكومة والوقوف منها بموقف الارباب والآلهة وكان من نتائج تلك الحال أن الشعب العراقي لم يقنع بفكرة المجالس البلدية التي أدرك أنها حيلة وقتية وبدأ الانجليز يصادرون حرية الفكر والقول والكتابة في الصحف وقربت الحكومة الى حظيرتها جماعة الاعيان الذين يشبهون باشاوات مصر وجعلتهم المرجع الاعلى في حكم الامة وهم أرباب مصالح تتنافى مع الوطنية وكلهم أهل

تزلف وتلميق حتي ان سبعة من هؤلاء الاشراف والاعيان اجتمعوا وقرروا طلب تعيين السيرپرسى كوكس ملكا على العراق مع اعلان حياية بريطانيا عليه .

## ٤

كان العراق يعاني ما يعاني في الداخل وهو متصل بالاقطار العربية اتصالاً فعلياً سواء بالصحافة أو بالاخبار المنقولة في البريد والبرق فعلم بما جرى في سوريا وفي مصر وتأثر العراقيون بالثورة المصرية تأثراً شديداً وما زالت مراحل الوطنية تغلي فيه حتي هب بثورته وكان في العراق امرأة انجليزية اسمها الاكسة جرترود بيل وصفها بعضهم بأنها أفعى العراق وقد قضت نحبها منذ بضع سنين كانت هذه المرأة المسترجلة كاتبة أسرار المندوب السامى وتعمل عمل الرجال وتكاد لا تعد امرأة ، وكانت رئيسة القلم الشرقى في دار الانتداب وكانت عالمة نشيطة حسيصة وفيها نزعة الي الشرق والعرب تغلبت على كل مطامعها وأمانيتها جاءت الي الشرق طالبة علم وسأحة فأخت العربان مثل ما فعلت قبلها لادي ستانوبولسكن اختلاف الاجيال والازمان يغير الاوضاع وقد حطت رحلها في بغداد فكانت معينة لرجال الحرب والسياسة وكانت تعلم عن العراق ما لا يعلمه سواها وهي تجيد الكلام بالعربية ويغلب عليها الميل السياسى . وهي تعتمد على عقلها ومنطقها وطريقتها في الايقاع بالزعماء طريفة ما كياقيلية قديمة وذلك انها تقدم الهدية فاذا رفضت الهدية قدمت السجل وفيه تاريخ حياتك منذ دبيت ودرجت الي يومنا هذا وفي هذا من التهديد والبطش ما فيه .

تقول ميس جرترود بل ان الثورة العراقية ترجع الى أسباب عدة منها : وعود الحلفاء وقيام الحكومة العربية في سوريا وعود ويلسون والثورة المصرية .

وأراد جهور العراقيين في بغداد والكاظمية والنجف وكر بلاء وفيهم المفكرون وعلماء الدين أن ينشئوا حكومة عربية مستقلة يرأسها أحد أنجال الملك حسين ، وكان الامير عبد الله هو المقصود بالذات وبدأ العراقيون يرفعون العرائض ويصدرون الفتاوى وبدأ الانجليز يعتقلون بعض الاحرار وينفون البعض الآخر . ومن هؤلاء جماعة لم تنطل عليهم

حيلة المجالس البلدية ، لان هذه الحيلة تنطوي على ما هو أشد فتكاً بالحرية فارت الانجليز يلحقونها بنظرية اعداد الامم للحكم الذاتي وان البلاد في حاجة الى رجال من ذوى الخبرة والمعونة من الاجانب ، ويحتاجون الى زمن طويل لتدريب الوطنيين على أصول الادارة الحديثة والمعالم لدى الشعوب المستقلة ان الحصول على الاستقلال التام والحكم النيابي منوط بتربية الشعب وتدرجه في مراتي الحكم الذاتي والاستقلال الادارى .

وهذه ياعم أمور يطول شرحها وقد عاناها أهل الهند وأهل مصر

وقد تأسست جمعية العهد العراقي وكان ياسين باشا الهاشمي يدير دفتها لمدة عام وياسين باشا يعد من أبطال الشرق العربي وقد يعد بحق زعيم العراق ، وكان تارة في الحكم وطوراً في المعارضة وقد ألفت في سنة ١٩٣١ حزب الاخاء لمعارضة وزارة نوري السعيد باشا واستقال من عضوية مجلس النواب مع لقيف من أنصاره ليخرج مركز الحكومة وقد تخرج في المدارس الحربية العثمانية واشترك في الحرب العظمى وأبلى فيها بلاء حسناً ، وكان يجهر بأرائه ضد الانتداب فدعته يوماً زوجة أحد قواد الانجليز الى حفلة شاي ومن هناك ساقوه الى المنفى في فلسطين أى انهم خطفوه عنراً باسم دعوة من سيدة ، فأقيمت المظاهرات في دمشق ورفعت الاحتجاجات الى بلاد الانجليز وانتهى الامر بطلاقه فاستقبل استقبالاً فخماً وقد تولى الوزارة في بغداد مرات بعضها رئيساً وبعضها وزيراً وهو بلا ريب من أكبر رجال العراق ان لم يكن أكبرهم .

وفي ٨ آذار ١٩٢٠ أعلن المؤتمر العراقي استقلال العراق في دار بلدية دمشق وتعيين الامير عبد الله ملكاً عليه وأعلن سمو الامير زيد نائباً عن أخيه الملك عبد الله

وتألفت جمعية حرس الاستقلال العراقي السرية وغياتها الاستقلال المطلق بأقصى ما يمكن من التدابير مشتركة مع الجمعيات والأحزاب الأخرى ولا يجوز للجمعية الاعتماد على انجابتها في طلب المعونة الفنية وحدث انشقاق في بغداد بين رجال جمعية العهد ورجال جمعية الحرس ومن أهم رجال هذه الاخيرة على البزركان ورفعت الجادرجي وجميل المدفعي

وغيرهم ومما يؤسف له أن بعض هؤلاء قبلوا وظائف حكومية وتخلوا عن العمل السياسي بسببها وقنعوا بالمنصب والمرتب كأنهما الغاية التي كانوا يسعون اليها .

وعندئذ بدأت السلطة الانجليزية تتعرض لحرية الاجتماع فنشر القائد ساندر وهو القائد العام للجيش المحتلة بالعراق منشوراً ختمه بقوله « فإيذا وجب علينا أن نعلن أن انعتاد المواليد ممنوع وان انعتاد الاجتماعات لمقاصد سياسية يعرض القائمين بها لأشد العقاب »

ثم بدأت المفاوضات فدعا السير ويلسون ومعه وزير العدلية السير بونهام كارتر ( صهر ونسيب اسكويث ) والكولونيل بلفور لفيفا من الاحرار والوطنيين العراقيين وأخذ سير ويلسون « يبلغهم » البلف الانجليزي المشهور فذكر عصبة الأمم وتحرير الشعوب الراضحة تحت نير الاستبداد التركي وان حكومة جلالة مولاه الملك تريد تأسيس حكومة وطنية في العراق بأقرب فرصة .

وان العراق كان تحت حكم اجنبي أكثر من ٢٠٠ سنة ومهما سلمت النيات فلا يمكن تأسيس حكومة وطنية في لحظة واجدوا الله على أن العراق لم يتأثر بويلات الحرب فلما ذكره بمؤتمر سان ريمو أجاب

« ان مؤتمر سان ريمو قرر استقلال سوريا والعراق على أن تكون الأولى تحت وصاية فرنسا والاخيرة تحت وصاية إنجلترا ( راجع جريدة العراق ١٥ رمضان ١٣٣٨ )

ثم بدأ عهد الارهاب، لأن أكبر حكام العراق من الانجليز تنازلوا بهذه المفاوضات وكانوا يظنونها كافية لتهدئة الخواطر وتسكين ثائرة الشعب، وظنوا أن هذا التفاهم عن قرب مع الزعماء يلقى على نيه ان الثورة برداً وسلاماً، فلما رأوا الامر على العكس أخذوا يعتقدون ويفتشون المنازل ويحكمون بالسجن والاعدام في مجالس عسكرية وينفذون الاعدام فعلاً وشنقوا عبد المجيد كنه في محرم سنة ١٣٣٩ . وتقوا أخاه حميد أفندي كنه الى جزيرة هنجام ومن أبطال تلك الفترة الامام الميرزا محمد تقى الشيرازي الذي قوى روابط المودة

بين السنيين والشيعة وقبضت الحكومة على نجل الامام الشيرازي وهو ميرزا محمد رضا ونفته الى جزيرة هنجام فتدخلت حكومة ايران في الامر وأفرجت حكومة العراق عنه وأمرته بالاقامة في ايران .

وأخذت الساطة تعتقل مشايخ القبائل فينقذهم رجالهم من السجون بالقوة ثم بدأت الثورة في البادية بين القبائل وأطرى بعض ضباط الانجليز ولا سيما هولدن بسالة الثوار ومهارتهم وقال انهم كانوا سرى الحركة وأسعى الحيلة وخطتهم المرسومة للدفاع منظوية على مهارة حربية وقد نكل الثوار بالجيوش المحتملة في أما كن كثيرة تنكيلا عظيما والدهش في أمرهم أنهم كانوا فقراء في السلاح والذخيرة ولم يعلم عن أحدهم مكابدة الحروب بمثل هذه المهارة الفاتحة وقد دهش الفريق هولدن من حسن اختيارهم للزمان والمكان .

وعاد ويلسون الى التفاوض والتهديد فأرسل الى شيخ الشريعة الاصبهاني في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٠ خطابا مطولا جاء فيه « ان الحكومة الانجليزية المعظمة قد اعتمدت دائما على الأركان الثلاثة وهي الرحمة والعدل والتسامح الديني » وان جيشنا الانجليزي كان قبل الحرب صغيراً والآ نصار عدده خمسة ملايين ( ١١ ) وان ثروة انجلترا لا تقدر وان الثوار لم يمكنهم أن يعملوا فوق ما عملوا ولو استمر وا هلكوا من الجوع لتلف الزراعة وان قوتهم قد مالت الى الزوال » الخ

فكان رد شيخ الشريعة بليغا قويا مقنعاً جاء فيه :

« أخذتم بعد الوعود بالوعيد وبعد التأميل بالتضليل واستعملتم الشدة والغلظة فنقيتم وقتلتم وسجنتم وأنقتم وأضمرتم العدا الذي أظهرتم آثاره . وتعريف الفساد عنكم هو المطالبة بالحق فن طالبوا بحقوق الوطن صاروا في نظركم من المفسدين » في ٢ محرم ١٣٣٩

و كان كتاب شيخ الشريعة خير رد على كتاب ويلسون الذي رأيناه يتلون كالحرباء في مفاوضته وكتبه، يعطيك تارة حلاوة وطوراً سمازغافاً وهو صورة طبق الأصل من رجال السياسة في وطنه

وكانت النجيدات قد وردت على الإنجليز من حكومة الهند وبني الإنجليز حصوناً ملاوها بالجنود وكان معظم الشبان وبعض زعماء القبائل يرغبون في مفاوضة الحكومة بالصلح غير أن أقلية محدودة هي التي رفضت المفاوضة ودفعت شيخ الشريعة إلى إرسال هذا الكتاب الذي يعد بمثابة رفض المفاوضة .

وقد ضحى العراقيون بأرواحهم وأموالهم في سبيل الحرية واستشهد منهم من استشهد فضعفت قوتهم قليلاً من تحاذل بعض القبائل ومن ورود النجيدات المتواليّة على الإنجليز وفي هذه الظروف التمسعت الحكومة العربية في سوريا (موقعة ميسلون) وحدثت في ٢٣ حزيران ١٩٢٠ في مجلس العموم مناقشة حادة جداً وفيها تبرم اسكويث رئيس المعارضة بفداحة نفقات الاحتلال في العراق وانها اثقلت كاهل ميزانية الدولة

وأشار إلى ضرورة الجلاء عن العراق والاحتفاظ بالبصرة . ولكن لورنس وهو مستشار تشريل في مسائل الشرق ، بعد أن أتم غزو بلاد العرب وسوريا وهو صديق العرب الحميم التفت إلى العراق وقال انه لا يفتى بالجلاء لأن الدولة الإنجليزية ليست وحدها التي تتحمل عبء الحملة والاحتلال بل ان أهل العراق أنفسهم سوف يشعرون بالضيق والغلاء من وجود الجيش الإنجليزي بين ظهرانيهم ما داموا ينزعون إلى الثورة فان عدد الجيش ٨٣ ألف جندي ونفقاته ٣٠٠ ألف ليرة وأشار بإيجاد رجل صالح في العراق يشبه كرومر عندما كان في مصر ، فعينت الحكومة الإنجليزية برسي كوكس بدلاً من ويلسون . ولم يكن في البلد من يكرم ويلسون قبل رحيله سوى طالب النقيب فكان ويلسون رجل الشدة الذي حدثت في عهده اثورة ، وجاء بعده كوكس الذي استلم زمام الأمور بعد أن هدأت الزوابع فخطب ويلسون في ذلك الاجتماع خطبة دافع بها عن نفسه وعن حكومته بكل قواه وتحامل على الثوار تحاملاً شديداً مع أن الثورة العراقية كانت نتيجة طبيعية للسياسة التي جرى عليها مدة تقلده زمام الحكم الملكي في العراق . وهو من حيث مسلكه وكلامه وخططه أشبه الناس بلورد لويد الذي عزله حكومة العمال بعد ان استعمله شامبرلين على مصر مندوباً

سامياً. فكلاهما يحب «الرغي» وكلاهما استعماري متطرف يؤمن بالقوة المادية ويختفي وراءها ويتوعد بها الشعوب الشرقية. وكلاهما ناعم الملمس يخفي يده الحديدية في قفاز من الخجل. وكلاهما سقط سقطة شعراء من حيث لا يحتسب. وامله في خطبته الاخيرة ثاب الى رشده برهة فنطق في بعض المواطن بالحق حيث قال

« ان الحقيقة التي أعتقدها هي أن العوامل الادبية كانت منذ القدم تؤثر في العالم أكثر من القوى المادية فاشدد تأثيرها في العصر الحديث الى درجة أصبحت معها المعنويات والنظريات تفعل في النفوس أكثر مما تفعل فيها الحقائق الحسية وعوامل الحكومات »

« ان العوامل الفكرية التي امتاز بها الغربيون على الشرقيين في عصورنا الحديثة أحدثت بين الشرقيين انقلاباً فكرياً ومن ذلك ان روح الوطنية أو الجنسية دب مرة أخرى في نفوس الشرقيين والاسياويين »

وفي يوم ٢٢ ايلول سنة ١٩٢٠ وصل سير برسي كوكس وقد كان في حضوره مظهر من مظاهر النفاق بين أهل الشرق فان شاعراً عراقياً شهيراً معروفاً بين اخوانه بشذوذ وحاده استقبال سير كوكس بقصيدة جاء منها

عد للعراق واصح منه ما فسدنا      وابثث به العدل وامنح أهله الرغدا  
الشعب فيه عليك اليوم معتمد      فيما يكون كما قد كان معتمدا

وتكلم عن الثورة فقال «انها حركة ذمها المفكرون في ابانها» مع ان هذا الشاعر نفسه كان قد عطف على شهداء الثورة فرثى ابطالها بقصيدة مطلعها

ماذا بك شبان الرميثة من غطارفة ججاجح ؟

وتكلم سير كوكس عن استقلال العراق باشراف انجلترا .

وعضده الشيخ ابراهيم الراوي فقال ان العراق لا يستغنى عن الوصاية البريطانية وكانت الوزارة الأولى التي ألفها سير كوكس مكونة من رجال ميالين للانجليز وهم اثنان من آل النقيب والعسكري والالوسي وساسون



قلوا في الامثال كلام الملوك ملك الكلام ، يتصدون انه أرقاه وأصدقه وأحكمه وأمتعته وأنعمه .

ولما كان جلالة الملك فيصل بن الحسين من ملوك الشرق الاسلامي المعدودين على الاصابع . وجلالته في نفوس المصريين منزلة خاصة . كان من حقنا ومن واجبنا أن ننظر إلى أقواله بمنظار الاكثرث والاهتمام . وأن نتحرى التدقيق في معانيه لننتفع بها اذ لا يمكن أن يصدر عن هذا الملك الجليل الذي تقلب في عرشين وأبوه ملك وأخوه ملك ، قول خال من الحكمة والوعظة الحسنة

سافر جلالة الملك فيصل منذ نحو عام من بغداد عاصمة ملكه التي كانت عاصمة ملك العباسيين ومر في طريقه الى أوروبا بالنظر المصري ولقيه أحد فضلاء الصحفيين للمرة الثانية فسأله عن الامر الذي أثار فيه أكثر من سواه في خلال اقامته في أوروبا فاطرق الملك العربي العراقي لحظة وقال : (١)

« لقد كان لما رأيته في البلاد السويسرية من دلائل المدنية الحقيقية أعظم وقع في نفسي . فمدنية سويسرا لا تقتصر على المدن والمظاهر الخارجية كما هو الحال في سائر البلدان الاوربية بل ان كل قرية في سويسرا متمدنة وكل قروي في سويسرا متمدن . وكنت أتتزه مرة في ظهر قرية من القرى السويسرية فابصرت براعية ترعى قطيعا من الغنم وهي تدفع أمامها مركبة صغيرة نظيفة أركبت فيها طفلها فاعتبطت بمنظر هذه الراعية التي تسهر على عملها وعلى رفاهية طفلها في آن واحد ، وقلت في نفسي « اذا كانت الراعية السويسرية قد بلغت هذا المبلغ من الرقي والمدنية فلماذا أعجب بما أراه في سائر طبقات الامة السويسرية ؟ »

الى هنا انتهى الجزء السلي من ملاحظة جلالة الملك العربي العراقي ، ثم انتقل الى الجزء الايجابي أو التطبيقي فقال :

(١) مجلة كل شيء الاسبوعية ، والصحفي هو الاديب كريم ثابت أفندي .

«أجل لقد أثرت في مدينة سويسرا تأثير شديداً لا يمحى وثبت لى أن المدنية الحقيقية لا تكون بالقصور الشاححة والبنيات الفخمة ولا بالمظاهر الخارجية الكاذبة والزينات السطحية الفارغة . ولا بكتابة المقالات وعقد الاجتماعات ولا بالتغني بالحرية والاستقلال . ولا ببسط الامانى والآمال .

ان الاستقلال الحقيقي لا يشيد الا على دعائم المدنية والمدنية الحقيقية لا تقوم الا على التعليم الخ . . .»

فاتقدم الى جلالة الملك العربي العراقي الهاشمي وارث عرش الرشيد والمأمون في أدب واحترام وأتمس من جلالته أن يعنو عن ملاحظتي هذه .

اعلم يا مولاي أنى فهمت قصدك من مدح المدنية والتعليم ولكننى لم أفهم قصدك من الحط من قيمة « كتابة المقالات وعقد الاجتماعات وبسط الامانى والآمال . والتغني بالحرية والاستقلال »

قد تكون جلاتكم تشير بذلك الى دولة شرقية لانعرفها نحن ، ولسكننا في مصر - والآن على الأخص - لاوسيلة لنا إلا كتابة المقالات وعقد الاجتماعات و بسط الامانى والآمال . والتغني بالحرية والاستقلال .

فانا الضعيف قد تألمت من هذا التاميح في هذا الظرف الدقيق ومثل جلاتكم أدري بما أقصد . ولم يكن يعدم وسيلة أخرى للتعبير عن آرائه فيما يتعلق بدولة شرقية أخرى غير مصر . واعلم أيضا يا مولاي وأنت من خيرة العالمين أن سويسرا هذه في مقدمة الشعوب التي كلفت في سبيل استقلالها بكتابة المقالات وعقد الاجتماعات و بسط الامانى والآمال والتغني بالحرية والاستقلال ولو أن جلاتكم تنزلتم واطلعتهم على كتاب تاريخ سويسرا الذى يدرسه تلاميذ مدارسهم الابتدائية لرأيتهم صفحات جهادهم المجيد منذ القرن الثالث عشر فتاريخهم القديم والحديث حافل باخبار الابطال الأجداد أمثال غليوم تيل وبونيفار والماجور دافل وقد سجنوا وقيدوا بالحديد وقتل بعضهم في سبيل الاستقلال

## ٢٥

١

لقد كان اتصال العرب بأفريقيا قديماً جداً، وربما يرجع الى ألوف السنين ومازال هذا الاتصال حتي ظهر الاسلام فهاجر بعض العرب المضطهدين من الحجاز الى شواطئ افريقيا الشرقية وقيل انهم باغوا بلاد الحبشة واتصلوا بالنجاشي فأكرم وفادتهم .

وبعد قليل من ظهور الاسلام فتح العرب المسلمون أفريقيا فتحاً سريعاً فاكتمسحوا شمالها في قفرة وجيزة . وانحدر واعي السواحل الغربية وأسسوا المدن وزكت حضارتهم بين الزوج ولما تأسست الخلافة العباسية ، واضطهدت الأمويين وطاردتهم هاجروا الي السودان فلعجأوا الي سائر ناحياته، ونشروا في ربوعه دين الاسلام واللغة العربية وخرجت من السودان نفسه قبائل غزت شمال افريقيا وغربها وصارت حلقة اتصال بين السودان وبين سائر افريقيا .

واستفاد الزوج من العرب أن دانوا بالاسلام واهتدوا بهديه .

وقد روى سير هنري جونستون وهو من أكبر علماء الانجليز في كتيب ألفه على

افريقيا عن الرحالة ريد ماملخصه :

« قد تمر بالقريه الزنجية الوثنية في قلب افريقيا فتجد أهلها في أحط درك البشرية من حيث النظافة والبر بدوي الأرحام لا يتقنرون من فضلاتهم ولا يغتسلون من دنس وياكلون الميتة وبشربون الدماء ويذبحون أجدادهم وآباءهم اذا شاخوا وعجزوا ويغيرون على الجار ولا يرعون له حرمة ، ويغتصبون امرأته وبنته نهاراً ، لا يرون في ذلك عيباً ولا نقيصه .

فاذا مررت بالقريه نفسها بعد عشر سنين وقد دخلها الاسلام فتراهم يدركون معني

النظافة والطهر يستعملون الماء للاغتسال والوضوء وتنظيف الأجسام والثياب، يصلون أرحامهم ويحمون جارهم ويرعون حقوق القريب والغريب فلا تكاد تتعرفهم لشدة مالحتهم من الفضائل ومكارم الأخلاق ومظاهر الرقي والحضارة .

فلاسلام وهو دين العرب يزرع الآن بذور المدنية في قلب افريقيا المظلمة أو القارة السوداء ويبدد سواد ليلها . وفي وسط تومبكتو أو السنجال أو الداھومي تلقى اناساً سود الوجوه يقرأون فلسفة ابن رشد ومؤلفات الغزالي ويتأدبون بأدبهما وربما كان بين أسلافهم الأقربين من كان يأكل لحوم البشر . ولم يكونوا ليقروا تلك الكتب لولا دين الاسلام الذي تتبعه اللغة العربية أينما ذهب لاستحالة ترجمة القرآن وضرورة درسه كما أنزل

هذه شهادة انجليزي منصف تدل على الخير الذي يصنعه الاسلام في افريقيا التي كانت مهدياً لبضع أسر مالكة شرقية أو عربية أو اسلامية تأسست على شواطئها وفي سائر نواحيها . وكانت مهدياً للمدنية المصرية أم مدنات العالم ، ومعتركاً لأمم كثيرة . ولا يوجد بها للأسف سوى أمة مستقلة حرة واحدة هي الحبشة . وهذه القارة اذا تهذبت ونظمت وحسنت قيادتها لا تقول انها تفتح العالم بل تقول انها على الأقل تحمي ذمار شعوبها وتدفع عنها غائلة الأجانب وتنتفع بكنوز خيراتها الدفينة بين معادن نفيسة وأحجار كريمة ومواد كيميائية وأرض خصبة وأنهار غنية . ولا يمكن أن يقوم بهذه النهضة الافريقية سوى أمة عربية مسلمة تنفع للملايين من الخلق وتحيي موات الأرض .

## ٢

لما أقيم الاستقبال الحافل في عيد الفطر في يوليو سنة ١٩٢٠ بتونس زار وفد من الشبان التونسيين سمو الباي وقدموا اليه عريضة طلبوا فيها انشاء دستور للأيالة التونسية يكون مكتوباً يعلن الحقوق ويضمن الحريات العامة ويفصل السلطات عن بعضها بعضاً ويشرك الأمة في حكم البلاد اشراكاً تاماً من غير تمييز الأجناس والأديان وتراعى فيه الحقوق والواجبات الدولية .

فأجاب سمو الباي

« اننا ننتظر من رجال فرنسا الخير والسعادة مع العدل والانصاف للايالة وأهلها »  
 وقررت الحكومة الفرنسية في تونس معاقبة الموظفين الذين اشتركوا في الوفد  
 المذكور وأن تحاكم أمام مجلس عسكري حسن كمال الصحفي المتهم بأثارة الفتنة بين الجاليات  
 الأجنبية والفلاحين من أهل تونس . وصادرت جريدته ومنعتها من الصدور .

واليك الآن نص العريضة التي رفعت الى الباي :

« هب نسيم الحرية في العالم كله فأخذت جميع الأمم تعلن مالها من الحق والحرية بعد  
 خروجها من المعتكك العظيم وان الأمة التونسية لبت دعوة العالم المتمدن الى الدفاع عن الحرية  
 والحق والعدل وأظهرت من الاقدام والبسالة ما يرفعها الى مراتب الأمم العريقة في القدم  
 ولولا ما ترجوه من تأييد حقوقها وحريتها لما سارعت الى تلبية تلك الدعوة فهي اذا ترجو  
 أن تنال دستوراً يضمن حريتها وحقوقها ويقضى باشتراكها في ادارة شؤون بلادها من غير  
 تمييز بين الأديان والأجناس » .

وكانت فرنسا قد تعهدت منذ ٣٠ سنة بتحرير تونس وتونس قدمت ٦٥٠٠٠  
 مقاتل و ٣٠٠٠٠ عامل وبلغت خسارتها ٤٥٠٠٠ بين قتيل وجريح وأظهر جنودها مآد هش  
 العالم في اوروبا وشهد لهم المارشال فوش بالتفوق والشجاعة .

أما الأحوال الاقتصادية في الساحل التونسي فليك عنها بياناً وجيزاً :

من أقدم العصور والساحل التونسي يعاني الآلام ناهيك بأن الشيوخ الذين قضوا  
 به عمراً طويلاً يشكون من الشكوى من الأزمات التي تحل بهم ورغم ما من تطاول الدهور  
 واستفحال هذه الأزمات في بعض أزمنة التاريخ فإن الحالة الراهنة لا نظير لها فيما علمنا واليك  
 البيان : لا يخفى على أحد أن مصدر الثروة الساحلية بل حياة المقيمين بالساحل موطنان بما  
 تنتجه الشجرة المباركة التي هي عمدة الفلاح وقوام حياته يسعد بنموها ويشقى بنقصها وكساد  
 نتاجها ويشقى خلفه الألوفا من المنتفعين بالعمل فيها وقد مرت بضع سنوات عم الرخاء فيها

سائر الطبقات حتى الزراعة وما تلفظه نواجع العربان من فقراء البدو، لكنها للأسف انقضت كأنها أحلام وفي الأعوام الأخيرة أخذت الكآبة تبدو على الجميع والفقير يحل والبؤس ينشر أوثيته على هذه الربوع من جراء التدهور الاقتصادي الذي أثر تأثيراً فاحشاً على سوق زيتون فالنجأ الناس إلى التداين والتعامل بالربا الفادح حتى شمل هذا المصائب سائر الملاك واستغرق ذمهم ولم ينبج من مخالب المرابين إلا النزر القليل بحيث أصبح الجمهور راسفاً في قيود لا سبيل لحلها مادامت أسواق الزيوت في انحطاط وقد استقبل أرباب الزياتين هذه السنة موسم الزيتون بتجهيم وامتعض ويأس حيث إن الفلاح مثقل الكاهل بالديون مفكر في الحالة التي أصبح فيها إذ ليس له من الدخل ما يفي بدفع الضرائب فضلاً عن اصلاح شؤونه والقيام بما يتطلبه زيتونه من العمل ودفع ما عليه والذي يزداد حيناً فحيناً

تلك هي الحالة بالساحل الذي يعد من الجهات المهمة بالفطر التونسي لاهمية مابه من شجر الزيتون الذي آل إلى ما آل والظاهر أن الدواء الناجع لهذه الحال هو التسهيلات الكافية لسوق الزيوت إلى الخارج والتخفيف من الضرائب خشية ازدياد الألم الناشئ عن المطالب المتعددة وغنى عن البيان أن الشجرة الواحدة أصبحت في هذا اليوم لا تعطى الفلاح ما يكفيها من العمل في حد ذاتها من حرث وغيره فكيف يرجى منها إسعاد مالكيها والتخفيف من ويلات وأني دليل نقيمه على ذلك والزيتونة التي كانت بالأمس تساوي ألف فرنك صارت الآن تساوي ثلاثمائة فرنك وهذا النقص الفادح في العن من أقوى الأدلة على انحطاط نتاج ركن من أركان الثروة التونسية له أثره في الميزان التونسي الذي يهيم الحكومة والرعايا لذلك ليس من المتعذر اتخاذ الوسائل النافعة وسلوك طريقة التخفيف ابقاء على البقية الباقية ووقاية الفلاح من المصائب الكثيرة التي كادت تحول بينه وبين مواصلة العمل بانتظام ونشاط فإن من أيقن بسوء عاقبة عمله وخسرانه في الختام ذهب آماله وانقبض عن السعي ولا تزال الحالة تزداد شيئاً فشيئاً إلى أن تعم البطالة ويعظم الخلل ويسود الشقاء ويبدو الخراب في أشجع المناظر .

## ٣

صادف عام ١٩٣١ الذي وضعنا فيه هذا الكتاب مرور خمسين عاماً على احتلال فرنسا ببلاد تونس ، لا غير أهلها ، ولا احتجاجاً على ضربة مروحة على وجه سفيرها ( كما حدث في الجزائر ) ولا لأنها على طريق الهند ( كما هي عادة إنجلترا في تبرير احتلال مصر ) ولكن لأن تونس بلاد غنية في زراعتها ومشهورة بزيتها وزيتونها وتمرها وبلحها وحبوبها وبساتينها وفاكهتها وغنية بمناجها وفوسفاتها ، وقد صنع بعض الفرنسيين بتونس ما صنع عصبة من الخطافين بضیعة خالية من الملاك أو قرية ليس لها صاحب ولا سكان واليك ما خص وجيز التاريخ الاحتلال الفرنسي بتونس .

ارتأى الوزير خير الدين لما تنكر له الباي وغضب عليه أن يبيع أطيانه الواسعة التي تمتد من زغوان الى بونيشه والنفیضة التي كلن وهبها اياه محمد الصادق باي ، لشركة بنك مرسيليا ، ولكن الشريعة الاسلامية تعطي حق الشفعة للجار ولما كانت انكاثرا لا ترضى أن ترى شركة فرنسية تملك أرضاً بتونس أقامت أحد اليهود من حمايتها وهو يوسف ايني يملك قطعة مجاورة لأرض خير الدين يطالب بحق الشفعة ، وحيث كان الشرع غير قابل للتأويل فلم يبق لشركة بنك مرسيليا الا أن تترك البتعة ، ولكن براءة رجال المعاملات لا تقف عند هذا الحد فقد استعملوا الحيل الشرعية التي تمنع الجار من حق الشفعة أي ذكروا كمشة بمجولة في عقد البيع واحتفظ الوزير خير الدين لنفسه بتمر واحد حول الأرض بحيث ان أرض الاسرائيلي المحتمي بانكاثرا لم تكن مماسة للأرض المبيعة ، فأول ما ابتدأ الأمر برفع الدعوي أمام المحاكم الاعتيادية لمعرفة قيمة هذه الخزعبلات ، أرادت الشركة أن تضع يدها على الارض لتحوزها بصفة الملكية فأرسلت البعض من أعوانها يستقر ون بنفس الأرض وفي الحين نفسه ترسل انكاثرا محميها ينصب خيمته أمام أعوان الشركة .

وقد صارت الحالة خطيرة لانه أخذ يظهر شيئاً فشيئاً أن المحاكم الاسلامية ستصدر حكمها افائدة محمي انكاثرا وكان من الممكن أن يحدث في كل وقت بين الفريقين المستقرين

بالنفيضة خلاف خطير ، فوجب حينئذ القيام بعمل حاسم

وقد كان الوزراء في سنة ١٨٨١ كما هم اليوم حسب عبارة الرئيس ميلران « أعوان المالية » وكانت الجيوش الفرنسية والاسطول الفرنسي والميزان الفرنسي كما هي اليوم لا غاية لها الا العمل لفائدة مصالحة الممالئين الخاصة ، وكما جعل بوانكاريه منذ سبع سنوات الجيش الفرنسي تحت تصرف « لجنة الحديد » لاحتلال الروهر وكما وضعت كتلة الشمال ذلك الجيش نفسه تحت تصرف « بنك باريس والبلاد المنخفضة » لكسر الأمة الريفية والاستحواذ على خيرات أرضها الكبيرة كذلك وضع جول فيري في ذلك الزمن الجيش المذكور تحت تصرف الشركة المرسييلية .

فاكتشفوا فجأة أنه يوجد في جبال خمير بعض الاصوص وازء يحدث أحيانا منهم وهم غير محترمين للاتفاقات الدبلوماسية أن يسرقوا خارج الحد التونسي الجزائري كما يسرقون من داخله وفي الأمر داع كاف ، فدخلت الجيوش الفرنسية من الحد الجزائري ومن بنزرت فلزم الباي الخضوع تحت تهديد السيف واختلت البلاد بسرعة فائقة واستمر سراق خمير على سرقتهم داخل الحدود وخارجها ولكن استقر ملك المائة ألف هيكتار وزيادة لشركة مرسييلية ذلك هو الغرض وذلك هو أصل « الحقوق التي للجمهورية الفرنسية بتونس »

\*\*\*

وما كادت تدخل الجيوش الفرنسية بتونس ولما يقع بعد امضاء معاهدة باردو ( ١٨٨١ ) حتى استدعى جول فيري للمأدبة التي أديها أعضاء الصحافة الكبرى ورجال المال لتأييد عمل القوة الذي قام به فتكون بعنايته جمع علي رأسه ادرين هيرار مدير جريدة الطان وبول بوليو مدير جريدة « ايكونوميست فرانسيز » لادعاية لمسألة تونس ، وفي مقابل خدماته الجليلة طاب هيرار الذي ألزم البلاد التونسية بقبول أحد معاوينه بول بورد بصفة مدير عام للزراعة وبواسطة هذا المدير وشركته معه طلب مائة ألف هيكتار في جهة السواصي وجلاص ولكنه لم يحصل الا على عشرة آلاف هيكتار فقط !



أما بول لوروا بوليو فقد اشرفي احدى الجرائد الدعاية لمناجم الفوسفاط بقفصه وحصل زيادة على عدد ذى قيمة من السهام أرضاً من أحسن الأراضى فى أخصب جهة من التل بالمملكة

وبعد ذلك بقليل تحصلت جريدة « الديش تونزين » فى شخص مديرها م . لو كوركار بانى على بعض آلاف من الهيكاتارات ثم أخذت تستحوذ شيئاً فشيئاً بمقدار ما يقوى من قوذهما على مناجم الفسفاط بقلعة جريدة أغنى مناجم الفسفاط بعد مناجم قفصه وتخلق لنفسها اماره حقيقه بالوطن القبلى وتمتد يدها العاديه الى أحسن الأراضى المجاورة المياهم المعدنية بقرص وتضع يدها عليها لاستثمارها واضطر الدوله لبناء طريق لها بما بلغت مصاريفه ١٠ ٢٠٠ ٠٠٠ فرنسكا ذهباً ، وتحقق لنفسها مع ذلك قسطاً عظيماً من كازينو تونس وتحتكر الاعلان التجاري من دون ذكر لكثير من الامتيازات ليست أقل فضيحة من السابقة بما جعل مديرها المستثمر العام للملكة التونسية أمام . بوشى العضو بمجلس السينات ووزير التجارة سابقاً ومقرر الميزانية التونسية فقد استحوذ على ٢٠٠٠ هيكاتار فى أحسن جهة من التل وأخصبها ، وم . مورجو العضو أيضاً بمجلس السينات ووزير الفلاحة سابقاً ومقرر الميزانية التونسية فقد استحوذ على ٦٠٠٠ هيكاتار من أراضى السيامين قرب صفاقس و ٥٠٠٠ هيكاتار فى جهة وادى اللين و ٣٠٠٠ هيكاتار من واتف سيدي مهذب وهو يملك أيضاً مصيدة تن بصفاقس ومناجم للحديد وسهاماً وافرة من مناجم فسفاط قلعة جردة

وم . كوتبرى النائب بمجلس الأمة ووزير المالية سابقاً ومقرر الميزانية التونسية حصل على بعض آلاف من الهيكاتارات فى أحسن جهات المملكة .

وم . هانوتو وزير الأمور الخارجيه سابقاً صار بعد اشهار مدلس أوجب احتجاج الغرفة الزراعية بتونس مالسكا لأرض كريمة متسعة قامت باحيائها الدوله على نفقتها وتحصل لفائدة « المعامل الكبرى الصفاقسية » التى هو جاعل لها أراضى بناء ببيكر فيل ناحية صفاقس بثمن قدره خمس صانتيات المتر الواحد بينما كان سعره الحقيقى فى سنة ١٩١١ - ١٥ فرنسكا

وم ، بيدى بيدو عضو السينات ومقرر الميزانية التونسية أيضاً تحصل المحافظة على السر اللازم في تقاريره بصفة خاصة على هنشيرين من أجل الهناشير وهو مع ذلك رئيس مجلس ادارة « شركة الصالح بسلامان »

وم . شالى بيرت نائب من مجلس الأمة ومقرر الميزانية التونسية يستيقظ صباحاً بعد ما سلم تقريره فاذا هو مالك بشركة « الوسيط » فانسان لمناجم حديد الدوارية ، فيكون لها شركة استثمار ويقبض مبالغاً طفيفاً في مقابل تقريره هو أربعة ملايين فرنك ذهباً الخ الخ وهكذا كان من نتيجة معاهدة باردو منذ خمسين سنة المساعدة على امتلاك الطمع الفرنسي لأكثر ما يمكن من الارض والمناجم الخزونة في أحشاء البلاد ، وتاريخ البلاد منذ ١٨٨١ ليس الا امتلاك الارض لفائدة رأس المال الفرنسي بواسطة قوة الدولة : امتلاك بنك ميرابولناجم الفسفاط بققصه وشركة مقطع الحديد للثروة المكنوزة من الحديد في جبال جريسة وامتلاك نواب البرلمان الفرنسي لأحسن الاراضى وامتلاك المستعمرين للأراضى المشترية من الميزان الذى جل ايراده من الأهالى .

فلاحتفال الخمسينى الاستعمارى قد أتى في وقته لتذكير الجماهير العاملة التونسية ان صل الاحتلال لبلادهم هو القوة وانهم يمالونه بالقوة الغاشمة وان ليس الا تلك القوة التي يجب أن تنظم وأن تعم ليخلصوا من نير الاستعباد

## ٤

لايزال صدى الظهير البربري يرن في آذاننا . فقد ضجت منه الشعوب العربية ، بعد أن ضجت شعوب شمال افريقيا فقد استصدرت فرنسا من الشاب محمد سلطان مراكش بالاسم ظهيراً أو مرسوماً يقضى بتنصير أمة البربر ومضى عليه الآن أكثر من عام ونصف وأسست بين القبائل الاسلامية كنائس كاثوليكية وحشدت لها الفسفاوسة وكانت أخرجت القضاء الشرعي من ميزانية الدولة وأخضعته للسلطين العسكرية والمدنية . وبينما كانت فرنسا تعمل عملها في مراكش على هذه الصفة المخالفة للحضارة شعر المشير الفرنسي

ليوتى بمرح موقف بلاده ولا سيما في بلاد حديثة العهد بالعبودية .

وقد قام فيها رجل كلامير المجاهد عبدالكريم الذى احيى ذكرى الامير عبدالقادر الجزائرى ولا يخفى أن ليوتى رجل حرب وضرب، وحامل سيف ورمح ووذير قتل وجرح، ولكنه مذ طالت إقامته بين أهل المغرب لانت عريكته وتشدبت شوكته، وقد مال الى صناعة القلم فاخذ يحتذى مثال كبار الساسة ليبدى رأيه فى حكم البلاد التى اغتصبتها فرنسا فنشر فى مجلة « مسير فرنسا » مقالا جاء فيه:

« من شروط استمرارنا على الإقامة فى المغرب الاقصى وحصولنا على نتيجة من وراء ذلك تعزيز صلاتنا بالوطنيين بمشاطرنا ايام مزاوله الزراعة والصناعة والشؤون التجارية ولا سيما مشاطرنا ايام الشؤون العقلية ومبادلتنا ايام العواطف الودية . وعندى ان هذا أفضل وسيلة لضمان التعاون بين فرنسا والمسلمين فى المغرب الاقصى وهذا أشد تأثيراً من حراب جنودنا ومواقعنا العسكرية ، أجل ان لتلك الحراب والمواقع تأثيراً لا ينكر وأنا خبير به ولولا الجهود التى بذلتها جنودنا ولا تزال تبذلها لما كنا باقين فى تلك الديار فالفضل للجنود الفرنسيين فى ايجاد النظام والامن فى هاتيك الربوع ولما يكونا فيها وفي اقامة سور حولها يجعل السلام مرفوع اللواء فى جميع انحائها . وحينما تم مهمة جنودنا لوقاية البلاد من غوائل المعتدين الذين يعيشون فيها فسادا وحينما تستتب فيها السكينة استتباً تاما عاما فلا يبقى علينا إلا مشاطرة سكان ذلك القطر ضروب الثقافة ومشاركتنا لهم فى العواطف الولائية

« وكما عاشرت الوطنيين وأطلت مقامى بين أظهرهم زاد اعتقادى بعظمة تلك الامة وعلو همتها . على اننا لم نجد فى غير المغرب الاقصى من اقاليم شمالى افريقية الانتاج الفوضى التى كانت ضاربة اطنابها فى جميع جهاتها ووهن عزائم الحكومات أما فى المغرب الاقصى فقد وجدنا سلطنة منظمة عززتها الاسرة المالكة ولم تؤثر فيها الثورات المتوالية ووجدنا الى جانب تلك الهيئة الحاكمة مدنية عريقة سامية

« والمخيم ظاننا فى المغرب الاقصى قيل لنا أن هنالك آثارا تاريخية نفيسة تدل على

ماض مجيد انطوت صفحته ولم نكن نظن ان تلك الآثار باقية على روعتها ولكن وقعت  
 أنظارنا على تحف فنية قيمة كادت يد الفناء تخنى عليها الا ان عودة الامن والنظام الى  
 البلاد أحيت موات الفن المغربي فهض الفنانون من كل جهة ونموا بأسرار فيهم فكان لهم  
 من وراء ذلك ما أقصى الدمار عن الفن في تلك الديار . وأسعدنا الحظ بأن نجد هناك  
 طائفة كبيرة من العلماء الاعلام والكتاب البلغاء وكانوا قبلا يقيمون معتزلين عن غيرهم

« أما السواد الأكبر من العاميين في معهد العلوم العالية الغربية فهم من أنصار  
 اللغة العربية وقد أقبل وجهاء الامة وأعيانها على تعلم اللغة الفرنسيه وأصبح جمهور كبير  
 منهم يحسنها

« وللنشء الجديد عناية خاصة بالتعلم وإقدام على احراز المعارف وهو يسير معنا جنبا  
 الى جنب ليكون صلة بيننا وبين مواطنيه . ومع ماله من الميل الى التعمق في البحث ومعالجة  
 المسائل الحديثة فلا يذهل عن المحافظة على تقاليد بلاده واستقراء تاريخها والمباهاة بعظمها  
 وسؤددها وهذا يدل على أن المرء كشي يستطيع أن يجعل بلاده جميلة متوافرة فيها جميع  
 أسباب الرقي وال عمران مع بقاءه مراكشيا ومسلما وعلى هذا الجيل أعول في تعاوننا وفي حسن  
 مصير البلاد . » اه كلام القائد الفرنسي ليوتى .

ولم يكتف المارشال ليوتى بهذا ، بل كتب في المجلة نفسها يقول عن مرآة كشف  
 والاسلام في يناير سنة ١٩٣٢

« ان الذين يتهمون الاسلام بأنه دين تأخر وتقهقر وجمود واستبداد مخطئون الخطأ  
 كله . فان اختبارى الشخصى عشرات السنين قد داني على أن الاسلام دين تقدم وحضارة  
 وعدل وليس معارضاً بنظمه وروحه للعلوم والفنون بل هو على العكس يبحث عليها ويشجع  
 الذين يدينون به على الحياة الراقية والآثار التي وجدناها في شمال افريقيا تؤيد ذلك  
 وتثبتة » اه كلام ليوتى عن مجلة « لامارش دى فرانس »

وما لطف المقارنة بين هذه الاقوال التي كتبها مشير فرنسى مقامه أرقى من مقام

وزير، وبين ما كتبه هانوتو عن الاسلام منذ ثلاثين عاماً وقد أوردناه في هذا الكتاب نفسه هل هو تطور الافكار بمضى الزمن ؟ أم اختلاف الرجلين عقلا وادراكا ؟ أم اخلاص من ليوتى وتفاق من غيره ؟

## ٥

من - وادث المؤتمر الاسلامي احتجاج ايطاليا على حكومة فلسطين لخطبة ألقاها الاستاذ عبد الرحمن عزام بشأن أسر عمر المختار واعدامه في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

وحقيقة الخبر أنه جاء في ذلك التاريخ نبأ تلغرافي من روما بأن السكتية السابعة من الجيش الايطالى أسرت عمر المختار وفي اليوم التالي أعدم رميا بالرصاص باعتباره ثائراً بالسلاح في وجه حكم ايطاليا . والرجل كان حين أسر وأعدم في الثمانين من عمره وهو زعيم المجاهدين في الجبل الاخضر ولم ينزل عن سرج جواده منذ سبع سنين . وكان الرجل قد لجأ الى مصر في سنة ١٩٢٣ فوصلت اليه أخبار القسوة والوقائع الدموية التي تحدثت في غيبته في طرابلس فتحركت همته فخرج طالباً الموت في سبيل وطنه

وألف فرقة صغيرة من العرب ألحقت خسائر كبيرة بجنود الاعداء ومنذ سنة ١٩٢٥ عاش عمر المختار ورجاله تحت الحصار وكان عددهم ثلاثة آلاف وعدد أعدائهم عشرة أضعاف من البيض والحمر والسود . وقد بلغ الجيش المقاتل المختار في بعض الاحيان ستين ألفاً فتغلب عليهم

وكان أشجع الرجال وأخلصهم بشهادة خصومه في صحفهم وتقريراتهم الحربية . وقد حارب المختار عشرين عاماً من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩٣١ فهو أشبه الناس بالأمرير عبد القادر ينقصه العدد والعدد وهناك الفرق بين الدولتين الاوربيتين المحاربتين فان ايطاليا لم تجد ما يكفي من المراعاة في معاملة الاسير بالاحسان والمعاملة وهو شيخ في الثمانين لم يعمل أكثر من الدفاع عن حرية بلاده ولو كان ايطاليا لشادوا بذكره ورفعوه الى مصاف الارباب

كعاقبتهم في عبادة البشر من قديم الزمان فقد الهوا بعض القواد والامبراطرة . وان مأساة طرابلس تذكرنا بحروب قرطاجنة فن الطليان قضوا عشرين عاماً في محاربة هذه البلاد وعدد أهلها أربعون مليوناً وأهل طرابلس لم يزيدوا عن مليون ونصف مليون . وقد أفنت الحرب ثلثهم ولم يبق الا الثلث الاخير .

ولم يكتف الطليان بذلك بل اجتاحوا واحات السنوسية وزواياها وصادروا أموالها وشتتوا شمل الأطفال والنساء والشيوخ والقوا بالاسرى من أعلى الجو من الطائرات ورموا بعشرات منهم مقيدين بسلاسل الحديد الى قاع البحر وعصبة الأمم صامته كأنها عجوز صماء بكاء ودول أوووو بالتمتدنة محافظة على الحياد وحكومات الشرق أضعف من أن تحرك ساكناً ولو بالاحتجاج المجرد . والاعجب من ذلك أن من يحتاج على هذه المظالم ولو في بلاد الشرق يطرد وينفى ويعامل معاملة المتشردين والاشرار .

## ٦

ألف أحد كتاب الالمان كتاباً باسمه « مهدى الله » في تاريخ أجد محمد الدينجلاوى الذى ادعى المهديّة في السودان وقهر الحكومتين الانجليزية والمصرية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وطرد الجنود الأجنبية من وطنه ومهد الطريق بقتل غوردون لفتح السودان على يد الانجليز عقيب دسائس وفتن دامت ربع قرن تقريباً ولا يزال تقامى نتائجها المريرة .

وقد لجأ المؤلف الالمانى الى وينستون تشرشيل الوزير الانجليزى السابق فكتب لكتابه مقدمة ، لان تشرشيل كان في حرب السودان التى انتهت بفتحه فى ١٨٩٩ ، مكاتباً لاحدى الجرائد الانجليزية ، وشهد عن كذب بعض حوادث السودان وطالع شؤونه فى نهاية عهد التعايشى خليفة المهدي . وقد ساه فى أفريقيا بعد ذلك وزار السودان مرات ، وكان وزيراً للمستعمرات وكل هذا جعل المؤرخ الالمانى يظن تشرشيل خبيراً بأمور السودان واختصاصياً فى تاريخ الفترة المهديّة

فنهز شرشيل هذه الفرصة وطعن في محمد بن عبد الله طعنًا بذيئًا وتهجم على الدين الاسلامي دين السعادة والهدى قال وناقل الكفر ليس بكافر ، وانما نقلنا قوله لنفجحه بالرد عليه

« ان حياة المهدي محمد أحد السوداني هي على العموم صورة مصغرة لحياة النبي ( ﷺ ) المملوءة بغرائب الحوادث من مواقع دموية وانتصار بسيف . »  
ثم أشار الى المهدي السوداني فقال :

« انه كان في الامكان أن ينقلب نبياً آخر لو لم يعتمد في حكمه على السيف ومدافع مكسيم والمذابح الدموية ، مهملًا أنواع الخداع الذي امتاز به محمد »

ونحن نقول لونستون شرشيل الذي نعرفه ونعرف تاريخه هو وأبنا من قبل هل يستدبح أي رجل من وزراء الشرق أوزعمائه أو علمائه أو رجال الدين فيه نفسه ، مهما كانت أخلاقه أن يتعرض لسيرة السيد المسيح عليه السلام أو سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بعبارة قارصة أو جارحة ؟ وهل يعجز أي انسان عن الطعن في هذين الرسولين والاساءة الى سمعتهما وتشويه حقائق تاريخهما ، ولو على سبيل الانتقام للنبي محمد ؟ كلا ! ان هذا في مقدور كل كاتب عربي وكل مؤرخ مسلم ، لاسيا بعد ما ألفه رجال الدين المسيحي ورجال الدين الاسرائيلي من كتب « النقد العالي » في الديانتين وأشرنا اليه في مكان آخر من هذا الكتاب

ولكن كتاب المسلمين ومفكرتهم أمثال شكيب ارسلان ورشيد رضا والمراسي وكرد على والدجوى وعبدالرازق ومحمد على والثعالبي ومحمد اقبال وسير شافعي والنشاشيبي وأحمد زكي وغيرهم عشرات من المنورين والكتتاب الاجماد يرأون بأدهم ودينهم وكرامتهم وتسامحهم أن يدنسوها بالطعن في مقام عيسى بن مريم أو موسى بن عمران أو حتى أحد القديسين أو الخاخامية ، ويكفي فضلا أن مصطفى منير أدهم المؤرخ المسلم المصري هو الذي أحيانا منذ بضع سنين ذكرى موسى الميموني الذي يسميه اليهود موسى الثاني وهو طيب

وفيلسوف اسرائيلي وكان قبل احياء ذكره على يد المؤرخ المسلم كمية مبهمة في قبو من اقبية حارة اليهود بمدينة الناهرة .

فكتابه شرشيل ضد النبي محمد في الوقت الذي يقر أساتذة شرشيل وسادته من الانجليز خاصة والأوربيين عامة بعظمة محمد وصدقه واخلاصه وجلال رسالته ( راجع صفحات ٣٢٥ الى ٣٣٩ ) من تاريخ العالم تأليف ج . ه . ولز وليف من العلماء .

ليس شرشيل صادقاً في قوله ولا مخلصاً في تقده . ان من يسب محمداً مهرج ومهوش ومأفون ، وانها لقرحة تنزفي صدره ضد الاسلام والمسلمين لانه هو وأمثاله مغيطون من بقاء الاسلام ثابت الاركن الى الآن ودخول الناس في دائرته بدون دعاة ولا مرشدين ولا مبشرين كغيره من الاديان مع تكاثر المعاول المتجهة نحو هدمه ومع انشغال أهله ببعضهم بعضاً وممالاة زعاقفهم لمناوئيه . وفي هذا وحده برهان على أنه دين تكفله قوة خارقة وتحوطه وقاية غير طبيعية وغير مأوفة .

ان كان شرشيل يجمل العربية فهو لا يجمل لغته ولا اللغتين الفرنسية والألمانية وقد ألف المؤرخون في هاتيك اللغات تراجم لمحمد ثبت فيها أن أخلاقه كانت طاهرة شريفة وشهد أعداؤه الذين قاتلوه وأخرجوه من وطنه بمكارم أخلاقه . قال منى المستشرق في مقدمته لترجمة القرآن :

« كان محمد أمينا و كان أعدل أهل وطنه وقام بمهمة شديدة الخطورة بين قوم من المشركين يعبدون الاوثان ، يدعوهم الى التوحيد ويفرس في ذنوسهم عقيدة خلود الروح ، وان رجلا قام بهذه الأعمال لا يمد من العطاء فقط بل يستحق أن يكون نبياً مرسلًا » اه .

وقال عشرات غيره مثل هذا القول وأكثر لاسيا نولدكه وويلها وزن ونيكسون وجولد زيهر وليون كايثاني وسنوئ هيرجرونجه . وجريه مؤرخ النبي في كتاب « الامة العربية » فمن يكون ونستون شرشيل ذلك المغامر المطواح الذي لا فضل له الا في أنه ينتسب الى أبيه راندولف تشرشيل !!



هل محمد يوصف بالخداع أيها الشخص وكل الناس تعلم أن الرجل الخداع ليس في قدرته مهما كان دهاؤه أن يؤسس ديناً يدخل الناس فيه أفواجا بالملايين طامعين مختارين . ولو كان محمد مخادعا في قليل أو كثير لفقد ثقة أتباعه وصحابته وأنصاره فضلا عن أن خصومه ما كانوا ليسكتوا عن مساوئهم ، فما بالك إذا كان هؤلاء الخصوم أنفسهم قد شهدوا بأمانته وعفته وصدقه ومكارم أخلاقه .

ان التاريخ لا يعرف زعيما دينيا نجح في دعوته وهو متصف بالذائل كالخداع وغيره وقد نجح محمد أعظم نجاح وكان أكبر الأنبياء توفيقا وقالت دائرة المعارف البريطانية في مطبوعاتها الأخيرة Mohamed, the most successful of prophets كما أنها بلا ريب اذا تنزلت وذكرت بعضهم لوصفته بأنه أخيب رجال السياسة وأشدهم سخافة .

بقى علينا أن ندل القاريء على قصة قديمة يعرفها تشرشل معرفة جيدة وهي أن تشرشل شهد بعض معارك السودان وشهد مع بنيت الفظائع التي اقترفها كور ( راجع عدد يناير ١٨٩٨ من مجلة كوتنبوراري ريفيو ) بعنوان بعد أم درمان فان الفظائع التي حرمتها جميع قوانين الحرب قد اقترفها ( جرائد إنجلترا وفرنسا يناير وفبراير سنة ١٨٩٩ ) وكتاب المركز الدولي لمصر والسودان تأليف جول كوشري

وفي نهاية الأمر وبعد أن هدمت قبة ضريح المهدي ونش قبره ووزعت أظافره على السيدات واستعملت ججمته محبرة المداد في وزارة ح . بالقاهرة ثلاثة أشهر ، ثم قتلها بعد ذلك . ر . الى لندن وأهداها الى ابن اخت غوردون قرر البرلمان الانجليزي لأحد القواد مكافأة قدرها خمسون ألف جنيه . ٧٥٠ . ٠٠٠ فرنك بأغلبية ٣٩٣ صوتا على ٥١ . وفي تلك الجلسة احتج جون مورلي وواستون تشرشل وقال هذا الأخير « لقد كان المهدي نبيا وملكا وقائداً فلا تجوز اهانتة ولا بنش قبره . ويعد هذا العمل وحشيا ومخالفاً للشرف الوطني ولا يسط قواعد الانسانية »

وهذه النادرة في حياة شرشيل هي التي أوحت الى المؤلف الألماني أن يستعمله في كتابة المقدمة لتاريخ المهدي . ولو استحق المهدي دفاع شرشيل وتحمسه والدود عن حرمة قبره فيجدد بشرشيل أن لا يتهجم على مقام النبي محمد الذي كان المهدي من أصغر أتباعه . لو أن المهدي استحق لقب الملك والقيادة والنبوة وهو لم يعمل الا في حدود طاعة محمد والسير على قدمه ، فما ذا تكون مكانة محمد نفسه في نظر ذلك الذي كان يفتخر بالدفاع عن محمد احمد السوداني الذي وصفه كثيرون من كتاب الأنجليز بلخداع والدجل والادعاء ؟

### ٧

زار مصر أخيراً سمو الأمير اصف اوصن ولي عهد الحبشة فلقى من الاكرام والاجلال ما يستحقه ولي عهد مملكة افريقية شقيقة، لها فضل الاستقلال والتنعم بالحرية . واذكر أن كاتب هذه الأسطر تكلم في حفلة تكريم للشيخ عبد المزيث المالبي في يناير سنة ١٩٣٠ في حديقة ليمونيا دعا اليها صاحب جريدة الشورى محمد علي الطاهر افندي ، فامتدح الحرية وامتدح الشعب الحبشي الذي يتمتع بالحرية مع بعده عن قشور المدنية وأثنى على التقدير العاري الحافي الذي ينعم بالحرية والاستقلال وفضله على الغنى المتنعم اذا كان في وطنه أسيراً أو تابعاً لسيد أجنبي .

وضرب مثلاً بالحبشة فاعترضه أحد الحاضرين وقال « أنا مش وديك يا فلان . . فان الحرية ليست كل شيء دائماً ولا تقوم مقام الثروة » . وكان المتكلم يريد أن يرد على المعارض بما يقنعه ، لولا أنه رأى وسمع أن جمهور الحاضرين معه فكفاه ذلك ترضية واعتباطاً لأن غايته اقناع السامعين برأيه ولا شأن لمعارض أو اثنين أو عشرة مادامت الفكرة مقبولة لدى الكثرة الغالبة . وفي الحق أن المعارض كان يتكلم ضد ضميره .

وأول ما سمعت عن الحبشة، عدا عما قرأته في كتاب الجغرافيا، كان في سنة ١٨٩٦ عند ما تعدت عليها ايطاليا في وطنها ، فردتها جيوش الاسد الراحل منليك النجاشي وهزمتها شر هزيمة في موقعة عدوة الشهيرة ، وكانت جيوش الحبشة هزمت جيوش مصر مرات قبل ذلك ومثلت ببعض جنودنا في عهد الخديو امبا عيل ، وللحبشة يد على الاسلام لا تنسى ، فان أميرها

العاصر للبعث المحمدى استقبل المهاجرين من المسلمين وأكرم وفادتهم وأحسن معاشرتهم ولم يقبل فيهم دسائس وفدقريش الوثني وكان على رأسه عمرو بن العاص قبل اسلامه

والاحباش شعب نبيل متدين قانع بارضه من عهد سليمان وبلقيس ملكة سبا الى يومنا هذا فان نسب النجاشي الجديد هيللا سلاسي يمتد الى تلك الملكة المجيدة واللغة الحبشية من اللغات السامية المهمة وفيها مؤلفات جلييلة مخطوطة وكان ملوكها الاقدمون يحكمونها حكما مطلقا ولكن هيللا سلاسي بعد تنويجه وبعد وفاة المرحومة زوديتو (چوديت أو يهوديت) تخلى عن شطر من سلطته الواسعة وأنشأ برلمانا على الطريقة الاوروبية وأخذ يعمل على الغاء الرق في وطنه. والعجيب أن الخبشة تتبع كنيستنا المرقصية واكلتنا لم نستطع الانتفاع بتلك العلاقة الروحية العظيمة لافي التجارة ولا في العلم ولا في السياسة و يغلب على ظني ان اللوم في ذلك على السياسة الاستعمارية التي تحوط الخبشة بسياج من حديد فهناك فرنسا في جيبوتي وايطاليا في الصومال وانجلترا في السودان . .

ولا يزال نظام الامومة (تقديس الام والمرأة) سائداً في بعض القبائل (الاماراسي) فيقسمون بفراش الزوجة وسرير الأم ويعدونهم رمز القداسة والشرف .

وهذا دليل على بقائهم في أحد أطوار الفطرة الأولى ، ومهما تكن حالة الخبشة من التقهقر أو الفقر أو الجهل فانها في نظرنا في مصاف دول الدرجة الأولى لانها تمكنت من درأ الاستعمار وصدته وقد كاد يلتهمها، وهو يحيط بها احاطة السوار بالمعصم، لولم تشتت استقلالها بالحديد والنار والدم. وكادت الخبشة تقع فريسة للاستعمار البرتغالي لولا مسيحييتها فان البرتغاليين احترموها نصرانية الحبشة وساعدوها في حروبها ضد بعض المسلمين الذين ما كان لهم أن يشهروا في وجه الاحباش سيفاً ان صحت قضية التجاء المهاجرين اليهم في صحبة عبدالرحمن ابن عوف والزبير وعثمان وجعفر .

وقد ألف كاتب فرنسي كتابا مهما عن الخبشة في أثناء الحرب العظمى كشف به القناع عن مسألة تاريخية عويصة تلمنص في أن الرأس ميخائيل المتوفي الذي كان مسلما

وتنصر وصاهر النجاشي منليك فرزق من ابنته بالرأس ياسو كان يخفى ويضمر اسلامه ويظهر مسيحيته وقد اقنع النجاشي التوفي بولاية عهد ياسو فاتقاد له وأمر مطران الحبشة السابق بأخذ العهد على الامراء والرؤس بذلك واقسم رجال الكنيسة والبلاط بالوفاء لياسو ومات منليك وهو يعتقد ان حفيده سيخلفه وقد خلفه فعلا لبضعة أشهر ولكن دسائس أوروبا عملت عملها في الحبشة وانقسمت الحبشة فريقين فريقا مع الحلفاء ومنهم الرأس ما كوينين والد الرأس تفرى (هيا سلاسي) وفريقا مع الالمان ومنهم ياسو. فاذاغ خصوم ياسو انه كان يلبس عمامة كتب على لفائفها لا اله الا الله محمد رسول الله ، وانه صلى صلاة العيد مع الأتراك على حدود الحبشة وانه كان ينوي قلب نظام المملكة وتغيير دينها .

ثم حدثت حروب دامية ومواقع وحارب الرأس ميخائيل لنصرة ولده ياسو ثم مات ووقع ياسو أسيراً وقيل انه في أحد السجون أو القلاع ولم يعلم من أمره شيء بعد وفاة زوديتو وتنجيح الامبراطور

ونحن نجد تقوية الصلات بين مصر وبين الحبشة وندعو الى السياحة في تلك البلاد والتطوع لتعليم شبانها والتأليف بين قلوب أهلها وأهل مصر لأن الحبشة قوة أفريقية لا يستهان بها وسوف يكون لها بعد البرلمان وعتق الرقيق شأن آخر .

## ٢٦

١

إن اشاعة الحلف العربي ، جدت في الاذهان ، المسألة العربية بمخذا فيرها . فقد جاء الى مصر نوري السعيد باشا رئيس وزراء العراق ، وأقام بها أياما ، ثم سافر الى الحجاز ولقي ابن سعود وتعاهدا على أمور عامة لاعلاقة لها بالحلف ، بعضها خاص بمحسن الجوار وبعضها بتسليم المجرمين ، حتى ان الجريدة العربية التي نشرت أول أخبار الحلف وحضت عليه ، قالت في أحد أعدادها « لاحلف ولا بلوط » وقد رأينا بشأن هذا الحلف في عام ١٩٣١ أموراً تلفت النظر أولها نشر مقالات بقلم أمير البيان و « كاتب الدهر » شكيب ارسلان تحمد الحلف وتدعو اليه ، وقد حللناها في غير هذا المكان وقد التقينا ببعض الثقة من رجال السياسة العربية الذين لهم اطلاع على خفايا الامور في العالم الاسلامي وما تلعبه الجملترا من أدوار السياسة الاستعمارية فنبأونا بأن هذا الحلف العربي أحبولة انجليزية ويرجع عهده الى أربع أو خمس سنين ، وان الغاية منه وضع نطاق حول جزيرة العرب وحماية النفط واخضاع العراق وتأمين طريق الهند ، واعداد متاريس ضد سياسة ايطاليا في الجنوب وروسيا في الشرق .

وقد حدثت في تلك الفترة نفسها حركة قوية في المعارضة ببغداد فاستقال بضعة نفر من النواب بقيادة ياسين باشا الهاشمي وانضم عدد كبير من المعارضين لحزب الاخاء ، ولجأت حكومة العراق للعنف وتقييد حرية الصحف ، وقد عمل نوري باشا بشدة وصرامة ، عمل الرجل الحكومي الذي يعضده جلاله الملك والانتداب

ومن هذا تبين أن الانجليز يقصدون الى تنفيذ المعاهدة ونصرة سياستهم

وقامت قيامة الصحافة العربية ضده. شروع الحلف العربي في أنحاء الشرق. وفي العراق نفسه كتب سياسي خبير ضد الحلف وانتقد الامير شكيب ، وعجب من تحوله عن خطته التي سلكها منذ بضع سنين ضد الاستعمار تحولا لامبرر له وليس ما يدعوا اليه ، واستشهد في تأييد رأيه ببعض أحوال السيد ساطع المصري مدير المعارف العراقية سابقا وأحد المقربين من جهة عليا وسياحته الاخيرة الى القسطنطينية وانصاه اتصالا مباشراً ببعض المجندين لفكرة الحلف ، وقد دل ما كتبه المنتقد على شدة الحال في العراق ، وتصميم انجلترا على تنفيذ المعاهدة ، وانهاء مسألة النفط ، والاتفاق عليها مع الفرنسيين . وان الدعوة للحلف ليست الاجزءاً من تنفيذ سياسة الزيت الموصلية .

وقد دلت حالة الاستعمار في العراق ومصر والهند وسوريا وفلسطين وشمال افريقيا (طرابلس والبربر) على مرور موجة عنف في أذهان المستعمرين الاوربيين وثبت ان كل من يجبذ الحلف العربي انما يعصد الاستعمار مباشرة وان كان يختفي وراء المصلحة العربية ويقول « بكتينا حتى عمينا في سبيل الحلف العربي »

وقد بقيت مسألة الحلف وتاريخه في غموض الى أن حاول بعضهم كشف القناع عن حقيقتها فروي انه في سنة ١٩٢٢ كان احسان الجابري وموسى كاظم الحسيني وأمين التميمي وناجي الاصيل وجعفر العسكري يمثلون فلسطين والملك حسين كان ، والعراق ونجد اجتمعوا في لندن فقرروا فيما بينهم ، ومن تلقاء أنفسهم أن يسعوا في تقريب الامم العربية واقسموا يمينا على توحيد العرب واقناع الملوك قال مراسل جريدة الفتح من باريس ص ٤ عدد ٢٤٧ عمود ٢ « ان مراسل الديلي ميل سألهم عن سبب اجتماعهم فاخبره جعفر العسكري بكل صراحة فنشر الخبر ، وتناقلته الصحف وكانت له ضجة » اه كلام المراسل وفي سنة ١٩٢٣ وجه شكيب ارسلان واحسان الجابري بياناً بليغاً يدعو الى الوحدة العربية ، الى البلاد العربية وملوكها . ويقول احسان الجابري « ان الانجليز لم يبدووا رأيا بل اعتبروا المسألة كشيء بسيط ، ولا يبعد أن يكون سكوتهم رضياً » وقال أيضاً « فرنسا لاشك لا تنظر اليه بعين الرضا وكذلك

إيطاليا ، بل هو سيقضي على مطامع هذه في الين ولا يخفاكم ان سياسة الانجليز في الشرق كثيراً مارمت الي الغدر والخيانة فحياد الانجليز في هذه المسألة قد اقلق بعض الناس . . .  
 وإذن يكون الجابري قد كشف القناع ، ورفع الستار عن ذلك المشروع الخفي . فان اجتماع هؤلاء الاشخاص في لندن ، وهي عاصمة الامبراطورية ، وفيهم أشخاص مشهورون بخدمة الانجليز شبرة واسعة ، واقتراحهم هذه الفكرة بغير داع أو مناسبة ، ومبادرتهم الي اذاعتها على لسان الديلي ميل وهي جريدة استعمارية مع أن المشروع نفسه لو كان منطويًا على الاخلاص ، كان أحرى بالكتمان لاسيما في عاصمة انجلترا التي اشتهرت سياستها في الشرق بالغدر ، مع علم هؤلاء المجتمعين الفضوليين ان فرنسا وايطاليا تنظران الي الحلف بعين السخط وانهما بالرصاد لمن يحاوله أو يدعو اليه ، أضف ذل لك سكوت انجلترا عنه وتفسير سكوتها بالرضا تارة وطوراً بأنه شيء بسيط في نظرها ، وتسليم الجابري بأن قلق الناس من خبر الحلف في محله لانهم يوجسون خيفة من سياسة انجلترا في الشرق — كل هذه الاسباب تدعو الي الجزم بأن الحلف العربي دسيسة انجليزية قد استخدم بعض رجال الشرق في الدعوة اليها وهم يعلمون واعلمهم مأجورون وبعضهم بحسن نية وجهالة وهؤلاء معذورون ولكنهم ملومون لاشتغالهم بالسياسة وهم فيها أصغر من الاطفال والرضعان .

أما انفراد الجابري وشكيب بعد ذلك بالدعوة للحلف وافتخار الجابري بأنه كان أول من دعا اليه مع رفقائه فتمسيه ظاهر ، وأقل ما يقال فيه ان الجابري قد يعتذر بأن الحلف يخلق فرنسا ويرضى الانجليز وان شكيباً يرى في ممالأة انجلترا أو ألمانيا ما يعمله « بالتوازن الدولي » بالنظر الي معاداته لفرنسا

وهذا لون من العقولية التركية التي كانت تسود السياسة الشرقية العربية في القرن التاسع عشر — ولكن هذا التوازن الدولي سوف ينتهي بضياع جزيرة العرب واخضاع العراق والقضاء على الامام يحيى وهو الملك المستقل الوحيد في جزيرة العرب — واذا كان شكيب أو غير شكيب بكى حتي عمى على الحلف العربي قبل الحرب والدول العربية قوية

وشعوبها مستقلة وآمنة وقادرة على العمل السياسي مطمئن ، ومع هذا كله فلم يتم الحلف ، فكيف يؤمل له تماماً الآن وكل بلاد العرب واقعة تحت السيطرة الاجنبية سواء بالانتداب أو الاستعمار أو الحكم المباشر - وهل الانجليز غفلوا وعموا وجهوا حتى يتركوا العرب يتحالفون فيما بينهم ، ان لم يكن هذا الحلف ثمرة تفكيرهم وأداة يمدونها لمصلحتهم ومحاربة خصومهم ، ولهم فيه ما أرب أخرى !

يجب أن نكون حمقى أوسكارى أو دانتونين أو مخدرين حتى نصدق هذه الاسطورة أو نسامح في ذكرها دون تفنيدها . ولا يدهشنا الا ذكر ملوك العرب وحثهم على العمل للحلف فن هم هؤلاء الملوك ؟ يقولون انهم ثلاثة يحيى وفيصل وابن سعود . ونحن نعلم مكانة كل منهم في بلاده وأحواله الخاصة والعامة فلا تقابل دعوة الداعي الا بالدهشة والتعجب

## ٢

الحلف العربي إذن حيلة سياسية استعمارية ، لا يرجع عهدها الى ١٩٢٣ كما يدعي الجابري أو الى عمق تفكيره هو وصحبه ولكنها ترجع الى أعمال الانجليز في عهد عبد الحميد فقد أرشدهم اليها بعض خصومه من علماء المسلمين الذين عرفوا حديث الخلافة والامامة وعرفوا خوف عبد الحميد من مناهضة خصومه باسم الخلافة العربية ، ففكروا فيها كاحدى الوسائل لهدم الدولة العثمانية ، ونشروا الصحف في انجلترا لتعزيدها مثل جريدة النحلة التي نشرت في لندن ونسبت الى سلطان زنجبار وجريدة البشير وشفق . وألف بعض الانجليز فيها بحسن نية مثل كتاب « مستقبل الاسلام » لبلنت وما زالت تلك الفكرة تدور بين زعماء العرب وساسة الانجليز حتى الحرب العظمى فاستهوا بها الملوك وخدروهم حتى استنصروهم على الاتراك ثم أخذوا بلادهم وأعطوا بعضهم وظائف ملوك وأمراء ووزراء . وهم اليوم يتناولونها من جديد ويلبسونها ثوب النهضة للدفاع عن بيضة الاسلام وحوذة العرب وما هي لعمرك الا عدو قديم بوجه جديد . ويكفي النظر في سياسة انجلترا في الشرق العربي لترى أنها



ليست بغافلة وليست بجاهلة ولا متساهلة في شعوبه .

فماذا هي فاعلة في العراق ؟

انها تجدد المعاهدات وتكبل الوعود كيلا وذلك منذ سنة ١٩٢٢ إلى يومنا هذا أي حوالي عشر سنوات وانجلترا تعلم أن في العراق ماء كثيراً وأرضاً خصيبة وان به زيتاً ونقطةً ومعادن كثيرة .

ولكنها تشل العمل بمسلكها السياسي وتترك تلك البلاد الغنية في قلق دائم وهي تنظر مطمئنة الى النزاع الدائم بين خصومها وأصدقائها وقد تمكنت العداوة من قلوبهم وقد تحيا القوة المستعمرة بين الفريقين آمنة مطمئنة الى حين — ولكن هذا لا يكون الى الابد، فان للسيادة بالتفريق أجلا ولكل أجل كتاب .

والأنجليز في العراق العربي يضمنون بالتعليم الحر ويأبون أن يديحوا منهاجا للتعليم يشبه مناهجهم في مدارسهم لانهم يخشون ظهور الروح الوطني الذي يتغلب على التعصب الديني والنزاع الحزبي فيتحد ضدهم الشيعي والسني وتكون العراق كتلة واحدة لمحاربة الاستعمار — ولكن هذا الخوف لا يمنع علمهم بأن في شمال العراق وشرقه مقاطعات عظيمة تزداد قوتها يوماً بعد يوم — لأن مئات من شباب هذه البلاد يردون مناهل العلم في جامعات أور وبا وأمريكا ومصر وقد عرفنا منهم لفيقمان أرقى الشباب .

الاستعمار اليوم لا يخدم سياسة الدول الاوروبية فقط بل يخدم مصالح أرباب رؤوس الأموال في لندن وباريس وهؤلاء « الاقوياء بالمال » وسدنة مولوخ أو بعل ، يفضلون مصالحهم المادية على حياة الشعوب نفسها وتراهم ينكرون المصلحة العامة ويحاربونها ليملاً واخزائهم بالذهب — وحيثما يوجد نزاع بين المال والوطن ترى سياسة المال هي الفائزة . بل رأينا الحرب العظمى نفسها تشتعل تحقيقاً لرغبة « الاقوياء بالمال » وكل الذين ذهبوا ضحيتها بالقتل أو الجرح أو الاختناق أو الجنون لم يذهبوا ضحية الوطن والدفاع عن الشرف عما ذهبوا ضحية الاقوياء بالمال وسدنة مولوخ أو بعل . فالآلة الحكوميه في العاملين القديم والجديد تدار

الآن بقوة المال وذويه ، وكل نظام الحياة الاجتماعية والحياة السياسية الحديثتين يدور على محورين ذهب .

فإذا كان الأقوياء بالمال وسدنة مولوخ وبعل سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو المسلمين أو غيرهم يضحون بأوطانهم وبأبناء أوطانهم وبأخوانهم في الانسانية ، ويرمون بالجميع في حومة الوغى وهي نوافذ من جهنم ، ويبتمون الأطفال ويرملون النساء ويخربون الديار كل ذلك في سبيل الحصول على المال والثروة ، فهل يظن العرب أو غير العرب من الشرقيين من أى دين كانوا ولاية ملة انتسبوا أن هؤلاء الطغاة يرعون في حقهم إلا أو ذمة ؟ بل الأمر بالعكس ، لأن هؤلاء الاوربيين يعتقدون الشرقيين من طينة أحط من طينتهم ، واعلمهم يعتبرونهم مخلوقين بغير نفوس ناطقة أو أرواح حساسة . وهذا الأمر مشاهد في يومنا هذا في سائر أنحاء الشرق العربي وقد لجأ شباب تلك الأوطان الى التعليم لأنه المنفذ الوحيد والمنقذ الوحيد من هذا البلاء وسواد هؤلاء الطلاب الذين يقصدون الى العلم في اوربا وأمريكا مسلمون والمسلمون هم في كل قطر عربي حملة لواء النهضة وركنهما الركين . لأن في العالم الاسلامى اليوم ميلا عظيما للعلم خصوصاً العلم الفنى وهم يعشمون أن يكون هذا العلم أمضى سلاح يشهر في وجه السيطرة الأجنبية (من خطبة الامين ريجانى في المعهد الملكى للشؤون الدولية في لندن ١٢ تشرين الثانى سنة ١٩٢٨ )

فالعراق محتاجة للتعليم والرى ، والكنها محتاجة للاستقلال قبل كل شيء .

وسوريا تاريخها منذ ثورتها العظمى كتاريخ العراق بعد ثورته . وكتاريخ مصر بعد ثورتها . تلك الأمم ثارت وحاربت جهد طاقتها والدول المستعمرة استعملت معها خطة واحدة فهي أبداً تتردد بين اللين والشدّة ، وتعطى الوعود ثم تخلفها ، وتعرض المعاهدات ، ثم تسحبها ، وقارة تبيح الحياة البرلمانية وطوراً تجرمها — فالبلاد فى قلق دائم وما حدث فى تلك البلاد بصفة مبكرة تراه يحدث فى فلسطين على صورة مصغرة وترى العارفين يخشون فيها الثورة لأن اليهود يأكلون اللباب ويتركون القشور للعربى .

وان ماحدث في فلسطين ليعمد من أغرب حوادث التاريخ حقاً — فان العلاقة بين اليهود والمسلمين عامة والعرب خاصة كانت دائماً حسنة ولا ينكر اليهود أن المسلمين وحدهم هم الذين أنقذوهم من تعصب النصارى سواء أكان في العصور القديمة أم الحديثة وسواء أكان في بغداد والأندلس لعهد الخلفاء أم في تركيا والشرق في العهد الحديث — ولم يكن أحد يظن أن اليهود يفقدون رشدهم ويفقدون ذاكرتهم وينسون قرابة الدم وأواصر النسب السامى في سبيل نهب أرض فلسطين واحياء فكرة عقيمة وهى فكرة الوطن القومى التى سودت صحيفة ارثور بلفور الذى قضى حياته وهو يدعى انه فيلسوف وأنه حر الفكر . وهكذا حيث كان يصح أن يوجد الاخاء والتسامح وحسن الضيافة والاكرام ، وجدت البغضاء والأحقاد والعداوة التى لاتزول الا اذا حققت أمانى أهل فلسطين العرب ، وقضى على وعد بلفور التعس ، وأعيدت الى العرب من مسلمين ومسيحيين حقوقهم الوطنية .

أما شرق الأردن فقد وصف الحياة فيها وصفاً دقيقاً مؤلف « عامان في عمان » وقال سياسى آخر « ان القيود الثميلة التى ينوء بأثقائها الأمير عبد الله ، لانتشر الانجليز كثيراً ولا قليلاً — فان المجرمين فى سجون انجلترا ينالون من العطف والرحمة والعدل أكثر مما يناله أهل شرق الاردن في وطنهم »

وان الامام يحيى وان كان مستقلاً ، الا أنهم قدسلبوا منه العسير أخيراً ، وهاجوه بطياراتهم الحربية منذ سنتين فى حملة جوية تأديبية ( ١١؟ ) وملاً والمنطقة المحيطة بعدن وبحدود اليمن الجنوبية بامارات وسلطنات عجيبة ، فكل شيخ قبيلة فى تلك الجهات مهما قل عدد رجاله يتعاهد مع الانجليز ويربط له مرتب شهري من أربعين روبية فما فوق ، وتعد بينه وبين حكومة انجلترا معاهدة سلم ودفاع وهجوم ويطلق عليه اسم السلطان فلان وكل هذا المجهود الشاذ جعل خلقت مقاطعات وهمية بين عدن واليمن ظاهره تأديب القبائل وباطنه الاضعاف من شأن الامام يحيى المستقل — وكل هؤلاء السلاطين أشخاص ضعفاء لاتزيد مكانتهم عن مشيخة القبائل يتلقون الأوامر من حاكم عدن ، ويقبضون المرتب من

خز ينته ولا يستطيعون أن يدوا الانجليز بالقوة عند ما يحتاجونها أما الملوك الأقوياء الثلاثة يحيى وابن سعود وفيصل — فقد فكر الانجليز في ربطهم بالحلف العربي .

## ٣

ولم نرد دولة مهتمة للحلف العربي الا العراق، ولم نجد كاتباً مشتغلاً بالحلف العربي الا الأمير شكيب ارسلان . وطبيعي أن الحلف معناه ائتلاف جملة ممالك وقد ذكرت على سبيل التعيين وهي العراق والحجاز واليمن وقالوا انها نواة للعمل في المستقبل ، وانها خيرة الحلف الى آخر ما قالوا .

وقد رأينا فعلاً وفداً عراقياً مكوناً من نوري السعيد باشا و طه الهاشمي يسرع الى مصر والحجاز واليمن وقد قصد النوري باشا بلاد الحجاز وأوفد طه الى اليمن وقالوا ان طه محبوب في تلك البلاد ومعروف للامام يحيى . وقد جاءت الأخبار من اليمن بأن الامام لم يستقبل الوفد استقبالاً رسمياً ولم يشعر أحد من أهل اليمن بمجيئهم الا بعد أن رأوهم في الطرق يلبسون السدارة العراقية التي هي أشبه بقبعات البلغار والبشنيق ولا تقي الرأس شمساً ولا مطراً بل تمتص الحرارة فيحمي وطيها على الرأس وهي أسرع الى التلف من غيرها من أغذية الرأس ولا تفضل الطربوش ولا العمامة في شئ وتكسب وجهه لابسها شكلاً منفرداً وتلقى عليه ظلاً من سواد وكأنها في مجموعها غراب أسحم جاثم على جبين لابسها ، أقول رأي أهل صنعاء هذا الوفد فتساءلوا عنهم وعرفوا غايتهم . ولكن الامام الذي لا يقابل أحداً في العيد الا بعد عشرة أيام ، لم يلقهم أو أنه لقيهم ولم يدرك غايتهم من الحلف ؛ ولم يقطع معهم قولاً ، لأنه حريص ، طويل الأناة ، يفضل الصبر والتأمل الطويل على التسرع والعجلة ولا يبت في أمر حتى يدرسه ويفحصه من جميع نواحياته . وهو مثلنا لا يفهم ماهو الحلف العربي ، ولا ماهو المقصود به ، وبعبارة أخرى لعل الامام جعل أذناً من طين وأخري من عجين . ولا توجد أذن أشد صمًا من تلك التي لا تريد أن تسمع . فلين إذن بعيدة عن فكرة الحلف ، ولا بأس من احترام فكرته وتحييدها ، والترحيب به ان وجد ، ولكن الحلف لم يوجد ولا يعرف كنهه ولا ماهيته ولا الغاية المقصودة منه . فجواب الامام على الدعوة اليه ، كجواب

اسلوب الحكيم . لاسيما وانه علم أن حكومة العراق تعاقدت مع الحكومة المصرية على تسليم  
 المجرمين وحسن التفاهم وتبادل المودة الدولية ولم يزيدا فلا بأس ان اتفق على ذلك هو أيضاً  
 بقى ملك الحجاز ابن سعود ، فانه الى ٢٦ مايو سنة ١٩٣١ أى بعد حضور نوري  
 السعيد باشا الى مصر والحجاز وعودته من الحجاز الى العراق بأسابيع وهي تلك العودة التي ختم بها  
 رحلة الحلف العربي ، صرح في حديث لمحمد شفيق مصطفى قائلاً « اننى أحب من صميم قلبي  
 أن يكون المسلمون عامة والعرب خاصة متفقين متحدين على شريطة أن يكون رائدهم في العمل  
 المصلحة العامة الصدق والاخلاص . أما مشروع الحلف العربي فلم يحدثني فيه أحد الآن  
 ولم أعرف عنه سوى ما أطلع عليه مسطراً في بعض الصحف » اه . كلام ملك الحجاز .

على أنه لم يكذب ينشر نياً ذلك الحلف في الصحف الشرقية ، حتى انبرت اللادى  
 دراموندهاى وهي كاتبة انجليزية القلم سورية الأصل والنشأة ، لها علاقات واسعة برجال  
 الاستعمار وصدور رجال الصحافة السكسونية مفتوحة لها فنشرت في مجلة سفير الانجليزية مقالا  
 عن الحلف العربي قالت فيه « ان الفكرة التي أخذت تحتمر في أدمغة العرب هي إنشاء حلف  
 عربي للتعاون ( ؟ ) وستكون العراق وشرق الاردن وبلاد العرب نواة لحلف عربي أكبر ،  
 تتبعه دعاية في بلدان شمالي افريقيا ترمي الى اتحاد الأجناس العربية هناك وآخر ما ينتظر أن  
 تنضم مصر الى هذا الحلف وعند ذلك يمتد من الخليج الفارسي الى طنجة .

« وتعد مدينة القاهرة في نظر المسلمين المحور الفكري للعالم الاسلامي ولما كانت تقع في  
 مركز وسط فانهم يتطلعون اليها كعاصمة لدول الحلف العربي ومصر آخر من ينضم الى مثل  
 هذا الاتحاد ولكن هل يتحقق هذا الحلم اللذيذ في أدمغة العرب ؟ »

طبعاً أن هذا ملخص وجيز جداً لمقال اللادى دراموند ، ولكنه مشتمل على لب  
 الموضوع ، والغاية المقصودة منه في الوقت الذي تنشر فيه الدعوة في الشرق ، يراد الايهام في  
 الشرق نفسه ، عن طريق مجلة انجليزية بأن الفكرة تحتمر في أدمغة العرب ، أي انها ليست

آتية من الخارج، وبطبيعة الحال ترى القاري الانجليزي المطلع يعلم خفايا الأمر، كما أن القاري العامي الانجليزي لا يهتم أمره .

وقد كانت فكرة الدعاية هنا أوضح وأكثر دهاء، لأن الكتابة لم تقصر الحلف على ابن سعود وفيصل بل قالت انه سيكون نواة يضم الأجناس العربية من طنجة الى فارس وان مصر ستكون تاجاً لهذا الحلف في النهاية .

ووصفت اللادى هذا المشروع بأنه حلم لذيذ، وجعلت الغاية البعيدة فدي للغاية القريبة، حتى لا يعترض أحد على حلف العراق والحجاز الذي له غاية مباشرة .

ولم تتردد جريدة عربية بعد ذلك ببضعة أيام في نشر النبتة الآتية :

« ألم تقل لكم ان المسألة ما كانت جديدة قط، وان نوري باشا السعيد، يريد المتاجرة لوزارته بهذه الضجة، وان الانجليز يريدون تسخير ملوك العرب لصيانة الخط الحديدي الاستعماري المهول الذي سيمتد من حيفا الى خليج فارس » .

على أن هذا الحلف العربي الذي قامت حوله الضجة في هذه الأيام ( فبراير ومارس سنة ١٩٣١ ) ليس وليد اليوم، بل ان صحف فارس تقول انه يداع خبره وينشره من سنة ١٩٢٦ وروي لنا أحد الثقات في امور الشرقين الأدنى والوسط أنه يعلم خبره من ست سنين، وأنه فكرة انجليزية محضة . غايتها الاستيلاء التام على جزيرة العرب لأنها مركز المواصلات بين العراق والهند ومصر وفلسطين . وبالجملة يعد الاستيلاء عليها، بمثابة القضاء الأخير على قوة الاسلام في العالم . وقد رأينا الحلفاء بعد الحرب يهاجون تركيا في الاناضول، فلما فشلوا اقبلوا يهاجون القوة الباقية للعرب في الجزيرة .

والحلف العربي الصحيح لا يكون الا بجلاء الانجليز عن تلك البلاد وترك شؤونها لأهلها يتحالفون أو يتخاصمون . أما عقد حلف في حضورهم وتحت سمعهم وبصرهم، فهذه خرافة لم تأت بمثلمها مجاميع الميثولوجيا في العالمين القديم والحديث .

## ٤

ان عطوفة الأمير شكيب أرسلان كاتب الشرق الأكبر ، وعالم العربية الأوحيد من أعظم خدام المسألة الشرقية ، وهو منذ أربعين عاماً يعمل دائماً في خدمة الاسلام والعرب والشرق لا يني ولا يرقد . وله في كل واد أثر ، وفي كل دولة خبر ، وقد طاف أنحاء العالم ينشر الدعوة الصالحة ويدعو قومه الى النهوض والسكفاح . وكأنه لشدة غيرته وكثرة ما ينشر ويؤلف ويدون عصبة مباركة ، فينا هو في امريكا يدافع عن مسألة سوريا ، تراه في الحجاز يؤدي الفريضة المقدسه ، ولا تلبث أن نقرأ خبر رحلته في الحجاز ، فاذا هو يطوف أنحاء الاندلس باحثاً منقياً في آثار الجدود ، ليعلى شأن العرب وليخلد بقله الرايع صحائف مجدهم . وقد كانت له وقفات نذكرها في كل نهضة وفي كل عمل جليل . ولم يتهم على الشرق والاسلام والعربية متهم الا وكان له الأمير بالمرصاد يرد كيده في نحره . ويتفه عند حده ويدفع حجته بحجة ناصعة هي الحق المبين والصدق الذي لا يأتيه الباطل من شمال أو يمين . وهو الآن راض بالنفي في أقطار اوربا بعيداً عن وطنه العزيز ، حيث ينشر المجلات باللغة الفرنسية لينفي عن الاسلام بعض تلك التهم التي يوجهها اليه خصومه الأغيار وأعداؤه الألداء .

هذا رأينا في الأمير وفي جهاده ونحن مهما أوتينا من قوفا في البيان وبلاغة في الوصف وانطباع على عرفان الجميل وغريزة لاداعة فضل الفضلاء لانملك أن نفي هذا الرجل العظيم حقه من الثناء فانه أكبر أر كان النهضة الشرقية ومن أعظم أبطال الحياة القومية في الشرق والاسلام والعرب . وليس هو وحده المهاجر المضحي بل مثله شقيقه الأمير عادل .

وهذا هو الذي دعانا الى تقدير رأيه والنظر في كل ما يقع لنا من كتبه ومباحثه .

وها هو اليوم ينادى بالحلف العربي ، وقد نشر فكرته هذه في صدر جريدة الشوري التي صدرت في القاهرة في العدد المؤرخ في ١١ مارس سنة ١٩٣١ والمقال غريب في بابه ونادرة من نوادر القلم . فان الأمير يستهله بقوله « بكينا حتى عمينا على أن نرى تحقيق مشروع الحلف العربي ! وأجمعنا كلنا على أنه لاحياة للعرب في هذا العصر وما يليه الا به لأنه

الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذي أنشأ برائنه بقسم من بلداننا وهو يتهدد القسم الباقي منها . فاذا أنشأ برائنه بجزيرة العرب كما أنشأها بسورية والعراق وفلسطين والكويت والبحرين وعمان وحضرموت وعدن لم يبق عربي على وجه البسيطة حراً .

يظهر من هذه المقدمة أن الأمير كان يتحرق هو واخوانه على تحقيق الحلف العربي بين أمراء الجزيرة وملكها ، وقد أشرنا الى فشل المساعي التي بذلها أصدقاء ابن سعود والامام يحيى لايجاد هذا الحلف في الجزيرة نفسها .

ولكن الحلف الذي يشير اليه الأمير في مقاله والذي يشغل الأفكار الآن ( ١٩٣١ ) إنما هو بين الملك فيصل وبين ابن سعود . لأن انكثرتا تقصد مدسكة حديدية من العراق الى فلسطين وأنه لابد لها حتى يكون الخط مستقيماً ولا يدور دورة طويلة من المرور بأرض الجوف ووادى السرحان التابعة لابن سعود .

وكان الأمير شكيب نفسه قد كتب في سنة ١٩١٧ مقالات عند ما كان في برلين وكانت الحرب دائرة رحاها مشتتة لظاها وحذر المسلمين والعرب من خنق الانجليز لجزيرة العرب عند ما كان الكثيرون يرون أن كل من ناصب انجلترا العداة فهو خائن للعرب وان انتصار انجلترا هو نجاح لقضية العرب ( والامير يشير بذلك الى الفترة التي كان فيها العرب مستعرقين في محبة الانجليز وتصديق وعودهم ، والانجليز من ورائهم يعتقدون المعاهدات السرية لتقسيم أوطانهم وأوطان سوام )

وكتب الأمير في سنة ١٩٢٦ عند ما طرد الانجليز مجاهدي سوريا من الأزرق فلجأوا الى أرض ابن سعود فقال تلك الجملة التي كادت تسير مثلاً « العرب أصبحوا غرباء حتى في بوادهم » .

وقال الأمير نفسه عن هذا الخط الجديد انه مهما يكن من منافعه المادية فالقيد اذا كان من ذهب لا يخرج عن كونه قيداً وحبل المشنقة اذا كان من حرير لا يخفف منه شقاً وقال



ان خطأ كهذا اذا امتد فلا بد من أن يكون عربياً بحثاً لالانجليزياً وقد حذر من الرضى بهذا الخط الانجليزى فى الكتابات الخاصة والعامه .

هذه هي خطة الامير شكيب حفظه الله للاسلام ذخراً منذ سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢٦  
فما الذي استجد ؟

انه عند ما ذاع خبر الحلف العربى ، صاح الكثيرون من المشتغلين بشؤون العرب  
وممن لاعلاقة لهم بالمراجع الرسمية .

« لا لا ! اياكم وهذا الامر فانه دسيسه انجليزيه . »

والآن يدافع الامير شكيب عن الحلف وينفي كونه دسيسه انجليزيه قال :

« قالوا ان الحلف دسيسه انجليزيه لان المقترح له هو الملك فيصل بن الحسين  
ووزيره نوري السعيد . وكل منهما لا يقول الا ما تقوله له انجلترا كما تقول البب . . ( السطر ١٩  
العمود الاول من جريدة الشوري العدد ٣١٥ ) وانجلترا اذا اقترحت حلفاً بين ملوك  
العرب فلا بد من أن يكون دسيسه فاقترح ملك العراق ووزير العراق هو بلا مرء دسيسه انجليزيه  
« وهل من المعقول أن انجلترا تعمل لتقوية العرب ؟ فلا جرم أنه لو لم يكن شركاً  
للعرب لم ترض به انجلترا ويقولون : نعم هذا الحلف العربى لم يكن اقترح الملك فيصل إياه  
الا بناء على اشارة انجلترا التي تريد به تأمين المواصلات البريطانية . كما أنه سيلقى عند الملك  
ابن سعود قبولا بواسطة أن فلبى هو فى جسده — والآن صار فى مكة سيحمل الملك على  
قبوله ! أفليس فلبى هو الذى يدير اليوم دفعة الحجاز ونجد ؟

لقد كنا نسمع أن فلبى يفعل ما يشاء فى الحجاز ولا نصدق فالآن قد أثبت العيان

ما طيره السماع »

هذه حجج خصوم الحلف قد نلخصها الأ.مير فى مقاله ، ثم أخذ يرد عليها تارة باطلف  
وطوراً بعنف يدل على شدة اخلاصه وسلاوة قلبه قال ، وقد اختط خطة جديدة وهى الظن

بأن سياسة انجلترا قد تكون هذه المرة في مصاحبة العرب وسلم جدلاً بأن الحاف العربي هو تنفيذ لرغبة انجلترا ولا نريد أن نقول دسياسة انجليزية ، قال الأمير :

« من أنباءكم بأن سياسة انجلترا مبنية من أولها الى آخرها على تفريق العرب شذر مذر ؟ فالسياسة بحر لا يدرك قعره والسياسة كل يوم في شأن والسياسة تتلون بحسب الزمان والمكان والطوارئ . والعوارض فكما أن زيادة قوة العرب خطر على انجلترا فكذلك زيادة ضعف العرب في الجزيرة خطر على انجلترا فانجلترا ليست في البحر الأخر وحدها . وهناك دول عظيمة متحفزة للوثوب فاعرة فاها للابتلاع تعد الطيارات بالألوف وتهب الجيوش والزخوف . وما تهب كل ذلك لمجرد الزينة بل لأجل العمل فان بقي العرب فيهم عليه من تخاذل وتواكل وتفرق وشحناء فقد تقحم هذه القوة الأجنبية عورتهم وتمولج اغرتهم وتنزل في الجزيرة ويصعب بعد ذلك قلعها . »

وحينئذ يري الأمير شكيب أنه ربما كانت سياسة انجلترا تغيرت هذه المرة ، وأن الانجليز يوعزون بالملف لاتقاء هذا الخطر الداهم ، وهذا الخطر معلوم أنه آت من جهة ايطاليا كما هو معلوم وشهور فلانجليز الذين لن يستطيعوا محاربة ايطاليا لأسباب دولية وسياسية واقتصادية ، قد فكروا في تقوية عرب الجزيرة أنفسهم ، ليكون هؤلاء العرب صدأً للفتح الايطالي أو غيره وعلى ذلك يقول الأمير :

« فأما اذا كان ملوك الجزيرة متحالين فقد يجوز أن يحسب المتحفز للوثوب حساباً لأن الثلاثة أقوى من الواحد ولأن الأمة العربية يومئذ تقوم كقمة واحدة في وجه المعتدي الأجنبي . »

ثم أخذ الأمير بصرف العرب عن عداوة الانجليز بلطف زائد أو يهون معاداتهم في الظروف الحاضرة فقال :

« لا تنظروا المدوم من جهة واحدة وتقولوا هو من هنا وجف القلم فقد يكون العدو من جهتين . وقد يكون أحدهما وهو الجوعان ( أي ايطاليا ) أشد خطراً من الآخر وهو

الشبعان (يعنى الجملترا) !

«فلا انجليز لا يريدون قوة العرب واستفحال دولتهم حتى يصير زمام طريق الهند في أيدي العرب . ولكن الانجليز لا يريدون أن تكون جزيرة العرب لقمة سائفة يتهافت عليها الآكل الجشع فلموازنة بين القوى هي عماد سياسة الانجليز !»

ثم يعود الأمير فيذكر العرب بأخطائهم في السياسة وقصر نظرهم في عواقب الأمور فقال مخاطباً المقاومين للحاف العربي « كذلك كنتم قبل الحرب العامة وأثناء الحرب العامة لا تنظرون العداة الا من جهة واحدة هي جهة الترك وصممتم عن كل عدل من جهة الانجليز وكان كل من حذركم من دسائس الانجليز وسوء المنقلب معهم نبتموه بخيانة العرب وحرقتهم عليه الارم .

«وكان اذا نشر الروس البلاشفة معاهدات تقسيم البلاد العثمانية ومنها بلاد العرب بين انجلترا وفرنسا وروسيا قاتم هذه دسائس اترك وألمان وهذه الاخبار لاصحة لها . أليس كذلك ؟ فلما ظهر لكم غدر الانجليز ونسكتهم لما عاهدوكم عليه ندمتم وعضتم أناملكم وصرتم لاترون غير الانجليز عدواً وأصبحتم لاترون الخطر الا من جهة واحدة ..»

ثم بدأ الامير ينفي عن ابن سعود تهمة انصياعه لفيلبي الذي أسلم حديثاً ودخل مكة وصار ملازماً لجلالته ولا يفارقه ليل نهار ويؤاكله ويصلى معه :

« وان تجرأ فيلبي أو غير فيلبي أن يزين له قضية تأمين المواصلات البريطانية على ظهر بلاده فانه يقصيه من أرضه بحيث لا يعود اليها . ثم انه يكذب ويفجر من يزعم أن فيلبي يدير دفعة الحجاز ونجد ، فن زعم ذلك فهو اما جاهل يتسقط الاخبار من أفواه العوام أو متجاهل يحسد فيلبي على حظوته لدى الملك ويقصد سوء بيطانته فهاج الرأي العام عليهم .»

وكذلك أخذ يدافع عن الملك فيصل الذي هو الطرف الثاني في الحلف

المزعم فقال :

« ان لم يكن فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي القرشي المضرى عربياً فمن العربي ياترى ؟ اوليس هو الذي قال لرجال الدول في مؤتمر الصلح في باريز : يوم كنا ملوكا لم تكن دولة من هذه الدول العظام موجودة ! »

وملك العراق يمد يده لمعاهدة ملك الحجاز ونجد ليؤسس وايه الوحدة العربية التي يجب تأسيسها منذ الآن والا ندم جميع العرب ولات ساعة مندم !  
ثم عطف الامير على خصوم الحلف فقال :

« فالذين من جهة ابن سعود قالوا انها دسيسة انجليزية والذين من جهة اولاد الحسين قاموا يذكرون الثارات والاحقاد . وهناك أناس عند الامام يحيى غرامهم في التخريب والتهريب ومنع كل وثام والجميع ينسون ما يحدق بجزيرة العرب من خطر الاستعمار » ويختتم الامير مقاله برأيه الصريح :

« كل حلف عربي لا تكون قاعدته الاستقلال التام بكل معانيه الذي لا تشوبه أدنى شائبة للحجاز ونجد واليمن لا يجوز أن يرضى به ابن سعود ولا الامام يحيى . »

## ٥

فأنت ترى القارى لهذا المقال يخرج منه حائراً ، لأن رأي الامير صريح في وجوب الاستقلال قبل الحلف . وهذا الاستقلال معدوم الآن في العراق وفي الجزيرة ما عدا اليمن والامام يحيى لا يدخل في الحلف ولا شأن له به ، ولم يطلبه أحد منه لأن السكة الحديدية الزمعة لا تمر ببلاده . فما هو وجه التطمين من ناحية الانجليز بعد أن ظهرت أعمالهم في أثناء الحرب وبعدها . وما فائدة هذا الحلف الذي يعقد بين أمراء واقعين تحت أنيار الانجليز واستعمارهم ، وليس الرأي العام العربي وحده ضد هذا الحلف ، أما الرأي العام الشرقى كله فقد جاء في جريدة شفق سرخ الفارسية التي تظهر في طهران في العدد ١٧١٧ ما نصه .

« لقد وجدت فكرة مشروع الحلف العربي في جزيرة العرب منذ أربع سنين . وهذه الفكرة يقوم الانجليز بالتوسط الأوفر من تشجيعها واخراجها الى حيز الوجود وقد

اتهمت مشكلة مد خط حديد حيفا - بغداد . ولما كان القسم الاعظم من هذا الخط وخط أنابيب بتروال الموصل يمر من الاراضي الحجازية والمنطقة التي لم تهدأ يوماً من الأيام من غارات العرب البدو الوهابيين اضطر الانجليز الى ايجاد فكرة الحلف العربي للمحافظة على هذين الخطين خط سكة حديد بغداد - حيفا وخط أنابيب البترول من الموصل الى حيفا ذلك الحلف المختص بالعراق وسورية ونجد والحجاز فقط بدون أن يشمل اليمن وغيرها من بلدان الجزيرة ولم يقصد الانجليز من هذا الحلف الثلاثي سوي ادخال جلالة الملك ابن السعود فيه وتقيده بقيود تضطره للمحافظة على حصته من الاراضي التي يمر فيها الخطان المذكوران وبهذه الوسيلة يتمكن الانجليز من تأمين الطريق من تعديات الوهابيين وغارات البدو الرحالة .

« ويظهر من سير القضية وأدوارها في الأيام الاخيرة ان الانجليز لا يريدون أن يتظاهروا بالقضية وانما ألقوا التبعة فيها على عاتق نوري السعيد باشا رئيس وزراء العراق فأوعزوا اليه بتنفيذ هذه الفسكرة مهادين له السبل في الخفاء مع جلالة ابن السعود . »

وهذا البيان صادر من ايران ، وليس من رجال ابن سعود ولا من رجال الامام يحيى ولا من حاشية الملك فيصل ، فما قول الامير شكيب في ذلك . وهل يعقل أن مشرعاً خطيراً كهذا يقوم به أمراء العرب بدون رغبة الانجليز فضلاً عن أمرهم الصريح ؟ واذا كان الغرض من الحلف ظاهراً وهو تأمين طريق حيفا - بغداد وأنابيب زيت الموصل ، فلماذا نذهب الى الجنوب وتفترض أو نتخيل أن انجلترا تريد في مصلحة العرب ضد استعمار جديد يأتي من دولة عظمى أخرى تعد الجيوش والطائرات .

واذا كان المقصود انشاء حلف عربي تام بمعنى الكلمة فلماذا يكون بين العراق (وهي ليست من الجزيرة) وملك نجد والحجاز دون أن يكون بين جميع الامم العربية ومنها سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا ؟؟ ..

هذه وجهة نظرنا ، نئينها ونحن نحترم عطفة الأمير شكيب ونجله ونحبه وثق به

كل الثقة ونعتقد ونصرح أنه لم يحرك يوماً قلمه أو لسانه الا بالصدق وفي خدمة الحق والاسلام والشرق

ولكن حبنا للأمير وثقتنا به لا يمنعنا من مناقشة آرائه في مثل هذه المسألة الجليلة بعد أن كشف عنها الحجاب واستبان حقيقتها . . ومتى كان الانجليز يصدقون في سياستهم مع الشرق الضعيف ؟ وهل يصدقون مع العراق وقد وصفه الامير بانه :

« أشبه برجل ضعيف يحمل كنوزاً لا يعلم الا الله قيمتها فهو محاط بلصوص يريدون اغتياله لا بغضاً بشخصه بل حباً بسلب الكنوز التي يحملها . وهذا الرجل الضعيف المنفرد ان نجا من لص وقع مع لص آخر »

ولو افترضنا صحة نظرية الامير ، من أن الانجليز يريدون تقوية العرب لصدهجمات دولة عظمي أخرى ، أفلا يكون هذا إعادة لمأساة الحرب العظمي فقد تقوى العرب وتعاهدوا مع انجلترا على خراب تركيا بأمل أنهم يفوزون باستقلالهم ، فكانت النتيجة أنهم خسروا وخرّبوا تركيا وصاروا مضغة في الافواه ، حتى الامير نفسه يعيب عليهم هذا ويدكرهم به ؟ الا فليعلم كل عربي و كل شرقي و كل مسلم في أنحاء البسيطة ان كل فكرة تصدر عن اورو با في السياسة لا يقصد منها خير للشرق ولا للعرب ولا الاسلام انما هي حباله يقصد بها جر المغانم وسلب الكنوز والقضاء على الامم الضعيفة .

ان كل فكرة تدبرها اورو با السياسية ، لا بد أن تعود بالخراب على الشرق ، ونحن لانزال نذكر تلك النهضة التي سموها نهضة العرب وألف بسببها المرحوم نجيب العازوري كتابه الشهير « نهضة الامة العربية » باللغة الفرنسية ، فان عرب سوريا وتركيا عقدوا في تلك الآونة مؤتمراً في باريس ، شقوا به عصا الطاعة على الدولة العثمانية ، وكانت الجزيرة بركانا مشتعلتا تقوم فيه الفتن ولم يكن المحرك لها سوي الانجليز وقد شفق معظم المساكين الذين أطاعوا فرنسا وانجلترا ، شفق بعضهم في دمشق وبعضهم في بيروت ، ولانزال نذكر منهم المرحوم السيد عبد الحميد الزهراوي الذي جعلوه رئيس المؤتمر وهو لا يدري من السياسة شيئاً

وذهب ضحية الغواية والاهام . لقد قيل في تلك الفترة ان العرب قد تيقظوا وان هذه اليقظة كانت انتقاصاً على الترك وقياماً في وجههم وكانت سائر الاقطار العربية من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها للحكم التركي متجهة في وجه الترك موغرة الصدر عليهم وذلك بفعل وسطاء انجلترا وفرنسا الذين كانوا لاجئين الى مصر وأغلبهم من السوريين والفلسطينيين الذين يعتقدون اجتماعاتهم في قهوة سبلنديدبار ، ويتناولون مرتبات من الاموال السرية الفرنسية والانجليزية . وقد أدخلوا في روع العرب انهم أمة الرسالة المحمدية وليس من النصفه في شئ أن يظلموا خاضعين لنير التركي الغريب الطوراني الوثني الذي يعبد الدب الأبيض الى آخر ما اخترعوا وكذبوا وقد استعمل الفرنسيون بعض السوريين مثل نجيب غازوري الذي ألف كتاب نهضة الشعب العربي ، ومثل دكتور سمعة الذي لا يزال في باريس وكان ينشئ مجلة فرنسية ضد الاتراك وهو وسيط فرنسا وخادمها الحميم ثم استكتبوا فيكتور بيرار فالف كتابه عن السلطان عبد الحميد والاسلام والدول ( ١٩٠٧ ) وأخذ الدكتور شبلي شميل يكتب المقالات البليغة في الطعن على الترك وتسفيهم ويرى في التركي مخلوقاً منغمساً في الرخاء المادي ذلجور ووحشية ، ولا يستطيع في بحر ألف عام أن يخلق لنفسه شبح مدينة يفتخر بها بين الامم ، سوي اهراق الدماء واهلاك الجيوش ، واحتلال ممالك الشرق ، وكانت من وراء هؤلاء صحف يومية تحقد على الاتراك ، وتطعن المصريين في مطالبهم الوطنية وتشعل نيران الفتنة بين الترك والعرب وبعض أصحابها يدعون أن رؤوس آبائهم وقعت في ثورة ١٨٦٠ فهم لا يغفرون للترك ذلك ولا يذنبون ثارات آبائهم بعد أن أثموا في مصر بخيانة مصر وصارت لهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة الواسعة من الاراضي الخصبه التي أقطعهم اياها اقطاعا الرجل المسي كروم لآبائهم كانوا سدنة هيكله ( قصر الدوباره ) وعباده الذين لا ينون في خدمته . . وكان بينهم وبين الشرق والاسلام ناراً فهم أعداء لكل خير يأتي اليهما .

وقد نسب الى شريف مكة ، على لسان فيكتور بيرار انه قال « نكره اكرها ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة ( هذا أمر ليس مشكوكاً فيه ! ) على حيازة رؤوسنا

لهؤلاء الباشاوات الادياء ( عطاء الاتراك ) الذين كان غالبهم من قبل عبدانا نصارى فله استطاعوا بلوغ كرامى الحكم وتقلد أزمة الاعمال الا باحط الذرائع وأشين الوسائل .

وقد أرادت الطبيعة ، وسير الامور ، ان بعض الشرفاء من العرب صاروا يطاطئون رؤوسهم لا للاتراك الذين دخلوا فى الاسلام من ألف سنة ، واعلوا شأنه بفتوحهم بل لاحظ موظف أجنبي من باريس أولندن ، يتحكم فيهم ويبيدهم ويشترىهم بالبخس الأثمان .

وكانت تركيا أثناء القرن التاسع عشر كلما خاضت حرباً فى اوروبا وخرجت منها متهورة عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها أو انتقاض تشب ناره فى قطر من الاقطار العربية .

## ٦

قلت آتفا ان سوريا كانت منشأ روح العصيان على الترك لأنها كانت أكثر الاقطار العربية تعرضاً لتلقى الروح الغربية والمؤثرات الاوربية ، ولأن لفرنسا فيها أخلافاً وأحفاداً يدعون أنهم بقايا الصليبيين ، وينادون بفرنسا ، ويستغيثون بها ويسمون بها « الام الحنون » وترجع دسائس اوروبا فى سوريا الى سنة ١٨٩٥ عند تأسيس الجمعية الوطنية العربية وقد قضاوا عشر سنين فى نشر دعوتهم انتشاراً غامضاً ملتبساً الى أن شبت نار الفتنة المسلحة فى الحجاز واليمن ( ١٩٠٥ ) وما زالت تلك الفتنة مشتعلة حتى تكبدت تركيا خسارة فادحة فى المال والرجال وانتجت تلك الخسارة ضعفها المالى والحربى الى أن كانت كارثة الحرب البلقانية وحرب طرابلس . فخراب تركيا وضياح قطر من أهم أقطار شمال افريقيا كانا النتيجة المباشرة للدعاية السورية الفرنسية التى استهوت أهل الجزيرة البسطاء الذين قاموا فى وجه تركيا ، دولة الاسلام الوحيدة فكان خرابها وخراب أنفسهم على أيديهم .

وكان السراب الذى رسمه الساسة الاوربيون للعرب فى تلك الفترة هو عين الحلف العربى الذى ينادون به اليوم فقد نشرت الجمعية الوطنية فى باريس ( اقرأ وزارة خارجية فرنسا ) منشوراً موجهاً الى الدول العظمى جاء فيه :

« ان انقلاباً سلمياً هائلاً حدث عما قريب فى تركيا ( ساميا ؟ . . وما قولكم فى فتنة



الحجاز واليمن المشتعلة من ١٩٠٥ والتي دامت الى سنة ١٩١١) والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين في ارهاقهم وتفريق حزمهم تقريرا دينيا ليتسنى لهؤلاء حكمهم قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافات وطنية وقومية وتاريخيا وهم يرغبون الآن في الانسلاخ عن الارومة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولة مستقلة وهذه هي الامبراطورية العربية التي تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى قناة السويس ، ( لم يجرؤا على ذكركم خوفاً من الانجليز ) ومن بحر الروم حتى بحر عمان و يرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة ( !!! ) وأما ولاية الحجاز الحالية وفيها المدينة المنورة ( وقد أرادوا ايها المسلمين بالمحافظة على الاماكن المقدسة ، وحفظوا نصيب شريف مكة الذي لم يكن يطعم في أكثر من ذلك ) فيتألف منها مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكاً وخليفة جميع المسلمين ( !!! ) وبهذا تحمل العقدة الكبرى في الاسلام وهي التفريق بين السلطتين المدنية والدينية» اهـ . المنشور الذي كتب بايعاز فرنسا .

وقد جاء الدستور العثماني في ١٩٠٨ محبطاً لآمال أوروبا لأن جميع العناصر العثمانية وفي مقدمتهم العرب نالوا قسطهم الأوفي من الحقوق الدستورية ، ولكنهم لم يلبثوا طويلاً حتى أيقظوا الفتنة النائمة حيناً وأوعزوا الى العرب أن يطالبوا بالامر كزية فرفض رجال تركيا الفتاة مطالبهم لأن اللا مركزية معناها الاستقلال الداخلي فالانشقاق الذي كان يرمى اليه سياسة الاستعمار ، وبعد الدستور العثماني عقد مؤتمر عربي ( اقرأ فرنسي سوري ) في باريس وهو الذي كانت رياسته معقودة للمسكين الزهراوي الذي دفع حياته ثمناً لكسري الرئاسة على يد جمال باشا ، وكنا قد قابلناه في سنة ١٩١٠ بالاستتانه وهو اذ ذاك عضو مجلس الاعيان ، ومتمتع هو ورفاقه العرب النواب في المجلسين بالكرامة والاحترام ، وينشر جريدة أسبوعية للدفاع عن حقوق العرب في شارع نوري عثمانية . وقد نجا من الشنق بعض الرجال الاذكياء الذين لم يكن لهم ضلع مع الفرنسيين أمثال صديقتنا الكريم الاستاذ صاحب السعادة د.ل . رئيس ع.م.م. بدمشق ، فان هؤلاء كانوا يميلون الى نصرة العرب في حدود الوطنية العثمانية ولم ينضموا يوماً الى أعداء الدولة الذين خانوها وهم يعلمون أو لا يعلمون .

وبعد ان أعلنت الحرب العظمى وانضمت تركيا للامان ، عاد المستعمرون وكلهم من الحلفاء الى الخطة الأولى فاعزوا الى شريف مكة باشعال نار الفتنة ففدح الشريف حسين زنادها وكانت بريطانيا ظهيرة تلك الثورة تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء بل المال والرجال ومن هؤلاء كولونيل لورنس الشهير الذي اطلق عليه لوي د جورج لقب « ملك العرب الغير متوج » وقد نسبوا الى هذا الرجل العجائب في الذكاء والشجاعة والفتنة واتقان اللغة العربية بجمعهم لهجاتها ، والقدرة على التخفي والزوغان ، ومهارة الحرب . حتى يخيل للسامع أنه أحد أبطال القصص القديم والحقيقة انه لم يكن على شيء من ذلك ، وكل أمره انه كان محملاً بقناطر الذهب يوزعها ذات اليمين وذات الشمال ، ويملك زمام زعماء العرب بالاصغر الرنان ، وكل ما ينسب اليه من حذق ودهاء وسرعة خاطر وعلم واسع باللغات ، انما هو من صفات الجنيه الانجليزي جلت قدرته او قد رأينا في قسم آخر من هذا الكتاب كيف كان أثر هذا الجنيه في فتح مصر وفي شراء ذمم العرب لعهد بالمر المستشرق الشهير

نعم لم يكن الفعل كله الليرة والدينار ، ولم تكن خيالة القديس جورج (المرسوم على أحد وجهي الجنيه الانجليزي ، لأن العرب كانوا يرفضون استلام أى نقد سواه) هي وحدها التي كسبت القضية لجانب الحلفاء فاننا لو قلنا بذلك نكون قد هضمنا كل حقوق العرب وأنزلناهم منزلة اللصوص والخنوة وقطاع الطريق الذين لا يراعون إلا ولا ذمة ، بل انه كان في هذا الهياج الجنوني ضد الترك نصيب للوعود الخلابه التي أدلى بها الحلفاء وهي وعود استقلال العرب وتقرير المصير ، ويظهر أن العرب لم يطلبوا المساعدة المادية التي كانت تنهال عليهم انهميال المطر (حتى ان الوسطاء بينهم وبين الحلفاء ، قبل الاتصال المباشر آثروا واستغنوا ومنهم قوم في مصر لا يزالون يرحون في ثمار خيانتهم للشرق والاسلام والعرب) بل طلبوا قطع العهود والعود الباتة التي لا ريب فيها بأن ثورتهم هذه التي يشبون ناراها سيكافأون عليها بانشاء دولة عربية. ففي ٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٥ ( وهذا تاريخ مهم يجب أن يحفظ ) سلم مندوب انجلترا بمصر المدعو هنرى مكماهون أو مهمما يكون ، الى ممثل شريف مكة في القاهرة ، صك عهد تعهدت بوجبه بريطانيا العظمى على شريطة قيام العرب بالثورة بالاعتراف باستقلال العرب

في الامبراطورية العثمانية ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضي اتخاذ تدابير مخصوصة في شأن السلطة الادارية .

( وقد قيل في ذلك الحين ان ذلك كان ينصب على ميناء البصرة ليس غير ) « وأيضاً فيما عدا المناطق التي ليست بريطانيا العظمى حرة في التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسا » ولم يطلب ممثل شريف مكة تفسيراً لهذه الفقرة الاخيرة ، لأنه لا ريب كان داخلاً في النواصرة ضد الشرق ، وكان يتقاضى مرتباً من الوكالة الانجليزية ، ان لم يكن من الغباء والغفلة بأعظم مكان ، ولكن الحقيقة انه كان مأجوراً على الصمت والقبول ولعله فسر نص هذه الفقرة لمولاه بأن هذه العبارة الشاذة في صك مكماهون ، تنصب على منطقة لبنان الضيقة فتهلوا فرحاً وسروراً :

قال الامير شكيب ارسلان في أحد تعاليقه القيمة على كتاب حاضر الاسلام « هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا وفرحوا ليسوا كل العرب ، بل ان قسماً من العرب كانوا يعرفون ما وراء الالكمة وطالما نبهوا وحذروا قومهم من الوقوع في الشرك فلم يجد تحذيرهم قبلاً ومالنا وما للتذكير بما كل أحد يعرفه فما يوم حليلة بسر » ..

والحقيقة التي يشير اليها الامير شكيب ارسلان هي أن الحكومتين الفرنسية والانجليزية قد اتفقتا على تقسيم بلاد العرب والعراق ، أي على تقسيم تركة الدولة العثمانية الى مناطق نفوذ فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم وكانت المنطقة الفرنسية مشتملة على لبنان ، فبادرت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية في عقد الوثائق والمساومات على السماع فوقعت الحكومتان في ٥ مارس سنة ١٩١٥ أي قبل صك مكماهون بسبعة أشهر معاهدة سرية خولت فرنسا بتمتصها حق التمتع بالتقدم على سواها في سوريا وخوات بريطانيا مثل ذلك الحق في العراق .

فلما أُلح العرب في طلب العهود والوعود وهم لا يعلمون بالمعاهدة السرية وان كان الامير شكيب يقول انه نبههم وحذرهم ، فطبخوا لهم صك مكماهون السالف الذكر .

و بعد صك مكماهون بسبعة أشهر أخرى عقدت فرنسا وانجلترا معاهدة سايكس بيكو اتفقتا بمقتضاها اتفاقا نهائيا على تقسيم الاقطار العربية في الدولة العثمانية تقسيما قائما على أساس المعاهدة السرية التمهيدية التي أمست تشبه العقد الابتدائي في بيع العقار ، فباتت العراق عراقاً بريطانيا وسوريا مستعمرة فرنسية لاشك فيها وكذلك اعترفوا بسلطة انجلترا في فلسطين ونقوذ فرنسا في سائر سوريا من حلب الى دمشق .

وبذلك أصبح صك مكماهون واستقلال العرب سرا بآ وحلماً مضحكا ، وكأنه شيك على بنك لا يوجد به نقود باسم كاتبه un cheque sans provision

وكان قواد الانجليز لا ينفكون عن اعطاء الوعود للعرب وهي مودعة في المنشورات والتصريحات التي كانوا يذيعونها مثل منشورات الجنرال مود في العراق (مارس سنة ١٩١٧) ويروي ان هذا الجنرال مات لأنه شرب قهوة في خيمة موبوءة بالطاعون ، وقد حذرده فأبى أن يرفض كرامة العربي ولو كان في قبول الضيافة حنقه ، فلا ندري ان كان رجلا كريما كهذا كان يعلم بالمعاهدات السرية أولا يعلم . ولكن بين مكارم الاخلاق وتنفيذ الخطط السياسية بونا شاسعاً جداً .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ظهرت أوزار السياسة ، وعلم العرب ( الذين لم يصلهم تحذير الامير شكيب أو وصلهم ولم يؤمنوا به حيال ايمانهم بالدينار ) بانهم كانوا ضحية خدعة كبرى ، وانهم أضاعوا أنفسهم وأوطانهم وضربوا بمعاول مطامعهم وجهلهم وقصر نظرهم وغرورهم الدولة الاسلامية الكبرى والعجيب أن العرب لم ينهضوا في هذه المرة بفتنة عظمي ضد الحلفاء ، ولم يغضبوا لهذا الغدر الفاجع ، وسمِعوا نصيحة الامير فيصل فسكتوا طول سنة ١٩١٩ حتى دب الخور الى العزائم وسري الضعف الى القلوب ، وأقنعهم الامير بضرورة الذهاب الى مؤتمر الصالح ( ! ! ) فوافدوه لبيسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحف بموقفه الوقار ( وهو الموقف الذي وصفه الامير شكيب في مقالة الشورى ) ولكنه للأسف لقي خيبة المسعى ! .

## ٢٧

١

وكان ويلسون وكمنصو ولويد جورج، قد أحسنوا طهياً مشروع الانتداب، الذي هو كلمة حلت محل الاستعمار، لأن الشرقيين في زعمهم وزعم تشيرول، يكثرثون للانفاظ أكثر مما يكثرثون للمعنى فاشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على الرفق والعطف وذلك .

« ان الاقوام المعلومة في المادة ٢٢ من عهد العصبة التي كانت من قبل في الحكم التركي وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطيع عنده الاعتراف بكيانها أمام مستقلة استقلالاً معلقاً، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتي يأتي يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها اذ ذاك على غاربها » مثل كلام كرومر !

وكانت المعاهدات السرية قد نشرت وقرأها العرب وغير العرب وعلموا علما مكيئا انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة مواهبهم ومساعدتهم وجهودهم . ومع ذلك فلم يثوروا ولم يجردوا في وجوه الذين خانوهم وغدروا بهم أقبح غدرا سيفا ولارمحاً من تلك السيوف والرماح التي جردوها في وجه الاتراك من ١٩٠٥ الى سنة ١٩١٨

والعجيب أن الامير ص . ظل يؤثر المساعي السامية على التهور في الحرب ولو لاطهار طرف من نخوة العرب وشممهم وعلو همتهم وغضبهم للغدر، واحتجاجهم على تلك الطعنه النجلاء التي جاءتهم من وراء !

والانكى من هذا كله، هو أن العرب الكرام لم يفضبوا، ولكن فرنسا التي أخذت نصف الغنيمة غضبت شأن اللصوص عند اقتسام الغنيمة وقديما جاء في الامثال اختصم اللصوص فظهر المسروق، وفي هذه المرة صار المثل صادقا بالانعكاس « ظهر المسروق فاختصم اللصوص » .

وقام رجال سياستهم يشنون الغارة ويدعون انهم غبنوا غبنا شديداً وانهم كانوا يطعمون في الموصل بآبار زيته الغنية التي وقعت غنيمة باردة لانجلترا ( وخط أنابيب زيت الموصل هو الذي خلق فكرة الحلف العربي الجديد) وصرح موسوليج في مجلس نواب فرنسا ١٩١٥ بأن فرنسا لها حقوق في الشرق ترجع الى عهد الصليبيين والى الملك شارلمان !! وان محور السياسة الفرنسية هو في البحر الابيض المتوسط قطبه الواحد في المغرب المشتمل على الجزائر وتونس ومراكش وقطبه الآخر في الشرق المشتمل على سوريا ولبنان وفلسطين !! وبعد ان هبطت هذه الزوبعة عاماً تقارض فيها الانجليز والفرنسيون القذف والظعن والتعير بالطمع والجشع في بلاد الناس (!!!) وغبن الدول المخالفة (!!) اصطالحوا في مدينة سان ريمو على اقتسام الغنيمة اقتساماً رسمياً وسيروا الجيوش الجرارة الى سوريا والعراق ، ودعوا الخوجا فينزيلوس لمشاركتهم في احتلال القسطنطينية واعداد حملة للفنك بمصطفى كمال في الاناضول لاقتسام آسيا الصغرى ، لتدفع البقية الباقية من الدولة العثمانية بمن الصالح وقيمة الخمر التي شربت على موائد سان ريمو .

وكان أقصى ما قدر عليه العرب انهم أعانوا بالاتفاق استقلال سوريا يوم ملكوا عليهم فيصلا وكان الفرنسيون قد ساقوا فلول جيوشهم وعددها ١٠٠.٠٠٠ الى سوريا بقيادة الجنرال غور و المبتور الذراع وفي ١٥ يوليوس سنة ١٩٢٠ (صبيحة عيد الحرية الفرنسي) أرسل غوروا الى فيصل بلاغا أخيراً وهاجبه بجيش قوامه ستون ألفاً لم يحاول فيصل مقاومة حقيقية بل قاتل قتالا طفيفاً بعد أوانه وانسحب الى الصحراء . وقامت في العراق فتنة تعب الانجليز في اخذها واحتل الحلفاء دار السلام وعاصمة الاسلام ، وقد روى لي أحد المضربين انه سمع من رجل تركي أثناء الحرب « ان الحلفاء ان يتمكنوا من عاصمتنا بالقتال ، ولكنهم سيدخلونها بعد الحرب بغير سلاح » وقد سحقت كبرائه . وفشلوا في غاية ولى ثم احتلوا بالحيلة .

## ٢

وكانت الحرب هذه المرة بين الترك والعرب، فانهم أخذوا سوريا ثم العراق، وكفوا  
 فنز يوس بالقضاء على الاناضول وجهازته انجملترا بالمال والسلاح فأعد جيشاً صليبياً قوامه  
 ١٠٠٠٠٠ مقاتل ولما فشل اليونان في أول الأمر طردوا فنز يوس وأعادوا ملكهم قسطنطين  
 الى العرش؛ فاستمرت الحرب ومن ورائها انجملترا فجزهم الترك شر هزيمة والتي به معظمهم في  
 البحر وأسر قوادهم وفي اليوم الذي تمت فيه هزيمة اليونان (سبتمبر ١٩٢٢) سقط لويد  
 جورج وحكومته. وباء الحلفاء بالخسران وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهنات  
 الهينات وعاد شيء من الوفاق بين العرب والترك بعد أن ظهر للعرب نتيجة خديعتهم وتعصيدهم  
 للحلفاء. ولكن بعد فوات الفرصة.

وكان الكولونيل لورانس قد أراد تبيض وجهه امام العالم، فشر بياناً جاء فيه .  
 « ان العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العظمى ليس لأن الحكومة  
 التركية كانت فاسدة فساداً شديداً، بل لأنهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال  
 فلم يخوضوا غمار المعركة لسكي يستبدلوا سادة بسادة كأن يخضعوا لبريطانيا أو فرنسا كلا بل  
 لسكي ينشئوا دولة عربية» .

«والحقيقة أن كل ما كان يذاع عن ظلم الترك للعرب، كان مدسوساً، ومصطنعاً  
 لصالح المستعمرين، ونحن لا نقول مع بعض القائلين ان كنت ما كولا فكن أنت آكلي،  
 ولا ان استبداد الترك أرحم من عدل الأجانب، حاشا ولكن التاريخ والحوادث المستقبلية  
 أثبتت أن العرب كانوا مخدوعين فانه ليس من مملكة احتملها الأروبيون بعد الحرب العامة  
 في الشرق الأدنى وأتوا فيه بإدارة تفوق الادارة العثمانية التي كانت قبل الحرب بل أتوا فيه  
 بإدارة تترقى الى درجة محاكاة الادارة العثمانية التي وان لم تسكن المثل الأعلى فقد ثبت عند  
 الجميع أنها كانت أعدل وأحكم وأغف وأضبط من ادارة الحلفاء في البلدان التي جاءوا لتنظيم  
 أمورها بزعمهم، فخدموا الاتراك بإدارتهم هذه أجل خدمة من حيث لا يشعرون» ص ١٨٥

حاضر الاسلام أما ما حدث بعد ذلك في سوريا وحرب الدروز وتخريب دمشق وجميع الحواضر السورية ، فلا يزال حاضراً في الازهان ولا يزال أبطال الحريه السورية مشتتين في الاقطار ، ومنهم الدكتور عبدالرحمن شهيندر الذي يقطن القاهرة وكثيرون من الذين حكم عليهم بالاعدام من الساطة الفرنسية . ولا يزال زعماء الدروز منفيين بارادتهم في الصحراء وبينهم البطل الأعظم سلطان باشا الاطرش يكابدون أنواع المشقات في العيش بعيدين عن وطنهم في سبيل مبادئهم . وهم على أشد أنواع التعب والشقوة يتقوتون من محصول الارض ويستمدون المعونة من المهاجرين في أمريكا ومصر ، وقد أظهر البطل الضرغام سلطان باش من ضروب الشجاعة والاستبسال في حرب الفرنسيين ومهاجمة دباباتهم والقضاء على جيوشهم الجرارة ما جعل اسمه في بضع سنين قرين أسماء عبد القادر الجزائري والامير عبد الكريم

أما في العراق فقد أقر كولونيل لورنس في بيان نشره في أغسطس سنة ١٩٢٠ بما يأتي « لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهماء وصارت حكومتنا أسوأ وشرراً من الحكومة التركية البائدة ، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا في البلاد ويوطدوا الاحكام بأربعة عشر ألف جندي من أهل البلاد وبقتل مائتي عربي كل سنة ( في مناوشات ) أما نحن ( الانجليز ) فاننا نحفظ جيشاً عدده تسعون ألف مقاتل تام العدة مجهزاً بالطائرات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة وقد قتلنا نحواً من عشرة آلاف عربي في ثورة هذا الصيف ( مثل من كان الترك يقتلون في خمسين عاماً ) »

وقد حدث للامير فيصل أنه بعد أن خلع عن عرش سوريا ، قصد سويسرا حيث أقام وقتنا طرق فيه أبواب عصبة الامم فلم يجد مجيباً ، فأرسل الرسل الى لندن وباريس ، فأغلقوا الابواب في وجوههم ، وكشرت جماعة دوننج ستريت والفورين أوفيس وكبي دورسي عن أنيابها ، ورمته بخيانة قضية الحلفاء اذ قبل عرش سوريا وعلان استقلالها وهو يعلم أنها أرض فرنسوية ، ولم يذكروا شيئاً من غدرهم وخيانتهم . وبعد أن قضى الأمير نحو عامين



وهو في حيرة الخلوغ الملقى عن ملكه ، وتحقق لديه أنه ربما يعود الى مكة بيد فارغة والأخرى لا شئ فيها ، عاد فطرق أبواب الساسة مرة أخرى فلم يشأ كائنصو لقاءه وكذلك لما علم لويد جورج بوجوده في لندن ورغبته في لقائه بان واحتجب ، وادعى الغضب ، ثم سمح له باللقاء ، وعينوه على مضمض منهم ملكا على العراق ، طمعاً في أن يكون تعيينه وسيلة لتمهيدته الخواطر ، لا سيما وان لويد جورج كان التي خطاباً في ١٩ سبتمبر سنة ١٩١٩ ابان انتشار الثورة المصرية جاء فيه « أن العرب قدوفوا حقاً بهمودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً ان نقابل الاحسان بمثله فنفى بعمودنا ونبر بوعودنا لهم »

وقد عينوه ملكاً تابعاً للانتداب البريطاني طبعاً ، وأوفدوا اليه مندوباً سامياً انجليزياً ، وسيدة أخرى اسمها ميس بيل توفيت منذ بضع سنين وكانوا يسمونها « أفعى العراق » لأنها كانت العقل المفكر واليد المنفذة . وكان ارتقاءه العرش من حظ العراق

وما زالت القلائق قائمة قاعدة والوزارات ناهضة ساقطة حتي يومنا هذا ، وقد تخمل ذلك ثورات ، ومحامات ومن أنجع ما جري في العراق انتحار رئيس الوزارة السابق السعدون ، الذي قتل نفسه ، وترك مكتوباً يشرح فيه السبب وهو عجزه عن التوفيق بين الانجليز والملك ورغبات الشعب العراقي وضميره ، ويوصى ولده بلاخلاص للعرش . ويسرنا أن العراق دخلت عصبة الامم ونجت بهمة ملكها من الانتداب

### ٣

وبعد أن عين الملك فيصل على عرش العراق ونودي بأبيه الحسين ملكاً على الحجاز ، وبأخيه الامير عبد الله أميراً على شرق الأردن ، نهض ابن سعود وهو الملك الوهابي الوحيد في الجزيرة العربية في سنة ١٩٢٥ وحارب الحجاز واحتل مدائنه واحدة اثر أخرى ، وفر ملك الحجاز الشيخ الى شرقي الاردن بعد أن تنازل عن الملك لولده الامير علي ، فظهر في الحجاز حزب وطني ، وتمصن الامير علي في مكة وجده ، ولكن لم يلبث أن عجز عن المقاومة ودخل ابن سعود ظافراً الى المدينة المقدسة ، ولحق الملك علي بأبيه ثم لجأ الى أخيه فيصل . أما الملك

الشيخ كانوا يطلقون عليه في جريدة القبلة التي كان يحررها وينشئ مقالاتها « لقب المنقذ الاعظم » فقد أخذه الانجليز معززاً مكرماً الى قبرص حيث بقي بضع سنين ، يشكو الفقر في الصحف ليكذب ما ذاع عنه . من أنه نقل معه مئات ألوف الجنيهات في أوان محتومة من المعدن .

وفي آخر سنة ١٩٣٠ ذاع نبأ وفاته ، فسافر أولاده على عجل الى قبرص ، وعادوا به للاستشفاء في جو بلاده وقد أقام في شرق الأردن في ضيافة أحد أولاده حتى توفي الى رحمة الله وقد صار اثنتان من أبنائه ملوكاً وثالثهم أميراً في عمان .

وهكذا انتهى الحلم العربي الذي بدأ بجمعية باريس في سنة ١٨٩٥ وانتهى باستيلاء الاوربيين على ميراث العباسيين والامويين . . . وخراب تركيا . . . وهم الآن يريدون الاستيلاء على موطن الاسلام ومدنه المقدسة ، فكانت الخطوة الاولى وربما الاخيرة أيضاً ، فكرة الحلف العربي ، الذي يلوحون به للعرب كما أرادوا أمراً جديداً .

واسكنهم في هذه المرة لا يدعون أنهم سيؤسسون دولة عربية عظمي ، لان مواد البناء قد استولوا عليها ولا توجد ممالك « للايجار » يمدعون بها البقية الباقية من العرب الاحرار ، فهم يقولون لهم حذار من دولة أجنبية مهاجمة تعد العدد للاستيلاء عايكم من الجنوب فاتحدوا وتحالفوا لتشدوا أزرنا في الملحمة وتمكنونا من الدفاع عنكم عند اللزوم ، أما حماية الخطوط الحديدية وأنابيب الزيت فهي شئ ثانوي .

ولعمر الحق ، ان هذه حيلة لا تنطلي والعاقل العربي هو الذي أصبح لا يصدق هذه الوعود ولا يهجه ان كان الفاتح هو انجلترا أو ايطاليا . اذا وجب عليه محاربة الجميع وعدم الاطمئنان لأحد منهم .

فنجن نحب الأمير شكيباً ونحترمه ونشئ باخلاصه وصدقه ، وتقانيه في خدمة العرب والاسلام ، ولكن أليس لنا من هذا الماضي كله وازع وواعظ ، ولما اذتكون لرجال مثله يد

في تشجيع هذا الحلف أو غيره وقد ندب نفسه لخدمة الشرق والاسلام عامة ، هل ضمن  
 صدق الانجليز حتى يخاطر بالمجاهرة بتعزيد مشروع هو من بنات أفكارهم وهم من ورائه  
 جادون ساعون ، واذا انقلب هذا الحلف وظهر بحتيقتة وهي دسيسة جديدة للاستيلاء على  
 جزيرة العرب والقضاء على ابن سعود أولا وعلى الامام يحيى ثانيا ، فماذا يكون العمل .. ان  
 التحذير في كل حال أفضل وآمن عاقبة

اننى أفضل أن أموت في محاربة خصمى ، مهما كان قويا على أن أضع يدي في يده  
 ليرغمنى بعد ذلك على أن أقضي على نفسى يدي وعلى هذا فنحن لانحبذ الحلف العربى ،  
 ولأنهم هذه الأشياء قبل استقلال كل دولة استقلالا تاماً في الداخل والخارج .

## ٢٨

١

قد ذكرت بإيجاز ظهور الشعب الاندونسى ويحسن قبل الافاضة في السلام على شؤون هذا الشعب ان أبين نظام الاستعمار الهولندي فان الهولنديين هم الذين ابتدعوا فكرة الاستيلاء على بلاد الشرق بطريقة تأسيس الشركات التجارية وهي الطريقة التي سلكتها إنجلترا في الهند وأدت بها الى الاستيلاء على تلك البلاد فقد أسس الهولنديون في فجر القرن السابع عشر المسيحي الشركة الشرقية فنجحت نجاحا عظيما وأسسا شركة الهند الغربية في ١٦٢١ فامتلكوا عينيا الهولندية وسورنيام ودوكاب وسيلان في ١٦٥٣ وجزائر ملقه وفي ١٦٨٠ استولوا على جاوه وأسسوا بطاوي ووضعوا أيديهم على نيجابا تام في الهند وكوشين وسان توماس وكل ذلك في بحر القرن السابع عشر من ١٦٠٢ الى ١٦٧٥ على التقريب وكان هذا أقصى ما وصلت اليه دولتهم في الاستعمار الشرقي . وكانت تلك الجزر والمدن والبرازخ والمضايق من أغني بلاد الدنيا بخيراتها الطبيعية .

والشعب الهولندي الذي تراه وادعأ في بلاده ، متجملا بأرق الخصال في العشرة والحياة البيئية كما رأيناه بالخبرة الشخصية في لاهاي وامستردام وروتردام وليدن ( وهي مقر لفيف من العلماء الأعلام في المشرقيات واللغة العربية ومقر للطباعة العربية قل أن يدانيه مقر آخر سوى ليبنجيج ولكن ليدن تفوقها ) هو في الحقيقة شعب على قلة عدده من أغنى شعوب اوروبا في الاستعمار وهو من الطمع والجشع والحسد للشعوب الغنية بمكان عظيم . وفي طباع أهله جفاء نادر المثال .

وقد تجملت تلك الصفات المرذولة في استعمارهم الذي لا غاية له الا الربح المادى من المستعمرات واستغلال الشعوب المحكومة أفضع استغلال .

ولم يكن لهم من هذا الاستعمار غاية الا إحداث الفنى للطبقات المتاجرة فى الوطن .  
وقد تحققت تلك الآمال الى ماوراء الخيال وجاءت الأموال تترى على تلك المدن الهابطة  
التي تعيش على سواحل « الزيدرزى » وبحر الشمال

لم تكن هولاندا لتضيق بشعبها الضئيل الذى لا يتجاوز خمسة ملايين ( وقد كان فى  
القرن السابع عشر عند بداية الاستعمار لايديد عن مليون واحد ) حتى يغفر له البحث عن  
مصرف للزائدين من أهليه . فان مساحة البلاد كبيرة بالنسبة لسكانها وقد زاد عددهم أربعة  
ملايين فى ثلاثة قرون على حساب ذلك الشعب الشرقى المسكين الذى يعانى الأمريين من  
حكم هولاندا وعدده يزيد اثنى عشرة مرة عن أهل هولاندا أنفسهم أى أن لكل هولاندى  
رجلا أو امرأة طفلا أو شيخاً عاملاً أو عاطلاً صحيحاً أو عيلاً خمسة من بنى الانسان الشرقيين  
يعملون لاسعاده وتنمية ثروته وحفظ كيانه وهو قابع فى عقرداره وليس فى چافا ذاتها أو فى  
غيرها من الجزر عدد كبير من المستعمرين الذين ضاقت بهم السبل فى وطنهم . ولكن النظام  
نفسه ، نظام قاس فظيع وهو يقضى بأن يقوم الزارع الجاوى أو الاندونسى بزرع أرض  
المستعمر ، ثم هو يأخذ حاجته من الطعام ولكن هذه الحاجة تعطى بأشد تضيق فهو يتناول  
القوت الضرورى لأكثر ولا أقل وكل ما ينتج من الارض يكون للمولى الهولاندى . وليس  
بين هذا النظام وبين نظام الرقيق فرق فى شئ بل ان الرقيق ليطلع يوماً أن يدخل فى أسرة  
مولاه وقد يرثه أو يشاركه أما فى اندونسيا فالعامل الوطنى مملوك للسيد الأجنبى وهو مملوك  
محتقر مبعوض ولا أمل له فى شئ من خيرات هذه الحياة ولا يجد الفاتح الاور و بى الذى  
يريد الاستيلاء على مستعمرات هولاندا صعوبة فى ذلك لأن هولاندا بمظالمها تمهد الطريق  
لافلات مستعمراتها من يدها . فان كلانيف الانجليزى استولى على أملاك هولاندا بسهولة  
تامة فى الهند ١٧٥٠ وبعده بعشرين عاماً اغتصب كونواليس جزيرة سيلان ١٧٩٥ من  
هولاندا ولم يجد مقاومة .

## ٢

ان استقراء حوال اندونيسيا الحديثة من أغرب صحف التاريخ الشرقي في الزمن الحاضر فان هذا الشعب الذي يقطن جزراً كثيرة أهمها صوماترا وجاوه وبورنيو وسيليبس وغيرها من الجزر الصغيرة التي قد تبلغ الألف عدداً يقطنها شعب أسوي عريق في المدينة وكان يدين بالبوذية ، وهو يبلغ الآن ستين مليوناً تسعة أعشارهم من المسلمين وبقيةهم من البوذيين والمتنصرين على أيدي الهولنديين وللبوذيين في سورابايا معبد من أجل وأنخم وأضخم معابد الدنيا وفيه من آثار الفنون والجمال ما لا يعادله الا آثار المصرية من حيث الجمال والبهاء .  
والزوثق ، وقد نقشت عليه حياة الشعب الاندوسي وتاريخه وعبادته وعاداته .

وقد ألف الاندونيسيون أحزاباً سياسية للخلاص من الاستعمار الهولندي . ومن هذه الأحزاب حزب « بوذي أوتاما أو النزعة الفاضلة » تأسس في سنة ١٩٠٨ ورئيسه كوسوما اوتاياسنجي وهو محام ثم حزب شركة الاسلام الذي تأسس سنة ١٩١٢ وهو مثل الحزب الوطني المصري ورئيسه عمر سعيد شكرا اميناتا . وقد كان هذا الزعيم ( شكرا اميناتا أو شكري امين ) من سنة ١٩١٢ الى ١٩٢٠ يشغل مكانة كالتى كان يشغلها غاندى في الهند . ولكن نفوذه قد هبط لأسباب كثيرة .

وفي سنة ١٩١٢ تقسما أسس اغوس سام جمعية الشباب المسلمين وهو وكيل حزب شركة الاسلام . ومندوب اندونيسيا في مؤتمر العمل الدولي وشاركه في العمل السيد عبدالمطلب صنهاجى . وقد بلغ عدد أعضاء حزب شركة الاسلام في إبان مجده نحو مليونين من الأعضاء ونزلوا الآن الى خمسين ألفاً .

وسبب هذا الاضمحلال الذي عرا حزب شركة الاسلام أن أحد أعضائه وهو من الشبان غير المسؤولين ، ولم يهتد أحد لمعرفته قد دعا الى الشيوعية ووجد آذاناً مصغية فحدثت قتل وقلاقل واضرابات واسعة النطاق ، وتعدى كثير من علي الحياة والأموال واستمرت هذه الحركة من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٣ واتهم شكري امين بالتحريض على الفتنة الشيوعية

وحكم عليه بالسجن ثمانية أشهر مع أنه لم تكن له يد فيها ولكنه ذهب ضحيتها . وقد تمكن المستعمرون من تشويه سمعته ، على الطريقة التي يلجأون اليها في المستعمرات وهي أن ينسبوا الى الزعماء عيوباً في أخلاقهم وخروقاً في ذمهم فينالون منهم في نظر الشعوب الساذجة ، وقد يما نسب الانجليز الى پارنل الزعيم الايرلندي اشتراكه في الجرائم السياسية وزورت عليه جريدة التيمس خطاباً نسبت صدوره منه الى الجناة فلما ظهرت براءته بجهود لا توصف وأموال لا تقدر دبروا له مكيدة الكابتن اوشاي ولوثوا سمعته بتهمة الزنا وراح پارنل ضحية هذه التهمة ، ومات بعدها ببضعة أشهر . وهذه خطة المستعمرين في جميع أنحاء العالم . وقد أدى مثل هذه الخطة الى اضمحلال حزب الشركة الاسلامية وهبوط مركز رئيسها . وكانت نتيجة ذلك أن انشق الحزب الى قسمين أحمر شيوعي وأبيض اسلامي ودب الخلاف بين أعضائه . وفي سنة ١٩٢٥ حاول بعض الشبان تجديده وأطلقوا عليه اسم « حزب الشركة الاسلامية » .

وفي سنة ١٩٢٦ ظهرت حركة شيوعية أخرى بقيادة الشاب المهندس شمعون وحصلت اضطرابات في جميع أنحاء البلاد وقبض على شمعون ونفي الى هولاندا ، وخير بين البقاء فيها برتب وبين الخروج منها دون أن يعود الى وطنه . ولا يعلم أحد الى الآن مقره وفي سنة ١٩٢٦ نهض الشاب شوكارنو وهو اندونيسي مسلم وله نفوذ عظيم . وقد ملك قلوب الجماهير بنصاحته واخلاصه واقدامه .

وقد ضم كلمة الأحزاب وعقد مؤتمراً أثبت به اتحاد الأحزاب واجبا عليهم على سياسة واحدة . وقد عمل على تخليص ألف وخمسمائة من الاندونيسيين الذين نقوا الى غينا الجديدة بسبب الفتنة الشيوعية في سنة ١٩٢٣ في بلدة دوجل . ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح وفي سنة ١٩٢٦ ألف شوكارنو حزباً جديداً وما زال يعمل الى سنة ١٩٢٩ ففي ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ وهو يوم تاريخي ألقى القبض على أربعة من الزعماء وفي مقدمتهم شوكارنو وقد دخل عليه رجال البوليس في غرفة نومه . وساقوه الى السجن بعد أن فتشوا

امرأته التي كانت بثياب النوم . وبقي في السجن الى محاكمته وقد دامت أكثر من ستين جلسة وفي نهايتها حكم عليه في ديسمبر سنة ١٩٣٠ بالسجن أربع سنوات هو ومن معه . ولا يزال الاستئناف معلقاً وفي أثناء محاكمته شهدله موظفان هولنديان من أكابره وفي ختام شهادتهما صالحاه ، فقامت عليهما قيامة الصحف الاستعمارية التي كان مندوبوها يشهدون المحاكمة وطلبوا عزلها .

وفي تلك المدة كتب الدكتور صوماتا وهو زعيم آخر مقالا في جريدته يقول « أمكة أم دوجل » ودوجل هي معتقل المذنبين السياسيين وهو يقدرها ويفضلها على الكعبة . لان المسلمين يذهبون الى الكعبة فيدفعون ضرائب وتتودأ ، أما دوجل فهي مأوى الأحرار الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل وطنهم وقد جن ثلثهم ومات ثلثهم رغم أنفهم ، وبقي الثلث الآخر بين الهلاك والرحمة .

وقد غضب جماعة الشركة الاسلامية لهذه المقارنة وهذا التفضيل ، ويظهر أن هذه المقالة بداية نزوع البلاد الى العصبية الجنسية دون العصبية الدينية وظهور فكرة الوطنية فوق فكرة الجامعة التي أساسها المعتقد .

أما عدد الهولنديين في اندونيسيا فلا يتجاوز ١٥٠ ألفاً بين موظفين وتجار وقاطنين عدا عن جيش عدد جنوده ٣٥٠٠٠ تام العدد والعدد وأسطول صغير من السفن الحربية التي تجوس خلال الجزر .

ومن الهولنديين احرار كما هي العادة يعطفون على الاندونيسيين ويدافعون عنهم ومنهم من ينصح لدولته بالتخلي عن البلاد ولكن هؤلاء واولئك زينة وديباجة وحلية ، في كل دولة استعمارية ولعلمهم يقولون بهذا ماداموا بعيدين عن السلطة حتى اذا بلغوها انقلبوا أشد وأنظع من المحافظين الذين يطعنون على حكومتهم الآن .



## ٣

وفي جاوه جالية كبيرة من العرب أهل حضرموت وهو صقع في شرقي اليمن كثير الجبال كثير الودين وبه مدن خربة عايتها كتابات بالخط المسند . وهؤلاء الحضارمة أشبه الناس بالاروام بل هم اروام الشرق من حيث البراعة في التجارة والحصول على الاموال بطرق عجيبة قوامها الاقتصاد الشديد وحبها أقاموا كانوا أغني الناس وتعرف أسماءهم بتقديم لفظة «با» عليها فيقال باجنيد وبزرعة وغيرهما . وفي سنجاپور وجوه أسر من هؤلاء الحضارمة بلغت ثروتها عشرات الملايين من الروبيات وقد يكون أعظمهم ثروة من الاميين الذين لا يدرون القراءة والكتابة . ولهم قصور وبتاع وبساتين يعجز اللسان عن وصفها بمحتوياتها الفخمة الثمينة . ويملك بعضهم ثلث البلد أو نصفها وفي الاحوال العادية يكون نحو ٣٠٠ عمارة من أملاكهم خالية فإبلاك بالمشغول ! وجاء أحدهم بسبعين روبية في كيسه منذ خمسين عاما فإذا هو الآن قابض على زمام الحركة التجارية الشرقية في الهند والصين وسنجاپورة وچاوه وستريت ستلمنت وغيرها وتقدر ثروته بالملايين ومن هؤلاء من قال عنهم الامير شكيب ارسلان في ص ٧ من كتابه « سر تأخر المسلمين »

« ويقال ان العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الاجناس التي تساكنهم حتى من الانجائيز أنفسهم بالنسبة الى العدد »

ولكن يظهر لنا ان هؤلاء العرب قد انحصر همهم وهمتهم في جمع المال لاولادهم وأحفادهم دون أن يعملوا على ترقية شؤونهم فقد علمنا انهم يبنون قصوراً فخمة في عاصمة بلادهم حيث يعيش أهلهم في رغد من العيش كما يعيش أهل المهاجرين من سوريا ولبنان في وطنهم على أرزاق أقاربهم التي يحصلون عليها في المهجر ، وقيل ان هذه القصور نادرة المثل في بلاد العرب . ولكن لم يحاول أحدهم ترقية شؤون المسلمين كأنهم بمعزل عن الحياة السياسية والاجتماعية والادبية التي لها الشأن الأعظم في العالم المتحضر ، وكان حضرموت « وطن قومي » حصل عليه الحضارمة بغير وتد بلقور ! والعرب الحضارمة يرجعون في أنسابهم الى ثلاث

فصائل عرب عدنانيون وهم السادة الحسينيون وعرب قحطانيون ينتمون الى عدة أفخاذ من قبائل العرب التميميين والنهديين والجمعيين وغيرهم . وفصيلة ثالثة بعضها عرب تهاوتوا في حفظ أنسابهم فنسوها وبعضها خليط من موالى الفرس والهند ورقيق الحبشة والسودان وهذه الفصيلة يصفها الحضارة « بالضعفاء » و« المساكين » ولكل فصيلة من الفصائل الثلاث وظيفة معينة في حضرموت ، كأنهم طبقات كالتي تعيش في الهند caste

(١) السادة الحسينيون وظيفتهم دينية بحمته يقيمون الصلاة ويعمرون المساجد ويقنون المعتقدات ويمارسون العبادات وهم بمثابة الكهنة وهذه ارستوقراطية دينية .

(٢) قبائل العرب التي تتكون منها الطبقة أو الفصيلة الثانية وظيفتها الحراسة وحماية الاهالى وادارة القرى والاعمال الحكومية وهي أشبه بطبقة الحكام المسؤولة عن الامن والنظام وحسن الادارة وهي تشمل طبقة الارستوقراطية الحاكمة

(٣) أما طبقة الضعفاء فهي اليد العاملة الامية ومنهم التاجر والصانع والزارع والجميل وهم مصدر الثروة وعليهم تتوقف عمارة البلاد فهم طبقة العمال والعمود الفقري للأمة ، بل هم سواد الامة وذخيرتها ومع ذلك فهم أقل الطبقات احتراماً لجهل أصولهم وكونهم خليطاً من أمم وقبائل شتى .

فانت تري أهل حضرموت يعيشون الى الآن في نظام اجتماعى سابق للتاريخ ، بالنسبة للحالة الاجتماعية الحاضرة ، وأقرب الى العصور الأولى منه الى هذا العصر وأشبه الاشياء بما كانت عليه مصر في عهد الاسر المالكية ، وما عليه الهند في وقتنا الحاضر وهو نظام « الكاست »

فصيلة السادة العليا هي ذات الوجاهة والمكانة

وفصيلة القبائل متوسطة في المكانة والمركز

وفصيلة الضعفاء هي المنحطة النازلة

وهؤلاء السادة أو الهاشميون أهل الفصيلة أو الطبقة الأولى يعتقدون أنفسهم أرقى انسانية من مجاورهم وان ارواحهم تلمفت وتطهرت بما تسلسل فيها من التهذيب في البيوت المجيدة أحقابا وأجيالا طويلة فهم ناس ولكنهم قرييون من الملائكة !

وترى ان الطبقتين الاخيرتين تعتقدان هذا الاعتقاد فيهم ولا يرون في ذلك حرجا ، لأن الطبقة الثانية تعتقد هذا الاعتقاد في نفسها بالنسبة للطبقة الثالثة وقد عاش الحضارمة في بلادهم على هذا النظام دهوراً طويلاً لا يعرف أولها . ولم يحاول أحد منهم الخروج عليه أو تبديله بسواه .

فلما هاجروا الى جزائر الهند الشرقية وتغير وسطهم وبيئتهم وعاشوا في جو غير جو جزيرة العرب وتبارت الهمم تنهت العواطف في بعض الاشخاص الذين كانت قوتهم كاملة واشربت أعناق الضعفاء وتطلعت نفوسهم للمساواة والوقوف من العطاء والسادة موقف الانداد . وهذه حركة تشبه نهوض الانجاس في الهند

وقد رأي بعض النجباء من طبقة الضعفاء ان هذا التقسيم مخالف للطبيعة والمدنية وان عهد العظمة الموروثة والتجدد قد زال وتلاشى وان في الخضوع لاراء المحافظين مذلة وهوانا وظلما لا يرضاه الله ولا يرضاه الانسانية وانهم ان رضوا بهذا التفضيل في حضرموت فذلك لانهم كانوا يجلبون حقوقهم أو فرطون فيها ولكن هجرتهم الى الجزائر فتحت أعينهم وفتقت أذهانهم وجعلتهم يحتكون بالامم الراقية من اوروبية وغيرها ممن لا يخضعون لتلك القواعد القاسية الاستبدادية وقد وجدوا سنداً في الاسلام الذي سوي بين المسلمين ولم يفضل أحداً على أحد الا بالتقوى والعلم ومكارم الاخلاق . ورأوا من أحوال الامم أن القوانين الدولية تكفل الحرية والمساواة وصيانة الحقوق . وان أعظم الاغنياء والعلماء والساسة نشأوا من طبقة الفقراء وشقوا لانفسهم سبيلاً بجهودهم وذكمتهم ولم يعترضهم أحد .

ولكن الطبقتين العاليتين تمسكتا بوجود النظام البالي ، وبقاء القديم على قدمه وان كل فرد يقف عند حده وان المساواة تؤدي الى انهيار العظمة الموروثة فتمتار حياة الشعب

وان تقسيم الشعب طبقات سنة من سنن الكون من خالفها انحط الى الدرك الاسفل .  
وبالجملة قام بينهما نزاع كالذي قام في أول عهد رومه بين الباتريسيان والپليسيان وأدى  
الى ثورة الپليسيان وهجرتهم من المدينة .

وعلى مبادئ الديمقراطية أو المساواة أسس الضعفاء جمعية الاصلاح والارشاد بجا  
وصاروا يعرفون بالارشاديين كما ان خصومهم يعرفون بالعلويين أو الاشراف أو السادة وتراهم  
حز بين متناظرين بل عدوين متحاربين وقد يخطئ الضعفاء المنضمون الى جمعية الارشاد  
اذا ظنوا أنفسهم في مستوى واحد مع غيرهم من أهل الفضل وأنكروا على الناس فضلهم .  
ويخطئ السادة العلويون اذا أرادوا المتاجرة بمجد الاجداد فيدوسون على رقاب الناس لمجرد  
المجد التالذ والشرف القديم . وأغرب من ذلك انهم يريدون أن يكونوا مقدمين على أرباب  
الفضائل والتقوى ممن ليس لاجدادهم مجد وهناك فريق ثالث من العرب بقي بمعزل عن الخصمين  
رأي الفتنة مشتعلة فابتعد عنها واتق نارها وقد سعى فريق في الوفاق والوئام فأب بالخيبة والفشل (١)  
هذه هي حل الحضارمة في الجزائر الشرقية وقد بلغنا ممن زار هذه البلاد ان أحد  
أهل الطبقة الثانية بلغت ثروته اثني عشر مليون روية فخطب احدي بنات السادة العلويين  
فرفض طلبه فاستفتي أحد العلماء فافتى بجواز الزواج عند رضا الاهل فقامت قيامة الطبقة  
كلها وحدثت حوادث عظيمة الشأن واننقت أموال طائلة في هذا السبيل وتضاللت مأساة  
روميوجوليت بجانب هذه المأساة القومية فان الرفيع يتزوج بنت الوضيع ولكن الوضيع  
لا يتطاع الى نسب الطبقة العليا . وكلما نشب خلاف اشترى كل فريق أسلحة وذخيرة وأرسل  
بها الى «الوطن القومي» ليتحارب أتباع كل فريق مع أتباع الفريق الآخر - يختلف  
المهاجرون فيما بينهم في الجزر الشرقية وأهلهم وعشائرتهم وقبائلهم تسوي الحساب فيما بينها  
في صحراء العرب فتأمل !

وقد مضى على الحضارمة في جازوة نحو ٤٠٠ سنة وفتح أهل جازوة للحضارمة منازلهم

(١) علمنا أثناء الطبع أن هدنة عقدت بينهما مقدمة للصالح فنتمى انمامه .

وصناديقهم وزوجات الحضارمة كلهن چاويات وايس في منزل أحد من أهل چاوة سيدة عربية حتى ولا بنت صباغ . وهذه كبرياء من الحضارمة وتنفيذ لمذهبهم القائل بأن الرفيع يتزوج من بنت الوضيع ولكن ليس لهذا أن يتطلع الى مصاهرته فهم أيضاً ينظرون بعين المقت والاحتقار لاهل البلاد الاصلاح .

وحب هؤلاء الحضارمة للمال عجيب فهم يكنزونهم ويقولون انه ذخر الدنيا والآخرة ويمثلون بقول الشاعر الفارسي :

« أيها المال ! لست ربا معبوداً . ولكنك قاضي الحاجات وستار العيوب ! »

فتراهم يقتلون أنفسهم للحصول على الدرهم والدينار لسجنهما مع أمثالها في ظلمات الخزائن والصناديق ، أو في جوارب سوداء حالكة كعجائز فرنسا حتى اذا مات الرجل تقاسمها أولاده الجهلاء فبنروها ومزقوها في أنواع الملاهي والفساد . ومع ما هم عليه من الثروة الطائلة لم يتبرع هؤلاء العرب المهاجرون في الشرق الاقصى بشئ من المال لاصلاح جاليتهم فلم يؤسسوا مدرسة ولا مستشفى ولا داراً لضيافة الغرباء بل غرسوا بذور الشقاق والبغضاء .

وترى هؤلاء الاغنياء أنفسهم يصرخون بطلب النهضة والسعي الى الخير والتعطش الى العلم ولكن حبهم للمال وتعشقتهم اياه وتعطشهم لخزنه أكثر من حبهم العلم والتعليم ومواساة البائسين .

فهم يحبون العلم والتعليم مادام الامر لا يقتضى خروج المال من جيوبهم ويحبون النهضة مادامت لاتمس خزائنتهم ومادامت مقصورة علي الكلام في المجالس ، يحبون اله ولكن لا ينفقون مما أحبوا وهو الاصفر الرنان .

وقد أنشأ السادة العلويون جريدة الاقبال لتدافع عن نظريتهم كما أسس الضعفاء جريدة الارشاد لتصرهم في قضيتهم على ان الخلاف بين العرب لا يهمننا بقدر ما يهمننا نروض أهل البلاد أنفسهم فانهم بانضمامهم الى الامم الشرقية الناهضة يكونون قوة لا يستهان بها .

## خاتمة

يقوم بعض فضلاء المسلمين المحبين للاصلاح في بعض ممالك أوروبا بنشر كتب ومجلات وصحف باللغات الأوروبية وينفقون عليها من أموالهم ويقفون عليها أعمالهم الغالية ووقتهم النفيس ويذلون علمهم ومعرفتهم وأديبهم في سبيل الدعوة للاسلام والشرق . وهو عمل محمود في ذاته من حيث فيه رغبة في تنوير الأمم الأوروبية في احوال الشرق الاسلامي ورفع الغشاوة عن أبصارهم . مع أن الشرق لا ينهض الا بجهوده .

وهذه فكرة أو نوع من الجهاد قد فات أوانه ، وأصبح عملاً غير مجد في حالة العالم الحاضرة . لان الخير والمجد والقوة لا تأتي من الخارج

فقد كانت الفكرة الشائعة في القرن التاسع عشر ، بخصوص استعمار أوروبا أن الاعتداء الواثق على الشرق الاسلامي وغيره انما هو فعل الحكومات الأوروبية وان تلك الحكومات تعمل مستقلة عن شعوبها . وانه اذا علمت الشعوب بحقيقة الامور في الشرق فانها تغضب وتحقق على حكوماتها وتمزقها النخوة الانسانية فتقف عثرة في سبيل مضي تلك الحكومات في سبيل استعمار الشرق وارهاقه . ولذا كانت دعوتنا موجهة الى الاحرار من أهل تلك البلاد ظناً منا أن التقسيم السياسي الذي يبدو في مجالسها النيابية وينعكس في صحفهم هو شامل أيضاً لسياستهم الخارجية . وتوهما من زعمائنا ان أوروبا منصفة وعادلة 11

ولذا بدأ المرحوم مصطفى كامل أعماله السياسية في فرنسا بالخطابة في المنتديات الأوروبية وقدم صورة لمجلس النواب الفرنسي تمثل أسر مصر وتضورها المأساوية من ظلم الاحتلال وانها في بلواها ملتجئة لفرنسا ، وشفع تلك الصورة المؤثرة بعريضة تشمل مطالب المصريين وأمانهم . ولو أطلع على المعاهدات السرية لعدل عن ذلك .

وقد دامت هذه الفكرة في نفس المجاهد الشاب وكل من النفوا حوله حتى كنت سنة ١٩٠٤ فتحدت فرنسا وأنجارتا وتفقتا على تسوية مسائل الشرق الأقصى والأذني فذهبت آمالنا في فرنسا أحراج الرياح . وما زال الاحرار في اوروبا يتقربون الى المجاهدين منا و يظهرون رغبتهم في خدمة مسألتنا ونحن نصدقهم ونظن أنهم جادون ، والحقيقة أنهم كانوا يتخذون من المسألة المصرية سلاحاً لمحاربة حكوماتهم . حتى اذا تولى الاحرار الحكم كما حدث في سنة ١٩٠٥ بعد سقوط وزارة بلفور المحافظة لم تكن حكومتهم أرحم بنا من سابقتها بل ان حادثة دنشواي الفظيعة المهولة حدثت في يونيو سنة ١٩٠٦ بعد أن مضى على حكم الاحرار في إنجلترا سبعة أشهر . وأخيراً الجأنا الى العمال . وخطب زعيمهم كيرهاردي في مؤتمر جنيف سنة ١٩٠٩ خطبة رسمية أيد فيها سياسة اللورد كرومر واستشهد بنيد طويلة من تقاريره ولما أن احتسكنا بتلك الشعوب بنفسنا وجدنا أنهم يعلمون من شؤون الشرق والاسلام ما لا نعلم وانهم كلهم يتفقون على أننا وهضمنا ولا فرق في ذلك بين محافظ وحر وعامل . وان افراد الشعب أنفسهم ليسوا في حاجة الى التنوير وانهم موافقون لحكوماتهم في ابتلاعنا لأن المسألة اقتصادية وهم يرغبون في الحصول على ثروة الشرق .

ولم يكن علماءهم بأقل من ساستهم جسماً وطمعاً . فقد حدث في سنة ١٩١٠ ان أحد اخواني كتب في جريدة اللواء مقالا يثني فيه على شاب جزائري اسمه ابن علي فخار كان دكتوراً في الحقوق ، وأشار صاحبي من طرف خفي الى حالة الجزائر وبؤسها وجهلها وضياع حقوقها . فذب الرعب الشديد في قلب فخار هذا لأنه كان يعمل موظفاً في بلدية ليون وهرول الى أحد أساتذة الحقوق في الجامعة وهو من أساطين الاحرار الذين دافعوا عن مصر وضحوها كبرهم في سبيلها وفي سبيل كرامته ، وشكاله الكاتب وكان جديراً بشكره ، او تنبيهه بلطف ، فأنجى الاستاذ الفرنسي العالم على صاحبي بالائمة وأنبه وعنفه وقال له « ان كنت يا صاحبي تحب أن تستبق صدائقي ، فترك لنا شمال أفريقيا ، ودافع عن مصر كما بدالك اترك لنا تونسنا وجزائرنا ، واقصر همك على وطنك . فليس بينكم وبين الجزائر ابطلة ! »

وعبثا حاول صاحبي أن يفهم الاستاذ أنه لم ينل شمال أفريقيا بسوء وأنه لم يهاجم الحكم الفرنسي ، ولم يفهم كيف يجب أستاذة الحرية لمصر والعبودية للجزائر !  
وتكلم صاحبي هذا مع استاذ حقوق آخر هو الاستاذ پول بيك أستاذ تشريع العمال في جامعة ليون ، فذكر الجزائر وتونس فقال له الاستاذ مانصه :  
« أرجوك أن تترك تونس جانبا فإني أفكر في أن أرحل إليها لأقضى البقية الباقية من عمري بعد إحالتي على المعاش لان لي فيها قطعة أرض وبيتا صغيرا . »

فهذا الاستاذ الجليل ، صاحب المؤلفات الكبيرة والمباحث الواسعة وتلميذ ليون بورجواه الذي يرمى الى تحرير العمال والتخفيف عنهم يريد بقاء أمة في قيود الاسر لانه ينوي أن يقضى اجازة آخر العمر في أرضها . . . وكان الافضل له أن يختم حياته المباركة في نيس مونتكارلو وكان وهي بحكم مناخها أفضل له من مناخ أفريقيا .  
ولكنه في فرنسا يعيش كبقية الناس وإنما في أفريقيا يعيش عيشة السيد  
الأمم الناهي .

وهكذا قل عن الانجليز في الهند وغيرها من بلاد الشرق الاسلامي وغير الاسلامي .  
فهم يعلمون حضارتهم الماضية ويعلمون المظالم الواقعة عليهم حالا . ولكنهم لا يحركون ساكنا لأنهم يريدون الاستعمار والاستغلال فقط

فمن العبث اذن أن نكتب لهم بلغتهم كتباً أو مجلات أو صحفاً نخبرهم عن حقيقة الاسلام والشرق فانهم يضحكون منا في اكام ثيابهم ، واذا تظاهروا بالاكثر لنا إنما يكون ذلك من قبيل الجمالة لامن الاخلاص . . . وانهم لينظرون شزراً الى كل شرقي نابه نابغ يريد خيراً ببلاده فان لم يتمكنوا من القضاء عليه في وطنه بشتي الوسائل التي يملكونها أرسلوا عليه دعاية كالأفعى المتشعبة الالسن تهمه في شرفه وذمته ودينه وعرضه واخلاصه حتى يستطوا هيئته في نظر شعبه discredit وأقل ما يصمون به وصمة الدجل والاحتيال والتجارة بالدين أو بالوطن . وهم يكذبون ويعلمون أن الكذب يترك دائماً أثراً مهما حاربه المكذوبون



«المكذوب في حقه ولا سيما في بلاد الشرق الجاهلة التي تذهب عقول أهلها مع كل ريح وتتنجه في أحوالها اتجاه الاهواء بغير ثبات ولا رصانة .

قل لي بربك من يعرف عن الاسلام والمسلمين عشر معشار ما يعرفه نولدكه وهير جرونبيجة وويلها وزن وكيتاني ومرغايوث وبرتلميه سانت هياير وأرنست رينان وهيوار وسنتلانا ونابينو وبالم وعشرات مثاهم ممن أقتنوا العربية وعلوم الفقه وقرأوا القرآن وتبحروا في الادب والتاريخ العربي . . وكانوا عند اللزوم أدوات للاستعمار الاوربي في بلاد الشرق فظهر أن علمهم كان سلاحا لمحاربة الشرق والاسلام . وهم قبل أن يعملوا الاستعمار نشروا ضد الاسلام دعاية من أقسى ما نشرف في العالم ما عدا نقرا منهم تنزهت نفوسهم وأقلامهم عن الأذى أمثال المرحوم أدوارد براون ولذا كان مبعوضاً من قومه غير موموق بعين الاعتبار . على أن مثله قد كان يخدم الانسانية بالتوفيق بين الشرق والغرب

وقد روي فاضل تونسى أنه عند ما نالت بلاد تونس نظامها النيابي الاول انتحل أحد الفرنسيين الاسلام وأخذ ينشر بين المسلمين آراء ضد الدستور ويخدعهم بأن نظام البرلمان نظام مخالف للاسلام وانه ثمرة من ثمار الكفر وانه اعتراض على ارادة الله ، لان الله أمر بطاعته وطاعة رسوله وأولى الامر ، والبرلمان أو النظام النيابي يأمر بمخالفة ولى الامر ومحاسبته . . وظاهر ما في قوله من المغالطة المقصودة .

وأسلم فرنسى آخر واتخذ لنفسه اسم سيدى عمر ، وكان يغشى مجالس الأشراف في بعض المدن المحصنة ، فلما دخلت فرنسا تونس ظهر في ثوبه الرسمي فاذا هو رئيس أركان حرب الجيش المهاجم وقد وضع خطة الحرب كلها ورسم الخرائط المطلوبة في الفترة التي كان فيها متجعلا للاسلام . وكان كلا هذين الفرنسيين يتقنان العربية ويتقنان الصلاة !!

فنحن فريسة اللام الاوروبية التي تجار بنا حروبا ظاهرة وحروبا باطنة وتستعمل كل سلاح في هلاكنا ولا تراعي في ذلك ضميرا ولا شرفاً ولا ذمة ولا إلا .

وقد قال أحد المصلحين وهو يتألم : ان بعض المسلمين قد أصابهم العمى الى درجة

غريبة فان خطباء المساجد كانوا الى عهد قريب يخطبون ويقولون « اللهم اجعل بلادهم  
وأموالهم ونساءهم وأولادهم حلالا لنا أو ملكا لنا اللهم انصر... اللهم اخذل... »

وكانت قد مضت أجيال والاية معكوسة ، فكانت بلاد المسلمين وأموال المسلمين  
وثروة المسلمين وكنوزهم حلالا للاوروبيين وكأن الدعاء كان معكوساً فكانت الاجابة  
سلبية أيضاً فكان النصر للغرب والانكسار للشرق . وكانت السيادة لاوروبا والمهزبة  
والعبودية للعرب والمسلمين وطالما دعونا أوروبا للوفاق والوئام ولا نزال ندعوها .

وهكذا ما زلنا نحن نتعلق بالقشور ، ونتمسك بالشكل وغيرنا يهتم باللب  
ويكثرث للجوهر . ولو أن أوروبا صاغت لنا مددنا لها يد المحبة .

وقد جعلوا بلادنا ميادين لتجار بهم وهم آمنون . فقد جرب الفرنسيون أنواعاً من  
الحكم في مستعمراتهم الشرقية فقد حكموا الجزائر حكم الجبروت وأخذوها بالشدّة ولم يأمنوا  
جانبها مطلقاً على قلة عدد أهل الجزائر لانهم وجدوا مقاومة وعنفاً وحراباً وقد فئنت جيوش  
فرنسية بأسرها في تلك البلاد ولم تكن فرنسا بعد قد امتلكت شيئاً من مستعمرات أفريقيا  
لتجنّد رجالها في محاربة الجزائر فأهرقت دماء أبنائها في سبيلها .

وكانت فرنسا تنسج على منوال الامم الاوربية في الشرق . ولكن عند ما احتلت  
فرنسا تونس لم تشأ أن تطبق فيها سياسة العنف وأبقت القديم على قدمه لما أنستته من ليونة عريكة  
بعض الحكام والمحكومين في ذلك القطر الغني الميل بفطرتة للسكون والدعة فم تبذل دماء أبنائها ولم  
تخسر الأموال الطائلة وكانت طريقة الفتح التونسي على وتيرة الاحتلال الاوروبي الحديث في  
الشرق فبقيت الحكومة الوطنية على حالها وحكمت فرنسا بواسطة قصر الباي ووزرائه ،  
والمحرك للسياسة والادارة هو المقيم العام الذي يعمل من وراء ستار ويعرض الحكومة الوطنية  
لمنت الامة ولا يظهر يده الا نادراً وعند الحاجة القصوى .

وقد شبه بعض ساسة العالم حكم بعض المستعمرين في الشرق ببدء السسل البطيء ينتاب البدن ويعمل فيه رويداً رويداً حتى يقضي عليه ويكاد المريض لا يشعر .

في حين أن الاستعمار الفرنسي في أول أمره كان كالوباء الاسود ينزل بالجسم فيهلكه ثم يهلكه في عشية وضحاها . ولو شاءت اوربا لا تحدث مع الشرق لخير الجميع .

فوجب إذن والحالة هذه أن هؤلاء العلماء والعطاء والنجباء الذين ينفقون أموالهم وعلمهم لتنوير أوروبا أن يوفروا هذا المجهود ويبدلوه في تنوير أممهم فان أمم الشرق العربي أحق في التنوير في تاريخهم وماضيهم وفي رسم خطة المستقبل بعد درس حاضرهم ، وهم أجدر بالتعليم من أوروبا المتعلمة ويا حبذا لو اتفق هذا المجهود في تأليف عصبة أمم شرقية وغربية فان في الشرق كنوزاً من الحمية والعاطفة والحماسة ، وهذه يجب السيطرة عليها وتوجيهها في أقوم السبل بدلا من بذل القوى الطاهرة في تدوين ما يضحك منه بعض سفهاء أوروبا الذين يكرهون الاسلام والمسلمين ويتمنون زوالهم من الوجود ، وأفضلهم يعتبر الاسلام في أفريقيا قنطرة بين الوثنية والمسيحية كأنه المطهر أو الاعراف الذي ورد ذكره في جحيم دانتي ونعيمه . فانه لا يسهل على الوطني الوثني من أفريقيا أو من آسيا أن يتنصر مباشرة بل يجب عليه أن يمر أولا بالاسلام ليخلص من أدران الوثنية ثم يترقى ليصل الى حياض المسيحية السمحاء . هذا رأي فضلائهم . فما بالك برأي سفهائهم ؟

ان اوروبا التي أنجبت فطاحل القانون الروماني وجهابذة القوانين الفرنسية وأساتذة الفقه في المانيا وبلجيكا وهولاندا وايطاليا ، ووزنت في كتبها وأحكامها الحق والباطل بميزانين المبادئ المقررة ، وجعلت السكامة العليا للعدل الذي يقره العقل الانساني . ان اوروبا هذه التي أنجبت فلاسفة أمثال ليدنيز وسبينوزا وهيغل وسبنسر واوجست كومت وبرجسون . ان اوروبا هذه التي عنيت بالقواعد والمبادئ حتى يكاد أحد علماءها لا يكتفي بأن يفلق الحبة

في سبيل العدل فيحاول شق الشعرة الى شقين أو ثلاثة .

ان أوروبا هذه التي ملئت مكاتبتها بمؤلفات القانون الدولي ومبادئ العدل الانساني: وهي التي تدعى أنها آخر طبعة منقحة من الجنس البشري وقد ورثت فضائل العالم المتحضر من عهد الرومان الى وقتنا هذا ، ان أوروبا هذه يجب ان تخضع للعدل والحق لأن تخضع للقوة .

وينبغي أن كل عمل من أعمالها يثبت ذلك . وإن كل تصريح من سياستها يؤيد هذا الرأي ويدعمه ويتبويه ويجزم به فيقولوا في جوامع كلهم «الحق يغلب القوة» لان يقولوا « القوة تغلب الحق » وقال امبراطور المانيا في بداية الحرب « ويل للمغلوب » فلما قهر لم يتأفف ولم يتضجر لأنه أنذر خصومه بأشنع وأبشع مما وقع له في هزيمته . ووصفوا الاتفاقات الدولية والمعاهدات بأنها قصاصات ورق . وسواء أقالها بتمان هو لويج كما نسب اليه الحلفاء أم ان الحلفاء دسوها عليه وأذاعوها من قبيل الدعاية ليحقرها من شأنه ، فقد قيلت من أحد الطرفين وصورت في ذهن أوروبا ، ونفذت فعلا قبل الصالح وبمده . وهذا لا يليق بأوروبا المتحضرة .

وقد التقى المرحوم جمال الدين الافغانى بهربرت سبنسر في لندن في أواخر القرن

التاسع عشر فسأله سبنسر ماهو العدل ؟

فأجاب الافغانى : يوجد العدل عند ما تتعادل القوى .

وانما أجب هذا الجواب لأنه يعلم أن الفيلسوف الانجليزي لا ينتظر غير هذا الجواب وان التبجر في انخيل أو التعلق بأهداب المثل الأعلى في وصف العدل ان يجدى لدي فيلسوف أمة عرفت بما عرفت به الامة الانجليزية .

قد يكون الاوربيون عادلين في أحكامهم الفردية اذا حكموا بين رعاياهم . ولكنهم في أحكامهم على أبناء الأمم الأخرى لا يعدلون كذلك حكمهم في المسائل الدولية خال من العدل . فقد فرهندي اسمه سافاركار الى فرنسا وسيج في الماء من خارج ثغر مرسيليا الى أن وصل الي الميناء واستغاث بالشرطة الفرنسية وهو يصرخ عالياً ويقول « لاجى سيامى ا »

وخلفه ديدبان الإنجليزي يقول « لص فارا » .

ولم يكن سافاركار لصاً ولا سارقاً ، إنما كان مقبوضاً عليه في تهمة سياسية ، وكان منقولاً على ظهر باخرة إنجليزية الى الهند ، فلما بلغ ثغر مرسيليا انتبز الفرصة وفر ظناً منه أن فرنسا تنفذه بحكم القانون الدولي . وقد قبضوا عليه وعقدت بشأنه محكمة دولية في لاهاي وأعضاؤها انجليز وفرنسيون وهولنديون . ودافع عن سافاركار محام فرنسي هو الاستاذ جان لونيجه وقدم للمحكمة مذكرة مستوفاة . وكان ذلك في سنة ١٩١٢

وكانت النتيجة أن حكمت تلك المحكمة بتسليم سافاركار الى أعدائه فتسلطوه كما يتسلم القصاب أحد الخراف وحاكموه وحكوا عليه بالنفي المؤبد في جزيرة لا كاديث ملاديث ، حيث عاش بضع سنين

وايست هذه سوى قضية من قضايا لا عدد لها . تدور كلها حول العدل الاوربي وقد عدلت اورو باحثاً في هذه المسألة فنحت مندوبيها القاب شرف لتقنع العالم المتطلع بأنها إنما فصلت في القضية بفضل اجتهادهم ومهارتهم وليس للمجاملة أو للسياسة دخل في الحكم .

فأين العدل وكيف نلتزمه ممن يهيجون ويشورون لا يذاء فرد ويقبلون الارض لجريمة وقعت على مال ثابت أو منقول ، ولا يحركون ساكناً اذا رأوا شعباً بأمره يهلك ويزول من الوجود . بل يقولون عنه « هذه مسألة فيها نظر ! »

يجب أن يكون خلاصنا بأيدينا ، لا بأيدي الغير ، ويجب أن نتظر النجاة من من جهودنا لا من عطف الاجانب . لأن الأجنبي لا يعطف صادقاً ولا يرحم الا بمجاملة في الظاهر وهو في الحقيقة يبطن البغض والكراهية وأكثر منهما .

لشد ما كان تعلق الشرقيين بأسباب النجاة من اوروبا المستعمرة !

فانه عند ما ظهرت اليابان على روسيا سنة ١٩٠٤ ، ومدت انجليترا اليها يدها وضممتها الى الدول العظمى وجعلتها في مصاف المانيا وفرنسا ولم تبال بما ينتج عن ذلك من مغاضبة

امريكا وروسيا ، ظن الشرقيون أن آمالهم أصبحت محصورة في اليابان . فالتجروا اليها يستجدونها . وخطر ببال بعض المفكرين أن اليابان يجب أن تكسب للاسلام وأن لا تبقى فريسة الوثنية فتألمت وفود في مختلف الأقطار الاسلامية وسافرت الى اليابان وألف عالم مسلم كتاباً اسمه « التاج المرصع » في فضائل الاسلام وأهداه الى الميكاكو متسو هيتو . وذهب ضابط مصري اسمه فضلى ونشر في اليابان مجلة للتبشير بالاسلام باللغة الانجليزية . وكان رجلاً ذكياً ويتقن بضع لغات . وقابلته الحكومة اليابانية بالسروور لأنها لم ترض أن تخجل هؤلاء الفضلاء ، وبعد بضع سنين عاد القبطان فضلى بزوجة يابانية ! ولم يسلم ياباني واحد !

وكانت هذه نتيجة متظرة :

لأن الياباني لم ير من دينه سوءاً ليطلقه فان الوثنية وعبادة الاجداد هي التي أوصلته للنصر ، وان لم تكن هي التي أوصلته للنصر ، فهي على كل حال لم تقف عثرة في طريق النهضة القومية فلماذا يتركها ويدين بغيرها ؟ على أن الياباني ليس له عقيدة واحدة بل ان له مجلة عقائد فمنهم البوذي ومنهم الكونوشيموسى ومنهم المسيحي وايس بينهم مسلم واحد وكل دين من هذه الاديان متغلغل في نفوس ذويه منذ مئات السنين فكيف يمكن أن يزول أثره في طرفة عين ليحل محله دين جديد ايس لهم به علم . فضلاً عن أن دوله لم تكن على شئ من القوة بل كانت نهياً لدول اوروبا . لو أن الاسلام ظهر في اليابان في أيام عظمة دوله في الشرق والغرب فربما كان اليابانيون انتحلوه ، ولكن ظهرت دعوته في بلادهم في وقت انحطاط ممالكهم .

وقد غاب عن ذهن هؤلاء المبشرين المسلمين أو المرشدين ان انتقال اليابان من دينهم الى الاسلام كان يحقد عليهم اوروبا ويغنيها ويحنقها . ولا سيما بعض دول الاستعمار الجديدة ، التي نصبت نفسها لمعاداة الاسلام وقهره في سائر أنحاء العالم

ولكن اليابانيين كانوا أكيس من أن يصارحوا المسلمين المبشرين بهذه الحقائق . ولعل أحد هؤلاء الكونتات قال لواحد منهم « أين كنتم قبل ذلك باربعين أو خمسين عاماً ؟

إننا نيقظنا على صوت مدافع الاميرال بيرى الامريكى ، ولذا آمننا بالمدافع . ولو انكم أيقظتمونا على صوت المؤذن لآمننا بكم وبمكة المكرمة . . .

ثم إن المسلمين بالتركستان لجأوا في بلواهم الى حكومة الصين واستنجدوا بها فوجدوا من سن يات سن صدرأ رحبا ، وقال في أحد كتبه «انه لا ينسب ما فعله المسلمون لخوازم البوذيين في سبيل اثورة ضد أسرة مندشو » ووعدهم بالحرية والمعونة . وفي الحقيقة ان الاسلام متغملقل في الصين . والمسلم الصيني أرقى من المسلم الوثنى . ولهم غنى وثروة . وقد سالت معهم حكومات الصين مسالك شتى فكما كانت الاسلام صولة في العالم عاملتهم حكومة الصين معاملة حسنة قريبة من العادلة فاذا مال ميزان الاسلام في العالم أرهقتهم وعاملتهم بالقسوة .

فان الصين بعد أن استولت على تركستان الشرقية ارتكبت أنواع المظالم لايجاد النظام واستتباب السكينة في انحاء البلاد ، ودبرت شؤونها في تلك البلاد بالسلطة المطلقة بواسطة حاكم عام عسكري مستبد يقيم في أوردمجى وهو مطلق التصرف في حكومة البلاد لارقيب عليه ولا محاسب . ورجال الحكومة من البوذيين والاقايم مسلمة ورجال الحكم كالذئاب الجائعة نحو الشعب المتقيد كالغنم .

ولا تزال المحاكم تصدر أحكاماً استبدادية كالتى كانت تصدر في القرون الوسطى من تعذيب وضرب بالسياط وضغط الاعضاء وقطعها وكيها بالزيت المغلي وكنم الانفاس وقطع الرقاب بالسيف والشنق والسجن في سجون ضيقة مظلمة لاهواء فيها ولاضياء ويظهر أن حكومة الحزب الوطني الصينى تعلم كل مايقع في تركستان الشرقية من الظلم على الرعايا المسلمين ولكنها وجدت منفعتها في الاتفاق مع الحاكم المطلق وتركت له البلاد اقطاعاً والتزاماً مقابل مبلغ من المال وانغمضت عينها عنه .

وقد حكمت احدي محاكم تركستان على السيد منصور خان بالضرب الشديد ألف ضربة والاشغال الشاقة خمسة أشهر لانه ألنى خطبة على جماعة من أهل وطنه

ومن المصائب ان تلك البلاد لم تصدر فيها جريدة ولا كتاب ولم يطبع بها صحيفة منذ اختراع الطباعة في العالم ولم تؤسس بها مدرسة نظامية ولا مصرف ولا مستشفى واذا ضبط أحد الشبان وهو يقرأ جريدة يلقي عليه التبعض ويسجن واذا هاجر أحدهم الى الشرق أو الغرب وتعلم ثم عاد الى وطنه لا يمكنه الانتفاع بعلمه وان حاول الاصلاح يلقي به في غيابة السجن ان لم يشفق أو تزهد روحه بكم أنفاسه كتباً مادياً لا كتباً معنوياً .

وغاية الحاكم المطلق معلومة فهو يريد استبقاء ذلك الشعب في الجهل والعمى تخليداً لحكم الصين حتى تموت الامة فلا تقوم لها قائمة

ولما كان الحج من فرائض الدين الاسلامي فان الحكومة تمنعه وتضيق على الراغبين فيه بكل الوسائل وتعوق الالوف من المستطيعين ولم تسمح في سنة ١٣٤٩ الاربعة مائتين من عشرات الالوف التي رغبت فيه . وهذا رغبة منها في عدم اختلاط الحجاج التركستاني باهالي البلاد الشرقية الاخرى من المسلمين الذين يقصدون الحجاز في كل عام .

لقد رأينا الاستعمار في الشرق يحاول كم أفواهنا بكل الوسائل ، ورأيناهم يتفنون في القرنين التاسع عشر والعشرين في منعنا عن العلم والنور وهم هم المتحضرون المتمدنون الذين يدعون خلافة الله في ملكه وحمل مشاعل الانسانية والوصاية على الأمم المستضعفة وضحجنا وصرخنا وهاجرنا وضحقنا بهم ذرعا وحملنا فضائحهم الى بلادهم في مؤتمرات عقدناها وحق نشرناها وكتب الفناها ووفود أوفدناها . فلم يجد شيء من ذلك نفعا !

ونحن على حافة أوروبا وفي سرية العالم المتمدن وليس يدتنا وبين لندن وباريس وبرلين ونيويورك حجاب وما زلنا نصرخ ونستغيث فما بالك بأمة شرقية مسلمة خيم عليها الجهل والظلم في أواسط آسيا ! وسكانها ضعف سكان كل من سويسرا وهولندا وبلجيكا أليس حظ هؤلاء الاخوان في الدين سيئاً .

الاتحرك الشفقة في قلوبنا نحوهم ونحو بلادهم ؟ الانرثي لهم ؟ الا يستحقون

عنايتنا ؟



أمة تعيش فى هذا الجيل ، تحت أنظمة القرون الوسطى وتحنق جهاراً أفلا يأمق  
 بالعالم الاسلامى أن يضح ويصخب فى سبيل معوتها واقفاذاها أو على الأقل تخفيف ويلاتها؟  
 ومع هذا كله رأيت ذلك السورى المسيحي الفاضل الذي يدافع عن وطنه الذي تحمكه  
 فرنسا المتمدنة يقول لى : لقد أزعجنا شوكت على بقوله ، الاسلام فى خطر ! ان الاسلام فى  
 حرز حريز ، وهو فى أفئدتنا مصون محترم ، ان الاسلام ليس فى خطر ، ولكن الامم  
 الاسلامية هى التى فى خطر ! .

فسكت ، ونظرت اليه ، وعجبت ! فاذا أقول له ؟ ان الاسلام ليس هو الكتب  
 المنزلة وليس هو حديث البخارى ولا فقه مالك ولا الكتب الستة ولا مذهب ابن حنبل ،  
 هذا الاسلام المكتوب والمدون ليس فى خطر ولا يمكن أن يكون فى خطر ، وإنما المقصود  
 بالاسلام هو أممه وشعوبه ياسيدى المعارض ان المجاز جاز فى اللغة ، ليس شوكت على (١) وحده  
 هو الذى يقول ان الاسلام فى خطر ولكنى أنا وكل مسلم وكل شرقي وكل مسيحي نشأ فى مدينة  
 الاسلام واستظل بها يقول عند ما يقف على حاضر الاسلام : ان الاسلام فى خطر وانها لكلمة  
 وجيزة يقصد بها ان الأمم الاسلامية فى أنحاء العالم فى خطر وفى ألف خطر . فاذا يفضيك  
 أنت وماذا يهتك وماذا يزجحك ؟ وأي شئ قدمته الاسلام وأية أمة شرقية دافعت عنها غير  
 أمك منذ احتلتها فرنسا تلك التى كان فريق منكم يسميها « الأم الحنون » ألم تدعوا  
 انحداركم من اصلاب الصليبيين فما هي الأم الحنون ! وها هي بنت الكاثوليكية البكر  
 تحمككم ، أفليست سور يا الآن فى خطر ؟ فاذا يضيرك أن يقول شوكت على الاسلام فى  
 خطر ، ان لم تكن بقية تعصب فى نفسك وكره منك أن تسمع صوت من يريد اغاثة  
 تلك الأمم . استمع اخوانى السورىين معذرة ولا سيما المخلصين منهم .

ان المسألة الشرقية ، التى تشعبت قبيل الحرب العظمى وبعدها ، فصارت « مسائل

(١) كتبنا هذه النبذة واقتبسنا كلمة شوكت على قبل أن تكشف لنا الايام حقيقته ، على  
 أننا نشد الحقيقة ونلتقطها انى وجدناها بقطع النظر عن شخص قائلها .

«الشرق» ، أصبحت لاتهم الشرق وحده ، بل تمهم العالم أجمع ، ولا سيما بعد يقظة الشرق ، وتنبه أفكار شعوبه ، وانجهاها نحو النهوض في الحسب عاماً المنصرمة .

لناقول ان الشرق نهض أو ان الاسلام تيقظ ، لأن في هذا القول مبالغة واغراقاً ، ولكن نقول في الشرق والاسلام بداية تنبه ويقظة ، وظهور رغبة في النهوض ، كالنائم الذي يفتح عينيه ، وينفض عن أجفانه آثار الكرى . فان بينه وبين اليقظة التامة ، والنهوض الكامل ، مسافة طويلة ، فهذه بداية الأمل وأول مظهر لنور الفجر الصادق ، وبيننا وبين تحقيق الأمل والانتفاع بالنور ، جهود ، يجب أن تبذل ، وعقبات ينبغي أن تقهر ، وصعوبات يتحتم التغلب عليها .

الشرق والاسلام والعرب ، في حاجة الى العلم والعمل ، وفي حاجة الى تشكيلات ومؤسست ومناهج وخطط ، سلمية وعلمية ، وفي حاجة الى اصلاح اجتماعي ، ونهضة اقتصادية ، وتدريب سياسي ، لأن العظمة لاتنال بالأمانى والحقوق لانسرد بالقول ، مهما كان بليغاً أو صادقاً ! وكل من يقول غير ذلك أو دونه يكون مخطئاً أو متعجلاً ، كفانا الله شر الخطأ والعجلة !

والشرق في حاجة الى زعماء مخلصين ، يقدرون الزعامة قدرها ، ويعملون بنيات سلمية ، ومقاصد شريفة ، دون مراعاة لمصالحهم الشخصية ، بل يفضلون المنفعة العامة على منافعهم ومنافع ذويهم ، وان يكونوا مع ذلك منورين ، ذوى شجاعة واقدام ، وأهل بصيرة وتؤدة . ويجب على المسلمين من أهل الشرق ، أن يتمسكوا بدينهم ، ولا سيما بما كان منه ذا مساس بالاجتماع والسياسة ، والاقتصاد ، بعد أن ثبتت للعلا حكمة هذه المبادئ وصلاحها لكل زمان ومكان ، وأن لا ينسوا أن الاسلام قانون وحضارة ، وأخلاق ونظم اجتماعية ، واصلاح ، ترمى جميعها الى سعادة الانسانية ، كل ذلك بقدر ما فيه من عبادات وعقائد . ولا يغيب عن أذهان المسلمين حتى النورين منهم ، والمقلدين للغربيين ، ان أهل اوربا متمسكون بدينهم التمسك كله ، ولو دانوا بالاسلام من قديم ، ماهجره كما هجره ذووه . ويجب أن يكون الحب ديننا الأعظم ، ورائدنا في أفكارنا وأعمالنا ، فان دين

الاسلام في جوهره قائم على حب الانسانية والبر بها والاحسان اليها . ينبغي لنا أن نحب الناس ونصفح عنهم ونستغفر لهم لنقنعهم بدين الحب ليؤمنوا به . ويتحلوا بجماله وجلاله .  
ويجب أن نبغض العنف وأن لانابل الشر بمثله ، فان الحب والخير قوتان خالدتان وهما من روح الرحمن ، كما أن البغض والشر مولان للتخريب وهما من خبث الشيطان ووسوسته .  
ويجب علينا أن نستغنى بالمباديء الثابتة في اديننا المنزلة بالاحسان والمعونة والبر ومكارم الأخلاق ، ففيها كفايتنا وأن ننبذ كل ما يبدو لنا فاتناً أو جذاباً مما يزينه لنا أهل الغش والذفاق وأن نحذر الوقوع في هوة روسيا الشيوعية فانها لا تختلف عن روسيا القيصرية في عداوتها للشرق والاسلام . واذا مدت اوروبا ايديها اليها مصالحة على قاعدة المساواة والاخاء والحب الانساني والعمل لخير الجميع ، حق علينا أن نمد لها ايدينا لتعاون معها على الاصلاح وتحرير الدنيا من قيود الفاقة والظلم والجهل والعبودية . فان الشرق يريد الوفاق مع الغرب على أساس المساواة والعدل والاخاء ولا تنس أن انجلترا حالفت اليابان بعد أن أثبتت أمة الشمس المشرقة قدرتها على الكفاح في ميدان الوجود . ويجب علينا أن نؤلف عصبة أمم شرقية للاتحاد واوروبا على الخير والمحبة فان المستقبل لله والوحدة الانسانية في الشرق والغرب .  
وقد جاءت في القرآن الشريف آيات مجيدة تنبيء بهذه المبادئ العامة السامية لأنها من أسس الحياة العالمية كقوله جل جلالته :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْآيَةَ ﴿سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ﴾  
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿سُورَةُ الْحَجَرَاتِ﴾  
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿سُورَةُ الْمَائِدَةِ﴾

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ

وَوَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

## مراجع الكتاب « حياة الشرق »

- | عنوان الكتاب                             | اسم مؤلفه         | مكان الطبع وتاريخه       |
|--|-------------------|--------------------------|
| (١) تونس الشاهدة بالفرنسية               | الاستاذ الثعالبي  | طبع باريس سنة ١٩٢١       |
| (٢) أم القرى                             | للكواكبي          | « مصر سنة ١٨٩٩           |
| (٣) طبائع الاستبداد                      | «                 | « » « ١٩٠٠               |
| (٤) تاريخ الشيخ محمد عبده ٣ أجزاء        | للشيخ رشيد رضا    | « » « ١٩٠٤-١٩٣١          |
| (٥) تاريخ الثورة العربية والهند والسودان | لبلنت ٣ كتب       | « لندن » « ١٩٠٧-١٩٢١     |
| (٦) الثورة في الصحراء انجليزي            | كولونيل لورنس     | « » « ١٩٢٥               |
| (٧) في بلاد العرب                        | فيلبي             | « » « ١٩٢٠               |
| (٨) حاضر العالم الاسلامي                 | ستودارد           | « نيويورك ١٩٢٥           |
| (٩) مؤلفات الأمير شكيب ارسلان ومقالاته   | الامير ارسلان     | « مصر ولوزان وغيرهما     |
| (١٠) امنا الهند انجليزي                  | تأليف كاترين مايو | « نيويورك ولندن سنة ١٩٢٥ |
| (١١) مركز مصر والسودان فرنسي             | چول كوشري         | « باريس سنة ١٩٠٣         |
| (١٢) أقوم المسالك                        | خير الدين التونسي | « تونس » ١٨٧٠            |
| (١٣) ماهنالك                             | ابراهيم المويلحي  | « مصر » ١٨٩٧             |
| (١٤) القضية العراقية                     | للشيخ مهدي البصير | « بغداد » ١٩٢٥           |
| (١٥) تاريخ مشاهير الشرق                  | جورجي زيدان       | « مصر » ١٩٠٨             |
| (١٦) الشمس المشرقة ودفاع المصري عن بلاده | مصطفى كامل        | « » « ١٩٠٥               |
| (١٧) المفكرون في الاسلام فرنسي ٥ ج       | كاراديثو          | « باريس سنة ١٩١٠-١٩٢٠    |
| (١٨) تحرير المرأة والمرأة الجديدة        | قاسم امين         | « مصر » ١٩٠٠-١٩٠٨        |

عنوان الكتاب	اسم مؤلفه	مكان الطبع وتاريخه
(١٩) وجيز في تاريخ العالم انجليزي	ج . ٥٠ . ولز	طبع لندن سنة ١٩٢٠
(٢٠) تاريخ الثورة الفارسية انجليزي	ادوارد براون	« لندن » ١٩٠٩
(٢١) « « « عربي	ميرزا رفيع مشكي	« مصر » ١٩٢٣
(٢٢) ترجمة مقالات هانوتو	محمد مسعود	« المؤيد » ١٨٩٩
(٢٣) أخبار الاسلام (ايطالي)	ليون كاتاني	« روما سنة ١٩٠٨
(٢٤) غاندي وراماكريشنا فرنسي	رومان رولان	« باريس » ١٩٢٤-١٩٣٠
(٢٥) تاريخ بوذا فرنسي	اولدنبرج	« « « ١٩٢٨
(٢٦) سياحة في بلاد العرب ٢ ج	لاأمين الريحاني	« بيروت » ١٩٢٤
(٢٧) ملوك العرب ٢ ج	« « « «	« « « ١٩٢٧
(٢٨) العالم الاسلامي امام الحروب الصليبية الجديدة اوچين ينج	« باريس » ١٩٣١	
(٢٩) الشرق العربي	المرحوم جبرضوط	« مصر » ١٩١٠
(٣٠) دائرة المعارف البريطانية	المطبوعة العاشرة	« لندن » ١٩٠٨
(٣١) مجلة الأمة العربية فرنسوية	الأمير شيكيب والجابري	« جنيف » ١٩٣٢
(٣٢) الهند الجديدة انجليزي	هنري كوتون	« لندن » ١٩٠٨
(٣٣) تاريخ ولاية بغداد فرنسي	نجيب شيخه	« مصر » ١٩٠٨
(٣٤) حرب العراق عربي	جنرال تونزند	« بغداد » ١٩٢٤
(٣٥) أعمال المؤتمر العربي بباريس	عمل أعضائه	« مصر » ١٩١٣
(٣٦) المرأة المصرية « فيه سليمة »	حرم رشدي باشا	« « « ١٩٠٧
(٣٧) المرأة المصرية في الثورة	حرم دكتور سليم فهجي	« باريس » ١٩٢٠
(٣٨) تقارير عن مصر والسودان	كرومر	« لندن عشر سنوات

عنوان الكتاب	اسم مؤلفه	مكان الطبع وتاريخه
(٣٩) تاريخ الحرب الكبرى	جريدة التيمس	طبع لندن سنة ١٩١٤-١٩١٨
(٤٠) المسألة المصرية انجليزي	فالتين شيرول	» » » ١٩٢١
(٤١) مؤلفات وتقارير	بريلسفور ودكتور بلفور	» مصر ولندن سنة ١٩١٩
(٤٢) الامتيازات الأجنبية	دوروزاس	» باريس ١٩١٩
(٤٣) السلم بالتضامن الدولي	ليون بورچواه	» باريس سنة ١٩١٤
(٤٤) تقرير عن المخدرات بمصر	رسل باشا	» مصر « ١٩٢٩-١٩٣٠
(٤٥) عظمة بريطانيا الماني	كبيرت ريزلر	» برلين سنة ١٩١٥
(٤٦) سياسة الاحرار انجليزي	سير هيرت صمويل	» لندن « ١٩٢٠
(٤٧) عام بين القرس	ادوارد براون	» اكسفورد « ١٩٢٧
(٤٨) قيص من نار تركي	خالده أديب	» اصطمبول « ١٩٢٠
(٤٩) مجلة يورو بدور	محمد الهاشمي التونسي	» بتاوى « ١٩٢١
(٥٠) تاريخ السلطان عبد الحميد انجليزي	سلسلة أبطال الأمم	» لندن « ١٩٢٠

وكتب أخرى جري ذكرها في الكتاب لدي الاستشهاد بها أو الاقتباس منها .  
ومجلات عربية وأجنبية وجراند يومية ببضع لغات مثل ما يأتي :

المؤيد - اللواء - الاهرام - الشورى - البلاغ - مطبوعات دار الهلال -  
السياسة - المقتطف ... الخ

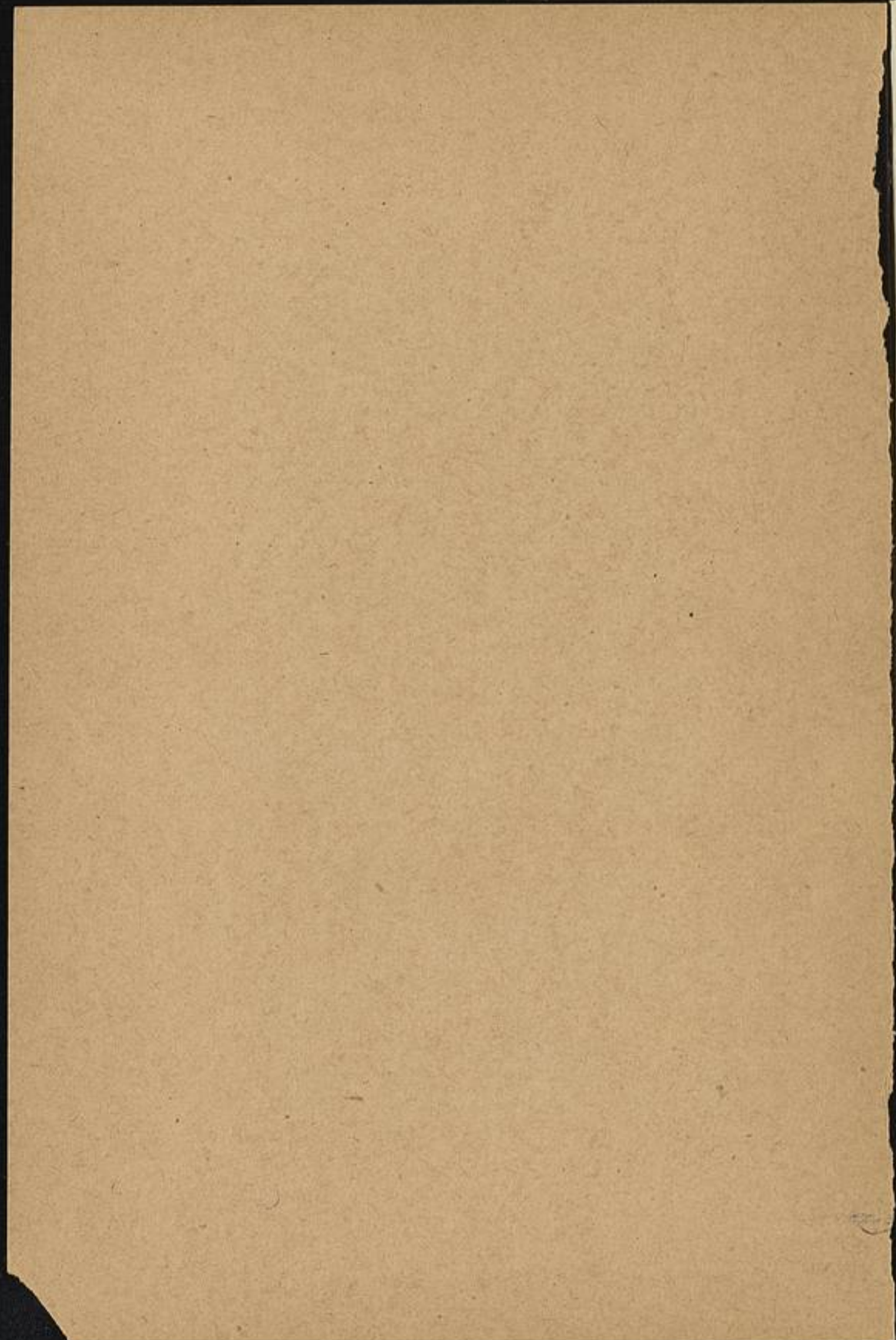
التيمس - الطان - جى سوي پارتو ... الخ

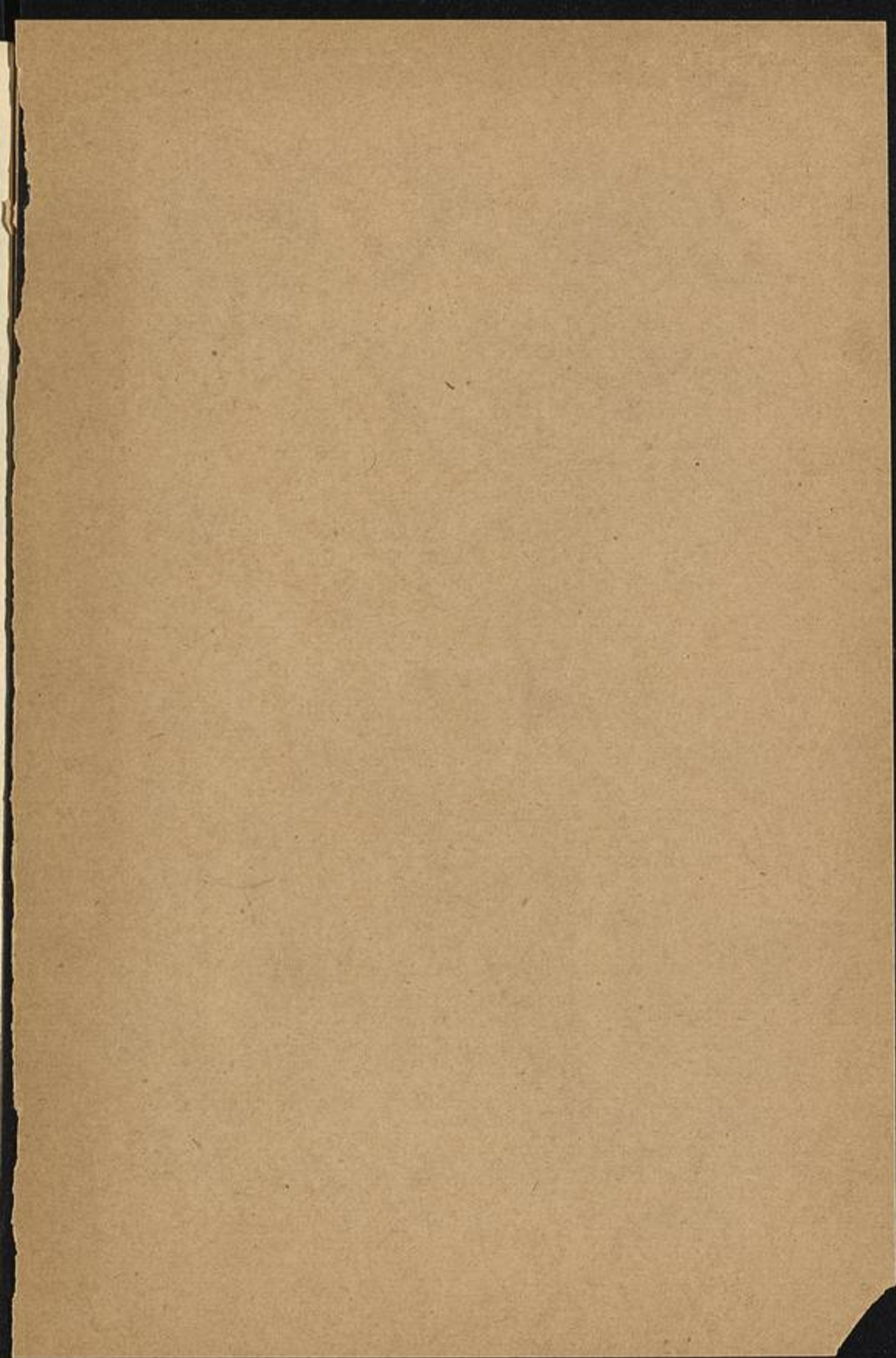
## فهرست كتاب « حياة الشرق »

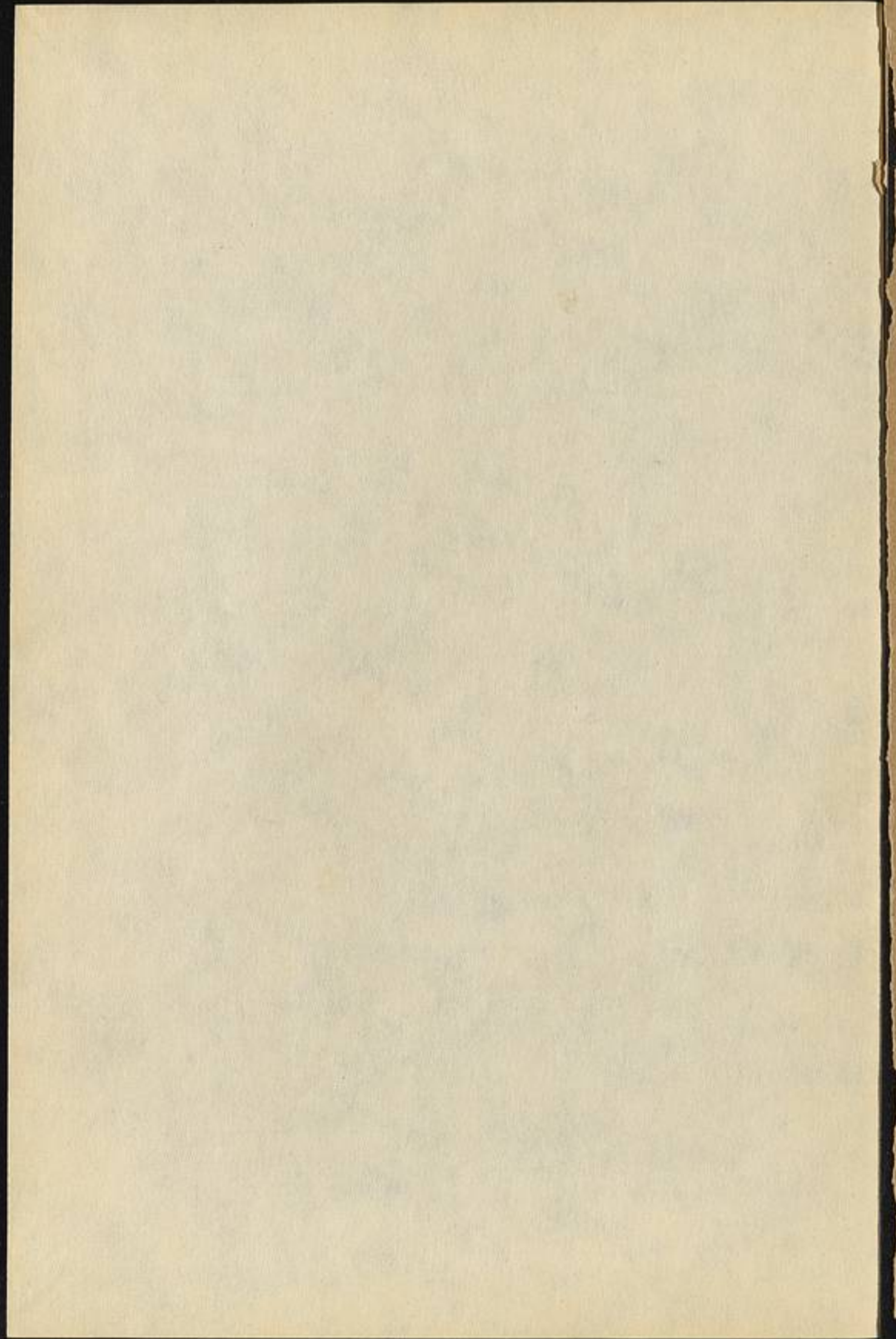
المقاصد	الفصول	من صفحة الي صفحة	جوهر المقصد
المقدمة		٣ — ٢٤	في بيان حالة العالم وآمال الشرق في المستقبل
١	٦	١ — ١٩	الزعماء في الشرق
٢	٧	٢٠ — ٣٤	الطبقات الاجتماعية في الشرق وبعض الفرق بين الشرق والغرب والنظرية السبعية
٣	٤	٣٥ — ٤٣	بعض أسباب تأخر الاسلام وبعض شعوب الشرق
٤	٢	٤٤ — ٤٨	تألب اورو باعلى تركيا وهجومها وتو على الاسلام
٥	٨	٩ — ٦٧	الأدين في الشرق وتحول بعض شعوب العالم عن المعتقدات
٦	٣	٦٨ — ٧٥	اورو باتهاجم الشرق في دينه وروسيا تضطهد مسلمي تركستان والقوقاز والاورال
٧	٤	٧٦ — ٨٦	الشرق العربي بيان طبيعته وأهله وخيراته
٨	٨	٧٧ — ١٠٢	سبب انحطاط العرب وتاريخ الدولة البحرية لاسلامية العظمي
٩	٥	١٠٣ — ١١٣	مبارك الصباح وخزعل وسوء الذكرى
١٠	٥	١١٤ — ١٢٣	المرأة المصرية والسياسة وخطة دنلوب في التعليم وكيف نجحت
١١	٦	١٢٤ — ١٣٤	الاستعمار في الشرق وخطة فرانس في تونس
١٢	٣	١٣٥ — ١٤١	التنافس في الشرق والحالتان السياسية والاقتصادية
١٣	٦	١٤٢ — ١٦٢	الامتيازات الاجنبية، الغرب يهاجم الشرق ببضائعه

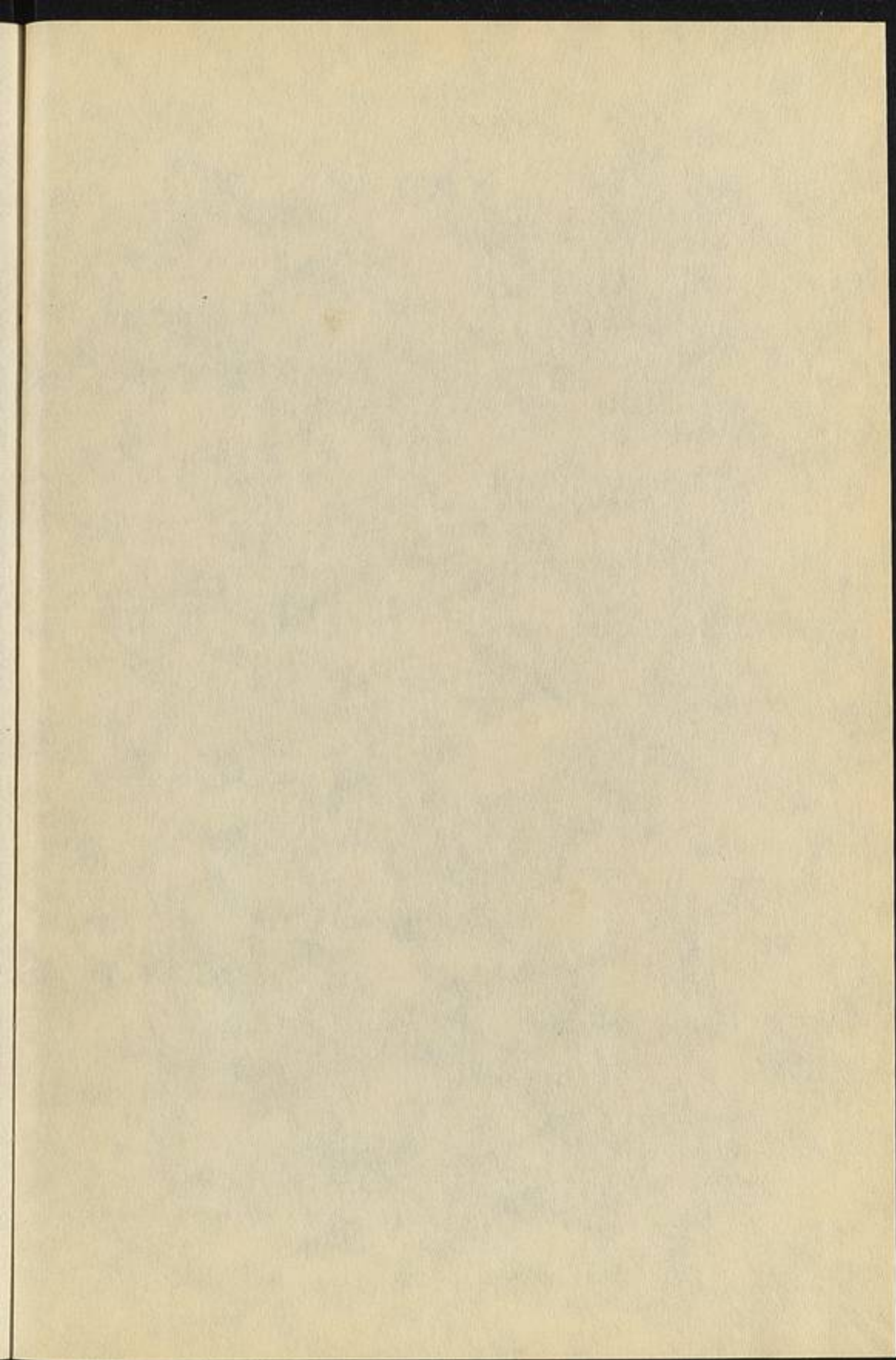
المقاصد الفصول	من صفحة الى صفحة	جوهر المقصد
١٤	٤	١٦٣ - ١٧١ مصر بلد أغنته الطبيعة والمصريون قوم أفقروا أنفسهم
١٥	٣	١٧٢ - ١٨٤ نظريات الاستعمار وتطور الامبراطورية
١٦	٣	١٨٥ - ١٩١ تاريخ الفرس ونهضتها
١٧	٤	١٩٢ - ١٩٨ امنا الهند
١٨	٧	١٩٩ - ٢١٩ محمد علي وأخوه شوكت
١٩	٧	٢٢٠ - ٢٣٦ أسباب الانشقاق بين الترك والعرب
٢٠	٣	٢٣٧ - ٢٤٥ بعض اسباب انحلال الدولة العثمانية
٢١	٥	٢٤٦ - ٢٦٠ الحركة العربية والخلافة
٢٢	٤	٢٦١ - ٢٧٠ السياسة الاوروبية في بلاد العرب
٢٣	٧	٢٧١ - ٢٩٠ العراق قديماً وحديثاً
٢٤	٥	٢٩١ - ٣٠٦ العرب والعراق والمندوبون السامون وجمالة الملك فيصل
٢٥	٧	٣٠٧ - ٣٢٤ افريقيا والاسلام والاستعمار
٢٦	٦	٣٢٥ - ٣٤٨ الحلف العربي قديماً وحديثاً
٢٧	٣	٣٤٩ - ٣٥٥ الحلفاء بعد الحرب يفتسمون الغنيمة
٢٨	٣	٣٥٦ - ٣٦٥ اندونيسيا وجزر الشرق الهندية والاستعمار الهولاندي
خاتمة		٣٦٦ - ٣٧٩ نظرة عامة وخلاصة رأى المؤلف
		٣٨٠ - ٣٨٢ مراجع كتاب « حياة الشرق »
		٣٨٣ - ٣٨٤ فهرست كتاب « حياة الشرق »

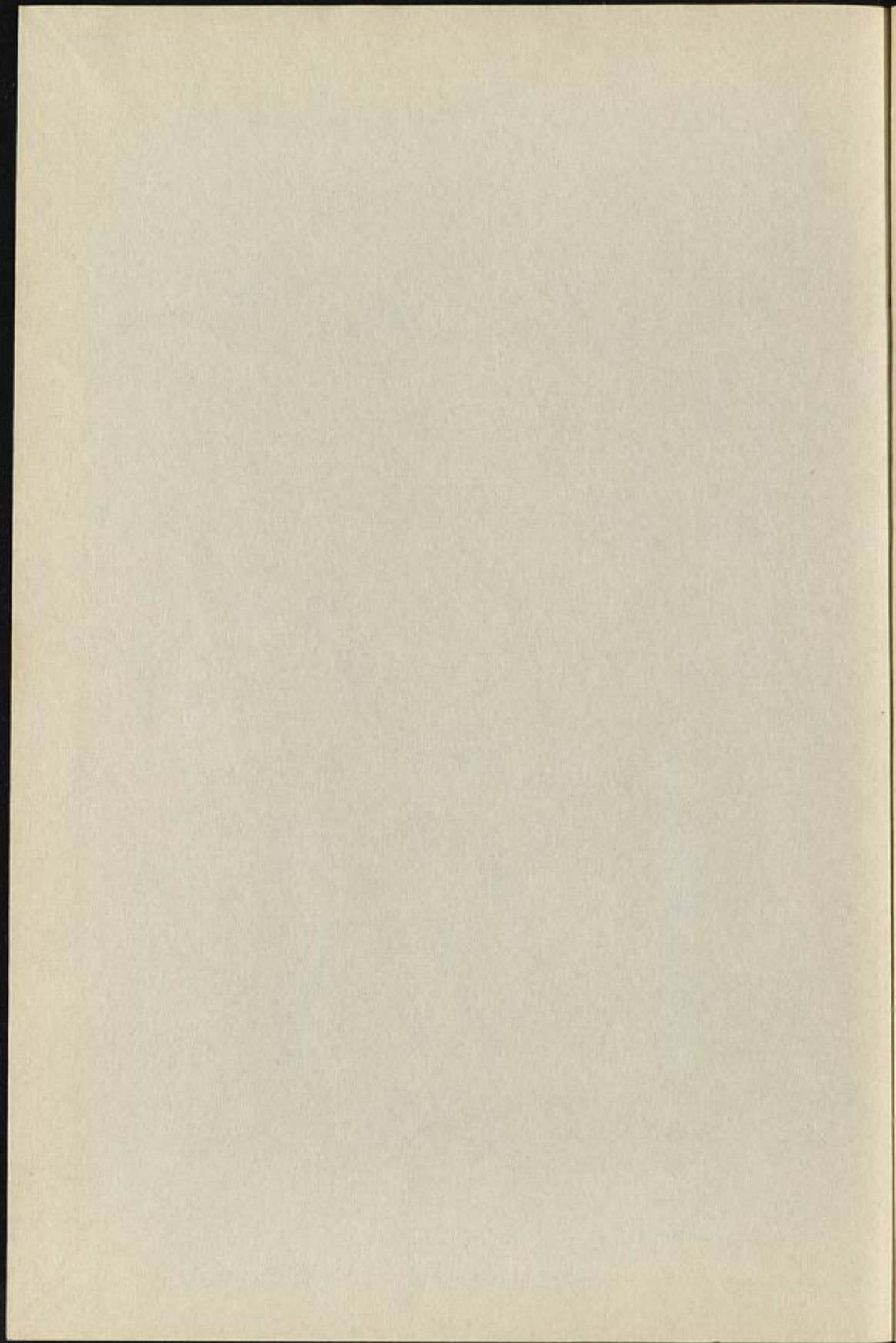


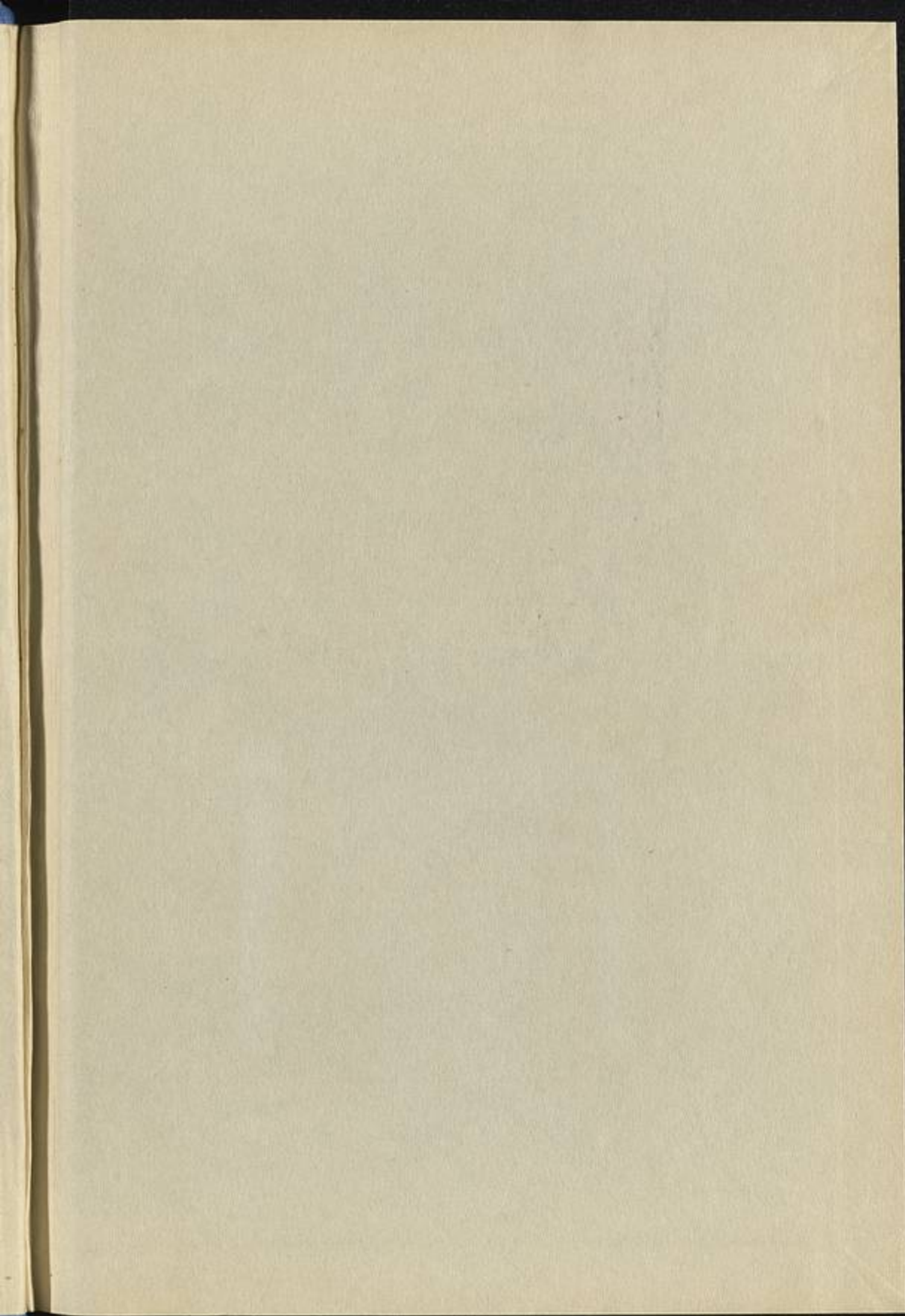












COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0069171858

FEB

8 1954

956

J95

